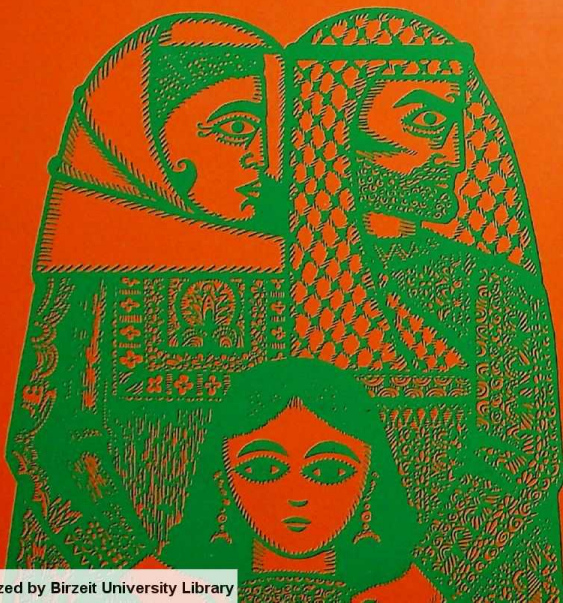


الكتاب الفلسطيني

العدد ٢٢ شتاء ١٩٩١ ن ٢ - شباط - آذار





الكتاب الفلسطيني

هيئة التحرير:

د. باسم سرحان
جابر سليمان
حمزة برقلاوي
خالد ابو خالد
د. صبري حلاوه
عبد الرحمن غنيم
د. عبد الرحمن كياني
عوني الصادق
فايز قنديل
فضل شرورو
د. كمال الخالدي
مصطفى الحلاج
ناجي علوش
نزيه ابو نضال
هاني مندس

الإشراف الفني:
محمود خليلي

العدد ٢٢ شتاء ١٩٩١ ك٢ - شباط - آذار

مجلة فصلية تصدر عن
الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
لجنة العمل النقابية

الآراء الواردة لاتعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير

الاشتراكات السنوية

للأفراد: - سوريا ولبنان ١٥٠ ل.س.
- بقية الاقطار العربية ٢٥٠ ل.س.
- اقطار العالم ٢٥٠ دولار
للمؤسسات: ٥٠٠ دولار

الفهرست

كلمة الكاتب

- فلسطين: ومهات مرحلة مابعد حرب الخليج ٤

مقالات ودراسات

- الصواريخ (أرض - أرض) في منطقة الشرق الأوسط أمين عطايا - ٧
- التغير البيئي في العلاقات الأسرية الفلسطينية د. باسم سرحان - ١٥
- الاسلام السياسي ومستقبل السلطة والديمقراطية في الجزائر توفيق المديني - ٣٠
- عقلية الجماهير في مواجهة افرازات عقلية التسوية جهاد الرنتيسي - ٤٢
- ربيع الامم مايكل هوارد - ٤٦
- يهود الخزر ودورهم العدائي التاريخي حكمت بلعوي - ٥٨
- اليهود المغاربة في اسرائيل سليم الجنيدى - ٧٥
- الهجرة اليهودية - بداية وجود ونهاية أمل د. عبد الله محمود حسين - ٩٢
- الاعلام الفلسطيني المعاصر وصناعة الوعي الزائف عوني صادق - ١١٥
- المتغيرات السوفياتية والصراع العربي - الصهيوني منير الخطيب - ١٢٥

تاريخ وتراث

- من كتاب صفحات عن حيفا ومعركتها الأخيرة الشيخ عبد الرحمن مراد - ١٣١
- المعتقدات الشعبية العربية الفلسطينية محمد خالد رمضان - ١٤٦

ادب ونقد

- مقاربات الصورة والقناع أحمد الفيتوري - ١٥٥
- قراءة في نص غالب هلسا الروائي نائر يوسف - ١٦٢
- التجديد ومظاهره في شعر عمر أبي ريشة د. جميل علوش - ١٧١
- الطاهر وطار ورواية عرس بقل شمس الدين موسى - ١٨١
- دراسة في نماذج من شعر الانتفاضة عروبة حموي - ١٨٧
- الشاشة الوثائقية - آفاق انسانية د. علاء الدين الشعار - ١٩٧

قصة

- اعلام صغيرة د. أحمد زياد عجبك - ٢٠٥
- زقزقة العصافير الطليقة حسن سعد الدين - ٢٠٩
- الخضة حسيب كيالي - ٢١٢
- حكاية غيمة (١) راحب صبحي كردي - ٢١٩
- الخوف عامر الدبك - ٢٣١
- وقائع يوم حافل محمود مفلح البكر - ٢٣٣
- الصبح موعدنا يوسف جاد الحق - ٢٤٢

شعر

- تداعيات لها خليل الداموني - ٢٤٧
- زمان التوحد في البرتقال سمير الخطيب - ٢٥٠
- خماسية للوصول الى جلفار عثمان حسين - ٢٥٢
- امرأة من برق وماء محمد وحيد علي - ٢٥٤
- ثورة الابطال د. نزار الكيالي - ٢٥٧

حوار

- مع نصري الجوزي طلعت محمود سقيرق - ٢٥٨

شخصيات فلسطينية

- اسعاف الناشئيين ١٨٨٢ - ١٩٤٨ نصري الجوزي - ٢٦٤

كتب

- ظاهرة الهجرة في المجتمع الفلسطيني يوسف حداد - ٢٧١

٢٧٩ - ٣٠٣

وثائق وتقارير

كلمة الكاتب

فلسطين: ومهمات مرحلة ما بعد حرب الخليج

لاشك ان النتائج التي تمخضت عنها ما سمي «حرب الخليج» قد خلقت وقائع جديدة، ستلقي بظلها - إن لم تكن قد التقت فعلاً - على القضية الفلسطينية وعلى مجمل النضال الوطني التحرري العربي ويعتبر رجحان كفة الميزان لصالح القوى الامبريالية - وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية - ولصالح العدو الصهيوني والانظمة الرجعية في المنطقة، امراً سلبياً بالنسبة الى قضيتنا الوطنية الفلسطينية. ذلك ان من شان وضع كهذا ان يساعد على عملية الاجهاز على القوى الديمقراطية العربية، وعلى اثارة النعرات الطائفية والتناقضات القطرية او خلقها، وعلى تعزيز مكانة القوى الاستسلامية ودفعها لابرام صك الاستسلام والرضوخ - بحجة التكيف مع الوقائع الجديدة - وبالتالي تسهيل تنفيذ البرنامج التوسعي الصهيوني. ناهيك ان العمل سينصب على تصفية المقاومة الفلسطينية وانتفاضة شعبنا، بوصفها الحالة التي من شانها ان تشكل العقبة الرئيسية امام تنفيذ مخططات الامبريالية.

وسيجري العمل، ضمن هذا الإطار لتدجين م.ت.ف. أكثر فاكتر لانجاز برنامج التصفية وربما يتوافق مع الحالة السائدة ثم السعي لخلق حالة من الاحباط العام يدفع بالقوى المناهضة للمشروع الامبريالي للاستسلام وبالتالى التخلي عن مشروعها الوطني.

وهنا تجدر الإشارة الى أن الوعود التي قطعتها الولايات المتحدة، وما سمي بقوة التحالف الغربية، لن تجد طريقها الى الحياة الى درجة انه لن يتوقع منها حتى الضغط على الكيان الصهيوني للقبول بتنفيذ قرار مجلس الامن رقم / ٢٤٢ / المعادي اصلاً لمصالح امتنا، والذي لا يحقق الحد الأدنى من المطلب الوطنية. ذلك ان الولايات المتحدة ليست معنية، لا الآن ولا فيما بعد، بفرض أي قرار على «اسرائيل»، بقدر ما هي معنية بتعزيز قدرتها العسكرية ومكلفتها في الاستراتيجية الامبريالية العالمية. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على أن تطبيق الشرعية الدولية لا يعني بالنسبة الى الامبريالية الاميركية سوى تحقيق مصالحها في المنطقة. اما أن تعني الشرعية طريقاً لحق الشعوب في تقرير مصيرها، فهذا ما لا يدخل اطلاقاً في حسابان السياسة الاستعمارية.

ان كل ما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة الاميركية بصدد الصراع العربي - الصهيوني هو توجيه مزيد من الضغط على الانظمة العربية ودفعها للقبول بمطلب الدولة الصهيونية الرئيسية وهي الاعتراف بها وتصفية المقاومة الوطنية الفلسطينية وانهاء حالة الحرب. هذا في الوقت الذي لا تستطيع فيه الدول العربية ولا م.ت.ف. - بسبب ضعفها - ان تمارس أي ضغط مهما كان ضعيفاً، على الحكومة الاميركية او غيرها وانما سيقصر دورها على تقديم التنازلات والمناشدة الاخلاقية التي لن تجدي نفعاً مع عدونا القومي .

من هنا فلننا نعيش مرحلة من اصعب المراحل التي مر بها النضال الوطني التحرري، مرحلة توفير الشروط للاعتراف بالعدو القومي وتنفيذ المشروع الامبريالي الاميركي - الصهيوني. وما حديث الادارة الاميركية عن كون الظروف الراهنة هي افضل الظروف لانجاز «تسوية في المنطقة، ما هو الا حديث عن الظروف الافضل لفرض الاستسلام. امام واقع كهذا، فلن المواجهة لن تكون سهلة بالنسبة للقوى الوطنية الديمقراطية التي تضع نصب اعينها قضية فلسطين وقضية التحرر العربي عامة.

لهذا فلن اولى المهام المطلوب تحقيقها من المعنيين بمصير فلسطين وبمواصلة النضال للتحرر، هي تجاوز حالة الخلل في التوازن الذي هو الآن في صالح القوى المعادية وخلق الشروط الضرورية لاستمرار عملية المقاومة والرفض.

ان هذا يتطلب:

اولاً: خلق حالة من التحالف الوطيد بين جميع القوى الوطنية في الوطن العربي المناهضة للمشروع الامبريالي الصهيوني.

ثانياً: مواصلة النضال لتحرير فلسطين بحشد قوى الجماهير العربية في فلسطين وفي كل ارجاء الوطن العربي وتصعيد المقاومة المسلحة، وكل اشكال النضال وتطوير الانتفاضة في كل الميادين وتوفير اسباب القوة لها.

ثالثاً: اعادة الاعتبار لاهمية وحدة الشعب العربي الفلسطيني النضالية كوحدة قادرة على ابداع وتطوير البنى التنظيمية المناسبة لتحمل اعباء النضال ومواجهة اخطار التصفية والاستسلام. رابعاً: كشف وتعرية السياسة الامبريالية في المنطقة القائمة على الضغوط والسعي للحصول على مزيد من التنازلات.

خامساً: التحرك باتجاه عالمي والبحث عن علاقة جديدة بقوى التحرر في العالم المدافعة عن حق الشعوب في تقرير مصيرها.

انها طريق طويلة ولكن لا بديل عنها اذا ما اردنا لننضالنا ان يستمر ولاهدافنا ان تتحقق.

هيئة التحرير

مسألة باتت مطروحة في الصراع العربي الاسرائيلي

الصواريخ (أرض - أرض) في منطقة الشرق الأوسط وسعي اسرائيل لتحقيق شبكة الدفاع المضاد للصواريخ

المقدم الركن امين عطايا^(*)

مقدمة

بدأت محاولات مصر لامتلاك الصواريخ (أرض / أرض) في الخمسينات، عندما سعت الصناعة الحربية المصرية الى تطوير الصاروخين، القاهر و«الظافر»، مع مجموعة من الخبراء الألمان. بيد أن مصر أوقفت هذا المشروع لأسباب متعددة، واتجهت المحاولات المصرية فيما بعد نحو الحصول على صواريخ أرض - أرض من الاتحاد السوفييتي، وكان الصاروخ «فروغ - ۷» أول صاروخ سوفييتي أرض - أرض يدخل الشرق الأوسط، وينضم إلى تسليح الجيش المصري. وتوالى بعد ذلك وصول الصواريخ أرض - أرض إلى المنطقة، بحيث غدا عدد الدول المسلحة بالصواريخ ست دول (سورية / مصر / العراق / ليبيا / ايران / اسرائيل). وتشير كل المعلومات الى سعي «اسرائيل» للحصول على شبكة دفاعات مضادة للصواريخ، خاصة من الولايات المتحدة، لمواجهة الصواريخ العربية التي أصبحت تطل العنق الاسرائيلي. تتناول هذه الدراسة هذا الموضوع، في نقطتين أساسيتين. تتعرض النقطة الأولى لأنواع الصواريخ، أرض - أرض التي يمتلكها كل من الدول العربية و«اسرائيل» وميزاتها التكتيكية، وتعرض الثانية لشبكة

باحث عسكري من فلسطين.

الدفعات المضادة للصواريخ التي تسمى «اسرائيل» للحصول عليها من الدول الغربية عامة، ومن الولايات المتحدة خاصة، وتأثير هذه الشبكة على ملاقاته خطر الصواريخ العربية، في محاولة منها لتحقيق التفوق المطلق على ساحة الصراع العربي - الاسرائيلي.

أولاً: الصواريخ (أرض - أرض) في الشرق الأوسط:

تدخل كل الصواريخ (أرض - أرض) العاملة في الشرق الأوسط، من وجهة نظر الدول الكبرى، تحت بند الصواريخ التكتيكية قصيرة أو متوسطة المدى، والمعدة لضرب التجمعات المعادية، والأهداف الحيوية في العمق. وبعيداً عن التقسيم الذي تتبعه الدول الكبرى في تصنيف الصواريخ إلى صواريخ تكتيكية (أرض - أرض) قصيرة المدى التي يقل مداها عن (٢٥٠) كلم، ومتوسطة المدى بين (٢٥٠ - ٥٠٠) كلم، وطويل المدى بين (٥٠٠ - ١٠٠٠) كلم، وهذه الأخيرة تعتبر صواريخ تكتيكية عملية. ونظراً لضيق مسرح العمليات، وقلة العمق الاستراتيجي للدول المنطقة، فاننا نسمح لأنفسنا أن نقسمها إلى صواريخ تكتيكية قصيرة المدى التي يقل مداها عن ١٢٥ كلم، وصواريخ عملياتية متوسطة المدى بين (١٢٠ - ٢٨٠) كلم، واستراتيجية وهي التي تتراوح بين (٢٨٠ - ١٠٠٠) كلم، حيث يتبين لنا أن كلا طرفي الصراع العربي والاسرائيلي، يملك هذه الأنواع من الصواريخ، القادرة على ضرب أهداف حيوية في العمق الاستراتيجي العربي والاسرائيلي على «حد سواء» وعلى الرغم من أن هذه الصواريخ مزودة برؤوس تقليدية، فإنه يمكن تزويدها أيضاً برؤوس نووية تكتيكية، كما بإمكانها حمل عبوات كيميائية وبيولوجية، حيث ثبت أن لدى الطرف الاسرائيلي دون مجال للشك رؤوساً نووية وكيميائية لكل الاستخدامات. وبالمقابل يملك الطرف العربي الوسائط الكيميائية التي لا يقل تأثيرها عن تأثير استخدام العبوات النووية.

وأنواع الصواريخ المتوافرة بمعظمها من صنع أمريكي وسوفييتي، بينما الجزء الآخر من صنع دول المنطقة التي تم تصنيعها وتطويرها بمساعدة تقنية خارجية، وأنواع الصواريخ المتوافرة في المنطقة سبعة، من بينها ثلاث صواريخ سوفييتية. وصاروخ أمريكي وصاروخان مصنعان في «اسرائيل» اعتماداً على تكنولوجيا غربية، وصاروخ عراقي. والتي يوضحها الجدول اللاحق^(١):

لقد استخدمت أنواع من هذه الصواريخ في حرب ١٩٧٣، وفي الحروب التي تلتها في المنطقة. في حرب ١٩٧٣ استخدم المصريون (سكاد - ب) لضرب مقرات القيادة ومحطات التشويش الإلكتروني في سيناء إبان القصف التمهيدي (المدفعي - الصاروخي) الذي بدأ في الساعة ٦، ١٥ من صباح يوم ١٤ تشرين الاول ١٩٧٣ كما استخدم هذا النوع من الصواريخ في الحرب العراقية - الايرانية من قبل الطرفين المتحاربين. وفي حرب ١٩٧٣ استخدم السوريون (فروغ - ٧) في قصف القوات الاسرائيلية المحتشدة في سهل الحولة يوم ١٠/٨/١٩٧٣. أما في حرب لبنان عام ١٩٨٢، فقد استخدم الاسرائيليون الصاروخ «زئيف» في منطقة البقاع ضد قواعد الصواريخ (أرض / جو) السورية، حيث تبين أن هذا النوع من

الجدول رقم (١)
أنواع الصواريخ (أرض - أرض) العاملة حالياً في منطقة الشرق الأوسط

تسلسل	الصاروخ	بلد المنشأ	البلدان المستخدمة	التصنيف القتالي	التصنيف المدى (كلم)	وزن الحشوة (كغ)
١	فروغ - 7 (Frog-7)	الاتحاد السوفيتي	مصر، سوريا، العراق، ليبيا	تكتيكي	قصير المدى ٦٠ - ٧٠	؟
٢	سكاد - ب (Scud B) R-17 B	الاتحاد السوفيتي	مصر، سوريا، العراق، ليبيا، إيران	عملياتي	متوسط المدى ١٩٠ - ٢٨٠	؟
٣	س س ٢١ (SS-21)	الاتحاد السوفيتي	سوريا	قصير المدى ١٢٠	١٠٠٠	؟
٤	لانس (النموذج MGM-52C)	الولايات المتحدة	إسرائيل	تكتيكي	قصير المدى ١٢٠	٤٥٤
٥	زئيف (الذئب)	إسرائيل	إسرائيل	تكتيكي	قصير المدى ٦٠	؟
٦	جبركو-٢ (أريحا-٢)	إسرائيل	إسرائيل	استراتيجي	بعيد المدى ١٢٥٠ - ١٤٥٠	٥٠٠
٧	الحسين	العراق	العراق	استراتيجي	بعيد المدى ٨٠٠ - ١٠٠٠	؟
٨	سي - ١ س . اس - ٢	صيني	العربية السعودية			٢٥٠٠ - ٢٠٠٠

الصواريخ مجهزة برؤوس تتبع الإشعاعات المنبعثة من رادارات قواعد الصواريخ أرض / جو، مما يحقق إصابة مؤكدة للهدف.

من الواضح أن امتلاك أطراف الصراع في المنطقة لهذه الأنواع من الصواريخ أرض - أرض، حيث يمكن لها أن تستخدمها في الضربة الأولى، ولحظة بدء الأعمال القتالية أو بعدها، حيث يمكن أن تغطي بأعمالها هذه كامل مسرح العمليات، وبكافة أبعاده التكتيكية والعملياتية والاستراتيجية.

ومن هذه النظرة نرى أن حاجة الأطراف المتحاربة لاستخدام الطيران لأعمال القصف الاستراتيجي للأهداف الحيوية التي تقع في العمق الاستراتيجي، قد تقلص إلى حد كبير، عند امتلاك هذه الأطراف لهذه الأنواع من الصواريخ، إلا أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار، أن الطرف الذي سيبدأ بالضربة الأولى،

والتي لم يتمكن فيها من تدمير المطارات وقواعد صواريخ الدفاع الجوي وقواعد الصواريخ (أرض / أرض) لخصمه سيتعرض لضربة جوية من هذا الخصم تستهدف منشآته الحيوية بما فيها مناطقه السكانية وغيرها. كما إن فشل الضربة الأولى، ستؤدي بالتالي إلى عدم تحقيق السيطرة الجوية المطلقة فوق جبهات القتال بشكل خاص، ومسرح العمليات بشكل عام، مما سيؤدي بالتالي إلى حرب صاروخية متبادلة. بهذا الشكل يمكن القول: إن طبيعة الحرب المقبلة بين العرب و«إسرائيل»، ستشهد نزاعاً بأسلحة كيميائية وإشعاعية مدمرة، خاصة بعد امتلاك كلا طرفي الصراع لهذا النوع من الأسلحة. وستكون نتائجها على الجانب الإسرائيلي أكبر بكثير منها على الجانب العربي. لاسباب عديدة، أهمها: ضيق وضآلة العمق الاستراتيجي الاسرائيلي، والتواجد السكاني الكثيف في منطقة (تل أبيب - يافا - حيفا)، حيث يتواجد في هذه المنطقة أكثر من ٧٠٪ من المستوطنين اليهود في الكيان الصهيوني، كما. توجد في هذه المنطقة معظم الأهداف والمنشآت الحيوية الاسرائيلية. ومن الضروري هنا الإشارة إلى التأثير الردعي المتبادل بين أطراف الصراع، هذا الردع الذي يتسم بالقوة الحاسمة. ولكنه كاف لدفع «إسرائيل» التي تتبنى في اسراتيجتها العسكرية مبدأ الضربة الاستباقية «الضربة الأولى» إلى أخذ كل الأمور المشار إليها سابقاً بعين الاعتبار، عند وضع خططها الاستراتيجية - في حال الإعداد لحرب مستقبلية ضد العرب - على أساس افتتاح الأعمال القتالية بضربة جوية - صاروخية لا تستهدف المطارات وقواعد صواريخ الدفاع الجوي، فحسب، بل يستهدف وبالدرجة الأولى قواعد الصواريخ (أرض - أرض).

إن السعي لتحقيق المتطلبات المذكورة، قاد بشكل منطقي إلى التطور التالي لأسلحة التدمير العادية من الأسلحة الموجهة ذات الدقة العالية (انظمة الصواريخ الموجهة بمختلف أنواعها)، إلى منظومات (الاستطلاع - الضاربة الآنية)، وهذا ما تسعى «إسرائيل» إلى تحقيقه بالبحث والتطوير. في حرب لبنان عام ١٩٨٢، شاهدنا التوسع الرهيب في استخدام «إسرائيل» لمنظومة الأسلحة ذات الدقة العالية، المرتبطة مع منظومة القيادة والسيطرة والاتصالات والاستطلاع المعروفة باسم C-1 باستخدام الحواسيب الالكترونية، حيث تم استخدام هاتين المنظومتين في نظام رئيسي واحد. وبهذا التصميم والتكتيك المتكرر في الاستخدام، استطاعت «إسرائيل» تدمير شبكة الصواريخ م/ط السورية في البقاع، مستغلة التدابير الالكترونية بشكل واسع.

ومن المفيد التنويه بأن منظومة الأسلحة ذات الدقة العالية وتطويرها من خلال دمجها وربطها مع C-1، كانت قد بدأت بها الولايات المتحدة في مرحلة الحرب التي خاضتها قواتها في فيتنام. ومنذ ذلك الوقت، والولايات المتحدة وغيرها من دول الغرب و «إسرائيل» تقوم بعملية تحديث وتعديل جذرية طويلة الأمد لوسائل التدمير المعادية. إن نظام (الاستطلاع - الضارب الآني) يوفر احتياطاً كبيراً لتدمير تلك الأهداف المثبتة، بحيث يمكن لهذا النظام الموحد أن يعمل في وقت متزامن ضمن مبدأ «استطلاع وكشف الأهداف - إغناء وحمل الأهداف بالوسائل الالكترونية - توجيه وقيادة الضربة النارية» وفي ضوء هذا المفهوم، تجري في الولايات المتحدة ودول الغرب و «إسرائيل» أبحاث نشطة في مجال منظومة «الاستطلاع - الضارب الآني» حيث يتبلور في هذه الدول حالياً بناء طرازين من منظومات (الاستطلاع - الضاربة) الطراز الأول، وهو

مخصص للصراع مع وسائل الدفاع الجوي، أما الطراز الثاني، فقد خصص للصراع ضد العتاد، وهذا النظام الأخير عرف في الغرب باسم (Assualt Breaker) أي «المدمر الهجومى».

من هذه الأهمية الاستراتيجية للصواريخ (أرض - أرض)، ومن قدرتها على تهديد العمق الاستراتيجي الاسرائيلي، نبع اهتمام القيادة العسكرية الاسرائيلية على تطوير الوسائل الكفيلة بالتعامل مع الصواريخ وإسقاطها قبل الوصول إلى أهدافها. وهذا ما سوف نتعرض له في الفقرة التالية من هذه الدراسة.

ثانياً: الرد على التهديد العربي: إقامة نظام صواريخ مضادة للصواريخ:

الحقيقة إن صغر حجم الصواريخ التكتيكية (أرض - أرض)، وصعوبة كشفها، وقصر مدة تحليقها، واعتمادها على التوجه بالقصور الذاتي الذي لا يتطلب بشأ رادارياً يمكن كشفه، وعدم القدرة على تشويشها وخذاعها، تضع أمام تطوير أنظمة الدفاع المضاد للصواريخ التكتيكية عقبات تكنولوجية، لم تستطع الدول الكبرى حتى الآن تجاوزها، وهذا ما تسعى «إسرائيل»، بالتعاون مع أمريكا لتجاوزه. إن دولة كاسرائيل، نشأت من خلال مواجهة تاريخية، على الاعتصاب والعدوان والتوسع، وأيضاً على التهديد بالفناء، لا بد لها الآن (في ظل امتلاك العرب للصواريخ القادرة على حمل رؤوس كيميائية إلى العمق الاسرائيلي)، أن تسعى لتكون لديها رموز الحماية المطلقة والاعتماد على الذات.

فالقيادة الاسرائيلية ظلت منذ حرب السويس (عام ١٩٥٦)، تعاني من عقدة التهديد النووي السوفييتي والذي تكرر في حرب ١٩٧٣، ومازال الإنذار بالقصف النووي الذي وجهه المارشال بولغانين إلى «إسرائيل» عام ١٩٥٦ عالقاً في أذهان الاسرائيليين. وعندما تملك إسرائيل الصواريخ حاملة الرؤوس النووية التي يمكن أن تصل إلى جنوب الاتحاد السوفييتي (صاروخ أرمبا - ٢)، وتطال العمق العربي حتى ١٤٠٠ كيلو متر، فانها تعتقد أن ذلك يمكن أن يعطل أي تهديد سوفييتي أو عربي في المستقبل. ويحفظ التوازن دوماً لمصلحتها ويحقق تفوقاً مطلقاً على جيرانها العرب. والآن وبعد أن شاهدت اسرائيل مد التكنولوجيا العسكرية يرتفع في كل مكان لدى العرب. وإن «إسرائيل» في الوقت الحاضر لا تملك إمكانية القدرة على امتصاص هجوم عربي بأسلحة التدمير الشامل، فانها تسعى لإيجاد الحل. وفي الوقت الحاضر يتابع بعض الاسرائيليين نقاشهم، ويعملون على وضع (السيناريوهات) عن حرب نووية عربية - اسرائيلية، على الطريقة الأمريكية ذاتها، حيث يفترض بعضهم خطر الضربة الأولى على شريط أراضي لا يتجاوز ١٥ كلم، ويتجمع فيه أكثر من ٧٠٪ من يهود «إسرائيل»، فيما يرى آخرون أن هذا العامل يفترض إعادة النظر في توطين اليهود في المناطق المحتملة (عام ١٩٦٧) حتى يبقى هناك من يقاتل بعد الضربة العربية الأولى. ويقترح آخرون البدء فوراً لحفر الخنادق وإعداد الملاجئ، والعمل على إجراءات الحماية السلبية لحرب نووية - كيميائية قادمة.

إلا أن «إسرائيل» يجب أن تأخذ بالحسبان إعادة النظر في عدة حقائق أساسية هي: إن اسرائيل لن

تملك الإمكانية المطلقة على امتصاص هجوم عربي عليها بأسلحة التدمير الشامل، إذ يكفي عدة صواريخ تلقى على «إسرائيل» أن تقضي على الدولة والمجتمع الإسرائيلي لفترة طويلة، ولا تملك «إسرائيل» إمكانية دفاع سلمي ضد هجوم كهذا - إن إقامة مجموعة دفاع جوي مضاد للصواريخ نشط وفعال ضد القصف العربي، لا يمكن أن يكون فعالاً ٠.٠٪، لأن المدى الذي يجب أن يتجاوزه الصاروخ الحامل رأساً نووياً أو كيميائية هو مدى قصير جداً.

والآن بعد هذه المقدمة التي لا بد منها لتتابع جهود «إسرائيل» في الحصول على شبكة دفاعات مضادة للصواريخ التكتيكية، ولنر المدى الذي وصلت فيه «إسرائيل» في هذا المجال بالتعاون مع الولايات المتحدة، والتي ابتدأت في بداية عقد الثمانينات.

يبدو أن مبادرة الدفاع الاستراتيجي الأمريكية المركزة بشكل أساسي على اعتراض الأقمار الصناعية والصواريخ البالية النووية متوسطة المدى والعبارة للقارات، لم تركز في جهود كبيرة في المراحل الأولى على الأقل في هذه المبادرة لتطوير أنظمة الدفاع ضد الصواريخ التكتيكية، التي تأتي في الدرجة الثانية على جدول الاهتمامات الاستراتيجية الأمريكية. وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بأن جزءاً كبيراً من مجهود الصناعة الحربية الإسرائيلية بعد انضمام «إسرائيل» إلى المبادرة، تتمحور حول تكنولوجيا تطوير أنظمة الدفاع ضد الصواريخ التكتيكية العاملة في الشرق الأوسط، والتي سبق ذكرها. والموجودة في حوزة الدول العربية؛ والتي تشكل خطراً استراتيجياً على الوجود والأمن الإسرائيلي.

وبالرغم من أن التساؤل عن الأسباب التي دعت الولايات المتحدة إلى توجيه الدعوة إلى «إسرائيل» بالذات كي تنضم إلى «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» هو من نافلة القول، لما بين الولايات المتحدة و«إسرائيل» من علاقات وشيجة وروابط عضوية، على اعتبار أن قوة التأثير الأمريكي على المنطقة تزداد مع ازدياد الترابط الاستراتيجي بين الولايات المتحدة و«إسرائيل».

إن الدفاع الأساسي لرغبة «إسرائيل» في المشاركة في برنامج «حرب النجوم» خشية إسرائيل من أن يستخدم العرب ضدها صواريخ (أرض - أرض)، تحمل رؤوساً تقليدية أو غير تقليدية، تدفعها إلى البحث عن وسيلة لتدمير هذه الصواريخ قبل بلوغ أهدافها، ويأتي البرنامج الأمريكي فرصة مناسبة جداً، لكي تستفيد من بحوثه وتطبيقاته في إيجاد الوسيلة.

وتأسيساً على هذه الأسباب والدوافع الأمريكية - الصهيونية الكاملة، فثمة احتمالات يجب الإشارة إليها في هذا المجال.

فإذا ما تذكرنا أن جوهر نظرية «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» هو إمكانية اعتراض مسار الصواريخ بعيدة المدى، وتدميرها قبل بلوغها أهدافها، فإن هناك احتمالاً للاستفادة الإسرائيلية من هذه الإمكانية بالذات. فالتكنولوجيا المطلوبة لتحقيق هذا الغرض، لا بد أن يكون لها تطبيقات تنفع في مضادات الصواريخ التكتيكية (أرض - أرض) العاملة في المنطقة عند عدة دول عربية، وعند «إسرائيل» أيضاً. ونجاحه إن أشعة الليزر التي تستخدم في المحطات الفضائية، هي موضع اهتمام العلماء الإسرائيليين، الذين تشير المعلومات إلى أنهم أحرزوا تقدماً في مجال أبحاث الليزر في السنوات الأخيرة، وعلى هذا

الأساس فإن استخدام الليزر كسلاح تدميري سيفتح المجال أمام «إسرائيل» لاقتباس نظام مصغر ومعدل للنظام الأمريكي الفضائي الذي تشكل أشعة الليزر أحد أسلحته.

إضافة إلى تكنولوجيا أشعة الليزر يشمل البرنامج الأمريكي على دراسة تطوير الصواريخ المضادة للصواريخ التي يفترض أن تتوفر لها دقة عالية جداً في الإصابة، ووتيرة تسارع خارقة، وهذا ما يتح «إسرائيل» المجال للاطلاع على تكنولوجيا الحركة (سطح - جو) المتقدمة، والاستفادة من تطبيقاتها في مجال اعتراض الطائرات المعادية، إضافة إلى تكنولوجيا الصواريخ (أرض - أرض).

ويفترض في نظام شمولي علمي دقيق، كنظام حرب الفضاء، أن يشتمل على وسائل للرصد والإنذار والقيادة والسيطرة والتوجيه جد دقيقة وفعالة، بُغية الكشف عن الصواريخ المعادية لحظة إطلاقها، ثم ادارة العمليات المضادة. ومن هنا فإن البرنامج الأمريكي قد فتح أمام «إسرائيل» أبواباً متعددة لاختيار وسائل دفاعية جديدة، تقوم على أسس التكنولوجيا الحديثة التي لم تتوفر للعرب حتى اليوم.

والواقع هو أن التعاون الامريكى - الاسرائيلي لم يصل يوماً إلى المستوى المتقدم الذي بلغه في الفترة الاخيرة. ذلك أن الولايات المتحدة لم تواصل معونتها المالية والعسكرية لاسرائيل (٣,٥ مليارات دولار خلال السنوات الأخيرة)، بل إنها قدمت للدولة الصهيونية دعماً مادياً لتطوير أبحاث صناعة التسليح فيها. كما ينبع عن هذا أن الاسرائيليين يستفيدون من الأسلحة الطليعية الأمريكية لاستخداماتهم الخاصة على مسرح العمليات الخاص بهم في الشرق الأوسط. كما ينبع من ذلك نتيجة هامة أخرى، مفادها هو أنه إذا ما قدر لاسرائيل أن تشن هجوماً على جيرانها العرب، هجوماً وقائياً جديداً فإنه لن يكون تكراراً لحرب عام ١٩٦٧ أو لحرب عام ١٩٨٢. ولهذا يعتقد أن منطقة الشرق الأوسط قد تشهد حرباً لا يمكن إلا أن تشهد نزالاً بأسلحة التدمير الشامل، ولهذا تفكر «إسرائيل» بالدفاع المضاد للصواريخ لترد عن نفسها خطر ضربة عربية أولى، وللقيام بضربة جوابية، اذا ما قرر العرب استخدام هذا السلاح. في الوقت نفسه يمكن لاسرائيل أن تستخدمها في الضربة الأولى ضدالعرب، من ثم مواجهة الضربة الجوابية العربية ضدها. والآن الى أي مدى توصلت فيه «إسرائيل» والولايات المتحدة ودول الغرب في مجال خلق أنظمة مضادة للصواريخ (أرض - أرض) التكتيكية ذات المدى القصير؟

حتى الآن لم تتوصل الولايات المتحدة و «إسرائيل» ودول الغرب إلى نظام فعال ضد هذا النوع من الصواريخ، على الرغم من نجاحهم الجزئي في بحوث واختبارات تتعلق بتطوير أنظمة الدفاع ضد الصواريخ بحر - بحر أو (جو - بحر). وعلى الرغم من أن أنظمة التوجيه التي تحملها، تساعد على كشفها وتعقبها واعتراضها، وتجعل التعامل معها أسهل بكثير من التعامل مع الصواريخ (أرض - أرض).

وفي الأونة الاخيرة، ورداً على الخطر الذي تشكله الصواريخ العربية (أرض - أرض)، أعلنت الولايات المتحدة بأنها ستزود «إسرائيل» بنظام صواريخ مضاد للصواريخ من نوع «باتريوت» المعمول به في دول حلف الأطلسي. إلا أن أغلب الخبراء العسكريين يعتقدون بأن هذا النوع من النظام من الدفاع الجوي، ما هو إلا نظام متطور قليلاً عن نظام «هوك». وأن هذا النظام «باتريوت»، لا يمكن أن يحقق الطموح الاسرائيلي في ملاقاته الصواريخ العربية، نظراً لوجود الثغرات الكبيرة فيه، والتي لم تؤد الأبحاث

والتطوير إلى إقفالها. وهذا النظام لا يستطيع أن يحقق سوى الحماية الذاتية لحماية المنشآت، ويتضاءل دوره وفعالته في حال ضربة كثيفة من الصواريخ أرض / أرض ضد هذه المنشآت. ولا تزال الجهود الغربية تقوم بتطوير نظام «باتريوت» كنظام مضاد للصواريخ (أرض - أرض).

الخلاصة:

إذا كانت إسرائيل تتجه اليوم نحو تطوير استراتيجيتها العسكرية تطويراً جذرياً، من خلال مشاركتها في بحوث حرب الفضاء التي يمكن أن تكون عاملاً رئيساً من عوامل تطوير الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية.

وكان ما كان الأمر، إلا أنه لا بد من القول أن سباق الدفاع المضاد للصواريخ قد بدأ، وأن جميع من لا يسعون جادين للسيطرة على هذه التقنيات وامتلاكها، سيكون محكوماً عليهم على كل صعيد، ولا سيما الصعيدين العسكري والأمني.

إن السلاح الهجومي اليوم الأوسع انتشاراً - والأكثر رعباً - لم يعد دبابة الهجوم ولا الغواصة ولا الطائرة القاذفة، بل الصاروخ. إن هذا التهديد المخيف، يوجب علينا مراجعة كاملة لأنظمة الدفاع، وعلى الاستراتيجيين العسكريين العرب أن يتصرفوا، مركزين جهودهم على البحث في الأسلحة المضادة للصواريخ وتطويرها. إذ بات بوسع الدفاع منافسة الهجوم، والترس قادرة مرة أخرى على تحدي السيف. إن العرب أصحاب قضية، وهم يناضلون ضد أعداء هذه القضية المتمثلين بالصهيونية والامبريالية، وهم يحتاجون إلى وضع استراتيجية عربية موحدة، وواقعية من طبيعة الحرب الحديثة المقبلة.

المراجع

- 1- ميزان القوى العسكرية 1986 - 1987 معهد الدراسات الاستراتيجية بلندن، (ترجمة مركز الدراسات العسكرية دمشق، 1987) الصفحات 137، 143، 147، 151، 180.
- 2- مجلة جينز الدفاعية 1/4/1989.
- 3- هيم الابوي، والصواريخ أرض- أرض، في الشرق الاوسط، مجلة استراتيجية، العدد 62، بيروت (نيسان 1987) ص 39.
- 4- الجنرال جورج بوي «الدفاع المضاد للصواريخ» مجلة استراتيجية، العدد 57، تشرين الثاني 1986، ص 31-32.
- 5- د. هيثم الكيلاني، «إسرائيل وحرب الفضاء» مجلة استراتيجية، العدد 46، كانون 1985، ص 12-14.
- 6- العقيد «ش» [مبدأ حفظ القوة] (العقيدة العسكرية الصهيونية خلال 35 عاماً، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، آب 1982. ص. 108-109.
- 7- بعض النشرات غير المنشورة.



التغير البنيوي في العلاقات الأسرية الفلسطينية

دراسة سوسيولوجية^(*)

د . باسم سرحان^(*)

المقدمة: هدف الدراسة واسلوبها البحثي

تهدف دراستنا هذه الى وصف التغيرات التي طرأت على الأسرة الفلسطينية منذ نكبة عام ١٩٤٨ من حيث البناء الأسري ومضمونه العلائقي . ولابد لنا اثناء وصفنا للتغير البنيوي في العلاقات الاسرية الفلسطينية من بحث وتحليل العوامل أو القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي احدثت ذلك التغير.

وتعتمد الدراسة اسلوب التحليل الكيفي المستند الى سنوات طويلة من الملاحظة غير المخططة وغير

استناد علم الاجتماع وبلحث من فلسطين.

الموجهة التي قام بها أو غيرها الباحث اثناء اقامته في عدة تجمعات فلسطينية في اكثر من بلد عربي وأجنبي . ولا تُغني الملاحظات التي سترد في هذا البحث الكيفي عن الدراسات الامبريقية في مجال العلاقات الاسرية الفلسطينية . ولكن هذا التحليل الكيفي قد يوفر اساسا نظريا هاما وضروريا لاية ابحاث امبريقية ستجري على الاسرة الفلسطينية مستقبلا ومن المفيد الاشارة في هذا الصدد الى ندرة الدراسات الامبريقية حول الاسرة الفلسطينية في مختلف اماكن تواجدها . ولم يتمكن الباحث من العثور على اكثر من ست أو سبع دراسات استخدمت المنهج الكمي والبحث الميداني .^(١٠) ومن الواضح ضآلة هذا العدد من الدراسات ازا- اتساع اهمية موضوع البحث وهو الاسرة الفلسطينية في الشتات ومطراً عليها من تغيرات . وتشمل الدراسة الأسرة الفلسطينية في الشتات فقط ولا تتطرق الى ديناميات التغير في الاسرة الفلسطينية داخل الوطن ولم تغادره للاقامة خارجه والتي لم يتمكن الاحتلال من اقتلاعها سواء فيما يسمى بدولة اسرائيل أو في الضفة الغربية . واما السبب في ذلك فهو ببساطة ان الفرصة لم تتح للباحث للاقامة في تلك المناطق ومعاشة اهلها والتعرف على طبيعة التحول في العلاقات الاسرية بالنسبة لعرب فلسطين الذين لم يغادرونها اطلاقاً . وباختصار فان تحليلنا ينطبق على الاسرة الفلسطينية في لبنان وسوريا والاردن ومصر والعراق والكويت والسعودية والولايات المتحدة الاميركية .

البُنى التقليدية للأسرة الفلسطينية :

نقصد «بالتقليدية» تلك البُنى المستقرة أو شبه المستقرة التي اتصفت بها الاسرة الفلاحية الفلسطينية وتحددت بداخلها صيغة شبه ثابتة للعلاقات الاسرية عند عرب فلسطين لمئات السنين . ولقد تمّ تدمير ذلك البناء التقليدي على يد قوة خارجية غريبة ، وهي الحركة الصهيونية العالمية ، عبر اقتلاع وطرد وتشريد عشرات الالاف من الأسر الفلسطينية في حرب ١٩٤٧ - ١٩٤٨ بين اليهود الصهيونية وعرب فلسطين . ويمثل الاعلان غير المشروع عن ولادة دولة اسرائيل الصهيونية في ايار/ مايو ١٩٤٨ نقطة أو بداية انهيار الحياة الاسرية الفلسطينية التقليدية بعد اجبار الفلسطينيين على الانسلاخ عن قراهم وارضيتهم التي كانت تشكل الاساس المادي للبناء الاسري السائد .

وتجدر الاشارة الى انه مع قيام الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩١٨ كان مايقبل عن ٨٠٪ من عرب فلسطين من الفلاحين^(١١) . وكان اولئك الفلاحون يعيشون في نحو ألف قرية متفاوتة الاحجام والثروة .

ولقد اعتبرت صايغ ، الحمولة والقرية الجماعات الطبيعية للفلاحين الفلسطينيين . وتأتي القرية مباشرة بعد العائلة الممتدة من حيث الاهمية في حياة الفلاحين الفلسطينيين كوحدات اجتماعية . وفي الواقع وصفت صايغ القرية الفلسطينية بانها «عائلة العائلات»^(١٢) . وكانت كل قرية فلسطينية تتألف من اربع أو خمس عائلات ترتبط ببعضها عبر شبكة واسعة من علاقات المصاهرة والقرابة . واما الشكل السائد للملكية الارض فكان الملكيات الصغيرة المملوكة جماعيا من قبل القرية أو من قبل الأسر الممتدة في القرية . ولم تشهد

فلسطين ظهور طبقة اقطاعية كبيرة كما كان الحال في مصر والعراق مثلاً. ولقد ادى ذلك الى تخانس اجتماعي على مستوى القرية حيث غابت الفوارق الكبيرة في الثروة. وعزز ذلك الواقع الاجتماعي بدوره العلاقات الأسرية وفرض ضرورة التعاون الاسري في مواجهة مصاعب الحياة. ولقد افاد «غرانوت» بان نصف القرى الفلسطينية عام ١٩٤٥ كانت تمتلك الارض جماعياً^(١).

واما الشكل السائد للأسرة الفلسطينية في فلسطين قبل النكبة فكان، كما اشار كل من طنوس والفبرا،^(٢) الأسرة الممتدة (الأبوية) التي يربط افرادها برابطة قرابة الدم المنسوبة الى سلالة الأب والمؤلفة من الابوين وابنائها والاجداد لجهة الأب والاعمام وعائلاتهم والعلمات غير المتزوجات، اضافة الى الاولاد والبنات يتامى الاب. واما الشكل الاسري السائد التالي للأسرة الممتدة فهو الحمولة. وتتألف الحمولة من عدد من العائلات الممتدة التي يعتقد افرادها بانهم يتسبون الى نفس الجد. وتضم الحمولة عادة اجيال. واذا كانت الحمولة كبيرة العدد نجد انها تتواجد في عدة قرى ومدن صغيرة وبالطبع تضم كل أسرة ممتدة وكل حمولة عشرات الأسر النووية الصغيرة المؤلفة من أب وأم واطفالها. وبينما تتمتع الأسرة الممتدة بقدر من الاستقلالية داخل الحمولة فان الأسرة النووية تفتقد الى الاستقلالية. وتخضع الأسرة الممتدة التي تضم في العادة جيلين او ثلاثة اجيال لسلطة كبير العائلة، والذي يكون في الغالب الجد أو جد الجد. ورغم ذلك لم يكن كبير العائلة بالضرورة اكبر رجل حي في الأسرة الممتدة. ولكي يصبح رجل ما كبير العائلة كان لا بد وان يجمع ما بين السن والحكمة وحيانا ما يتطلب ذلك المنصب ايضا تمتعه بدرجة نسبية من الثراء. وكان كبير العائلة يعمل مع افراد عائلته ويشاركهم نشاطاتهم ولكنه يظل محور السلطة في العائلة الممتدة. وكانت زوجة كبير العائلة، وعادة ماتكون جدة، تساعد زوجها في ادارة شؤون العائلة وخصوصا الشؤون النسائية وشؤون الاطفال وكان بيت كبير العائلة يعتبر بيت الأسرة كلها ويظل مفتوحا في كافة الاوقات امام افراد العائلة للزيارة وازهار الولاء والمحبة ويبحث شؤونهم ومشاكلهم وتلقي البركة والدعم والتشجيع من كبيرهم. واما الارامل والمطلقات واولادهن فكانوا يقيمون في منزل كبير العائلة أو بقربه لكي يكونوا تحت رعايته ورقابته المباشرة. وكان الابناء والاحفاد يخضعون لسلطة كبير العائلة شبه المطلقة وان كان كبير العائلة يعتمد الى تخفيف قبضته على ابنائه بعض الشيء عندما يرزقون بأول ولد. واما سلطة كبير العائلة على البنات قبل الزواج فكانت مطلقة.

وتتصف العلاقات داخل الأسرة الممتدة بصفتين رئيسيتين وهما التزاوج الداخلي (داخل الحمولة والأسرة الممتدة) والتعاون الاقتصادي والاعتدال المتبادل. فقد كان الفلاحون الفلسطينيون عموما فقراء وكان اقتصادهم اقتصاد كفاف يتميز بالملكية الجماعية للاراض وبالانتاج الجماعي. ولم يكن الاقتصاد الفلاحي الفلسطيني اقتصاد نقدي، اي ينتج المحاصيل لبيعها للسوق بشكل اساسي. ولهذا السبب فقد كان التعاون والتواكل وتبادل الخدمات امورا حيوية بالنسبة لعيش وبقاء الأسرة الفلاحية، وخصوصا الأسرة النووية والافراد. ويؤكد الفيرا على اهمية الوظيفة الاجتماعية للأسرة الفلسطينية ما قبل عام ١٩٤٨ بقوله: «كانت عملية التطور الاقتصادي والحياة السياسية وبناء المؤسسات غير قابلة للفصل عن الأسرة وعن التحالفات أو التجمعات الأسرية. وبالتالي شكلت الأسرة في القرية وفي المدينة الوحدة الاقتصادية -

الاجتماعية - السياسية التي واجهت الانتداب البريطاني^(١) ويصف الغبرا الاسرة الفلسطينية عام ١٩٤٨ بانها «مؤسسة اقتصادية - اجتماعية حيوية ومنيعه»^(٢).

وكان الاتصال والاحتكاك اليومي بين افراد الاسرة الممتدة مكثفاً في الحقل وفي البيوت. وقالت صايغ ان بيت الاسرة الفلاحية الفلسطينية «لم يكن منزلاً خاصاً بل مكاناً مفتوحاً للتواصل الاجتماعي»^(٣) ولم تعزل النساء الفلسطينيات في انحاء خاصة بهن من المنازل كما كان الحال في مصر وغيرها من البلاد العربية. فالفلاحات الفلسطينيات كن يعملن مع الرجال ويقدر عملهم كما كانت النساء تلعبن دورا اساسيا في الحفاظ على شبكة العلاقات الاجتماعية في الاسرة والقرية. ولكن ذلك الدور لم يعطهم مكانة مساوية لمكانة الرجال، وكن في الواقع وبشكل واضح تحت هيمنة الرجال. ونجد لزاما الاشارة الى ان هذه الصورة الزاهية للتعاون والتكاتف في الاسرة الفلاحية الفلسطينية الممتدة لاتعني ان تلك الاسرة كانت خالية من المنازعات الداخلية والتنافس والحصومات بين اعضائها أو فيما بينهم وبين أسر اخرى.

ويقدم زهير حطب وصفا شاملا للأسرة الفلاحية العربية يساعدنا على تفهم ذلك الشكل من البناء الاسري. ويقول ان الاسرة الممتدة تتصف ببناء صلب نتيجة لعاملين وهما: الاكتفاء الذاتي والمكانة المتميزة والسلطوية لكبير العائلة. ويضيف بأن الاسرة الفلاحية العربية الممتدة تمكنت من مقاومة اقصى الضغوط السياسية والاقتصادية التي تعرضت لها بفضل تضامن افرادها وتكافلهم الامر الذي ادى الى توزيع تلك الضغوط عليهم بشكل متساو تقريباً^(٤).

ولقد لعبت الاسرة الفلسطينية الممتدة مع حلول نكبة فلسطين ومع بداية الشتات الفلسطيني دورا غاية في الاهمية تثل في الحفاظ على العلاقات الاجتماعية وعلى الوحدة الاجتماعية للشعب الفلسطيني. ويقول الغبرا في هذا الصدد: «من الواضح انه لولا العائلة لاستحال اعادة بناء الروابط الاجتماعية والوجود الجماعي للفلسطينيين بعد النكبة»^(٥).

عوامل التغيير في البنى والعلاقات الاسرية الفلسطينية.

يمكننا تحديد ثمانية عوامل ادت تفاعلها الى احداث تحول أو تغيير جذري في البنى والعلاقات الاسرية الفلسطينية التقليدية خلال الاربعين سنة الماضية. وهذه العوامل هي: (١) الانفصال عن الارض (٢) التوزع والتشتت الجغرافي للعائلات الفلسطينية الممتدة ككتل أو جماعات (٣) التشتت الاسري افراديا (٤) اختفاء أو زوال كبارا لعائلة (٥) التباين في الثروة والمكانة الاجتماعية داخل الاسرة الممتدة والحمولة (٦) ازدياد حجم الاسر عبر زيادة عدد افرادها. (٧) التنوع في التركيب العائلي (٨) التنوع في النظرة الى الحياة والى الكون.

ولا تتساوى تلك العوامل من حيث الاهمية في تغيير البنى التقليدية للأسرة الفلسطينية بعد النكبة. ونحن نعتقد ان العوامل الخمسة الاولى تفوق في اهميتها العوامل الثلاثة الاخيرة. وسوف نناقش في هذا الجزء من الدراسة باقتضاب كل من العوامل الثمانية.

قام الارهاب الصهيوني عام ١٩٤٨ باقتلاع معظم الفلاحين الفلسطينيين من اراضيهم بدون رحمة . وكانت الضفة الغربية ومدينة غزة الاجزاء الوحيدة من فلسطين التي نجا سكانها من ذلك المصير . ولكن فقدت عدة قرى في الضفة الغربية اراضيها الزراعية عند خط الهدنة ومن البلدان الصغيرة التي فقدت اراضيها الزراعية جنين وطولكرم وقلقيلية وكافة القرى المحيطة بها . ولقد ادت تلك التطورات الى تدمير الاساس المادي أو الاقتصادي الذي كانت تقوم عليه الاسرة الممتدة والحمولة . وكان ذلك بدوره يعني حتمية تفسخ وتداعي الاسرة الممتدة . ولقد دفعت عائلات الفلاحين الفلسطينيين للاقامة في مخيمات مزدهمة ومزرية في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي الاقطار العربية المجاورة . وهكذا فقد الفلاحون الفلسطينيون وسائل انتاجهم وما لبثوا ان تحولوا الى عمال مياومين حيث اصبح بعضهم عمال زراعيين في مزارع لبنان وسوريا بينما اضحى معظمهم عمال غير زراعيين في المدن العربية .

ولم يؤد الطرد الجماعي للعائلات الممتدة الفلسطينية من اراضيها وقرائها الى انهيارها الفوري . وظلت الاسرة الممتدة سليمة ومتناسكة ، كما ظلت شبكة علاقاتها الاجتماعية والعاطفية قوية . وكان السبب الرئيسي في الحفاظ على تماسك الاسر الممتدة اعادة تجمعها بكامل أو معظم وحداتها في المخيمات ذاتها . وظهرت دراسات ميدانية قام بها سرحان (١٩٧٢) وصايغ (١٩٧٦) في المخيمات الفلسطينية انه لم تتم فقط اعادة تجمع قرى بكاملها . فكل قرية كانت تحتل جانبا أو حياً من احياء المخيم ، بينما كان لكل أسرة ممتدة في القرية حيزها السكني ضمن ذلك الحي . كما كان كبار العائلة مايزالون احياء وحافظوا على سلطتهم الاسرية ومن خلالها على التماسك الاسري . وبالإضافة وجد الاقرباء الذين فقدوا اراضيهم وأضحوا لاجئين يعيشون على معونات الامم المتحدة الهزيلة ، وجدوا انهم في أمس الحاجة الى مساندة بعضهم البعض اقتصاديا وعاطفيا ولقد جعلت خسارة الارض والوطن من الاسرة الوحدة الاجتماعية البديلة الوحيدة بالنسبة للفلسطينيين . وبالتالي ظلت الحياة القروية الفلسطينية حيّة ولكن خارج وعائنها أو موطنها الطبيعي . ويمكن القول ان الاسرة الممتدة والحمولة ظلت تشكل النمط السائد للاسرة الفلسطينية حتى اواخر الخمسينات . ويمكننا ان نطلق على هذه الفترة اسم الحقبة الاولى بعد النكبة والتي لم تشهد اي تغيير يذكر في البنى الاسرية الفلسطينية السائدة تقليديا .

الشتت الجغرافي الجماعي

والمقصود بذلك انقسام الاسرة الممتدة والحمولة جغرافيا (وخصوصا بالنسبة للجليل وشمال فلسطين) الى مجموعتين واحيانا ثلاث مجموعات تقيم كل منها في قطر عربي . وينطبق هذا الكلام على الاسرة الممتدة التي استقرت وحدات منها في لبنان واخرى في سوريا وثالثة في الاردن . ولا تتوافر لدينا اي بيانات حول



عدد أو نسبة الاسر الممتدة التي توزعت على قطرين عربيين أو اكثر. ولقد أثر ذلك التوزيع الجغرافي تأثيراً محدوداً في الحقبة الاولى على تواصل الاسرة الممتدة الوجيهي بسبب القيود الشديدة التي فرضت على حرية تنقل الفلسطينيين فيما بين الدول العربية المضيفة للاجئين في الخمسينات والستينات حتى لو كان الهدف تبادل الزيارات العائلية لفترة محدودة. ولكن الاسرة الممتدة ظلت وحدة متماسكة على المستوى العاطفي والوجداني.

ويستدل على ذلك من استمرار التزاوج داخل اجزاء الاسر الممتدة المقيمة في لبنان وسوريا بشكل خاص والاردن الى حد ما. كما يستدل على استمرارية وحدة الاسرة الممتدة عاطفياً من خلال استمرار التشاور فيما بين كبارها وفي العودة الى كبير العائلة في المسائل الشخصية، وخصوصاً الرجوع اليه في الزيجات والخلافات العائلية. واخيراً يستدل على حقيقة التماسك الاسري من استمرارية اشكال مختلفة من التعاون الاقتصادي والاجتماعي مثل تبادل الهدايا وارسال المعونات المالية عند الحاجة وتبادل الرسائل بالبريد ومع المسافرين. وظل الوضع على هذه الحال طوال الحقبة الاولى الممتدة بشكل تقريبي من ١٩٤٨ الى ١٩٦٠.

٣ - التشتت العائلي الافراضي او الفردي :

تشير هذه العملية الى تشتت بعض اعضاء الاسرة الممتدة بشكل فردي (وخصوصاً الذكور) والذي تلاه انفصال الاسرة النووية عن الاسرة الممتدة. ولقد برزت ظاهرة التشتت الفردي نتيجة لرفض الشباب الفلسطيني البقاء عالة في المخيمات وسعيهم وراء فرص العمل في دول الخليج العربي. ولقد شهدت مرحلة الخمسينات رحيلاً لمئات الشبان الفلسطينيين الى الخليج. ولكن هذه الظاهرة أو الهجرة ظلت محدودة بسبب محدودية فرص العمل في دول الخليج. وعادة ما كان احد افراد العائلة يرحل، ويكون في الغالب رب الاسرة، بمفرده للعمل في الخليج ويعود سنوياً او مرة كل سنتين لزيارة أسرته. وعادة ما كان ذلك الفرد المعيل الرئيسي للأسرة وان لم يكن الوحيد لان افراد آخرين من الاسرة كانوا ينجحون في إيجاد عمل في دول اللجوء المعروفة رسمياً بالدول المضيفة. وما لبثت ظاهرة الهجرة الافراضية ان تسارعت في الستينات وشهدت توسعاً هائلاً في السبعينات نتيجة لتنمية دول الخليج بواسطة عائدات البترول المرتفعة وبالتالي اتساع سوق العمل الخليجي.

وشهدت السبعينات بشكل خاص انفصال وحدات أسرية نووية بكاملها عن الاسرة الممتدة واعادة الاستقرار في دول الخليج. ورغم استمرار الاتصال والتواصل ضمن الاسرة الممتدة، فقد اصبح من المستحيل المحافظة على نفس الدرجة من كثافة العلاقات فيما بين وحدات الاسرة الممتدة بحكم التباعد الجغرافي. وكان من المؤلف في الستينات ان نجد الجزء الاعظم او الجسم الرئيسي للأسرة الممتدة في احد المخيمات او المدن العربية، بينما تكون بعض الوحدات النووية التابعة له منتشرة في دولتين خليجيتين او اكثر. ولكن السبعينات والثمانينات شهدت ضموراً للجسم الرئيسي للأسرة الممتدة في بلد اللجوء الاصلي واتساعاً وتزايداً في انسلاخ وانتشار الوحدات النووية في اقطار الخليج العربي والمغرب العربي وفي اقطار

أجنبية .

ولقد توازى مع التشتت الفردي بسبب البحث عن فرص العمل ، تشتت فردي آخربسبب السعي وراء فرص التعليم الجامعي . فبعد ان خسر الفلسطينيون وسيلة انتاجهم الرئيسية وهي الارض ، اصبح التعليم وسيلة الانتاج المبتغاة والمنشودة . ولهذا السبب لايعود مستغربا ان تظهر الاحصاءات المتوفرة في الثمانينات ان الفلسطينيين هم اكثر المتعلمين بين الشعوب العربية . فقد كان الحصول على شهادة جامعية أو على تخصص عالٍ ومهارات رفيعة مسألة حياة أو موت بالنسبة للاجئين الفلسطينيين ، بينما لم يكن الحال كذلك بالنسبة للعرب الآخرين الذين كانوا يمتلكون وسائل انتاجهم الزراعية والتجارية والصناعية وغيرها . وكانت مصر في الستينات البلد الرئيسي الذي استقبل الطلاب الجامعيين الفلسطينيين ووفر لهم في عهد عبد الناصر كافة الفرص للتحصيل العلمي العالي مجانا . ولكن خيارات الفلسطينيين اتسعت بعد ان تحسنت احوالهم المالية نتيجة للعمل في دول الخليج العربي حيث شهدت السبعينات والثمانينات تدفقا فلسطينيا هائلا على التعليم الجامعي في الولايات المتحدة واوروبا الغربية ، ثم تلا ذلك التوجه نحو الاتحاد السوفيتي واوروبا الشرقية ، ثم نحو الهند وباكستان . ويضاف الى هذا كله استفادتهم من فرص التعليم الجامعي المتاحة في سوريا والعراق والاردن ولبنان والجزائر .

زوال كبار العائلة

السبب الرئيسي في هذه الظاهرة هو التقدم في السن . وفي الواقع ان الزوال لايقصر على كبار العائلة اذ انه حالة تشمل جيلا بكامله يتراوح عمره ما بين ٧٠ - ٨٠ عاما . وادى هذا التطور مع الانفصال عن الارض والابتعاد عن الحياة الفلاحية الى تسديد ضربة شديدة لما تبقى من الاسرة الفلسطينية الممتدة . وكان رجال ونساء هذا الجيل من الكهول يلعبون دورا استقطابيا هاما لكافة وحدات وافراد الاسرة الممتدة من خلال تشكيلهم لنقطة جذب مركزية . فهؤلاء الكهول هم الرمز التاريخي الذي يربط الاجيال الشابة ببعضها البعض على اثر التشتت الذي تعرضت له . وهؤلاء الكهول هم في الواقع جذور المجتمع الفلسطيني التقليدي . وهذه الجذور تتعرض للموت وللزوال .

وساعدنا مثال حي على تفهم افضل لدور كبار العائلة . والمثال مأخوذ عن أسرة فلسطينية ممتدة تاتي اصلا من شمال فلسطين وتقيم في الكويت منذ الستينات على شكل وحدات نووية متفرقة وصلت للكويت تباعا خلال فترة ١٥ عاما . فقد لاحظنا ان اقرباء الدم هؤلاء لم يكونوا ليتواصلوا ويتبادلوا الزيارات سوى بمعدلات منخفضة جدا مقارنة بما كان يحصل بينهم في لبنان . وكان التفسير المقدم لقللة التزاور والتواصل الانشغال بتحصيل المعيشة ونحن نعتقد ان هذا التفسير عذر تبريري اكثر منه عذرا حقيقيا ، وانه في كافة الاحوال لايفسر الانقطاع والابتعاد السائد بين اقارب الدم . ولكننا لاحظنا كذلك ان هذا الوضع يتغير كلية عندما ياتي احد كبار السن أو كبار العائلة ، رجل كان ام امرأة ، من لبنان أو سوريا أو الاردن أو فلسطين لزيارة الكويت . فبعد وصول ذلك القريب المتقدم في السن يتحول البيت الذي ينزل فيه الى مزار ، ويتوافد



كافة افراد الاسرة الممتدة للزيارة بشكل شبه يومي تقريبا، وتنتعش الروابط العاطفية ما بين الاقرباء، ويبدأ تبادل العتب على التقصير السابق في الزيارات والتواصل ويحصل ان تنشط بعض حالات التزاور مع تقديم وعود مؤكدة بعدم الانقطاع مستقبلاً. ولكن ما ان يغادر ذلك الكهل الرمز ومحور التجميع القرابي الكويت حتى تعود الى وحدات الاسرة الممتدة حالة الابتعاد والانقطاع والعزلة. ولقد لاحظنا الظاهرة نفسها في اوساط الاسر الفلسطينية الممتدة المقيمة في الولايات المتحدة. ويمكننا القول ان قوة التوحيد المعنوي والعاطفي في الاسرة الممتدة تتعرض للاختفاء مع اختفاء كبار السن الذين تتجسد فيهم تلك القوة.

٥ - التباين في الثروة والمكانة الاجتماعية:

ان الجيل الفلسطيني المتوسط في العمر (سن ٣٥ - ٥٠) ليس جيلا من الفلاحين. فقد تراوحت اعمار هذا الجيل من سنة واحدة الى ١٢ سنة عندما صودرت اراضيهم وتم اقتلاع عائلاتهم من الوطن ووجدوا انفسهم في مخيمات للاجئين في ضواحي المدن العربية. وبالتالي فقد اعتمد هذا الجيل في تحصيل معيشته على نفسه تماما، اي على المهارة الفردية والجهد الفردي وعلى المقدرة التنافسية في المدن العربية في قطاعات الخدمات والتجارة والبناء والصناعة وبالنسبة لبعض المخيمات في القطاع الزراعي.

وكانت فرص التباين في الثروة والمكانة الاجتماعية فيما بين افراد العائلة الممتدة في الخمسينات ضئيلة جدا. فمن ناحية كان التمايز التعليمي والتمايز في المهارات بينهم غير واضح وغير متبلور، ومن ناحية ثانية كانت فرص الاثراء وتكوين الثروات في دول المشرق العربي، وهي دول اللجوء، ضئيلة جدا أو شبه معدومة. ولكن هذا الوضع اختلف تماماً في الستينات وما بعدها.

فقد شهدت الستينات تخرج الشباب من الجامعات كما شهدت فتح ابواب دول الخليج العربي الثرية في وجه الفلسطينيين للعمل. وظلت ظاهرة المزيد من التعليم في اوساط الفلسطينيين كما ونوعا تتعاظم ويصاحبها تباين في الدخل فيما بين الأسر والافراد، والذي ادى في المحصلة الى تباين واضح في المكانة الاجتماعية لدى الاسر النووية والافراد بحلول النصف الاخير من السبعينات. وتبلورت الفروقات الطبقيّة بوضوح في اوساط من كانوا منذ عشرين عاما في نفس المخيم وفي نفس الوضع الاجتماعي وفي نفس القارب. وظهر من اوساط الفلاحين الفلسطينيين تشكيلات طبقية جديدة تتماشى مع التركيب الطبقي للمجتمع العربي. وتمزقت بالتالي الوحدة العضوية والقرابية للمجتمع الفلاحي الفلسطيني اللاجئي. وادى ذلك كله الى اخفاق التضامن والتعااضد الاسري. فمثلا اصبح التعااضد غير وارد بين فلسطيني بالكاد يستطيع تحصيل تكاليف مستوى منخفض من المعيشة وبين ابن عمه الذي يتفق مبلغا طائلا على كميّاته وعلى اجازاته السنوية في لندن أو باريس أو جنيف.

كما اسهم التمايز المهني في اضعاف التعااضد الاسري. فلم تعد هناك ارضية مشتركة للتواصل والتفاهم والتعاطف ما بين فلسطيني متخصص بحراحة القلب مثلا وبين ابن عمه الذي يعمل سائق باص أو حارس عمارة أو نجار.

وليس بإمكاننا بالطبع بدون دراسة ميدانية وبدون إحصاء دقيق ان نعرف مدى التباين الحاصل داخل الاسر الممتدة الفلسطينية . ولكن ملاحظتنا البسيطة والعادية تدل على حصول قدر كبير من التباين في المكانة الاجتماعية والثروة داخل الاسرة الفلسطينية الممتدة والذي ادى بدوره الى اضعاف التضامن والتهاusk الأسري بوجه عام .

٦ - تضخم حجم الاسرة الفلسطينية

لقد تضاعف الشعب الفلسطيني ثلاث مرات خلال الاربعين عاما الماضية . وكانت هذه الزيادة تعني بالضرورة تضخما في حجم الاسرة الممتدة . ونحن نعتقد بان الزيادة العددية بحد ذاتها قد أثرت كثيرا في مقدرة اقرباء الدم على ملاحظة ومتابعة والوفاء بكافة الواجبات الاجتماعية تجاه بعضهم البعض واصبح من المستحيل تقريبا الحفاظ على نفس القدر من التفاعل والتواصل الذي كان سائدا في القرية قبل النكبة او في المخيم في فترة الخمسينات حين لم يكن حجم الاسرة الممتدة بهذه الضخامة ، فكيف بحجم الحمولة؟ وفرض التضخم في حجم الاسرة الممتدة بالضرورة على وحدتها النووية اقامة علاقات حميمة انتقائية بعدد محدود من الاقرباء والتي غالباً ماتقوم على المصاهرة أو التماثل المهني أو التماثل في المستوى الاقتصادي ، اي على درجة القرابة وعلى اعتبارات طبقية .

ويمكن للمرء أن يلمس وجود الاسرة الممتدة والحمولة في حال حديثين اجتماعيين وهما الوفاة والاعراس .

وكان مشهدا عاديا ومتكررا ان نلاحظ كبير الاسرة في لبنان وسوريا يسأل قريبا متوسطا في السن «لن هذا الولد؟» أو «زوجة من تكون هذه الشابة؟» مشيرا الى اقرباء جدد . وكان في ذلك دلالة واضحة على عجز كبير الاسرة عن متابعة الزيادة المستمرة في عدد احفادهم وحفيداتهم وفي عدد ازواج وزوجات اولئك الاحفاد . وتظهر لنا الملاحظات السابقة كيف ان الزيادة العددية المجردة جعلت استمرارية العلاقات الاسرية الممتدة في ظروف الحياة الحضرية وتعقيداتها الخاصة بالشتات الجغرافي وبتقسيم العمل امرا في غاية الصعوبة .

٧ - التنوع في التركيب العائلي :

لم تكن الاسرة الممتدة متجانسة فقط ، بل كانت شديدة التجانس نتيجة لحصر التزاوج في داخلها وفي داخل الحمولة ، وفي اقصى الحالات داخل القرية ، وفي حالات قليلة ما بين القرية وقرية اخرى قريبة منها . ولقد شهد الشتات الفلسطيني حالة تطور بطيئة في بدايتها ومتسارعة في مراحلها المتقدمة باتجاه التنوع في التركيب العائلي . وقد استمر نمط الزواج التقليدي ضمن الحمولة في فترة الخمسينات مع اتساع بسيط .

ليشمل حائل اخرى وقرى اخرى. وشهدت الستينات توسعاً في نطاق الزواج الى المستوى الوطني الفلسطيني حيث اصبح الرجل الفلسطيني يتزوج اي امرأة فلسطينية دون ان يلقي معارضة شديدة من اهله ومن اقربائه. ولقد اصبح الزواج على المستوى الوطني ممكناً لان اعداد كبيرة من الفلسطينيين من مختلف القرى والمدن ودول اللجوء قد تجمعوا للعمل في دول الخليج العربي مما خلق بينهم علاقات عمل وصدافة وجيرة اتاحت لهم التعرف والتزواج. كما اتاح التواجد في الخليج العربي حصول بعض الزيجات بين رجال فلسطينيين ونساء عربيات غير فلسطينيات في الفترة نفسها. كما حصل عدد محدود من الزيجات بين الطلاب الفلسطينيين الذين كانوا يدرسون في اوربا الغربية والولايات المتحدة ونساء اجنبيات من تلك البلاد. وكذلك تمت زيجات محدودة بين بعض العمال الفلسطينيين المهاجرين الى المانيا الغربية ونساء المانيات.

ولكن التنوع الحقيقي والواسع النطاق في التركيب العائلي الفلسطيني حصل في السبعينات والثمانينات، وخصوصاً مع بداية النصف الثاني من السبعينات، اي في اواسط الجيل الثالث من الفلسطينيين الذين ولدوا خارج فلسطين في اواخر الخمسينات. واصبحت لاحتلو اي اسرة فلسطينية ممتدة في هذه الفترة من عدد وفير من الزوجات الاجنبيات^(*). الذين يحضرهم او يقيم في بلادهم الطلاب والعمال المهاجرون وكان الحصول على اقامة وجنسية البلد الذي درس فيه الطالب الجامعي أو يعمل فيه العامل سبباً رئيسياً، وان لم يكن وحيداً، في اتساع نطاق ظاهرة الزواج من اجنبيات. واصبحت لائحة الزوجات الاجنبيات في الاسر الفلسطينية في الثمانينات تضم جنسيات من القارات الخمس. وكان بعض الشباب الفلسطيني يحضر زوجاته الاجنبيات معه حين يعود للاقامة في البلاد العربية، ولكن معظمهم كان يستقر في وطن الزوجات ويحضرون للزيارة فقط. وتعتبر الفئة الاخيرة من الشبان الفلسطينيين خسارة صافية للأسرة الممتدة. فالواقع ان وطن الام الاجنبية كان «يكسب» اولاد هؤلاء الفلسطينيين ثقافياً وروحياً وبالطبع جسدياً وطاقة. ويعجز معظم الاطفال من تلك الزيجات عن اقامة اي تواصل او تفاعل ذو معنى مع ابناء عمومتهم وابناء اخوالهم عندما يحضرون في زيارات متباعدة مع والدهم لزيارة اهله، وذلك بحكم الحاجز اللغوي والتفاوت الثقافي. ويمكن القول بشيء من التحفظ انه ربما يمكن اعتبار هؤلاء الاولاد خسارة للقضية الفلسطينية وللنضال الوطني. ولكن لحسن الحظ لايشكل هؤلاء سوى نسبة ضئيلة من الشعب الفلسطيني.

وتجدر الاشارة الى حالة خاصة ولكن هامة من الزواج خارج النطاق الوطني الفلسطيني وهي حالة اتساع الزواج الفلسطيني - اللبناني اثناء الحرب الاهلية اللبنانية، وخصوصاً في جنوب لبنان والناطقة عن التفاعل الحياتي والنضالي في ظل الظروف التي عاشها لبنان ما بين عامي ١٩٧٥ - ١٩٩٠.

وتنطبق ملاحظتنا السابقة كلها على التنوع الزواجي بالنسبة للرجال الفلسطينيين فقط، لان الاسرة الفلسطينية ظلت تعارض الى حد كبير وتحتفظ على زواج الفتاة الفلسطينية من غير فلسطيني، وخصوصاً من اجنبي. ويبدو ان الفتاة الفلسطينية بدأت منذ منتصف الثمانينات عملية اللحاق بالرجل الفلسطيني، حيث اخذنا نلاحظ زواج فتيات فلسطينيات من لبنانيين وكويتيين ومصريين، وان تكن هذه الظاهرة

محدودة حتى الآن الا انها تشير الى بداية رفع الحظر او التحفظ العائلي على زواج المرأة الفلسطينية من رجل غير فلسطيني .

ويمكننا القول ان الزواج داخل الاسرة الممتدة والحمولة لم يعد النمط السائد في الزواج الفلسطيني ، وعلى الأرجح انه لم يعد النمط المفضل او المرغوب لدى الجيل الشاب (سن ١٨ - ٣٠) .
والمهم في موضوع بحثنا ان التنوع في التركيب العائلي قد اسهم في اضعاف التماسك بين الوحدات النووية للأسرة الممتدة . فالزوجات اللواتي لا يمتن بصلة الدم الى الاسرة الممتدة لن يكن مهتمات أو قادرات على ان يصبحن جزءا من شبكة قرابية واسعة النطاق . والعكس هو الصحيح ، اذ نلاحظ ان «مصلحتهن» المباشرة تكمن في ابعاد أزواجهن عن الاسرة الممتدة وفي تحجيم روابطهم الاسرية وفي تقليل انغماس وانهماك اولئك الأزواج في واجبات وهموم الاسرة الممتدة والحمولة .

٨ - التنوع في النظرة للحياة والكون

ويمكن ان نطلق على هذا ايضا تسمية التنوع في المنظور الكوني World view ومن الحقائق التي اثبتتها البحث الاجتماعي ان الفلاحين بوجه عام يحملون نفس النظرة للحياة وللكون ، وان هذا صحيح على الاقل ضمن حدود المجتمع الواحد والثقافة الواحدة . وتنطبق هذه القاعدة على الفلاحين الفلسطينيين .
وامكننا ملاحظة درجة عالية من التوافق او التطابق في النظرة الفلسفية والاجتماعية للحياة عند الجيلين الاول والثاني من الفلسطينيين ، اي اولئك الذين ولدوا في اوائل هذا القرن والذين ولدوا في اوائل الثلاثينات منه . ولكن كلما اقتربنا من الجيل الثالث الذي ولد في اوائل الستينات نجد تنوعاً وتفاوتاً في المنظور الكوني ضمن الاسرة الواحدة الممتدة وحتى ضمن الاسرة الواحدة النووية . ولقد حصل هذا التنوع نتيجة لعمليتين رئيسيتين اثرتا بعمق على التركيب الفكري للفرد الفلسطيني وهما عمليتا التعليم والتسييس .

ولو نظرنا الى التعليم الذي تلقاه الفلسطينيون لوجدنا ان الغالبية العظمى منهم قد تلقوا تعليمهم ، حتى اوائل السبعينات ، في المدارس العربية التي تتشابه الى حد كبير على المستويين الفكري والعقائدي ، سواء في مرحلة التعليم العام (الابتدائي حتى الثانوي) أو في مرحلة التعليم الجامعي . ولم يتح سوى لنسبة ضئيلة جدا من الفلسطينيين ان تدرس في مدارس اجنبية تقدم منظورا حياتيا وفلسفيا مختلفا (بعض ابناء الميسورين درسوا في المدارس الانجليزية والفرنسية والاميركية في لبنان ومصر والاردن) ولكن حقبة السبعينات شهدت انحسارا شديدا في عدد المقاعد الدراسية التي كانت تخصصها الجامعات العربية للطلاب الفلسطينيين . ولقد اجبر ذلك الوضع العديد من العائلات الفلسطينية في النصف الثاني من السبعينات للبحث عن فرص التعليم الجامعي لابنائهم في الدول الاجنبية . وكان هذا التوجه يشكل اضطراراً بالنسبة لمعظم الاسر الفلسطينية واختيارا ذاتيا وحرا بالنسبة لبعض الاسر الميسورة في ظل القناعة بان الشهادة الغربية ، والاميركية على وجه الخصوص ، تعطي لابنائهم فرصة اكبر للنجاح المهني والمالي . ولقد مكن الدخل المرتفع في اوساط الفلسطينيين من الطبقة الوسطى العاملين في دول الكويت والسعودية

وقطر والامارات العربية وليبيا العديد من عائلات تلك الطبقة على تمويل تعليم ابنائهم في الجامعات الغربية . كما توفر مورد آخر للتعليم الجامعي الفلسطيني في الدول الاجنبية تمثل في المنح الدراسية التي كانت تتلقاها منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها المختلفة من الاتحاد السوفياتي ودول اوربا الشرقية ومن الهند وباكستان . وهكذا اصبح من المألوف ان نجد ضمن الاسرة النووية الفلسطينية ابناً يدرس في اميركا واين ثانٍ يدرس في الاتحاد السوفياتي، وابنة تدرس في لندن، واختها تدرس في نيودلهي أو القاهرة أو بيروت أو عمان أو الكويت أو طرابلس أو عدن أو الجزائر .

وكان ذلك التنوع الهائل في التحصيل الجامعي الفلسطيني الذي لم يتعرض له اي شعب من الشعوب يحمل في طياته بالضرورة تعرض الشباب الفلسطيني لنظم فكرية مختلفة، واحيانا كثيرة متعارضة ومتضاربة، من حيث فلسفتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية وليس في وسعنا الآن تقويم التأثيرات البعيدة والطويلة الامد لهذا التنوع الفكري الشديد في اوساط الشباب الفلسطيني فهذه مسألة بحاجة الى دراسة عميقة ومتأنية . ولكن بإمكاننا القول ان ذلك التنوع الفكري يسهم الى حد ما في اضعاف التماسك والتضامن الاسري . فمن الطبيعي ان يعمد الاقرباء الذين يحملون منظورات مختلفة ومتضاربة الى تقليل التواصل فيما بينهم منعا للخلاف والاحتكاك السلبي الدائم، وان يحاولوا ابقاء العلاقات الشخصية والاجتماعية بين بعضهم البعض عند حدودها الرسمية .

واسهم التباين في عملية تسييس الشباب الفلسطيني كذلك في اضعاف العلاقات القرابية وكان تسييس الفلسطينيين منذ النكبة وحتى حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ يتم على يد الاحزاب العربية، وخصوصا الاحزاب القومية وذات التوجهات القومية مثل حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي . كما كان لعبد الناصر وللفكر السياسي الناصري تأثير هائل على التفكير السياسي لدى الشبان الفلسطينيين . وبعد هزيمة حزيران وصعود حركة المقاومة الفلسطينية اصبح التفكير السياسي المباشر للشباب الفلسطيني في يد فصائل تلك الحركة . ولقد حملت حركة المقاومة الفلسطينية تنوعا اوسع بكثير من التنوع الذي حملته الاحزاب القومية العربية . وبإمكاننا تلمس اربع تيارات سياسية واضحة وبارزة داخل حركة المقاومة الفلسطينية وهي : التيار الوطني الفلسطيني والتيار القومي العربي والتيار الماركسي (بكل تفرعاته) والتيار الاسلامي (الصاعد منذ بداية الثمانينات فقط كجزء من الصعود السياسي الاسلامي في الوطن العربي) ولقد وجدت هذه التيارات جميعا لها انصارا في اوساط الفلسطينيين ووسط التجمع الواحد والمخيم الواحد والاسرة الواحدة . وهكذا يمكن بسهولة ان نجد القومي العربي والماركسي والاسلامي بين الاخوة وابناء العمومة وغيرهم من الاقرباء المقربين . وقد ينجح معظم هؤلاء الاقرباء في الحفاظ على حد مقبول من العلاقات الشخصية فيما بينهم بفضل دور آبائهم الذين لا يحملون في معظم الحالات أي انتباه عقائدي . ورغم انه وحتى الان لم تنجح الانتهات العقائدية المتباينة في تحطيم وحدة معظم الاسر الفلسطينية وتماسكها، الا انها حتماً نجحت في اخفاق تلك الوحدة القرابية عبر خلق مصدر دائم للتوترات في داخلها . وهنا ايضا لايسعنا التعميم بدون دراسة امبريقية حول المدى الذي وصلت اليه العلاقة ما بين التنوع والتباين الفكريين ودرجة التماسك الاسري .

فرض الشتات الفلسطيني ونتائجه الاجتماعية - الاقتصادية عملية تغيير سريعة نسبيا في شكل ومضمون الاسرة الفلسطينية. ولا يمكن لاحد انكار ان ذلك التغير كان سيمت بمرور الزمن، ولكنه بالتأكيد كان سيمت بطريقة اقل قسوة واقل شدة وكثافة. ونحن نجادل بان الاقتلاع من الارض والطرده من الوطن قد قطع اوصال الاسرة الفلسطينية بلا رحمة، وعطل بقساوة شديدة تواصل الحياة الاسرية الفلسطينية. وحرمت الآف الاسر الفلسطينية من استمرارية العيش المشترك بين افرادها. وهكذا نجد ان عشرات آلاف الاخوة والاخوات والاقرباء من الدرجة الاولى ومن الدرجة الثانية وحتى الآباء والامهات او الآباء من جهة واولادهم قد حرموا نعمة العيش معا وفرصة مشاركة بعضهم البعض العواطف واخذنا كيفما اتجهنا في اوساط التجمعات الفلسطينية منذ منتصف السبعينات نسجع عن أم لم ترَ ابنا لها أو بنتا متزوجة بعيدا عنها لعدة سنوات، ونسمع عن ابوين لم يريا بعض ابنائهما لعشر سنوات، ونسمع عن اخوة واخوات لا يعرفون اخوتهم واخواتهم الذين يصغرونهم بعشر أو بخمس عشر سنة، ونسمع عن رجل لم يرَ ابنا عمه منذ عشرين عاما وقد انفصلوا عن بعضهم البعض وهم في اوائل العشرين وغير متزوجين واضحى لكل منهم زوجة وعدة اولاد دون ان تتاح لهم الفرصة للقاء مرة اخرى. وتمتد فترات الانقطاع هذه ما بين سنة واحدة وثلاثين عاما كاملا. وحصل في حالات عديدة ان توفي الابوين أو احدهما دون ان يكون اي من اولادهما بقربها. فقد حالت صعوبات سياسية واقتصادية جمّة دون اعادة جمع شمل الأسر الفلسطينية ودون استمرارية تواصل افرادها بشكل مرضٍ أو مقبول وينطبق هذا الكلام على الفلسطينيين في فلسطين المحتلة وخارجها. وهكذا نرى ان التحول القسري في البنى الاسرية الفلسطينية قد كُلف الفلسطينيين ثمنا عاطفيا باهظا وعبر معاناة انسانية هائلة وحرمان اقتصادي شديد.

ولم تنته عملية التحول البنوي في النظام الاسري الفلسطيني ويعتمد الشكل النهائي للبنى وللعلاقات الاسرية الفلسطينية الجديدة على طبيعة التسوية النهائية لوضعهم غير المستقر تحت الاحتلال وفي الشتات، وعلى وضع حد لتشردهم الدائم والذي كان آخره تشتت الجالية الفلسطينية الكبيرة في الكويت نتيجة لحرب الخليج، تلك الجالية التي كانت تتمتع بدرجة عالية من الاستقرار تم تحقيقها عبر ربع قرن من العيش المتواصل هناك. وتتعرض الجالية الفلسطينية في الكويت الى تحطم جديد في العلاقات الاسرية والشخصية والانسانية في حال ابعادها نهائيا عن الكويت.

ورغم زوال الاسرة الممتدة عند الفلسطينيين في الشتات بمعناها الحيوي والفعال، الا ان النمط السائد للاسرة الفلسطينية لم ينته الى نمط العائلات النووية المبعثرة والمعزولة كما هو الحال في المجتمعات الصناعية الغربية. ونلاحظ ان البناء الاسري السائد والفعال هو أسرة أصغر من الاسرة الممتدة واكبر من الاسرة النووية اذ انها تضم ضمن شبكة علاقاتها الحيوية والفعالة الابوين (اذا كانا مايزالان احياء) واولادهم وبناتهم والاسر النووية هؤلاء الابناء والبنات. وهذا يخرج من دائرة البناء الاسري الحيوي والفعال

الى حد كبير ابناء الاعمام و ابناء الاخوال و ابناء العمات و الخالات ، واي قرابة ابعد من ذلك . ولا نجد مصطلحا ملامتا نطلقه على الدائرة الوسيطة من العلاقات الاسرية الفلسطينية الفعالة في هذه المرحلة من التحول الاجتماعي الفلسطيني . ونحن نستبعد لاسباب عديدة ان تصبح الاسرة النووية بشكلها الغربي هي النمط السائد للبناء الاسري الفلسطيني في المستقبل المنظور . فما تزال العلاقات الاسرية الفلسطينية قوية جدا ولكن على نطاق قرابي اضييق بكثير من السابق . ونلاحظ مثلا ان الفلسطيني ما يزال يشعر بواجبه نحو اخوته و اخواته و نحو اولادهم وهو على اتم استعداد للتفاعل و التعاضد معهم عاطفيا و اقتصاديا و اجتماعيا ، ولكنه على الأرجح لا ينتابه نفس الشعور تجاه ابناء عمه أو ابناء خاله أو ابناء وبنات خالته .

ويشهد المجتمع الفلسطيني في المنفى وفي الشتات في العشرين سنة الماضية ظاهرة تزايد الترابط الوطني و ظاهرة التماسك و التعاضد على اساس الانتزاع الوطني في مقابل او في موازاة التراجع في اهمية الرباط القرابي . وهذه ظاهرة صحية تماما لانها تشكل مستوى ارقى من الترابط الذي يقوم على وحدة المصير و وحدة النضال اكثر مما يقوم على صلة الدم .

الاستتاج العام

لقد حصل تحول كبير منذ النكبة في البنى الاسرية الفلسطينية التقليدية بفعل عدة عوامل . ورغم ان ذلك التحول كان قاسيا ومؤلما ، فانه لم يؤد الى انهيار المجتمع الفلسطيني . وعلى العكس ، فقد ظهرت وترسخت بين الفلسطينيين حالة ارقى أو أعلى من التضامن و التماسك تقوم على احلال الهوية الوطنية و الانتفاء الوطني محل الانتفاء الاسري و القرابي و القروي .

وكذلك ادت مأساة الفلسطينيين في المنفى و التحديات التي تعرضت لها الاسرة الفلسطينية في الشتات الى خلق اسرة اكثر قوة و مناعة من الاسرة الفلسطينية التي كانت سائدة قبل نكبة ١٩٤٨ . فالعائلة الفلسطينية مهياة اكثر من سابقتها بكثير ، اي اكثر من الاسر الممتدة ، لمواجهة التحديات التي تواجهها . فالاسرة الفلسطينية اليوم افضل تعليما و اكثر تسامحا و ديمقراطية في علاقاتها الداخلية ، و اكثر تسييسا و وعيا ، و اكثر مهارة بمراحل من الاسرة التقليدية الممتدة التي سادت المجتمع الفلسطيني قبل النكبة . و نجد كذلك تحول ايجابي كبير نسبيا في وضع المرأة الفلسطينية . فقد اكتسبت المرأة الفلسطينية درجة عالية من الثقة بالنفس و من الاستقلالية و من الاحترام وسط الاسرة و في المجتمع . و ساعد واقع الفلسطينيين في المنفى و نضالهم المسلح على وضع المرأة الفلسطينية في قمة المسؤولية الاجتماعية . وهكذا نجدها تصدر المسؤولية الاسرية و الاجتماعية كاملة نتيجة لغياب زوجها الطويل في بلاد العمل او في مواقع النضال . و انتهى الى غير رجعة الزمن الذي كانت المرأة الفلسطينية تعتبر فيه هامشية في الاسرة و في العمل الوطني .

ونلاحظ ايضا ان الشتات الذي كان القادة الصهاينة يأملون و يراهنون عليه لاذابة الشعب الفلسطيني في المجتمع العربي لم يؤد الى تلك النتيجة . وفي واقع الامر ، أدت حالة الشتات الى قيام مجتمع فلسطيني اصلب و اقوى مستندا الى حالة ارقى من التضامن الاجتماعي .

ولقد اظهرت دراستنا هذه التأثير الهائل للاقتلاع والشتات على العلاقات الاسرية الفلسطينية .
ولكن هذه العملية التاريخية الكبرى لم تستقر ولم تنته بعد نظرا لعدم وصول الوضع الفلسطيني الى
حال استقرار نهائي . وادى الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ الى موجة جديدة من الهجرة والى مرحلة
جديدة من التفكك والتشردم الاسري لدى فلسطينيي لبنان . كما يهدد الحلاف العراقي - الكويتي وحرب
الخليج الناجمة عنه بتشريد جديد وتشردم اسري جديد واسع النطاق بالنسبة لفلسطينيي الكويت، يكون
الثاني بالنسبة لبعضهم والثالث لبعضهم الآخر والرابع لبعضهم الآخر .

المصادر

- ١) روز ماري صايغ الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع الى الثورة . لندن : زد برس، ١٩٧٩ (بالانكليزية وهناك طبعة عربية).
- ٢) باسم سرحان : العائلة والقرابة عند الفلسطينيين في الكويت بيروت : الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٦
- ٣) باسم سرحان الحياة في المخيم الفلسطيني بيروت : مجلة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٢ .
- ٤) وجيه ياسين التكيف الاجتماعي للأسرة الفلسطينية في الكويت . جامعة الكويت : اطروحة ماجستير غير منشورة . ١٩٨٠
- ٥) زهير حطاب : تطور بنى الأسرة العربية . بيروت : معهد الانماء العربي، ١٩٧٦

© Qhebra, Shefeeg, Palestinianz in Kuwait

The family and the politics of survival colorado: west view press, inc. 1987

الإسلام السياسي ومستقبل السلطة والديمقراطية في الجزائر

توفيق المديني*

الاعصار الجزائري :

الدولة القطرية في الجزائر، دخلت في أزمة بنيوية عميقة وشاملة، منذ بداية الثمانينات، واشتد خناقها عاما بعد عام، حتى انفجرت في شكلها العنيف، من خلال ذلك الانفجار الشعبي الكبير، الذي حصل في أكتوبر عام ١٩٨٨. غير ان ذلك الانفجار الشعبي العنيف الذي احدث زلزالا اجتماعيا عميقا في الجزائر، خلال الاسبوع الاول من شهر أكتوبر، لم يقف على رأسه تنظيم سياسي يؤطره، ويوجهه في خضم صدامه العنيف، مع السلطة وأجهزتها القمعية الجيش والبوليس. ولم يعبر عن ذاته عن طريق بلورة اهداف سياسية واضحة المعالم، وان كان هذا الوضع لا يطمس وجود قوى وتيارات سياسية متناقضة في منطلقاتها الايديولوجية وأهدافها السياسية، من الاسلاميين الاصوليين الى اليساريين، شاركت بهذا القدر اوذاك في هذه الانتفاضة، ولكن من دون تنظيمها وتنسيقها وقيادتها. انه انفجار شعبي كما اجمع على وصفه معظم المراقبين، حيث كان التناقض الاقتصادي والاجتماعي هو الاساس المادي لكل هذا التحرك للصراع

كاتب من تونس.



الطبقي، في افق من التفجير لاساسيات بنية المجتمع التي قاعدتها، التخلف والتبعية والظلم والقهر الطبقي، والرغبة العميقة المكبوتة واليائسة في التغيير. ولقد شكلت المظاهرات الجماهيرية في الشوارع، والتي قامت بها مجموعات من الشباب والطلاب وتلاميذ الثانويات والعاطلين عن العمل، وحرصتها التيارات السياسية، تهديدا خطيرا وجديا لمستقبل النظام الجزائري.

ان كل الانتفاضات التي عرفتها الجزائر خلال السنوات الماضية، والى حد هذه الانتفاضة الاخيرة كانت تعبيرا صادقا عن صرخة الشباب الجامعي والتلميذي والعاطل عن العمل، الذي يواجه مستقبلا قائما ومظلمًا، حيث لاوظائف متوقعة، ولا اسكان يعيش فيه، وغير مقتنع بالوعود الغامضة والاصلاحات التي تلقاها حتى الان. ومن المعروف ان الجزائر تعيش حالة من الانفجار الديمغرافي، اذ يشكل الشبان الذين هم في سن الاقل من خمس عشرة سنة نصف السكان، و ٦٠٪ من اجمالي سكان الجزائر البالغ عددهم الاقل ٢٥ / مليون نسمة هم في سن اقل من ٣٠ / عاما. ومن المتوقع ان يصل عدد سكان الجزائر في حدود العام ٢٠٠٠ الى ٣٥ - ٤٠ مليون نسمة.

في أية محاولة لتحديد اطار تحرك هذه الانتفاضة الشعبية العارمة، ضمن السياق العام لحركة الصراع الطبقي، قد لا يختلف اثنان في تحديد طبيعتها من كونها انتفاضة عفوية، غير ان هذه الانتفاضة التي مارست صراعا طبقيًا عنيفًا ضد الطبقة البرجوازية المسيطرة في الجزائر، من موقع الهجوم، تكمن دوافعها واسبابها الحقيقية في الشروط الموضوعية لازمة الاقتصادية والاجتماعية، وفي عجز النظام الجزائري عن طريق صراعه السياسي والايديولوجي الذي عنوانه، المواجهة والانفتاح على الغرب الرأسمالي الامبريالي، لاختضاع الوعي الاجتماعي للطبقات الشعبية الكادحة، لسيطرته السياسية والايديولوجية.

كيف نحلل ماحدث؟ هنا لا بد من تحديد بعض المسائل الرئيسية التي كان لها دور اساسي فيما

جری:

أولا - ان البرجوازية الصغيرة الجزائرية التي استولت على السلطة، وبخاصة منذ دخول الجزائر في مرحلة سياسية ودستورية جديدة، مابعد ١٩٦٥، طرحت في مشروعها لبناء المجتمع الجديد، تحقيق الثورة الصناعية، والثورة الزراعية، وبناء الاشتراكية ذات الخصوصية الجزائرية. فالدولة الجزائرية التي حملت هذه الرسالة التاريخية، لتؤسس عليها شرعيتها، وتبني مجتمعا ناميا، حسب مشروع الدولة للتصنيع والتحديث السريع، عجزت تاريخيا عن تقويض البنى الاقتصادية والاجتماعية الرأسمالية الموروثة من عهد الاستعمار، وعن بناء قاعدة اقتصادية واجتماعية متحررة من الاستغلال، والتبعية، حيث تكون فيها السيطرة الطبقيّة لجماهير العمال والفلاحين الفقراء. فالميثاق الوطني الجزائري، يؤكد على ان الاشتراكية، واستراتيجية التنمية تقوم على نمط توحيد للقطاعات الثلاثة، الاشتراكي، والمختلط، والخاص. ولقد كشفت التجربة التاريخية عن التناقض الصارخ بين طبيعة التنمية الاقتصادية الوطنية، والاعتماد على رأس المال الاجنبي، وبين تلك الرغبة القائلة بتحقيق الاشتراكية، وتشجيع رأس المال الخاص، الذي يتبع سياسة تحقيق الربح القصوى، والاستغلال البشع للعمال، والمتناقض جذريا مع سياسة التصنيع الثقيلة للدولة. وبما ان الدولة الجزائرية تعتمد على توزيع فائض الربح النفطي المقتطع من السوق الرأسمالية

العالمية، أصبحت شريحة التكنوبروقراطية مهمة بتنمية مشاريعها الخاصة، وتحقيق مصالحها طبقية على حساب خدمة المشروع الوطني. وهكذا ازداد التبلور الطبقي لشرائح البرجوازية الكمبرادورية الجديدة، لتصبح مع وصول الشاذلي بن جديد الى السلطة في العام ١٩٧٩. طبقة مسيطرة على نطاق المجتمع، ولتطرح ازاحة الستار نهائيا عن تلك الازدواجية التي كانت قائمة، والتي تستر بها النظام في الجزائر طويلا، بين طبيعة البنى الاقتصادية الرأسمالية (في القطاع العام وفي القطاع الخاص)، والتمسك بالاشتراكية وبأهدافها المعلنة والدعائية. وقد عملت هذه الطبقة على الغاء العوائق البنيوية في المجال الاقتصادي، المفروضة من نظام الرئيس الراحل بومدين، من أجل تطوير وتوسيع القطاع الخاص الرأسمالي، في ميدان الزراعة والصناعات الخفيفة، والاستحواذ تدريجيا على ملكية وسائل الانتاج التابعة للقطاع العام، كما حصل في مصر. وطرح الرئيس بن جديد منذ ذلك التاريخ موضوع «المراجعة» بهدف اصفاء شرعية سياسية وايدولوجية ودستورية، على التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، التي أحدثتها في بنية المجتمع الجزائري، بواسطة «الثراء الميثاق الوطني» انه الوضع الذي قاد الى ارساء علاقات طبقية جديدة.

ثانيا - ان الجزائر، رغم انها بلد منتج للنفط والغاز الطبيعي، واقحمت بشكل قسري في عملية التخطيط لبناء صناعة ثقيلة، وتحقيق الثورة الزراعية، انخرطت كليا في دائرة الاقتصاد الرأسمالي العالمي، ذلك انه بعكس النظام الاشتراكي، الذي يعتمد على توزيع الفائض المقطع من السوق الداخلية، فان الدولة الجزائرية تعتمد على الربح الفطري المقطع من السوق الرأسمالية العالمية. علما بأن ٩٨٪ من مصادر العملة الصعبة في الجزائر متأتية من صادرات النفط والغاز الطبيعي، وبعض مشتقات النفط المكرر حيث توظف الدولة ٤٣٪ من هذه العائدات في تمويل الموازنة. ولما كانت استراتيجية التصنيع في الجزائر تعتمد على توظيف جزء من موارد النفط، وعلى القروض الاجنبية من أجل بناء المركز الصناعي في ارزو بوهران وتحقيق الاستقلال الاقتصادي والسيادة الكاملة على مواردها الطبيعية، فان التجربة اثبتت فشل هذه الاستراتيجية، جراء ارتباط الفئات التكنوبروقراطية والنخب السياسية الحاكمة في الجزائر بالسوق الرأسمالية العالمية، وادارتها للاقتصاد الوطني في اطار الارتباط بهذه السوق العالمية، يدفعها في ذلك منطق تحقيق الربح السريع، ومحدودية السوق الجزائرية الوطنية لاستيعاب الانتاج الصناعي، وعدم قدرة المشاريع الصناعية على تحقيق ارباح تغطي كلفة انتاجها، ومجعلها قادرة على الحياة. وقاد هذا الوضع من عدم الفعالية الاقتصادية للتصنيع، والمصاعب التي واجهتها الجزائر بداية من العام /١٩٨٦/، بصدد العقود التي ابرمتها حول الغاز مع فرنسا وبلجيكا وإيطاليا واسبانيا، بأسعار جيدة ولمصلحتها في بداية الثمانينات، ولكن مع حصول الانقلاب منذ العام ١٩٨٣، بدخول الاتحاد السوفيتي وكندا في منافسة قوية على صعيد سوق الغاز، في اوروبا الغربية، والقرار الذي اتخذته شركة «بان هاندل ايسرن» الأمريكية بتجميد العقد القاضي باستيراد ٩٠ مليار متر مكعب من الغاز الجزائري، على مدى ٢٠ سنة - مجمل هذا الوضع قاد الى الحاق الضرر الكبير باستراتيجية بيع الغاز الجزائري، اذ يقدر احتياطها بحوالي ٢٢٩.٠٠٠ مليون متر مكعب أي ٩٪ من الاحتياط العالمي. وامام موجة الهبوط الكبير في عائداتها من العملة الصعبة وصل الى ١٧٠ مليون دولار، وتراكم الديون الخارجية الجزائرية التي بلغت ٢٤ مليار دولار. وأصبحت

تلقي بكامل ثقلها، ووزرها على كاهل الشعب والاقتصاد الجزائريين، إذ تدفع سنويا ٧ مليارات دولار لتسديد هذه الديون وخدماتها، فضلا عن ذلك، فإن الدخل السنوي الجزائري من عائدات العملة الصعبة المتأتية من صادرات النفط يبلغ ١٠,٥ مليارات دولار، يصرف منها ٢,٥ مليار دولار لشراء المواد الغذائية من البلدان الرأسالية الغربية، ولا يبقى للحكومة الجزائرية سوى مليار واحد لصرفه على بقية بنود الميزانية. إن هذا الوضع الاقتصادي المأزوم قاد الدولة الجزائرية إلى فشل مبادراتها في القيام بمشروعات إنتاجية في المجالين الصناعي والزراعي، نظرا لعدم قدرتها على توفير الاستثمارات المطلوبة لها، الأمر الذي يعكس والحال هذه انعدام سيرورة التنمية، وبالتالي انعدام سيرورة الانتاج.

ثالثا - إن الجزائر المريضة بازمتها العميقة، ازدادت فيها الأمور سوءا جراء العوامل التالية:

- الثورة المضادة على صعيد الزراعة، حيث يوجد هناك هجرة كبيرة ومكثفة من الريف إلى المدينة، ولم يبق في الريف إلا الفلاحون المسنون ٦٠٪ منهم تفوق أعمارهم الخمسين عاما، ثم إن المساحة الصالحة للزراعة قد نقصت إلى النصف من العام /١٩٦٣/، إلى يومنا هذا. والذي زاد في تعميق الأزمة الغذائية، هو أن نحو ٨٠٪ من السكان يعيشون في المدن، ويستهلكون ما قيمته ٥٠٪ من العائدات النفطية ثمنا للمواد الغذائية المستوردة من السوق الرأسالية العالمية. وعمل النظام الجزائري على تطوير الخاصة في الزراعة بالاعتماد على التكنولوجيا الأميركية، فلزارعون الرأساليون يملكون ٦٦٪ من الأراضي. بينما يتصرف القطاع الاشتراكي في ٣٤٪ من الأراضي ولقد نفّس الفساد والرطوبة في أوساط المؤسسات الحزبية والحكومية، فالأموال التي استولى عليها وزراء ووسطاء وقيادات حزبية كبيرة، على إثر العقود المبرمة مع الشركات والدول الأجنبية تقدر بنحو ٢٦ / مليار دولار، كما صرح بذلك وزير جزائري سابق، وهو رقم أكبر من الديون الجزائرية الخارجية.

- استفحال الأزمة الاجتماعية المولدة للانفجارات الشعبية الكبيرة، والاضطرابات الاجتماعية المتوترة والتي طرحت على بساط البحث من الناحيتين النظرية والسياسية العملية مسألة توظيفها في خطط نضالي ثوري، يطرح قضية الثورة السياسية عامة، وتحقيق الديمقراطية الحقة في مرحلتها الراهنة، على صعيد ارساء العادات والتقاليد اللازمة للممارسة الديمقراطية.

الانفتاح الديمقراطي:

وليس خافيا على أحد أن مضاعفات الأزمة البنوية هذه - من تهديد، وتناقم، واستفحال خطير - بها أصبحت تشكله على وجود الدولة القطرية الجزائرية، هي التي جعلت النظام الجزائري ومن موقع الضرورة الاضطرارية ينتهج سياسة الانفتاح، والديمقراطية السياسية الليبرالية في مجتمع متخلف وتابع، في محاولة لاحتواء جميع أنواع التحديات التي أفرزتها هذه الأزمة، سلميا.

لقد وقعت الدولة القطرية الجزائرية في جزمة من الأزمات. وألها سياسية، بحكم تآكل شرعية النظام الحاكم، وسيادة استخدام الأساليب القمعية من جانب الأجهزة، واتساع هوة الطلاق والقطيعة بين الدولة

الجزائرية الكمبرادورية والشعب، وبالتالي المجتمع المدني بتشكيلاته المختلفة، واحتداد مأزق الدولة القطرية، المعتمدة أساساً في وجودها واستمرار بقائها على هيمنة الحزب الشمولي الاوحد على جهاز الدولة، وتركز السلطة في ايدي نخبة عسكرية وتكنوقراطية.

ان غرق النظام الجزائري في خضم الازمة البنوية هذه، وتغير المجتمع الجزائري كماً وكيفاً خلال العقدين الماضيين، وعمجز الدولة القطرية عن استيعاب متطلبات وحاجات هذا المجتمع المدني للديمقراطية، والتحديات التي أفرزتها الازمة من ناحية، والانتفاضة الشعبية من ناحية أخرى، كل هذه العوامل مجتمعة بما تشكله من خصوصيات داخلية، طرحت مسألة التحولات الديمقراطية. غير أن هذه الديمقراطية المقترنة بالساح بالتعددية السياسية، وبالساح لأحزاب ومنظمات المجتمع المدني وتكويناته المختلفة (من أحزاب سياسية معارضة، ونقابات عمالية ومهنية، وجمعيات ثقافية وفكرية، واتحادات شبيبية، ونسائية) بأن تنمو وتتطور تحت الرقابة المباشرة للدولة، لانفسح المجال امام الشعب لكي يحدد ويختار بحرية النظام السياسي المناسب له، ويتنخب، ويحاسب، ويغير الحكومة، بفضل دور المؤسسات الديمقراطية، ودولة القانون، وحرية الصحافة، ووسائل الاعلام، وجماعات الضغط المنظمة مثل منظمات حقوق الانسان، والمؤسسات القضائية. فالديمقراطية التي تنتهجها البرجوازية الكمبرادورية الجزائرية راها، تستهدف تكييف الطبقات الشعبية مع مقتضيات ومتطلبات التقسيم الامبريالي للعمل، وعملية الاندماج في السوق الرأسالية العالمية. انها تتناقض مع الديمقراطية الشعبية الحقيقية التي تقود الى أن يضطلع المجتمع المدني بدور رئيس في تحديد الخيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للنظام الجزائري، بما ينسجم مع خط تجسيد القطيعة مع الامبريالية العالمية، وتهديم بنية التبعية والتخلف في التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية القائمة، والقضاء على البنية الفوقية الايديولوجية والسياسية للدولة القطرية الجزائرية المغرقة في تخلفها ورجعيتها، وبناء المؤسسات الديمقراطية، المنبثقة من الشعب، وبالتالي بناء دولة القانون والعدل الاجتماعي.

أربعة وعشرون حزبا من مختلف المنابع الفكرية والايديولوجية. والاتجاهات السياسية تم الاعتراف بها الى حد الآن، منذ ان بدأ العمل بتطبيق نظام التعددية الحزبية، في الجزائر. المعروف أن الجزائر كان ولا يزال يحكمها نظام الحزب الواحد منذ عام ١٩٦٢/ أي بعد الاستقلال، غير ان النظام وبعد سبعة وعشرين عاما، افسح المجال لتأسيس احزاب جديدة، وجمعيات صغيرة، ولجان ثقافية خاصة بحقوق الانسان، وأصدر قرارات باعطاء تراخيص بالعمل السياسي العلني للأحزاب القديمة التي كانت منحلة طيلة المرحلة الماضية.

وإذا كان معظم المراقبين يجمعون على ان الجزائر تعيش فعلا عصر التحولات، بما ان هذه التحولات اتت بعد ان بلغت الازمة السياسية ذروتها بين الدولة القطرية والمجتمع المدني، حيث أن الطلاق بين الحكم والشعب اصفى تعبير واضح عن هذه الازمة على الصعيد السياسي.

وفي ظل هذه التحولات، تبحث الاحزاب والمنظمات التي تم الاعتراف بها عن الديمقراطية واذا كانت هذه الاحزاب مازالت بعيدة عن تغيير المعادلة السياسية القائمة في الجزائر، الا ان الوثبة القوية

للحركة الاصولية تنذر بالشيء الكبير، وقد تطبيع المرحلة الحالية والمقبلة من العمل السياسي بطابعها. اذا احتدم التنافس والصراع بين الاحزاب المختلفة، سواء منها الحديثة النشأة، والتي لا تمتلك برامج وتجربة سياسية متكاملة، او مشروعاً لبناء مجتمع جديد، والتي مازالت تشق طريقها في تضاريس السياسة الجزائرية المعاصرة، ومن الصعب الان الحكم على دورها في تحديد مستقبل وسياسة الجزائر، او الاحزاب الكبيرة العقائدية التي تتبنى ايدولوجيات شمولية، مثل الحزب الشيوعي الجزائري، والحركة الاصولية الاسلامية.

لقد تأسس الحزب الشيوعي الجزائري في أوائل العشرينات من قبل مستوطنين فرنسيين، وقد عرف تعرجات خطيرة خلال مسيرة وجوده، اذ اتخذ مواقف مؤيدة لفرنسة الجزائر قبل الاستقلال، وهو التيار المتغرب داخل الحزب، غير ان الحزب اتخذ مواقف شبيهة بمواقف الحزب الشيوعي الفرنسي المعادية للاستعمار. وكانت استراتيجيته السياسية تابعة، وجزءاً لا يتجزأ من استراتيجية الحزب الشيوعي الفرنسي، باعتبار ان الحزبين منضويان تحت لواء الاممية الشيوعية الثالثة، ولكن بعد استقلال الجزائر انهار هذا التيار، وغير الشيوعيون الجزائريون اسم الحزب الشيوعي الذي أصبح يدعى «حزب الطليعة الاشتراكية». وقد تأسس هذا الحزب الجديد بعد الانقلاب الذي اطاح بالرئيس الاسبق احمد بن بيلا في 19/ حزيران / 1965. وفي غضون ذلك اتخذ الحزب موقفاً نقدياً من حكم الرئيس بومدين في بداية عهده، ومعادياً في اوائل السبعينات بعد الضغوط التي مارسها الاتحاد السوفياتي، والقمع الذي تعرض له مناضلوه. فانضم الى حزب «جبهة التحرير الوطني»، الذي تم على اساس افراد، لا على اساس كتلتات حزبية كبيرة. وهذا التكتيك الناجح حقق الحزب اختراقات متعددة في اوساط النقابات العمالية، ومنظمات الشبيبة والمرأة، وفي اوساط الاقلية المثقفة المتعاطفة مع التغريب.

وعلى أثر وفاة بومدين، أيد الشيوعيون الجزائريون وراهنوا في الوقت عينه على التيار التقدمي داخل جبهة التحرير الوطني بقيادة العقيد محمد صالح يحيواوي في صراعه مع خط الشاذلي بن جديد وعبد العزيز بوتفليقة، ولكن مجيء الشاذلي بن جديد الى رئاسة الدولة، طرح على الشيوعيين الجزائريين مجدداً الدخول في السرية، متخليين في ذلك عن مواقعهم داخل حزب جبهة التحرير الوطني، وان ظلوا ينشطون على صعيد النقابات العمالية، حيث نظموا عدة اضرابات عمالية في المصانع المجاورة للعاصمة الجزائرية، وقاموا بدور محدود في انتفاضة أكتوبر. وجاءت عودة الحزب الشيوعي الى العمل السياسي الشرعي مؤخرًا، في ظل ظروف غاية في التعقيد سواء على الصعيد المحلي حيث تركت تجربة الاشتراكية البيروقراطية في الجزائر اثر سلبياً عند عموم طبقات الشعب، ام على صعيد المتغيرات الدولية في بلدان الاشتراكية المشيدة. ومع ان الحزب الشيوعي مازال يعلن تمسكه بالماركسية - اللينينية، ويرفض سياسة «البيرسترويكا» السوفياتية، الا انه من الصعب عليه ان يكون ذا دور مؤثر في الحياة السياسية الجزائرية اذا لم يقم بعملية تغيير ثوري وجذري في كل بنيتة الايدولوجية، وفي استراتيجيته السياسية بما ينسجم مع الخط الايدولوجي السياسي الذي يقدم اجابات موضوعية وعلمية للتحديات وللقضايا العالقة التي تواجه الجزائر وطنياً - واقليمياً وقومياً. وأهم هذه القضايا، المسألة الديمقراطية المقترنة بالخط العلماني التقدمي، والتحرر من دائرة

التخلف والتبعية، والصراع ضد الرجعية الداخلية والامبريالية الغربية، والموقف الجذري الحازم من قضية تحرير فلسطين، والوحدة العربية.

ويعتبر الحزب الكبير الثاني - حزب «جبهة القوى الاشتراكية» الذي يترأسه حسين آيت أحمد، حزبا علمانيا في منطلقاته الايديولوجية وتوجهاته السياسية، وهو يمثل الحساسية البربرية في الجزائر، ويتركز نشاطه في منطقة تيزي اوزو. ولقد تأسس حزب «جبهة القوى الاشتراكية» بعد الاستقلال مباشرة، حين قاد حسين آيت احمد ثورة في منطقة القبائل ضد الدولة والحزب في عام ١٩٦٣، تم سحقها في عهد بن بله، الامر الذي جعله يعيش في المنفى طيلة السنوات /١٩٦٦ - ١٩٨٩/. ومع ان السلطة قد فرقت آيت احمد عن بن بله، الا ان المعارضة جمعتهما من جديد في العام ١٩٨٧، حين تحالف مع بن بله واسس تيارا واحدا في الخارج يسمى «الحركة من أجل الديمقراطية». ان حزب جبهة القوى الاشتراكية يعترف بأن التآلف والاتحاد بين التيارين العربي والبربري في الجزائر، هو الضمانة الوحيدة لكي تكون الجزائر قادرة على الحياة، وهو يطالب بجعل اللغة الامازيغية لغة وطنية، ويرفض الاتجاه المعادي للغة العربية الذي ينادي به التنظيم البربري الناشئ، والذي يدعى «التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية». وفيما يعتبر آيت احمد اللغة العربية لغة القرآن لا لغة ظلامية، ويطالب ابناء اثنيته لتعليمها، كما يدعو العرب الى تعلم اللغة البربرية. وتتنافس التيارات العلمانية التغريبية (ذات الدعوات الفرنسية)، والتي تمثل فئة المتعصبين والمتطرفين من ابناء الاثنية البربرية، حزب آية أحمد على تمثيل مجهود البربر في الجزائر. ومع ذلك، فان التيارات العلمانية التغريبية المنتشرة في اوساط البربر تعاني من التشتت، والنزوع الجغرافي، والمناطقية، والجهوي، للقبائل، وتعدد اللهجات المحلية. فهناك مناطق القبائل في الشمال وعاصمتها «تيزي اوزو»، وهناك مناطق الشاوية في جبال الاوراس شرق الجزائر، وهناك ثالث الطوارق في أقصى جنوب الصحراء، وهناك رابعا، قبائل الاباضية التي تنتشر في وادي ميزاب في جنوب وسط الجزائر، وتتركز في العاصمة الاقليمية غرداية.

٣ - التحدي الاصولي :

أما التيار الاسلامي الاصولي، فهو يتمثل بشكل رئيسي في تنظيم «جبهة الانقاذ الاسلامية» التي يتزعمها عباس مندي. وتشهد الجزائر مدا دينيا اصوليا وسلفيا غاية في القوة والعنف حتى ان المراقبين باتوا معتقدين، بأن الحركة الاصولية الاسلامية الجزائرية تعتبر أخطر وأقوى حركة اسلامية في العالم الاسلامي بعد ايران. والحركة الاصولية الاسلامية في الجزائر، تضم عدة اتجاهات في داخلها، وهي على النحو التالي: الاتجاه السلفي، والاتجاه الاخواني، وجماعة التبليغ، وجماعة الطليعة، والاتجاه الصوفي والحركة الاصولية الاسلامية في الجزائر، حركة مسلحة لديها ميليشيا مسلحة تسيطر ليلا على احياء وحارات وساحات. وقد قام الناشطون الاصوليون من هذه الحركة بمهاجمة النساء العاملات، وهوائيات البث التلفزيوني. وقد هاجم اصوليون سلفيون في ١٦ كانون الثاني الماضي قصر العدل في مدينة بليدة، حيث

تواجه بالنار اصوليون مع رجال الشرطة، فسقط خلالها ٣ قتلى من الطرفين. ان الحركة الاصولية الاسلامية تريد ان تفرض قوانينها وان تسوق طروحاتها بالقوة.

ولقد خرجت الحركة الاصولية الاسلامية من اسوار الجامعة لكي ترمي بكل ثقلها في الاوساط الشعبية، من أجل توسيع قاعدتها الاجتماعية ابتداء من العام ١٩٨٠، حين انتهجت السلطة في الجزائر سياسة «الانفتاح والمراجعة» وقد اعطتها هذه السياسة دفعة قوية للنمو على حساب اليسار.

وإذا كان الرئيس بن جديد حاول ان يستوعب الحركة الاصولية الاسلامية، عن طريق الجمع بين الديمقراطية والاسلام، فان الحركة الاصولية تطرح الان وبشكل صريح اقامة الدولة الاسلامية، وبناء المجتمع الاسلامي، يقينا ان تكرار التجربة الايرانية امر وارد مع الفارق في الخصوصيات التي تحكم كل بلد، فضلا عن ان الحركة الاصولية في الجزائر يكمن ضعفها في عدم وجود زعيم كبير كاريزماتي لها.

ولقد اصبحت جبهة الانقاذ الاسلامية تشكل تحديا صارخا للحكم الجزائري، ويزداد هذا التحدي تبلورا حين تطرح اسقاط شرعيته، وأحقية استمرار النظام الحاكم الحالي في الجزائر. وليس أدل على ذلك من انذار جبهة الانقاذ الاسلامية للسلطة في تلك التظاهرة الحاشدة أمام قصر الرئاسة، المطالبة بحل مجلس الشعب (البرلمان) وعقد انتخابات برلمانية في غضون ثلاثة اشهر.

من ابرز العوامل التي قادت الى تقوية جبهة الانقاذ الاسلامية، بما مكنها ويمكنها من استخدام العنف في مواجهة السلطة، القمع الذي مارسه اجهزة الدولة الجزائرية على التيارات اليسارية والديمقراطية خلال العقدين الماضيين، حيث اصبحت الساحة السياسية خالية امام التيار الاصولي الاسلامي، يضاف الى ذلك استخدام الدولة الجزائرية بطريقة ذرائعية صرفة ورقة الحركة الدينية في مواجهة اليسار والديمقراطيين. ويزيد من الحضور القوي والفعال لجبهة الانقاذ الاسلامية، استشراس الازمة الاقتصادية والسياسية في الجزائر، واستئثارها حركة التذمر الواسعة النطاق في الاوساط الشعبية، خصوصا وان الحركة الاصولية تمتلك وسائل خاصة اولها المال. وقد التحق الشباب العاطل عن العمل، والذي توقف عن متابعة الدراسة في بلد تتجاوز اعمار ٧٥ في المئة من سكانه ٣٠ عاما، بصوف جبهة الانقاذ الاسلامية، وحصلت هذه الاخيرة على دعم كبير من جانب طبقة التجار، وكبار الملاكين العقاريين، والحرفيين، ومن بينهم بائعو المجوهرات، وقسم من المثقفين. وفي نطاق اختبار القوة والتمرن على المواجهة مع السلطة، قامت جبهة الانقاذ الاسلامية بتنظيم مظاهرة حاشدة وبالغة الانضباط في ٢٠ نيسان الماضي. وتُشكل عرض القوة هذه من جانب جبهة الانقاذ الاسلامية، ضربة قاصمة لحزب جبهة التحرير الوطني، وللرئيس الشاذلي بن جديد، الذي انتقد الحزب الحاكم، ومجلس الشعب، على تكيفها البطيء مع سياسة التعددية الديمقراطية، التي بدأ في تطبيقها. وعلى الرغم من ارادة بن جديد لتجديد الحزب واصلاحه، الا انه من الواضح ان حزب جبهة التحرير يعاني من مرض الشيخوخة بعد ٢٨ عاما على رأس السلطة كشفت النقاب عن افلاسه، وهو يعيش الان في حالة من الاحتضار.

وأظهرت نتائج انتخابات مجالس البلديات والولايات المتوقعة، لاول انتخابات حرة في الجزائر، بشكل لم يحدث من قبل في الوطن العربي، والتي قامت على اساس التعددية الحزبية، فوزا ساحقا لجبهة

الانقاذ الاسلامية التي فازت في اكثر من ٥٥ في المئة من البلديات الجزائرية البالغ عددها ١٥٣٩، وفازت في ٤٥ ولاية من اصل ٤٨، فيما حصلت جبهة التحرير الوطني على نسبة ٣٥ في المئة. وفاز حزب التجمع من أجل الثقافة، والديمقراطية في ٥١ بلدية اي ٨,٣ في المئة، وجاء في المرتبة الثالثة.

ومن المعلوم ان ١١ حزبا شارك في هذه الانتخابات من أصل ٢٥ حزبا مرخصا في الجزائر، ولكن المشاركة هذه من جانب الاحزاب لم تكن متكافئة، لان معظمها احزاب او جمعيات صغيرة مازالت ناشئة وليس لديها الامكانيات والبرامج المتبلورة للدخول في صراع انتخابي، خصوصا وان القانون في الجزائر يشترط الحصول على ٧ في المئة من اصوات الناخبين ليتسنى لهم تمثيلهم. ومع ان حزب الطليعة الاشتراكية الشيوعي، الذي يتمتع بثقل نسبي في اوساط العمال، وبعض قطاعات المثقفين، وحزب «التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية» الذي يتمتع بثقل في منطقة القبائل، قد شاركا في هذه الانتخابات، الا ان مشاركتيهما في هذه الانتخابات لم تقلبا موازين القوى الانتخابي، طالما ان المنافسة الحقيقية والرئيسية، والصراع الانتخابي قد جرى بين حزب جبهة التحرير الوطني الحاكم، وحزب جبهة الانقاذ الاسلامية، باعتبارهما الحزبين اللذين يتمتعان بتواجد تنظيمي سياسي وشعبي على المستوى الوطني.

وبانتهاج حزب «جبهة القوى الاشتراكية» الذي يتزعمه حسين آية احمد، والمتمركز بشكل رئيس في منطقة القبائل، التي عاصمتها «تيزي أوزو»، سياسة المقاطعة، حيث ان ٨٠ في المئة من البربر امتنعوا عن التصويت، فيما اعطى البقية اصواتهم للتنظيم البربري الثاني المنافس «التجمع من أجل الديمقراطية والثقافة»، وكذلك الامر بالنسبة للحركة من أجل الديمقراطية، التي اسسها اول رئيس للجمهورية الجزائرية المستقلة احمد بن بلا، التي اتخذت موقف المقاطعة في هذه الانتخابات، فان الحزبين كليهما اسهما موضوعا وسياسيا في نجاح جبهة الانقاذ الاسلامية في هذه الانتخابات. وقد انتقدت اوساط حزب جبهة التحرير الوطني مقاطعة الحزبين، (وبخاصة جبهة القوى الاشتراكية الذي يتمتع بنفوذ قوي في اوساط البربر)، كان سيؤدي لو شاركا في احداث تغيير، ولو نسبي، في موازين القوى التي شاركت في هذه الانتخابات.

بالاضافة الى الازمات المستعصية، يواجه النظام الجزائري التحدي الاصولي. ويسود الاعتقاد لدى معظم الدوائر العربية، ومعظم الدبلوماسيين والزعماء السياسيين في منطقة المغرب العربي، ان النظام الجزائري يعيش حالة من الاحتضار، وان الانفجار قادم لاريب فيه. والموضوع الشاغل للجميع يتمثل في الخيارات المطروحة، التي قد تؤدي الى تغيير النظام، وبالتالي في الانعكاسات الاقليمية والعربية والدولية لعملية التغيير السياسي التي بدون شك ستتجاوز الحدود السياسية والجغرافية للجزائر.

ولقد احدث انتصار جبهة الانقاذ الاسلامية هزة عنيفة داخل حزب جبهة التحرير الوطني، حيث شهد اجتماع المكتب السياسي الاخير جدا لاصفا، وجه فيه المسؤولون الحزبيون اتهامات الى بعض رموز الحكومة، وبخاصة وزير الداخلية، بشأن مسؤوليته في هزيمة حزب جبهة التحرير في الانتخابات، وتعاطفه مع جبهة الانقاذ الاسلامية. ثم ان المكتب السياسي، واضح وصریح حين تحدث عن «نواقص واخطاء لم يخل فيها التنظيم العام للانتخابات». كما دعا بيان المكتب السياسي للمرة الاولى منذ ان دخلت

الجزائر مرحلة التعددية السياسية «الى مشاورات واسعة بين مسؤولي الاحزاب واصحاب الرأي في البلاد لتحديد الشروط الضرورية لدعم المسار الديمقراطي» كما اكد البيان ان تحديث الحزب ودعم بنيتة البشرية هما من ابرز مهام المستقبل».

ويشهد حزب جبهة التحرير الوطني صراعا بين جناحين. فالجناح العلماني في الحزب، الذي ينحدر معظم قياداته من منطقة «القبائل» يدعو الى التحالف مع اليسار، وفي مقدمتهم حزب الطليعة الاشتراكية (الشيوعي) في حين ان الجناح العربي الاسلامي، يدعو الى التحالف مع جبهة الانقاذ الاسلامية ويضم هذا الجناح نحو 64 نائبا و 120 عضوا من اللجنة المركزية. ان هذا الجناح الاخير المهادن للاصوليين قد رفض عملية المواجهة مع الحركة الاصولية، واسهم بضغوطاته في اضعاف الحزب خلال ازمة المسيرات، لان قرار المواجهة، من وجهة نظره، رد «لمن تكون نتائجه لمصلحة الحزب على الاطلاق». وهو يعتبر التراجع هذا خطوة تمهيدية للتخفيف من تشنج الشارع والتفكير مستقبلا في اساليب احتواء الظاهرة الاصولية سلميا، «لان التطرف لا يواجه بالتطرف»، ولان العنف يغذي العنف». ويعتبر هذا الجناح ان التحولات في الاتحاد السوفياتي واوروبيا الشرقية هي بمنزلة «انهيار لكل المفاهيم، التي رفعها الحزب طوال السنوات الماضية».

أما الجناح «العلماني» في الحزب، فهو يدعو الى «تطهير الصفوف من العناصر التي مدت جسورا مع الجبهة الاسلامية للانقاذ، ويعتبر ان التغيرات التي جرت في اوروبيا الشرقية، تتطلب «حشد كل افراد المجتمع خلف موضوعي الوطنية والقومية»، وهما من العناوين الاساسية للمرحلة القادمة.

وإذا كان خيار جبهة التحرير الوطني في المرحلة المقبلة، يتمثل في تحقيق اجماع وطني ديمقراطي عريض، يضم الوسط واليسار، عبر بناء جبهة ديمقراطية واسعة، تضم الجناح العلماني، والحركة من أجل الديمقراطية، وحزب جبهة القوى الاشتراكية والاحزاب الديمقراطية الاخرى، باعتبار ان هذا الخيار هو الذي بإمكانه في اللحظة السياسية الراهنة ان يستوعب الهجوم الاصولي الاسلامي، وان ينقذ الجزائر من انفجار لا يستطيع احد الان ان يقدر حجم قوته، الا انه كيف يمكن لحزب جبهة التحرير ان يدعو الى بناء محور ديمقراطي يلعب فيه دورا مركزيا، في حين انه تشقه تناقضات اسلفنا في الحديث عنها سابقا، فضلا عن التناقضات بين دعاة الانفتاح الاقتصادي واحلال قوانين السوق الرأسمالية، واعادة الاندماج الكامل في النظام الرأسمالي العالمي، وبين دعاة التثبيت بالقطاع العام، والتمسك بالخيار الاشتراكي البومديني؟

وكيف يمكن لحزب جبهة التحرير ان يبني محورا ديمقراطيا في اطار التحالف العريض، وعقدة الثأر التاريخية مازالت قائمة بين رجال الحرس القديم البومديني امثال محمد صالح مجاوي وعبد العزيز بوتفليقة وبين اية احمد زعيم حزب جبهة القوى الاشتراكية؟

انه في ضوء التناقضات الايديولوجية والائتنية، التي تشق حزب جبهة التحرير الوطني، والتوزع في الولاءات، والانقسامات الحاصلة على صعيد الخيارات الاقتصادية الاجتماعية، يصعب في المرحلة المقبلة ان يلعب حزب جبهة التحرير دورا مركزيا على صعيد بناء الجبهة الديمقراطية، لان هذا الحزب يعاني من

ازمة ثقة على صعيد الطبقات في المجتمع، وخير دليل على ذلك الطلاق التاريخي، بين الحزب والشعب، الذي بدأ يبحث عن تمثيلات سياسية اخرى. اذ ان هذه الازمة الايدولوجية التي يعاني منها الحزب، هي في صيرورتها التاريخية، ازمة سياسية عنيفة، وهي كذلك تعبير تاريخي محدد عن ازمة البرجوازية الكمبرادورية المسيطرة. وهكذا عندما ينتفي وجود التوافق الضروري بين ايدولوجية الحزب الحاكم، وواقع التطور الاقتصادي والاجتماعي، وتدخل الطبقة البرجوازية في ازمته العميقة، يتوزع الحزب الحاكم الى عدة تيارات سياسية متصارعة متنافسة، تنخر جسمه العريض.

في مقابلة لمجلة لوبوان الفرنسية، اعلن عباس مدني، ان هدف جبهة الانقاذ الاسلامية، هو اقامة سلطة اسلامية بديلة، وبناء دولة اسلامية، وتطبيق قوانين الشريعة الاسلامية. وامام هذا الانتصار الذي حققته جبهة الانقاذ في الانتخابات البلدية الاخيرة، ماهي الاحتمالات، والتوقعات العربية للاوضاع، بشأن مصير السلطة في الجزائر على ضوء اللوحة السابقة؟ وهل ستحسم جبهة الانقاذ الاسلامية موضوع السلطة نهائياً، بالتالي انتقال الجزائر الى الحكم الاسلامي الاصولي، ام ان هناك خيارات اخرى مطروحة؟ يقول عباس مدني في مقابلة اجرتها معه صحيفة الوطن الكويتية بتاريخ ٢٢ حزيران، ان الازمة في الجزائر «في بداية الطريق الى الحل» الان، وعندما يعاد انتخاب المجلس التشريعي يكون الاستقرار السياسي قد أصبح واقعا ملموسا.

اذن تنادي جبهة الانقاذ الاسلامية بحل مجلس الشعب «البرلمان»، وتنظيم انتخابات تشريعية مبكرة. وكما يقول مدني «الشعب الجزائري لايحتاج الى وصاية وقطاره لاينتظر، واعادة انتخاب المجلس الوطني ضرورة وجود له». وهكذا، تريد جبهة الانقاذ الاسلامية الاستفادة من الجو العام لهذا الانتصار الانتخابي في البلديات والولايات، لتأمين غالبية مطلقة في البرلمان.

ويلتقي احمد بن بله، واية احمد موضوعيا وسياسيا مع عباس مدني، بشأن حل المجلس الشعبي الوطني «البرلمان الحالي»، مع الفارق ان الزعيمين كليهما يطالبان باجراء انتخابات تشريعية وطنية تؤدي الى انشاء مجلس جديد «تأسيسي». وقد اعتبرت اوساط جبهة التحرير الوطني أن انشاء مجلس تأسيسي معناه اقرار قوانين اساسية جديدة للبلاد. في حين ان البلاد قد تسلمت منذ سنتين بدستور جديد وفر الضمانات القانونية لتدعيم مسيرة التعددية الديمقراطية، وانشاء مؤسساتها.

والجزائر اليوم تعيش مرحلة ازدواجية السلطة، والرئيس الشاذلي بن جديد، هو الذي يمتلك الصلاحيات الدستورية لحل مجلس الشعب الوطني.

وهناك خياران الان لتجاوز هذه الازدواجية في السلطة الاول: على ضوء الخسارة التي مني بها حزب جبهة التحرير الوطني، قد يعمل الرئيس بن جديد على تشكيل حكومة ائتلاف وطني، تضم شخصيات مستقلة وديمقراطية، تكون مهمتها الاولى اعادة الثقة، وتحقيق توازنات متكافئة بين «الاصوليين» و«الديمقراطيين»، والتهيئة لانتخابات تشريعية في فترة زمنية لاحقة، بما يمكن الديمقراطيين من تقديم بديل ديمقراطي، قادر ان يحقق به انتصاراً نهائياً في الانتخابات المقبلة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل ستقبل جبهة الانقاذ الاسلامية بهذا الخيار، وهي التي الحقت هزيمة نكراء بحزب جبهة التحرير الوطني؟

الثاني: ان يدعو الرئيس بن جديد الى حل مجلس الشعب في نهاية تموز كما صرح بذلك عباس مدني. في هذه الحال يمكن تنظيم انتخابات تشريعية مبكرة «الموعد المقرر للانتخابات التشريعية المقبلة هو ربيع ١٩٩١». وهذا بالفعل ما دعا اليه الرئيس بن جديد.

وفي حال فوز جبهة الانقاذ الاسلامية بالغالبية المطلقة في البرلمان، فان الرئيس بن جديد مدعو لتعيين عباس مدني رئيسا للحكومة، وبالتالي تدخل الجزائر في مرحلة حكم «التعايش» على غرار ما عرفته فرنسا حين عين الرئيس الاشتراكي فرانسوا ميتران في العام ١٩٨٦، الزعيم الديغولي جاك شيراك رئيس للحكومة، في ظل ولاية رئيس اشتراكي.

ولكن هل نضجت التجربة الديمقراطية في الجزائر لكي تقبل مبدأ التعايش في الحكم على غرار الديمقراطيات الكلاسيكية الغربية؟
اما الاحتمال الثاني، فيتمثل في تنظيم انتخابات رئاسية خلال الاشهر الستة الاولى من العام ١٩٩١.

ولما كانت جبهة الانقاذ الاسلامية تدعو الى اقامة الدولة الاسلامية كهدف استراتيجي، حيث يصبح مضمون «الحاكمية كله» في التصور الاسلامي للحكم، والحق الالهي في الحكم، هو اساس السلطة في هذه الدولة الدينية وذلك من اجل تأسيس مجتمع اسلامي، الاسلام عقيدته وشريعته، مجتمع يرفض كل سلطة غير السلطة لله، ولا يخضع لغير حكم الله، فان على المرء العاقل ان لايتوهم، ان مسألة التعايش ستتم سلميا، او ستدوم طويلا.

لان حجر الزاوية في تحديد منبع التناقض بين الاسلام السياسي والديمقراطية، يتمثل في تحديد طابع ومضمون العلاقة بين الدين والدولة، الذي ستحتله في مشروع دولة المستقبل لكليةها. ان هذه المعضلة النظرية والسياسية والحضارية علاقة عضوية مباشرة بسياق ومجرى المعارك الايديولوجية والسياسية الراهنة، حيث ان طابعها التاريخي المميز، هو في جوهره صراع طبقي بين مواقع طبقية مختلفة متناقضة ومتصارعة داخل البنية الاجتماعية الكولونيالية العربية الخاضعة لسيطرة علاقة التبعية البنيوية للامبريالية عامة، والامريكية بخاصة.

ومما لاشك فيه ان وصول حكم اسلامي في الجزائر، سيكون له وقع كبير في كل منطقة المغرب العربي وبخاصة تونس، حيث ان حركة النهضة الاصولية تحتل حاليا ما بين ٢٠ و ٣٠ في المئة من الناخبين، وتطرح اقامة السلطة الاسلامية البديلة في تونس، كما انه سيكون متنفسا للحكم العسكري في السودان، المرتبط ايديولوجيا وسياسيا بحزب الاخوان المسلمين.

ويزداد هذا الخيار وثوقاً على ضوء التحولات التي طرأت على خط الحركة الاسلامية، مع اشتداد أزمة الخليج، وتفجير الحرب الاميركية على العراق، حيث أن غالبية الجماهير العربية في المغرب العربي تؤيد باطلاقية العراق، وتعداي باطلاقية حكومة الولايات المتحدة الاميركية بخاصة، والعدو الصهيوني، الامر الذي جعل الحركة الاسلامية تركب موجة الحركة الشعبية، وتبني الخط القومي المعادي للامبريالية الاميركية، كي لا تسقط جماهيرياً.

عقلية الجماهير في مواجهة افرازات عقلية التسوية

جهد الرنتيسي^(٥)

لم تكن التصريحات التي ادلى بها رموز محسوبون على احد اطراف اليمين العربي (اليمن الفلسطيني)، والتي ابدوا فيها استعداد المنظمة للدخول في مفاوضات مع العدو الصهيوني كنقطة بداية للتوصل الى «سلام دائم!!» في المنطقة على اساس قرار مجلس الامن رقم (٢٤٢)، واطلاق كامب ديفيد جديدة على القارىء العربي المتبع لمسار التسوية، الا مهزلة، مثلما لم يكن اعلان هذه الرموز عن وجود اتصالات مع العدو الصهيوني منذ عام ١٩٦٨ بمعزل عن ادراك المواطن العربي الا مهزلة اخرى من المهازل. الا ان مثل هذه الدعوات تكتسب في المرحلة الراهنة دلالاتها الخاصة من حيث التوقيت، ومن حيث طريقة الطرح فهي نمجء في العام الثالث للانتفاضة. وبعد ان اثبت ماسمي بهجوم السلام الفلسطيني فشله الذريع على مختلف الاصعدة، ومن ناحية اخرى فان الطرح السياسي اصبح اكثر سفورا عما عهدناه، الا انه في سياقة العام لا ينفصل عن مسار التسوية الذي نثرت بذوره الاولى حسب اعتراف احد الرموز لجمهور الجمعية الراديكالية في لندن - في عام ١٩٦٨ خلال الاتصالات التي تمت مع الكيان الصهيوني في تلك المرحلة.

ويغض النظر عن النتائج التي سيؤدي لها مثل هذا النهج - وهي نتائج محسومة سلفا وقد تعرضنا لها في احد اعداد الطليعة - الا انه يجب التأكيد في هذه المرحلة التي تمر بها القضية الفلسطينية ومستقبل منطقتنا العربية على ان هذا النهج ليس الا افرازاً لعقلية التسوية العربية التي تحكم مسارها بنى اجتماعية واقتصادية معينة، اصبحت من خلال التطورات التي مرت بها منطقتنا العربية، تنفصل شيئاً فشيئاً عن مصالح الجماهير الشعبية، وتعمل تطلعات مغايرة لتطلعاتهم، فتحاول في المحصلة تكريس واقع الهزيمة والترويج لمنطق التسوية من جهة، والاستفادة من نضالات الجماهير الشعبية وتسخيرها للحصول على مكاسب فئوية، ولم يحكم هذا المنطق عقلية اليمين الفلسطيني طوال مراحل النضال الذي خاضته المقاومة الفلسطينية فحسب، فقد كان المنطق السائد لدى اليمين العربي... يبرز من خلال تعامله مع القضايا الوطنية اومع مصالح الجماهير الشعبية العريضة.

كاتب من فلسطين.



الا ان اليمين الفلسطيني لم يقدم على التسوية، ليس لان مصالحه السياسية تتناقض معها، كما يرتأي البعض، او لان هناك تناقضات حادة بين عقلية التسوية والمشروع الامبريالي الذي شكل منذ الحرب العالمية الثانية الارضية التي دار عليها الصراع. فطبيعته الاقتصادية الاجتماعية تحتم عليه الارتباط بهذا المشروع والسير في ركابه. مع الاخذ بعين الاعتبار الطبيعة الكمبرادورية الغير منتجة لليمين العربي ومنه اليمين الفلسطيني، وقد كان هذا اليمين منذ عقدين من السنوات على الاقل مهياً لمثل هذه الخطوة ومعاً بالرغبة للوصول الى اتفاق مع الكيان الصهيوني وقد برزت هذه الحقيقة من خلال التلميحات المستمرة والتصريحات الحية المبطنة في بعض الاحيان، وكان من الواضح ايضا عدم وجود الحوافز والضمانات من قبل العدو الصهيوني.

في تحليل له عن عقلية اليمين الفلسطيني كتب عالم النفس الامريكي هيريت كلان الاستاذ في جامعة هارفارد بعد لقاء ضمه واطراف اليمين، بان تصور اليمين الفلسطيني لاسرائيل «يوحي بانه مرحب بالمفاوضات وانه يبحث عن الاسرائيليين الذين يكون بوسعهم ادارة الحوار معهم، بغية الوصول الى المصالح المشتركة، وهو يطرح اهتماما بالاتصال المباشر مع الاسرائيليين لايجاد ارضية مشتركة» وقد ركز الباحث في تحليله على مرور بعض اطراف هذا اليمين خلال حواراه معهم بقصة داود الذي منح اللجوء اثناء هروبه من الملك شاول بواسطة الفلسطينيين، وفي الحقيقة لم يكن من المستغرب بان يمر اطراف هذا اليمين على مثل هذه القصة فلم تزل قوى اليمين تتخذ من تجربة انشاء الكيان الصهيوني نموذجاً يحتذى به من خلال اللعب على التناقضات الدولية، الا ان الاختلاف في التجربتين من حيث قدرة الصهاينة في السيطرة على الراسمال العالمي جعل من مثل هذه التصورات اليمينية، اشبه ماتكون ضرباً من الهلوسة السياسية، وقد صرح احد اطراف اليمين الفلسطيني في اللقاء الذي ضمه مع كلان بما يؤكد على وجود مثل هذه التصورات في بنيتها العقلية حين قال حينها ان تسوية الصراع سوف تدعم وضع اسرائيل الاقتصادي وتعززه بمنحه مدخلاً لثروة المنطقة البترولية فبدأ حسب راي كلان بتصوير اوضاع مابعد التسوية التي تكون اسرائيل فيها مرتبطة بعلاقات تجارية مع العالم العربي. وبراينا ان مثل هذا التصريح كان محاولة من قبل اليمين الفلسطيني لتقديم اغراءات للكيان الصهيوني من شأنها ان تعود عليه بضمانات تؤهله للغوص في مستنقع التسوية، الا ان هناك حقيقة بقيت غائبة عن اليمين وهي ان الدور المرسوم له لايتعدى دور الخادم للرأسمال العالمي في المنطقة العربية، قد يعتمد عليه في ترويج البضائع والسلع الاستهلاكية، غير ان تأثيره في الاقتصاد. . . ومن ثم السياسة العالمية يبقى معدوماً، فكما انه يقوم بدور الخادم للرأسمال العالمي عليه ان يقوم بدور الخادم للسياسة الامبريالية في المنطقة.

ومن هنا نجد بان هذه التصريحات المتداولة لم تأت نتيجة للتعقيدات الراهنة على الساحة العربية والفلسطينية وليست مؤشراً على نوايا حسنة وتحولات في مواقف العدو الصهيوني بقدر ما هي نتائج للسياسة التي اتبعتها اطراف اليمين منذ سنوات طويلة، والتي تقوم على دعامتين، احدهما سياسية تتعلق بالبرنامج الحقيقي لليمين الفلسطيني المرتبط بفكرة التسوية السياسية والانظمة الرجعية من جهة اخرى، والدعامة الثانية هي مايتعلق بالتركيبة التنظيمية لهذه القوى.

شهد العقد الممتد مابين قبيل منتصف السبعينات وقبيل منتصف الثمانينات بدايات الولوج لبوابات التسوية من قبل النظام العربي الرسمي .

وقد كشف الانهيار الرسمي العربي المستمر منذ توقيع معاهدة كامب ديفيد وصولا الى تصريحات اليمين الفلسطيني عن مدى مصداقية دعاة التسوية وعن مدى هشاشتهم السياسية التي وصلت لدى بعض اطراف اليمين العربي لدرجة تنعيم خطاهم مع جولات مندوبي الحكومة الامريكية، التي كثرت في اعقاب حرب العبور، على اعتبار ان هذه التحولات تحدث في المناطق الاكثر قربا لأكبر المستودعات النفطية للعالم الرأسمالي، مما يجعلها تؤثر سلبا او ايجابا في اسعار بترول منظمة الاوبك . ولم تقف الامور عند هذا الحد فقد علت الاصوات في اوساط السياسيين الامريكان داعية الى احياء سياسة التدخل من جديد بعد الهزيمة التي تعرضت لها الولايات المتحدة في الهند الصينية .

وعلى الصعيد الداخلي للاقطار العربية كانت ابرز النتائج التي افرزتها الحرب تحجيم القوى السياسية والتيارات المعارضة وتهيئتها مما ادى الى تصاعد التيار الديني وانتقال الصحف العربية الباحثة عن جو ديمقراطي تقول فيه كلمتها الى اوروبا وامريكا الشمالية . . وبلاضافة الى ما ذكرناه عبرت هذه النتائج عن فشل اليسار العربي وقوى الثورة في تقديم البدائل .

وكان من ابرز سمات هذه الحقبة انماط المعيشة الناجمة عن النفط والاستثمارات، فقد تحسنت الحياة المادية للسكان شكليا، غير انها افرزت عادات استهلاكية بغيضة، كشفت عن حقيقة هذا التطور ومستقبله واثره على المجتمعات العربية، واقل هذه التطورات خطورة هو مسئولية هذه الطفرة عن هزيمته قوى الثورة .

وقد وجد اليمين الفلسطيني في هذه الاجواء الحاضنة لفكرة التسوية التي بقيت تتغذى على الاتصالات مع الامبريالية الامريكية واطراف صهيونية، الا ان عدم تمخض هذه الاتصالات عن وعود من قبل المعسكر الامبريالي الصهيوني حال دون تنفيذ الفكرة التي كانت تصطدم ايضا بالقوى اليسارية الفلسطينية، ولم يمنع هذا بالطبع الترويج لفكر التسوية في داخل الساحة الفلسطينية عقب استبدالها لعلاقتها مع الجماهير العربية بعلاقات مع الانظمة الحاكمة، مما ادى الى حدوث فرز في داخل الساحة الفلسطينية بين القوى المؤيدة للتسوية والقوى الراضية لمثل هذا الشكل من الحلول، ونتيجة للاجواء المحيطة على المستوى العربي ولهاشاشة قوى المعارضة وانتهازية بعضها، كان الفرز لصالح اليمين الفلسطيني . . وادى تفاعل اوهام التسوية في عقل اليمين الفلسطيني وبعض اطراف اليسار الانتهازي في حركة المقاومة الفلسطينية الى وقفها امام منعطف سياسي عند طرح اي تسوية استسلامية، ويعقب هذه الوقفة حالة فرز جديدة تتخللها معارك واراقة المزيد من الدماء بين الاطراف السياسية المختلفة . واستمرت هذه الحالة من النزيف الى ان وصلت الامور الى مانحن عليه «تصريحات يمينية تمس ابسط مرتكزات منظمة التحرير وشلل في اوصال قوى المعارضة يحول دون القدرة على اسكات هذه التصريحات . . فكيف

يكون الحال اذا طلبنا بلجم مسيرة التسوية؟!»

الجماهير العربية . هل فقدت حسها الوطني والقومي؟!

امام هذا الواقع وفي ظل هذه المعطيات السياسية التي تمر بها منطقتنا العربية والتي وصلت الى درجة الادلاء بمثل هذه التصريحات التي تنتكر وبشكل فاضح لطموحات الجماهير واهدافها دون ان تتبعها ردود جماهيرية ، وهو امر ما كان ليحدث قبل سنوات يحاول بعض العدميين الانهزاميين على حد السواء التنظير عبر كتاباتهم الرديئة بان جماهيرنا العربية وصلت الى مرحلة متقدمة من فقدان حسها الوطني . . والقومي . . ان الحقيقة غير ذلك بطبيعة الحال حتى عقب الهزائم التي مرت بها امتنا العربية واثرت بشكل او بآخر على الحالة النفسية التي يعيشها الانسان في وطننا العربي ، فهذا الانسان على الرغم من استكانته لم يزل رافضا وان كان بينه وبين نفسه لحالة الهزيمة ، فالجماهير لم تفقد علاقتها بقضيتها المركزية «قضية حركة التحرر الوطني العربية» . . الا ان هناك نقطتين لابد من ايرادهما في هذا السياق وهما التغيب القسري الذي تمارسه الانظمة العربية الممثل بمصادرة الحريات الجماهيرية ، وفقدان هذه الجماهير لقيادتها القادرة على ادارة الصراع وصياغة البرنامج القادر على تحقيق طموحات الجماهير العربية . وتقف هاتان النقطتان دون تعبير الجماهير عن رفضها لمثل هذا الواقع المتردي في وقت يلهث فيه اليمين راكضا خلف اوهامه دون اعطاء اي اعتبار لمصالح الجماهير الشعبية المتناقضة مع مصالحه ، بل انه يبدي استعداداه من حين لآخر لقمع الجماهير في حال تحركها للتعبير عن هذا التناقض غير ان هذه الاستعدادات تظهر في المحصلة حالة الضعف والهشاشة التي وصل اليها اليمين .

الى متى؟!

قد نتجح هذه التكتيكات الى حين الا انها في المحصلة ستصطدم بالحقائق التي لا يمكن القفز عنها بسبب الفشل الذي تلاقيه سياساتها على المدى البعيد ، وتضرر الجماهير العربية من نهج التسوية ، وخصوصا وان افرازات وجود الكيان الصهيوني كقاعدة متقدمة للامبريالية الامريكية في الوطن العربي وظيفتها ضرب وتعطيل اي تطور وطني ديمقراطي في المنطقة او حتى تطور اقتصادي واجتماعي تمتد لتشمل شعوب امتنا في مختلف الاقطار ، والوصول الى تسوية سياسية في ظل موازين القوى الحالية . وحسب تصورات اليمين الفلسطيني والعربي ويعني حل ازمة الكيان الصهيوني جزئيا بالتقاطه لانفاسه في محطة التسوية ومن ثم مواصلة جهوده لتحقيق طموحاته الخاصة في ان يصبح قوة امبريالية في منطقتنا بعد ان تفتح اسواقنا العربية لمنتجاته وسياصل العدو الصهيوني استيلائه على المزيد من الاراضي العربية لفتح الافاق لمزيد من المهاجرين الجدد الذين اخذوا يتدفقون عليه من دول المنظومة الاشتراكية ، وهنا تجدر الإشارة الى سقوط مقولة الصقور والحمايم في مؤسسة حكم الكيان الصهيوني ومن ثم سقوط المراهنة على حزب العمل بعد التحولات الديموغرافية التي تشهدها فلسطين المحتلة!!!! وعند الوصول الى هذه المرحلة ستجد عقلية اليمين نفسها في مواجهة مباشرة مع عقلية الجماهير الشعبية الراضة لهذا الواقع .

ربيع الأمم

بقلم: مايكل هوارد *

ترجمة: حسن الشهابي

دراسة مترجمة عن مجلة الفورن افيرز (Foreign Affairs)

العدد ١ المجلد ٦٩ - ١٩٨٩/١٩٩٠.

في عام ١٩٨٩، عندما كانت دول أوروبا الغربية، تحتفل بذكرى مرور مائتي سنة على قيام الثورة الفرنسية، كانت دول أوروبا الشرقية تقوم بثورة مماثلة.

لقد كان التشابه بين الثورتين مدهشاً حقاً. ففي كل دولة تقع شرق الستار الحديدي، بدأت الأنظمة السياسية التي فقدت مصداقيتها الأيديولوجية، تقترب من حافة الانهيار الاقتصادي بسبب القيادات الفاسدة، والتي أثبتت عجزها عن قيادة تلك الدول. وكما حدث في فرنسا في القرن الثامن عشر، فإن الازمات الاقتصادية في هذه الدول، أدت الى نقمة شعبية قادها المفكرون الذين قمعتهم سياط الرقابة الفكرية، ولكنها لم تستطع ابادتهم. وفي بعض الحالات مثل الاتحاد السوفييتي وبولونيا، قامت الحكومات باتخاذ المبادرة - تماماً كما فعل الملك لويس السادس عشر - ، بفتح باب الحوار والمشاورات مع عناصر المعارضة، بالرغم من أن الدولتين كانتا، ولوقت طويل، تتجاهلان قوى المعارضة وتحاولان القضاء عليها. وفي دول أخرى مثل المانيا الشرقية، تشيكوسلوفاكيا، بلغاريا، ورومانيا، فقد بدأت الانظمة فيها تنهار كما تنهارت الملكية في فرنسا بين عامي ١٧٨٩ - ١٧٩١، أمام المظاهرات الشعبية العارمة.

ووصلت هذه التطورات المثيرة نقطة حاسمة في يوم التاسع من تشرين الثاني ١٩٨٩، عندما قام المتظاهرون بإحداث فجوة في جدار برلين، الذي كان مثل سجن الباستيل رمزاً للظلم والاضطهاد. ثم تدفق المتظاهرون الى برلين الغربية، وهم يغنون ويرقصون ويهتفون. وخلافاً لإحداث الثورة

(*) رئيس المؤسسة الدولية للدراسات الاستراتيجية.



الفرنسية في عام ١٧٨٩، فإن كل ذلك حدث دون أن تراق قطرة دم باستثناء رومانيا. وبإمكاننا أن نفهم شعور الشاعر الانكليزي الروماني وليام وردز ورث عندما قال: انه لمتهى السعادة أن نعيش لنشهد ميلاد هذا الفجر، ولكن أن نكون يافعين فهذه بمثابة الجنة. ولكن هذه المقارنة لم تكن باعثاً لأي سرور أو سعادة كما قال وردز ورث، لان الاخير ندم فيما بعد على حماسه اليافع للثورة الفرنسية. فبعد سقوط الباستيل عام ١٧٨٩، وقعت أحداث دامية الى حد جعلت الفرنسيين اليوم، يتساءلون ان كانت ذكرى الثورة تستحق الاحتفال فعلاً.

وفي التاريخ، هناك الكثير من المقارنات المخيبة للآمال. فالثورة الفرنسية لم تولد سلسلة من ردود الفعل السريعة في أوروبا، كما فعلت ثورات عام ١٨٤٨، عندما تدفقت الجماهير في بروكسل، فيينا، بودابست، ميلانو ووارسو، الى الشوارع واضعة نصب أعينها المثل الفرنسي. ثم قاموا بوضع الحواجز في الطرقات، وانهارت الحكومات كما تنهار القوارير عندما تضربها الكرة. وأدى ذلك الى احداث فراغ في السلطة، دخل من خلاله قادة فصيحون تنقصهم الكفاءة الكافية لواجبها المهمة الصعبة، وهي ترجمة المثل التي كانوا ينادون بها عندما كانوا في صفوف المعارضة للنظام. لقد كانوا كمن يتلمس طريقه وقاتلوا بعضهم البعض. وانتهزت قوى الرجعية هذه الفرصة لتوجيه ضربتها. وفي نهاية سنة ١٨٤٩، عادت الأنظمة القديمة الى الحكم، ونفي قادة الثورة وأصبحت القارة الأوروبية بأيدي مجموعة متشددة من الدرك، ولكنها أكثر واقعية. وانتهى ربيع الأمم قبل أن يبدأ.

ان النقاش المدعم بمقارنات، نشاط لا يثق به المؤرخون المخضرمون. والسبب يكمن في أن الاحداث التي نسردها كمثل وقعت في سياق تاريخي يختلف جداً عن سياق الاحداث الحالية، بحيث أننا لا نستطيع أن نفهم أهميتها. أما السبب الاخر فإنه يكمن في أن ذكرى هذه الاحداث، هي في حد ذاتها مقرر تاريخي. ان الرجال والنساء الذين قاموا باحداث عام ١٨٤٨، لم يكن ليقوموا بها لو لم يتذكروا المنحى الذي أخذته أحداث باريس بعد عام ١٧٨٩. ولم يكن في وسع لينين أن يقود ثورة ١٩١٧، لو لم يستق من أحداث عامي ١٧٨٩ و ١٨٤٨، فكرة انشاء «ديكتاتورية البروليتارية» التي سادت قبل الانتخابات الحرة، التي جاءت بالمعتدلين الى السلطة في أوروبا. وبالنسبة لميخائيل غورباتشوف فإنه لا يحتاج خبرة الغرب، لتذكيره بالمصير الذي آل اليه قيصر روسيا الإسكندر الثاني محرر العبيد.

ان الدرس المستقى من أحداث عامي ١٧٨٩ و ١٨٤٨، لا يكمن فقط، في حقيقة أن الاحداث التاريخية تكرر نفسها وفقاً لمقولة المؤرخ اليوناني توسيديدس، بل يكمن في الحقيقة أنه خلال فترات الاستقرار الطويلة التي شهدتها أوروبا من عام ١٧٦٢ الى عام ١٧٨٩، ومن عام ١٨١٥ الى عام ١٨٤٨، ومن عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٨٩، يولد التطور الاقتصادي والاجتماعي فعالية أو ديناميكية سياسية خاصة بهذا التطور.

وإذا لم تستجب الحكومات لهذه القوة الفاعلة، فإنها سرعان ما تتعرض للزوال. والأمر المثير للتناقض، ان كارل ماركس كان أول من لاحظ وشرح هذا التطور، علماً أن أعمال كارل ماركس لم تلق الكثير من الدراسة والاهتمام في الاتحاد السوفيتي، بالمقارنة مع الولايات المتحدة حيث حظيت أعماله كل

وفي الاتحاد السوفييتي كان هذا التطور بطيئاً منذ عام ١٩٤٥، ولكنه مع ذلك كان يسير بخطى
 حثيثة. فبعد جيل من الحروب والحروب الاهلية، ساهمت سياسة القبضة الحديدية، التي فرضها ستالين
 واستمر بها أتباعه، الى نشوء نوع من الاستقرار والنظام، مما ساعد في تحديث المجتمع السوفييتي. وبالنسبة
 للمواطنين السوفييت الذين يتذكرون السنوات الاولى للقرن العشرين، فان نظام الحكم لم يكن أسوأ من
 النظام السابق، وان هناك مؤشرات جديده في اقتصاد الخمسينات دلت على تحسن مستوى المعيشة. ان
 السجل الغربي عن الانتعاش والكساد الاقتصادي، البطالة وجيوب الفاشية كان يعطي انطباعاً سلبياً
 متزايداً: لا يمكن لخروتشوف أن يكون وحيداً بين أبناء بلده، عندما هدد الغرب قائلاً: «سوف ندفنكم».
 وفي نهاية السبعينات، كان واضحاً أن السوفييت لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل. فالنظام الاشتراكي
 لم يف بوعده بتقديم المكافآت في العالم، وكان هذا الوعد، هو الذي ميز النظام الاشتراكي، عن
 الايديولوجيات السابقة، التي كان عزاؤها الوحيد للشقاء الانساني في الحياة، يتمثل في الوعد بنيل سعادة
 عظيمة وأبدية في الحياة الآخرة. وبالنسبة لهذه الايديولوجيات، فإن مسألة ايجاد فردوس في هذه الارض
 يجب أن تطوى كلية. كان على الشعوب السوفييتية أن تتقبل الفقر والحزنان، لكي تتمكن الاجيال القادمة
 من جني ثمار نضالها. لكن الزمر السوفييتية التي تنامت قوتها في السبعينات والثمانينات، كانت بمثابة جيل
 المستقبل. لم يكن في ذاكرة هذا الجيل أي سجل عن الاضطهاد القيصري، الغزو أو الحروب الاهلية.
 ولكونهم متعلمين وأذكياء ومتحضرين وبرجوازيين في ميولهم - ان لم يكونوا متعلمين في مهنتهم - ، فقد بدأوا
 الآن بالمطالبة بنصيبهم من الإرث. أما الحرس القديم من القادة السوفييت، فقد بدأوا بالانحدار
 والانحراف والفساد والجمود، مثل كاردينالات كنسية منحلة. ان وجود متحمسين في العالم الثالث،
 واستمرار المواجهة العسكرية مع الغرب، كانت تعطي القيادة السوفييتية وايدولوجيتها سبباً في الوجود.
 لم يكن غورباتشوف إلهاً على شكل آلة سحرية. لكنه كان خارقاً في موهبته أكثر من ادراكه. لقد
 كانت موهبته محط اعجاب يوري اندريوف، الذي أدرك عندما كان رئيساً لجهاز المخابرات السوفييتية
 (كي. جي. بي)، تدهور الوضع في البلاد، واستطاع قبل وفاته أن يسمي غورباتشوف لخلافته في
 الحكم. ولم يكن لاندريوف قدرة وبراعة غورباتشوف في توطيد وامسك سلطته الداخلية، أو شجاعته في
 اطلاق القوى الثورية القادرة على احداث التغيير، وخلال الخمس سنوات الماضية كان العالم يراقب بدهشة
 واعجاب شديدين، خطوات غورباتشوف وكأنه كالمتزلج الذي يحسب بذاك انحدار مساره على الثلج،
 للمحافظة على توازنه وقوة دفعه. وكان العالم في نفس الوقت يترقب بخوف ارتطامه بالارض في أية لحظة.
 لقد كشفت السنة الماضية، الابعاد الكبيرة للمهمة التي واجهت غورباتشوف. فالاقتصاد السوفييتي
 بدأ بالتراجع. أما أعمال المناجم، الذين كانت تعلق عليهم الآمال من أجل الانتعاش الاقتصادي، فقد
 قاموا بعدة اضرابات. واندلعت الاضطرابات القومية والعرقية في جورجيا، ازربيجان، ارمينيا
 وأوزبكستان. أما الجمهوريات الثلاثة الواقعة على بحر البلطيق، فقد صعدت من مظاهراتها مطالبة
 بالاستقلال. وقد أثارت هذه المظاهرات غضب غورباتشوف، لكنه مع ذلك لم يلجأ الى قمعها.

وكان القائد السوفييتي هادئاً في تعامله مع الانتخابات، التي جرت في آذار الماضي، لانتخاب ممثل الشعب الى مجلس النواب، والتي أدت الى هزيمة مرشحي الحزب الشيوعي، حتى في المراكز الانتخابية التي لم يوجد فيها بدائل لمرشحي الحزب. وقد تم نقل اجتماعات مجلس النواب السوفييتي، على الهواء مباشرة عبر شاشات التلفاز. أما الانتقادات الحادة ضد النظام، التي عبر عنها النواب الجدد، فقد ساهمت الى حد كبير في تمكين غورباتشوف من التخلص من الحرس القديم. وكما هو متوقع، فقد هوجم غورباتشوف من الطرفين: من الراديكاليين الذي اتهموه بأنه لا يفعل الا القليل، ومن المحافظين الذين اتهموه بأنه تجاوز حدوده. وعندما تم انتخاب غورباتشوف للرئاسة، في أيار بأغلبية بلغت ٩٥,٦، وأعطى صلاحيات كثيرة، وعندما قام في الشهر التالي باستدعاء منتقدي سياسته في الصحافة، حيث أجرى حواراً معهم لمدة ساعة ونصف، ظن الكثيرون من منتقدي سياسته في الغرب، من ذوي الاتجاهات اليمينية أنه لم يحدث أي تغيير في النظام السوفييتي. وان النظام الديكتاتوري القديم لازال باقياً بقناع جديد. وعلى أية حال، فقد تباهوا بأن مصير غورباتشوف هو الفشل لا محالة.

لقد انتاب قادة الصين شعور بالارتياح، وهم يراقبون مسيرة غورباتشوف وهي تتعثر. لقد أدركوا قبل السوفييت بعقدين من الزمن، أن التحديث الذي وعدت به الماركسية لن يتحقق الا من خلال تنازلات لاقتصاد السوق، وأفترض واسع لرأس المال والتكنولوجيا من الخارج. وأدركوا أيضاً أن هذا التطور يمكن أن يكون مدمراً، ما لم تتم السيطرة عليه باحكام وبقوة من حديد. وقد شرح القادة الصينيون وجهة نظرم هذه، الى الوفود الغربية التي زارت الصين. وفي رأيهم أنه عندما يضع المجتمع خطه الجاهزة للبناء والتطوير، سيكون الاصلاح السياسي الذي يعقب هذه الخطوة سهل التطبيق. أما اذا حاولنا تطبيق الاصلاح السياسي في وقت سابق لوانه، فسواجه مستقبل هذا المجتمع الكثير من الازمات والمخاطر. ان المشاكل التي نتجت عن سياسة غورباتشوف في الاتحاد السوفييتي، تبين بشكل جلي أن القادة الصينيون كانوا على حق في وجهة نظرم.

ولكن جمهورية الصين لا يمكن أن تنعزل عن العالم وأن تقوم بالتحديث في ظروف مثالية مخبرية. لذلك بدأ عشرات الآلاف من الشباب الصينيين، وعلى أثر زيارتهم للغرب، يدركون ما كان يتقصمهم. لقد كانت الاحداث في الاتحاد السوفييتي بالنسبة لهم ولجيلهم، بمثابة نمط أو مثال يجب أن يحتذى به بدلاً من تجاهله. ان التصريح الذي أدلى به رئيس وزراء الصين في ٣ نيسان ١٩٨٩، والذي قال فيه أن بلاده لن تقوم بأية اصلاحات على النمط السوفياتي، بالاضافة الى وفاة الزعيم الاصلاحى الصيني هو يوا بانغ في الخامس عشر من نيسان، أديا الى اندلاع المظاهرات التي وصلت ذروتها في نهاية الشهر نفسه، عندما عقد المتظاهرون اجتماعاً جماهيرياً حاشداً، في ساحة تايانان في وسط بكين.

ولو كان للطرفين قيادات قادرة ومتعقلة، ولو توفرت طرق متطورة لقمع الشعب، لكان من الممكن تجنب المذبحة التي حصلت في ليلة ٣ - ٤ حزيران، عندما تحركت الدبابات وسحقت المتظاهرين، بالرغم من وجود العديد من الكاميرات التلفزيونية العالمية. وعلى ما يبدو فقد كان المتشددون في القيادة الصينية مصممين على تحقيق هدفين في آن واحد: الأول هو اثناء حركة الاحتجاج في البلاد، والثاني تطهير الحزب

من الاعضاء المعتدلين، الذي تزعمهم زعيم الحزب زاوزيانغ. وفي كلا الحالتين، فان الطريقة التي اتبعها القادة الصينيون في معالجة الوضع، كانت بمثابة صدمة للعالم.

لقد اثبت القمع على المدى القصير فعاليته. ولم يكن في الصين أو في الدول الشيوعية الاخرى وضع ثوري من النمط الماركسي متحد فيه الطبقة المتوسطة المتطورة، مع طبقة البروليتاريا القوية لتشكلا قوة سياسية لا يستهان بها، لاكمال المسيرة التي بدأها الطلاب. فالجماهير الصينية، كانت مثل الجماهير الاوروبية في عام ١٨٤٨. لقد بقيت الجماهير الصينية التي تشكل مجتمعاً زراعياً، ساكنة، اما الجيش فكان مخلصاً للنظام. وبالمقارنة مع الحكومات الاوروبية عام ١٨٤٨، فقد استطاعت السلطات الصينية كسب الوقت لالتقاط أنفاسها. فكلما ضغطت هذه السلطات باتجاه التحديث، كلما أضعفت من قوتها. وما لم يحدوا حذو غورباتشوف وشجاعته في اعتناقه للمستقبل، فان القادة الصينيين سيكونون مضطرين آجلاً أم عاجلاً، لمواجهة ساحات كثيرة مثل ساحة تيانان.

ان المذبحة التي نفذتها القيادة الصينية، في حزيران ١٩٨٩ ضد الطلاب ومؤيديهم، أظهرت لقادة الانظمة الشيوعية في الدول الشرقية، انهم اذا أرادوا أن يقمعوا المظاهرات في بلادهم، فإن الثمن الذي يجب أن يدفعوه هو المجازر. وقد أوضح غورباتشوف أنه لن يفعل ذلك نيابة عنهم. وان طاغية رومانيا نيقولاي شاونيسكو، هو الوحيد الذي ركب رأسه، وقرر أن يقمع المتظاهرين وذبح الآلاف منهم. وكانت النهاية أن لاقى وزوجته النهاية المحتومة. وعلى أية حال، فإن هنغاريا وبولونيا وصلتا نقطة لا رجوع فيها. وفي بودابست اشترى الحزب الشيوعي الحاكم السلام، مقابل منح الحريات السياسية واجراء الانتخابات والسماح بتعددية الاحزاب. وتوقف القادة الجدد عن اطلاق تسميات «الشيوعيين» على أنفسهم، وأسقطوا اسم «حكومة العمال» من اسم الدولة الرسمي. وقامت هنغاريا بفتح حدودها مع النمسا، وبذلك فتحت الباب على مصراعيه أمام الالمان الشرقيين المهاجرين الى الغرب الى المانيا الغربية، بحيث تحولت هذه الهجرة في الخريف الماضي الى طوفان يصعب إيقافه.

وفي بولونيا، قامت حركة تضامن التي كانت أكثر أهمية من اتحاد نقابات وأقل من حزب سياسي منظم، بتأسيس قاعدة صلبة لا يمكن لاحد النفاذ منها. فقد أصبحت حركة تضامن بدعم من الكنيسة الكاثوليكية، الصوت الشرعي للشعب البولوني. وفي كانون الثاني ١٩٨٩ اعترفت بها الحكومة ومنحتها الشرعية. وفي شباط بدأت الحكومة المحادثات الرسمية مع حركة تضامن. وفي نيسان اعتمدت دستوراً تمثيلاً. وفي حزيران فازت بالانتخابات الحرة، وفي شهر آب أصبحت الحركة شريكاً أساسياً في حكومة ائتلافية، رأسها تاديوش مازويسكي وهو عضو بارز في الحركة. وكان قادة الحزب الشيوعي، مترددين في منح السلطة الى نقابة عمال مستقلة مثل حركة تضامن، مثلما كانت الحركة في المقابل مترددة في قبول السلطة. وعندما تسلم مازويسكي مقاليد الحكم، كان عليه أن يواجه كابوساً اقتصادياً وكانت حسابات غورباتشوف، أنه حالما تسلم حركة تضامن مقاليد الحكم في بولونيا، سينتقل عبء الاقتصادي البولوني عن كاهل الاتحاد السوفيتي، الى المتعاطفين مع بولونيا في الغرب.

ولم يتوقع المراقبون الغربيون، حتى المتفائلون منهم، سقوط الحكومات الشيوعية المتشددة، في

تشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية بهذه السهولة. والسبب في ذلك يعود الى أن اقتصاد الدولتين كان ناجحاً، وان مستوى المعيشة كان مقبولاً وفق المقاييس الغربية. أما الاسباب الاخرى، فتكمن أن تشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية كانتا بمثابة الاقاليم الحدودية للعالم الشيوعي، وكان من المفترض أن يقوم الاتحاد السوفيتي، لاسباب عسكرية، بمنع الدولتين من حرية الحركة، وذلك لكي يضمن الحيازة لجيرانهم في الشرق.

ومع ذلك فقد اتهارت الانظمة في كلتا الدولتين في خريف عام ١٩٨٩. ففي شهر آب، غادر عشرات الآلاف من الالمان الشرقيين الى هنغاريا لقضاء اجازاتهم ويقوا هناك. ثم غادروا هنغاريا متوجهين الى المانيا الغربية عبر الحدود النمساوية - الهنغارية وعبر تشيكوسلوفاكيا ومنحوا حقوق الجنسية في المانيا الغربية. وفي تشرين الثاني أصبح عدد المهاجرين من المانيا الشرقية الى الغربية حوالي ٢٠٠,٠٠٠. وكانت الهجرة الألمانية الاولى قبل ثمان وعشرون سنة، سبباً في قيام السلطات الألمانية الشرقية ببناء حائط برلين. وبدأ هذا السيل الجارف باستنزاف اقتصاد المانيا الشرقية. ففي تشرين الاول، أدت المظاهرات العارسة في برلين الشرقية وليبزغ، الى استقالة اريك هونيكرو وحكومته. وحاول خليفة هونيكرو، ايفون غروينتر، السيطرة على الوضع بقيامه بهدم جدار برلين، وتعهده باجراء انتخابات حرة، ولكنه أرغم على الاستقالة في كانون الاول.

وبالنسبة لتشيكوسلوفاكيا، فإن التحذيرات الصارمة، التي وجهتها موسكو، والمظاهرات الصاخبة، كانتا السبب الرئيسي للاطاحة بحكومة ميلوس جاكس في ١٧ تشرين الثاني، واعادة هذا البلد الى طريق الديمقراطية التي حرم منها بالقوة قبل نصف قرن. وحصل التغيير في بلغاريا. وفي ٢٢ كانون الاول، سقط نظام شاوشيسكو وواجه الاخير نهاية دموية.

وفي نهاية العام (١٩٨٩) أصبح العهد الشيوعي في أوروبا الشرقية مجرد ذكرى مؤلمة.

ان تاريخ أحداث عام ١٩٨٩، يترك المرء لاهثاً، ومن السابق لاوانه أن نقيم أهمية هذه الاحداث، بالنسبة لمستقبل العلاقات بين الشرق والغرب. ولكن شيئاً ما يبدو واضحاً وجلياً، وهو أن تحرير أوروبا الشرقية، حدث ليس فقط لان الاتحاد السوفيتي لم يبد أية معارضة لهذا الامر، بل لان الاتحاد السوفيتي كان يدعم ذلك بشكل ايجابي. وعلى سبيل المثال، كان غورباتشوف هو الذي نصح القادة الشيوعيين في بولندا بفتح باب الحوار مع نقابة تضامن وهو الذي حذر هونيكرو وجاكس بالعواقب الوخيمة اذا ما استمروا بمقاومة تيار التاريخ. وفي هذه الفترات بالذات، أمر غورباتشوف القوات السوفيتية المتمركزة في هذه الدول بالبقاء في ثكناتها. وكان غورباتشوف هو الذي أمر كرينتر بهدم جدار برلين. وفي بداية كانون الاول، كان الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه في حلف وارسو، قد تخلوا كلية عن مبدأ بريجنيف، كما كان يطلب منهم الغرب على مدى العشرين عاماً الماضية.

ان منحى هذه الاحداث، يدل على أن القيادة السوفيتية كانت عازمة على الانسحاب من شؤون أوروبا الشرقية. وبقيت القوات السوفيتية هناك، ولكن على أرض، ان لم تكن غريبة بالنسبة لهم فقد أصبحت معادية. وبدون شك، فقد تسارعت الاحداث وتجاوزت توقعات غورباتشوف. ومع ذلك كان يعتقد بأن أي تراجع في الامن العسكري، سيعوض بالتخلي عن مسؤولية سياسية كبيرة لمقاة على كاهله.

وكانت حسابات غورباتشوف، أن الرأي العام في الغرب سيرغم الزعماء الغربيين على التجاوب مع خطواته، بالحد من تخفيض البنية العسكرية. ولكن المشككين في الغرب يتمسكون برأيهم، بأن القيادة السوفيتية كانت دائماً تسعى لتحقيق هذا الهدف - وهو أن وراء مبادرات السلام السوفيتية، يكمن الهدف الميكافيلي، الهادف الى ابعاد الولايات المتحدة عن حلفائها الاوروبيين. وقبل بعض المراقبين السياسيين الاوروبيين، تطمينات غورباتشوف ظاهرياً. وكان الامر المنطقي، هو سعي غورباتشوف لانهاء المواجهة مع الغرب لانها غير ضرورية ومدمرة، والعمل على اخراج الاتحاد السوفيتي من عزلة عن العالم، التي عانى منها زهاء سبعين عاماً. ومهما كانت نوايا غورباتشوف، فإن أوروبا الشرقية أصبحت حرة في نهاية عام ١٩٨٩ وبدا أنها ستبقى كذلك. وان كان ذلك قد خلق مشكلات لدى التحالف الغربي، فإنه لم يكن بالسعر الباهظ الذي كان على الغرب أن يدفعه.

كيف تجاوب الغرب مع كل ذلك؟. في الولايات المتحدة تسلم رئيس جديد مقاليد الحكم في بداية العام. وبالرغم من معرفته بشؤون الحكم والدولة، لم يكن جورج بوش معروفاً كثيراً في بلاده. فهو رجل دمث لكنه ضعيف. وكان سعيه الدائم، طمأنة المتشدين في حزبه أنه رجل صلب لا يلين. وكانت بداية رئاسته سيئة. فقد وصل بوش البيت الابيض، نتيجة حملة انتخابية، تميزت بالتفاهة والابتذال والقدح الشخصي ضد الخصوم. وقد فاجأ ذلك أصدقاء أمريكا في العالم والمثقفين الاميركيين، الذين شعروا بالذلل والاسى لهكذا حملات انتخابية رئاسية. وكان بوش محاطاً في حملته الانتخابية، بمجموعة من المستشارين الذين لم يروا فرقاً بين نهج السياسة الخارجية الاميركية ونهج الحملة الانتخابية. وكان غورباتشوف بالنسبة لهم، بديلاً عن مايكل دوكاكيس، وبمناخ الخصم الذي يجب اخراجه من مسرح الاحداث. وكانت مبادرات غورباتشوف السياسية بالنسبة لهم، بمثابة خدع والأعب يجب مواجهتها. وقد رأوا أن مهارة غورباتشوف، في استحواد العناوين الرئيسية للصحف، يجب مواجهتها بأساليب شارع ماديسون.

وبدأت وسائل الاعلام الاميركية، بالمطالبة بقيادة ديناميكية ومبادرات سياسية، تتمثل بالحد من الاسلحة وتخفيض في الميزانية. وطالب الكونغرس بتخفيض الميزانية، لكنه أصر أن الولايات المتحدة لن تخذل حارسها. أما المحافظون المتشددون، الذين بدأوا يفقدون تأثيرهم في الشهور الاخيرة لرئاسة ريغان، فقد حذروا بقولهم: ان كان غورباتشوف ونوابه حقيقية، ستجرفه قوى أشد منه وستعيد الامور على ما كانت عليه. والسؤال الآن ما هي سياسة بوش في ضوء ذلك؟.

لحسن الحظ ان قدرة الرئيس بوش على التعلم كانت سريعة. فنصيحة خبراءه في السياسة الخارجية والاستخبارات، وآراء حلفائه الاوروبيين، والتقارب الذي تحقق بين وزير الخارجية الاميركية جيمس بيكر، ونظيره السوفيتي ادوارد شيفارد نادزه، كل ذلك أقتنع بوش أن غورباتشوف كان صادقاً في نواياه ومبادراته، لاعادة تشكيل النظام العالمي، كما وصفه الناطق الرئاسي الاميركي مارلين فيتز وتر «راعي بقر في صيدلية».

وفي الربيع، اتخذ الاتحاد السوفيتي مبادرة احادية الجانب، بتخفيض قواته في اوربا الشرقية، كما وعد غورباتشوف في خطابه امام الامم المتحدة، في كانون الاول ١٩٨٨. وفي ايار ١٩٨٩ تقدم كل من

الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، بمقترحات خفض الاسلحة التقليدية في اوروبا. وعلى ضوء هذه التخفيضات، استطاع الرئيس بوش بجدارة، ازالة الخلافات بين حلفائه الاوروبيين، حول مسألة نصب الصواريخ التكتيكية في المانيا الغربية، لتحل مكان الصواريخ التي ازيلت، وفق معاهدة القوات النووية المتوسطة المدى لعام ١٩٨٨. واستؤنفت محادثات تخفيض الاسلحة الاستراتيجية في جنيف، في شهر حزيران، دون احراز تقدم ملموس. فقد رفضت الولايات المتحدة، التخلي عن مبادرة الدفاع الاستراتيجية (حرب النجوم)، وحتى اجراء تخفيض على قواتها البحرية. وقد أوضح كلا الزعيمين، بأنها يتوقعان نتائج ايجابية، على صعيد مفاوضات الحد من الاسلحة. أما الكونغرس الذي كان يعالج مشكلة العجز الضخم في الميزانية الذي خلفته ادارة ريغان، فقد كان يعلق امالاً كبيرة على هذه المفاوضات.

وعندما اجتمع الرئيسان بوش وغورباتشوف في مالطا في شهر كانون الاول، كانت الامور تسير بشكل طبيعي. ووضع بوش برنمجاً للتعاون الاقتصادي، يهدف ولو بشكل جزئي، الى حل المشاكل الداخلية للاتحاد السوفيتي. واتفق الرئيسان على المضي قدماً في خفض السلاح. وعبر الرئيسان عن قناعتها المشتركة، بمساعدة شعوب اوروبا الشرقية على متابعة طريقها الى التحرر، بدون تدخل القوى العظمى. وكانت احدي المسائل الشائكة التي فاجأهم، هي احتمال توحيد المانيا التي كانت تسير بخطى حثيثة، سواء شاؤوا أم ابوا.

وكان افتراض الغالبية من المراقبين الغربيين، (بما في ذلك كاتب هذا المقال)، ان المانيا الشرقية، كانت من أنجح الدول والأكثر استقراراً، عن غيرها من بقية دول اوروبا الشرقية التي تدور في فلك الاتحاد السوفيتي. وكان الحدث المترقب، انبعث اتجاه تحرري يحقق درجة كبيرة من التقارب مع المانيا الغربية. لم يكن مطلب المظاهرات التي قامت ضد هونيكير، يكمن في الوحدة الألمانية، حتى ان قوى المعارضة التي تشكلت انذاك، كانت ضد التوحيد، اما الاشتراكيون في المانيا الشرقية، فقد رأوا ان سيطرة أبناء عمومتهم من الرأسماليين على الاقتصاد، بمثابة نصير لإيرغون به لبلدهم.

وفي نهاية تشرين الثاني، كان المتظاهرون في ليبزيغ، يرددون «ألمانيا ارض واحدة». لم تكن هذه الاستجابة ردة فعل تجاه النظام المقيت، وانما ضد جهاز الدولة الذي خلفه هذا النظام. وكانت الرغبة الاساسية وراء المطالبة بالوحدة، هي المشاركة السريعة في النعم والثروات المادية في الغرب، والتي حرم منها الالمان الشرقيين لمدة طويلة. وكان هذا الاتجاه الوجداني بمثابة الردة القومية، التي لم تكن مستحبة لدى جيران المانيا من البولونيين. ومع ان بعض القادة الغربيين، مثل مارغريت تاتشر، كانوا يرون ان الوحدة الالمانية «ليست مدرجة على جدول الاعمال الآن»، فقد كان هؤلاء القادة على خطأ، لانه بالنسبة للالمان كانت الوحدة على جدول الاعمال. لقد فاجأ المستشار هلموت كول، واذهل حلفاءه واسعد النواب في البرلمان الالمني، عندما اعلن في ٢٨ تشرين الثاني عن برنامج لتحقيق الوحدة.

ووفقاً للقانون الاساسي للدستور الالمني، فقد تعهدت المانيا بتفيذ الوحدة الالمانية. وتعهد حلفاؤها بدعم هذا الهدف. ولكن تركيب اوروبا في فترة ما بعد الحرب، كان قد بني على اساس وجود دولتين المانيتين مستقلتين. وان توحيد هاتين الدولتين، يحتاج الى تغيير جذري لا يرغب به جيران المانيا. وكان هناك بعض

الخوف من ان المانيا الموحدة، ستعود الى ممارسة السياسة البشعة للرايخ الثالث. اما جيران المانيا في شرق اوروبا، فلم يكونوا متحمسين لاحياء قوة المانيا السياسية، بالرغم من ان هذه الدول، يمكن أن تستفيد من مساعدات المانيا الاقتصادية، ومن الاستشارات الالمانية. وبالنسبة للمجتمع الاوروبي. فإن أي توسع للمانيا الغربية سواء كان ذلك في السكان او الاقتصاد، سيخلق مشاكل في التوازن، يمكن أن تثير حساسيات تاريخية وخاصة في فرنسا.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار، الروابط الاقتصادية والسياسية والعسكرية القوية، القائمة بين المانيا وجيرانها الغربيين، وكذلك احتمال حل حلف وارسو، فإن فكرة نشوء المانيا المحايدة، غير واردة في الحسبان ولا يمكن مناقشتها بشكل جدي. لكن الاسئلة المطروحة هي: هل سيتقبل الاتحاد السوفيتي وجود دولة المانية واحدة، علماً بأن الولايات المتحدة تعهدت ان تحترم مصالحه الأمنية؟ وإذا بقيت انظمة التحالفات فهل سيكون تواجد القوات السوفيتية في الاقليم الشرقي للمانيا الموحدة متوافقاً والسيادة الالمانية؟ وإذا ما تم سحب القوات السوفيتية، فهل سيكون وجود القوات الاميركية مبرراً وضرورياً من وجهة نظر الالمان او الولايات المتحدة؟

هذه هي بعض التساؤلات، التي واجهت المسؤولين السياسيين في الشرق والغرب في نهاية عام ١٩٨٩. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار، ان السياسة الحالية في الاتحاد السوفيتي، غير قابلة للتغيير، فإنه من الواضح أن الاجوبة على هذه الاسئلة، لا تكمن في واشنطن او موسكو بل في اوروبا نفسها، وان القوى الكبرى، يجب أن تتكيف مع قرارات الاوروبيين لاعادة ترتيب قارتهم. ولم تكن مناقشة الكونغرس ووسائل الاعلام الاميركي، للقيادة الاميركية غير جديرة بالاهتمام. ان الاسلوب القائم الذي يتبعه الرئيس بوش، اغضب الاميركيين الذين يهتمون بالخطوات الدرامية، وعناوين الصحف المثيرة. ولكن الصفات التي كان بوش يتفاخر بها، مثل التعقل والحذر والحرص على مشاعر حلفائه وفهم شامل لكل المسائل، كل ذلك كان ملائماً للظروف الجديدة، التي سادت اوروبا تماماً، مثلما كانت شجاعة الرئيس ترومان، عاملاً حاسماً قبل اربعين سنة.

وقد طمأن الرئيس بوش حلفاءه، ان القوات الاميركية ستبقى في اوروبا طالما بقيت الحاجة لهذه القوات قائمة. وقد أكد للرئيس غورباتشوف، ان الولايات المتحدة، لن تستغل الوضع في اوروبا ضد مصلحة الاتحاد السوفيتي. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار التسلسل اللامألوف للاحداث، فإن حفظ أوروبا كبير لوجود بوش في البيت الابيض، ووجود غورباتشوف في الكرملين.

وبالنسبة لدول المجموعة الاوروبية، فإن هذه المشاكل قلما برزت في وقت أقل ملائمة، لقد كانت هذه الدول في خلافات مع بعضها البعض. وتمت الحاح رئيس المجموعة الاوروبية جاك ديلور، وبدعم من الرئيس الفرنسي ميتران، بدأت المجموعة بالسعي لتحقيق الهدف المتوقع انجازه في عام ١٩٩٢، وهو التاريخ المحدد لانشاء السوق الحرة. وقد اذهلت سرعة انجاز هذا الهدف، بريطانيا بقيادة رئيسة وزرائها الغربية الاطوار مارغريت تاتشر. اما الخطوات الأخرى التي ستبدأ المجموعة بتفيذها، فهي انشاء عملة اوروبية واحدة متداولة، وبنك مركزي وتوحيد انظمة العمل. وقد رفضت تاتشر حتى تصور هذه

الخطوات، ووجدت نفسها وحيدة في كل مؤتمرات القمة الأوروبية.

إن الانبعاث المفاجيء لمسألة توحيد ألمانيا، واحتمال مطالبة دول أوروبا الشرقية بالانضمام الى المجموعة الأوروبية، أعطى الفرصة للبريطانيين للانتظار ودراسة الأمر لاتخاذ القرار المناسب. أما الفرنسيون فقد وجدوا انه من الافضل، ربط ألمانيا بنظام اوروبي قوي، قبل ان تبدأ بون بإرساء علاقات حميمة مع الشرق. وفي القمة الأوروبية الأخيرة، التي عقدت في ستراسبورغ في كانون الاول، كان على المستشار كول أن يظهر، ان التزام حكومته بتوحيد ألمانيا، لن يؤثر على التزامها تجاه الغرب. لذلك تبنى كول موقف فرنسا من تلك المسألة. ومن جهته، فقد منح الرئيس بوش كل الدعم من أجل تحقيق الوحدة الأوروبية بشكل سريع. وقد برهنت التطورات الداخلية في بريطانيا، ان مستقبل تانشر السياسي بدأ يهتز. وبالرغم من معارضة تانشر، فإن هدف انشاء مجموعة اوروبية قوية مركزية، قادرة على استيعاب ألمانيا الشرقية، وقادرة على لعب دور سياسي مستقل، بدأ أمراً قابلاً للتحقيق في نهاية العام.

أما المسألة الألمانية كما أكد كول، فيمكن حلها ضمن سياق اوروبي. وفي حال اتمام توحيد ألمانيا، فانه لن تتمدد حدود ألمانيا فقط الى الشرق، بل حدود أوروبا ككل. وتحدث الرئيس غورباتشوف بشكل مؤثر حول انشاء «بيت اوروبي مشترك»، اما مسألة إيجاد مكان للاتحاد السوفيتي في هذا البيت فهي مسألة فيها نظر. ولكن مسألة تأسيس انظمة ديمقراطية في بولونيا، هنغاريا، تشيكوسلوفاكيا، ألمانيا الشرقية ورومانيا - معتمدة على الغرب اقتصادياً -، فكانت تعني، توسع أوروبا بشكل كبير وألمانيا في وسطها. وضمن هذا الاطار لم يكن من الصعب تخيل العلاقات بين الألمانيتين على الاصعدة المالية والإدارية والسياسية، التي ستؤدي حتماً الى هيكل اتحادي يمكن أن يكون محكماً أو مفككاً حسب ماتطلبه الظروف. وهناك العديد من الأمثلة يمكن استقاؤها من ماضي ألمانيا. وأما مسألة ان تحافظ جمهورية ألمانيا الديمقراطية، على هوية مستقلة فهذه مسألة متروكة للوقت.

ويشترك الشرق والغرب في رأي واحد، وهو ان التحالفين يجب أن يستمرا في الوجود لضمان الاستقرار، أثناء مرحلة تحول يمكن أن تكون مضطربة، وبالنسبة للقوى العسكرية لكلا الجانبين، فلن يكون الأمر سهلاً لاقتناع اي طرف أن يأخذ مطالب الطرف الآخر للتحديث على عمل الجد. وبالتالي سيبدو التخطيط العسكري، والتحديث لمواجهة الخطر التقليدي، غير حقيقيين. وسوف يتخطى خفض القوات التقليدية، كل الاتفاقيات المبرمة بهذا الشأن.

وبالنسبة للوضع في نهاية هذه المرحلة الانتقالية، فإنه يبدو غير واضح فالأحداث في أوروبا تحركت بشكل سريع، بحيث لم يستطع كل من الشرق والغرب تحديد اهدافها الاستراتيجية. مع ذلك هناك حدثان يجب ان يؤخذاً بعين الاعتبار.

اولهما، ان قيام ألمانيا موحدة، سيعني جيشاً ألمانياً موحداً، بكل مايعنيه من تعزيز للقدرات العسكرية لأوروبا الغربية. أما الثاني فيمكن في ان انسحاب الاتحاد السوفيتي سياسياً من أوروبا الشرقية، سيؤدي عاجلاً أم آجلاً الى انسحاب القوات العسكرية السوفيتية. ان بسط النفوذ التقليدي في المنطقة بانشاء حزام محايد، بحيث يتمتع فيه الاتحاد السوفيتي بنفوذ شرعي سيكون النتيجة المناسبة. ووفقاً لهذه الظروف،

يمكن أن ينحصر وجود القوات الامبركية، على المحافظة على منشآت القواعد العسكرية، التي تستعملها القوات المتحركة والبحرية. ان هذه الخيارات لازالت مفتوحة، وانه من السابق لأوانه، ان نشغل تفكيرنا بها. ربما يقترح الساسة المتعلقون، مرحلة انتقالية تمتد حتى عشر سنوات على الاقل، ولكن الاحداث اعادت ان تسبق توقعات الساسة المتعلقين.

لقد كانت سنة ١٩٨٩ حقاً، سنة أوروبا، وبمعنى أعمق من المعنى الذي اعلنه هنري كيسنجر، باسلوبه الاولمي قبل ست عشرة سنة. لقد كانت الاحداث التي وقعت في أوروبا كالزلزال، ولم يشهد العالم مثل هذه الاحداث. وبقيت احداث أخرى طويلة الامد مستمرة بالتوتر. فالتزاعات في الشرق الاوسط واميركا الوسطى، بقيت دون حل وغير قابلة للحل. وبقيت المواجهات العرقية مستمرة في جنوب افريقيا، ومعها المجاعات والحرب الاهلية في اماكن أخرى من القارة الافريقية. ولاتزال الاسلحة المتطورة تندفق على دول العالم الثالث وتتصاعد الكراهية والحقد للغرب وقيمه، بين صفوف المسلمين الاصوليين.

أما الوضع المثير للقلق، فيمكن في عجز الدول الغنية في الغرب، من الحد من هجرة السكان في الدول المجاورة الى الدول الاوروبية للبحث عن مصدر رزق، بحيث تخلق هذه المشكلة اضطرابات داخلية، اجتماعية وسياسية يصعب السيطرة عليها. وبالنسبة لدول جنوب افريقيا، مثل ايطاليا وفرنسا واسبانيا، فقد أصبح حوض المتوسط خط مواجهة حقيقياً، كما كانت ريوغراندي بالنسبة للولايات المتحدة، وكما كانت المنطقة الفاصلة بين روسيا الاوروبية والآسيوية في الاتحاد السوفيتي. وعلى ضوء ذلك، يمكن للمرء أن يتنبأ بالمستقبل فمثلاً، لن تعصف بهذا العالم حرب عالمية. ومع ذلك فإن نهاية الحرب الباردة، لن تظهر لنا الابعاد الضخمة للمشاكل التي مازالت تواجهها. وسوف تدور عجلة التاريخ ولن تكون مملة.

ان نهاية المواجهة الايديولوجية في العالم، سيكون لها نتيجة بعيدة الامد على شؤون العالم. فالاتحاد السوفيتي سيحافظ على وحدة اراضيه من اي انقسامات وسيبقى قوة كبيرة، وسيستمر بالاهتمام بمصالحه في العالم. ولكن مصالحه الحقيقية، ستكون في تعاونه مع الغرب وليس في معارضته للغرب. ولن يجد السوفيات اي مصلحة قومية في تقديم الدعم، لأية حركة ثورية في العالم الثالث، تنادي بالماركسية واللينينية، في حال طلبت هذه الحركة الدعم من موسكو.

وفي المقابل لن نجد الولايات المتحدة، اية ضرورة لدعم اي نظام قمعي وفساد حتى لو كان مناهضاً للشيعوية. ان حل مشكلة ناميبيا، هو دلالة على التعاون الدولي بين القوى الكبرى لحل المشاكل العالمية. وسيجد الاتحاد السوفيتي صعوبة في السيطرة على سياسات كوبا تماماً، كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة واسرائيل. ولكن موسكو ستدرك حتماً عقم سياستها، في تشجيع الانظمة الثورية في اميركا الوسطى. وبالتالي ستخلى الولايات المتحدة، عن هوسها العصابي بهذه المنطقة وتتوقف بازعاجها وكأنها الجرب، وذلك بتدخلها المستمر، واحداث الجروح التي تحاول الولايات المتحدة بنفسها شفاءها. وستدرك الولايات المتحدة، ان استقرار افغانستان تحت النفوذ السوفيتي، سيتناسب ومصالح الولايات المتحدة، افضل من ان تكون افغانستان تحت نفوذ الاصوليين المسلمين. والايديولوجيات تغذي بعضها البعض. فانكفاء الايديولوجيات في موسكو، سيؤدي الى زوال شبحها في واشنطن.

ماذا يمكن ان نستنتج من هذه المفارقات التاريخية المزعجة؟ هل سيتبع التحرير بالفوضى والرجعية ثم القمع، كما حدث في الربيع السابق للأمم الأوروبية؟ ان منحنى الحوادث السابقة لن يعيد نفسه للاسباب التي اعطيت سابقاً ومع ذلك، لايمكن لأحد أن يعيش تحت الوهم، بأن العشر سنوات القادمة في الاتحاد السوفييتي وفي أوروبا الشرقية ستكون سنوات رعيدة. ان التحرير كما قال اندريه جيد، هو البداية لكن المشكلة الاساسية هي ان نعيش مع الحرية.

ولكن هناك مقارنة اخرى، أكثر صلة من احداث ١٧٨٩ و ١٨٤٨. ففي عام ١٩١٩ زار الرئيس الاميركي ويدرو ويلسون أوروبا، واستقبلته الجماهير في لندن وروما وباريس، استقبلاً حافلاً كبطل سلام وسياسي، كان لحكمته وسداد رؤيته دور فاعل في انهاء حرب مدمرة، ووعده في اقامة سلام دائم. وبالمقارنة لم يكن الحماس الذي قوبل به غورباتشوف في الغرب، اقل من الحماس الذي قوبل به ويلسون. ولكن كما كان الحال مع ويلسون، لم يتلقى غورباتشوف الدعم الكافي في بلاده، وتراكت مشاكله الداخلية. والسؤال الذي يبرز: مهما كانت قدرات غورباتشوف على التحول، ومهما كانت حسن نيته التي لاينكرها احد، هل يستطيع غورباتشوف ان يحظى بتأييد بلاده؟ وهل سينهار النظام الأوروبي، الذي يحاول غورباتشوف ان يبنيه كما حصل مع ويدور ويلسون، بسبب انعدام الدعم الاساسي لخططه من قبل بلاده؟ وبالنسبة لهذا السؤال فإن عام ١٩٩٠ لن يقدم الجواب الشافي. فهناك احتمال نشوء حركة رجعية، تقوم باعادة نظام ديكتاتوري الى السلطة، وتضع حداً للانفتاح. ولكن الانظمة الديكتاتورية كما تؤكد جين كيرك بارتريك، - مندوية الولايات المتحدة سابقاً في هيئة الامم المتحدة - ليست انظمة استبدادية. ومهما كان هذا النظام قمعياً، فلن يعيد الايديولوجية الماركسية اللينينية البائدة. وسيبقى ابي زعيم سوفييتي قادم، يواجه مهمة صعبة، وهي حل نفس المشاكل التي اوصلت غورباتشوف الى السلطة، وسيدرك ان الحل يكمن في اقامة علاقات جيدة مع الغرب، وتخفيض الانفاق العسكري والتخلي عن الطموحات العالمية. وفيما يتعلق باعادة فرض الحكم السوفييتي على أوروبا الشرقية. التي لم يبق فيها أثر للشوعية، فمن الصعب ان نرى الفوائد التي سيجنيها الاتحاد السوفييتي، مقابل الاعباء الضخمة التي سيعانيها في حال قيامه بذلك. ان قيام مرحلة ما بعد غورباتشوف في الاتحاد السوفييتي، تماماً مثل المرحلة التي مرت بها الولايات المتحدة بعد انتهاء حكم ويلسون، ستضع الاتحاد السوفييتي في عزلة تامة ضمن حدوده. ويمكن للغرب ان يتعايش مع الواقع الجديد. وستتميز علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي، بانها لن تكون اسوأ من علاقتنا مع جمهورية الصين الشعبية. ولكن النتيجة السيئة التي يمكن ان نتوقعها هي: سيكون النظام القادم حتماً غير مقبول، ولكنه الى حد كبير يمكن احتماله أكثر من الانظمة التي سبقتة. ومهما يحدث فإن تركيب السياسة العالمية قد تغير بشكل قطعي. وان المشاكل التي ابرزتها هذه التغييرات ملحة ومعقدة، ولكن لم تنهأ فرصة افضل حتى الآن، لا في سنة ١٩٤٥ ولا حتى في سنة ١٩١٨ لانشاء نظام جديد سيخاص أوروبا من الأصرعات، ويمكنها من النهوض بعد قرن من الألم والربعب بحيث تصبح مركزاً فعالاً ومستقراً للازدهار والسلام. ومع ان هذه الفرص لم تستغل بشكل كاف، فإن سنة ١٩٨٩ تعتبر بحق نقطة تحول، وضعت حداً للحقبة المأساوية التي بدأت عام ١٩١٤. لقد كانت حقاً سنة رائعة.

يهود الخزر ودورهم العدائي التاريخي

حكمت بلعاوي*

مقدمة

لماذا نثير بهذا القدر من الإلحاح والاهتمام موضوع يهود الخزر، وهل يهود الخزر موضوع جديد؟ أم انه موضوع قديم يعود الى فترة طويلة من الزمن، تمتد عبر الماضي، وتعمل على وصله بالحاضر، ومن هم أولاً هؤلاء الخزر الذين تهودوا؟ وهل لهم علاقة باليهود القدامى؟ وبالتالي هل هم ساميون؟ ثم ما هي ادوارهم التاريخية، في مناصبة الأمة العربية العداء الدائم، وما علاقة الغزاة اليهود، في فلسطين بهم، أسئلة كثيرة تتزاحم وتحتاج الى إجابة واضحة وصريحة، خاصة وأن الخطر المحدق بدأ يدق الابواب بقوة في هذه الأيام، نتيجة موجات الهجرة اليهودية المتدفقة الى فلسطين، والتي ستساهم في خلق خلل ديمغرافي بين اليهود والفلسطينيين، هذا الخلل الديمغرافي، سيؤدي الى محاولة طرد الفلسطينيين القاطنين في فلسطين من ارضهم وديارهم، والذين يقدر عددهم بأكثر من مليوني نسمة. بالإضافة الى وضع الخطط التوسعية العدوانية الاستيطانية موضع التنفيذ، تجاه الاقطار العربية المحيطة بفلسطين، تحقيقاً للمخططات اليهودية الامبريالية، بإقامة دولة اسرائيل من الفرات الى النيل.

ولذا فإن موضوع يهود الخزر، ليس بالمستجد في تاريخ أمتنا، بل انه اقتحم علينا ابواب حياتنا عبر التاريخ قديمة وحديثة، وترك ندوياً ظاهرة يصعب ازالتها او معوها بسهولة، ولذا كان لا بد من دق ناقوس الخطر، بغية التنبيه للمخاطر الجمة، وابعادها الحقيقية، التي يقوم بها هؤلاء الخزر المتهودون، والدور الذي يجب أن تقوم به الأمة العربية، لمواجهة هذا الخطر السرطاني الداهم على أرضنا ووطننا وامتنا العربية المجيدة. خاصة اذا علمنا الدور الخزري الخطير، الذي لعبوه ضد الأمة العربية في الماضي، حيث عملوا

باحث من فلسطين.

على عرقله وإيقاف الجيوش العربية الاسلامية، على الدولة البيزنطية، التي استطاعت فتح بلاد الشام ومصر وشمال افريقية والأندلس، ووصلت الجيوش العربية الى القوقاز وبلاد فارس، وهكذا، تم احباط مخطط الدولة العربية الاسلامية، بمد نفوذها على أوروبا كاملة، لومت عملية التطويق الكبيرة من الشرق والغرب، وكان تنفيذ هذا المخطط الاستراتيجي يقتضي سقوط القسطنطينية، لوقوع أوروبا بين فكي كمشاة الجيوش العربية، عبر جبال البرنس من الغرب، والقسطنطينية من الشرق، وكان للخزر الدور الرئيس في افسال هذا المخطط الاستراتيجي، ناهيك عن دورهم الحالي في اكمال مخطط اجدادهم، بالتآمر على الأمة العربية، وعرقله وحدتها ونهضتها، وبناء حضارتها، عندما قام هؤلاء اليهود الخزر، بتقديم المادة البشرية لإنشاء دولة العدوان على ارض فلسطين، وفصل مشرق الوطن العربي عن مغربه، ونهب خيراته، وتدمير اقتصاده، والحيلولة دون وحدته وحرية، واستخدامه قاعدة استراتيجية في عملية الصراع العالمي، وهم اليوم، يشكلون المخزون البشري الهائل، الذي يتدفق من الاتحاد السوفيتي باتجاه فلسطين، ومن هنا، تأتي أهمية تناول موضوع يهود الخزر، وتسليط الأضواء عليهم، بغية معرفة كيفية التعامل معهم، والتصدي لهم والعمل لافشال خططهم وبرامجهم العدوانية التوسعية، والقضاء على دولة البغي والعدوان في فلسطين.

جدور النشأة الخزرية ودولتهم:

لقد قام الصينيون منذ القرن الأول الميلادي، بمطاردة جيرانهم من قبائل الهون باتجاه الغرب، وقامت موجبات من قبائل «الهون»، بالتنقل والترحال من آسيا الى الغرب، وبدءاً من القرن الخامس الميلادي، اطلق على كثير من هذه القبائل التي استوطنت الغرب، الاسم العرقي الترك، وقد استعمل للدلالة على جميع القبائل التي تتكلم لغات ذات خصائص مشتركة، فهي إذن تعبير عن اللغة وليس عن الجنس، وعليه فإن الهون والخزر، كانا شعبين تركيين، واللغة الخزرية مشتقة من التركية، والتي لا تزال مستعملة في «جمهورية تشوقاش» السوفيتية.

هذا وقد خضع الخزر لسيادة الهون، منذ القرن الخامس الميلادي وأصبح الزعيم الخزري «كاريداش» حاكماً للخزر، تحت لواء ملك «الهون» - اتيل - وبعد انهيار مملكة الهون، كان الخزر قد شكلوا القوة المسيطرة على قبائل شمال القوقاز مثل: السابير، والسراجير، والسمندر، والبالانجار، وتم الحاقهم وتذويهم ضمن اطار الخزر، وقيل أن تظهر مملكتهم وتصبح ذات سيادة، كانوا يارسون تجارهم في ادارة شؤون الحكم، تحت الهيمنة الامبراطورية التركية الغربية. واستطاعوا اقامة دولتهم في القرن السابع الميلادي، واستمروا حتى القرن الحادي عشر. وامتد نفوذهم على المنطقة الواقعة بين بحر قزوين، والبحر الاسود، ومن القوقاز جنوباً، الى الفولغا شمالاً.

ولكن من أين جاءت تسمية الخزر؟ يقول آرثر كوستلر: «واسم الخزر؛ من المرجح انه اشتق من الأصل التركي «جاز» بمعنى «يتجول» أي يعني (بدوي) ببساطة».

ويؤكد المؤرخ الاصطخري، على تنوع وتعدد القبائل الخزرية، فيقول: «الخزر صنفان: الأول أطلق عليه كاراخازر، ويعني الخزر السود وهم ذو بشرة داكنة تميل للأسود، وصنف آخر ابيض أطلق عليهم الشخرز، وهؤلاء يرجعون الى قبائل أخرى، كانت تسمى بـ «الاكاتيرير» ومنها اشتقت لفظة الشخرز.

وأما الدكتور ماجد شذود، فيقول: «ان الخزر يرجعون بأصلهم الى قبائل تركية كانت تسكن أواسط اسيا، وشكلت هذه المنطقة عبر مراحل تاريخية، مصدراً للعديد من الهجرات المختلفة الى مناطق واتجاهات متفرقة، ويتابع أيضاً فيقول: «هاجرت القبائل التي أطلق عليها فيما بعد تسمية «الخزر»، من وسط آسيا في القرن الاول الميلادي، وسكنت مناطق في شرق أوروبا، ثم استقرت فيما بعد في المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين، والبحر الأسود».

كما أن هناك الكثير من القبائل جابت المنطقة، واستوطنت فيها في نفس الفترة، وقد أكد على ذلك الكثير من المؤرخين امثال: دنلوب وابن العيري، وكيرستشن، ويول يوليوت، وولس، ومن هذه القبائل: البورتا- السباير- البوجير- الغز- الكومان- الكبشاك- المجر- العليفا- التريتور- الساراجير وغيرها. وهكذا فإن الخزر ودولتهم، كانوا مزيجاً من القبائل، سواء التي كانت تجوب المنطقة وتتجول فيها، أو التي جاءت من الشريق من أواسط آسيا، ونظراً لبروز الخزر وهيمتهم على تلك القبائل، فقد اصبحت السيادة لهم وآلت الامور اليهم، وامتد نفوذهم الى كافة المناطق المحيطة، بمرحلة مد وجزر خلال الفترة التي ازدهروا فيها، بدءاً من قيام دولتهم، ووصولاً الى مرحلة الانهيار.

الحرب العربية الخزرية وتطورها وابعادها:

لقد تزامن مع مطلع الدعوة الاسلامية، وجود ثلاث امبراطوريات (بيزنطة - فارس - التركية الغربية)، وكانت الأولى والثانية في حروب مستمرة دامت قرناً من الزمان، مما أدى الى ضعفها، فانتهت امبراطورية الفرس على يد الجيوش العربية الاسلامية، كما أن الامبراطورية الرومانية، التي تمتد بنفوذها من شبه جزيرة «ابيريا» الى بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا قد هزمت في معركة اليرموك، على يد الجيوش العربية الاسلامية، فهرب هرقل من انطاكية الى القسطنطينية وقال: «السلام عليك ياسورية، سلام مودع لايرجو للقاء»⁽⁷⁾ كما انزلت هزائم بالجيوش الرومانية في مصر وشمال افريقيا، وانتهى الوجود الروماني من شمال افريقيا، في عهد عبد الملك بن مروان. ونتيجة للمستجدات على ساحة الصراع في تلك الحقبة من الزمن، فقد ظهرت ثلاث قوى: الخلافة الاسلامية - بيزنطة المسيحية - مملكة الخزر في الشمال. علماً أنه سبق وجرى تنسيق بين الامبراطورية الرومانية بقيادة «هرقل» - 610 - 641 م -، وملك الخزر، اذ انهما ابرما حلفاً عام 627 م ضد فارس، مما ساعدهما على الانتصار على فارس، بالاضافة الى انه ساهم في عملية التنسيق المستقبلية، ضد الجيوش العربية الاسلامية، وصولاً الى المصاهرة بين بيزنطة والخزر. لقد انتصرت الجيوش العربية الاسلامية على فارس، وطردوا الرومان من بلاد الشام وشمال افريقيا،

وحاصروا الدولة البيزنطية التي تمتد من البحر المتوسط، الى القوقاز والشواطئ الجنوبية لبحر قزوين. واصطدموا بالخرز، خلال المعارك التي دامت أكثر من مائة سنة ٦٣١ - ٧٤٠ م، حيث انطلقت الجيوش العربية الاسلامية، في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، وكذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وصولاً الى عهد الخليفة علي بن أبي طالب، وتم التوصل الى فتح ارمينيا وأجزاء من بلاد طبرستان، وهي المنطقة الجبلية جنوبي بحر قزوين^(١). كما جرت محاولات من قبل القادة العرب، لفتح مدن الخزر (سراقة) وعبد الرحمن وسلمان الباهليين وعبد الرحمن بن ربيع)، ولم تحرز كافة المحاولات انتصاراً على الخزر، خلال الحرب العربية الخزرية الأولى، إلا أن الجيوش العربية الاسلامية، قامت بمناوشات ومحاولات عديدة، تجاه مواقع الخزر الحصينة، إلا أنها لم تحقق اهدافها، فاجتهدت بشكل رئيس، لمحاصرة القسطنطينية مرات عديدة براً وبحراً، ولم تسقط القسطنطينية إلا عام ١٤٥٣ م، على يد محمد الفاتح.

ثم عادت الحرب العربية الخزرية من جديد، في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان، وكذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، حيث احرز انتصاراً على الخزر، إلا أن المرحلة الثانية من الحرب العربية الخزرية ٧٢٢ - ٧٣٧ م، فقد احزر الخزر انتصاراً على العرب في معركة «اردبيل» عام ٧٣٠ م، ووصلوا الى الموصل وديار بكر، وفي عام ٧٣١ م، قام القائد العربي «مسلمة بن عبد الملك» باستيلاء على «الاتجار»، حتى وصل الى مدينة «سمندر» ووجه هشام اخاه مسلمة بن عبد الملك في أثر الترك، حتى جاز الباب في آثارهم، وخلف الحارث بن عمرو الطائي بالباب^(٢)، إلا أن الجيوش العربية الاسلامية، اضطرت للانكفاء الى الخلف عبر القوقاز. كما حصلت معركة بقيادة الجنيد بن عبد الرحمن ضد الخزر وقعة الجنيد بن عبد الرحمن مع الترك ورئيسهم الخاقان وقتل فيها «سورة بن الحر»، ويقال إن هذه الواقعة كانت في سنة ١١٣ هـ^(٣).

وبغية صد الجيوش العربية الاسلامية، حصلت مصاهرة بين ولي العهد الروماني والخزر، اذ تزوج من اميرة خزرية، وحكم ابنها «ليو الخزري» بيزنطة فيما بعد.

هذا وجاءت المعارك بالنصر التي قادها «مروان الثاني» الذي اصبح خليفة عام (٧٤٨ م)، وتقهرت الجيوش الخزرية حتى نهر الفولغا في الشمال، واعتنق «الكاجان» ملك الخزر، الدين الاسلامي نزولاً عند شروط مروان الثاني، إلا أنه سرعان ما عاد ونقض الاتفاق، وكان الخليفة الأموي مروان، آخر الخلفاء الذين يهاجمون الخزر، نظراً لسقوط الحكم الأموي وبدء العصر العباسي. ويقول الأثري السوفيني «أمرتامونوف»، في كتابه تاريخ الخزر «كانت بلاد الخزر، هي أول دولة اقليمية في اوربا الشرقية، وكانت على مستوى الامبراطورية البيزنطية، والخلافة العربية. ويعزى الى هجمات الخزر القوية فقط، الفضل في إيقاف زحف الجيوش العربية صوب القوقاز، وفي صمود بيزنطة في مواجهتها^(٤)».

وهكذا نرى أن دور اليهود في فلسطين في العصر الراهن، يؤدي نفس الوظيفة، التي قام بها الخزر في تلك الحقبة من الزمن، حيث عمل الخزر للحيلولة دون القيام بالفتوحات العربية الاسلامية، للفولغا والدانوب والامبراطورية الرومانية الشرقية، وما يهود اليوم في فلسطين، إلا أحفاد الخزر الذين تهودوا، بعد أن وضعت الحرب العربية الخزرية أوزارها.

اسباب ودوافع تهود الخزر وانهار مملكتهم :

من المعروف أن الخزر شعب بدائي وثني، كانت ديانته شامانية، ولم يكن يدين باحدى الديانات السماوية، ولكنه شعب قوي محارب، والتساؤل لماذا تهود الخزر؟ وما هي الظروف التي احاطت بهم حتى دفعتهم الى احضان الديانة اليهودية؟ لقد قام الفرس قبل الميلاد، بارسال جالية يهودية، الى المنطقة التي تواجد فيها الخزر والقبائل الأخرى، وفي هذا الصدد يقول المحامي سليمان ناجي: «تسلل يهود فارس وبابل، الى البلاد الواقعة على سواحل بحري الخزر والاسود، والتحقوا بجاليتهم التي سبق أن أجلتها فارس الى بلاد الخزر، في اعقاب ثورة اريحا والاليجانيين»^(٤) ويقول المؤرخون حول جزيرة الغيلة، التي تسمى باليونانية - البغانتين - تعبيراً عن اسمها المصري القديم - يب - ومعناه مدينة الفيلة^(٥) والتي تواجد فيها هؤلاء اليهود، الذين تم اجلاؤهم عن الجزيرة الى منطقة الخزر، ان هؤلاء اليهود هم من الأسباب العشرة، الذين سباهم الاشوريون الى العراق، بعد تدمير مملكة اسرائيل في «شكيم»، أي نابلس حالياً، والبعض يرى، أنهم من اليهود الذين سباهم الآشوريون الى طوروس، وكانوا يتكلمون الآرامية .

كما حصلت هجرات يهودية، من اليونان والامبراطورية الرومانية الى بلاد الخزر، ونتيجة تعاون العناصر اليهودية التي هاجرت الى منطقة الخزر، فقد استطاعت التأثير على قناعات بعض الخزر والقبائل التي تعيش في تلك المنطقة وتوّجت نشاطها بتهويد ملك الخزر «بولان» عام ٧٤٠ م. والذي بدوره، فرض سيطرته والزم الجميع بالتهود، من القبائل التي تدور في فلكه. ولم يكن التهود حباً بالديانة اليهودية أو ايماناً بها، فقد أوردنا آنفاً، أن ولي العهد الروماني قسطنطين الخامس، تزوج من أميرة خزرية اسمها «لادون أوليو أي تعني «زهرة» وهي متهودة وذلك عام ٧٣٢ م وذلك بعد الانتصار الذي حققه الخزر على الجيوش العربية الاسلامية في معركة «اردبيل»، وقد انجب هذا الزواج ابناً سمي «ليو الرابع» اقتبس اسمه من والدته. وقد حكم بيزنطة (٧٧٥ - ٧٨٠ م). ولذا فإن التهود كان مبعثه الوقوف في وجه الفتوحات الاسلامية، اذ شكّلت امبراطورية الخزر، قوة ثالثة وقفت بين قوتين الاسلامية والبيزنطية، ومن أجل الحفاظ على استقلالها، فقد رفضت اعتناق المسيحية أو الاسلامية، واختارت الديانة اليهودية، حيث أن عقيدتهم الوثنية، كانت هجبية ومتخلفة وعاجزة عن اضعاف الهيبة الروحية والشرعية على رجال الحكم، هذا، بالاضافة الى أن هنالك اسباباً ودوافع سياسية، دفعت بهم الى اعتناق اليهودية، لأنهم كانوا ينشدون الحفاظ على وحدتهم وتماسكهم، وبناء دولة مستقلة قوية، واستمرار سلطتهم المطلقة على من حولهم من القبائل، والتي تعيش بين ظهرانيهم، اذ أن الديانتين المسيحية والاسلامية، كانتا منافستين لليهودية وللوثنية، ولذا تم الأخذ بالديانة اليهودية، التي لا يوجد لها نفوذ وهيمنة وسيطرة في تلك الحقبة من الزمن، وهذا كله دفع لاختيار ديانة سساوية، يتم الارتقاء من خلالها والحفاظ على الشخصية الخزرية واستقلاليتها، فكان اختيار اليهودية كرداء ديني، يتم لبوسة لتغليف الموقف السياسي الذي تنهجه دولة الخزر. كما أن الخزر لم يتهودوا دفعة واحدة، ولم يأخذوا الديانة اليهودية بكل طقوسها وتعاليمها وارشاداتها، بل انهم اخذوا

الجوانب التي تخدم مصلحتهم، ويقول المؤرخ «بيوري» «لم تقر شريعة الحتان اليهودية عند الخزر، وسمح الملك للناس أن يظفروا على وثيبتهم وإن يقدسوا اصنامهم^(١١)».

ويقول ماجد شهود: «بقي الخزر من حيث التركيب الديني، على ما كانوا عليه حتى عام ٧٤٠ م، حيث اعتنق ملكهم، وكان يسمى «بولان» الديانة اليهودية مع الأسرة الحاكمة، وينابع قوله «ونتيجة لذلك أصبحت اليهودية هي الديانة الرسمية لدولة الخزر، وذلك حسب القاعدة التي كانت متبعة وهي «الناس على دين ملوكهم^(١٢)».

ونلاحظ أن الخزر الذين اعتنق قسم منهم المسيحية، وقسم آخر الديانة الإسلامية، وقسم بقي على وثنية، والقسم الأكبر اعتنق الديانة اليهودية بعد تبوء الملك «بولان»، هؤلاء الخزر كان اعتناقهم قبل وبعد ملكيهم اليهودية، قد تم على مراحل. ولم يتم التهود الكامل، إلا في القرن التاسع الميلادي، وحتى الملك «بولان»، لم يعتنق اليهودية بشكل مطلق وإنما اعتنق نخلة سلفية من اليهودية تقوم على التوراة وحدها، وتستبعد التلمود وكل كتابات الربانيين، والشعائر المترتبة عليها، وبهذا الاعتبار كانوا يهاثلون طائفة القرآئين السلفية، التي ظهرت في فارس في القرن الثامن الميلادي، وانتشرت بين اليهود في أنحاء العالم^(١٣). ويقول آرثر كوستلر أيضاً في ٧٤٠ م اعتنق ملك الخزر وبلاطه والطبقة العسكرية الحاكمة الدين اليهودي، وصارت اليهودية هي دين الدولة عند الخزر^(١٤).

وهكذا نرى أن دخول الخزر الديانة اليهودية، لم يكن دفعة واحدة وإنما حصل بشكل متدرج، ففي البداية ارتكز على فرائع ومسوغات سياسية واجتماعية واقتصادية، وبدأت تسيطر على تفكيرهم، وصولاً إلى الاعتقاد بقدوم المسيح المخلص، وعندما وصلوا إلى مرحلة الانحطاط والانهيار. ولذا فلا غرابة من ممارستهم وسلوكهم ومواقفهم الشائنة في المراحل اللاحقة.

لقد بدأت دولة الخزر تضعف وتضمحل، مع بداية القرن العاشر الميلادي. ويعود ذلك إلى عدة أسباب، منها عدم وجود قاعدة موحدة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، واستعدادهم الغريزي لكل من هم حولهم من الروس والبلغار والبيزنطيين والمغول والعرب. وانهارت إمبراطوريتهم عام ٩٦٥ م، على يد الأمير «سفياتوسلاف» أمير كييف، ودمر عاصمتهم - اتل - ولكن دولتهم بقيت، فشرع الأمير «اندره» منذ عام ١١٥٧ م بطرد اليهود من منطقته، ومن المحتمل أن يكون هو الذي قضى على دولتهم، والبعض يقول أن الأميرة «أولغا» الاسكندنافية، زوجة «ايكور»، أرادت أن تثار لقتل زوجها، فقامت تطارد القبائل المجاورة وتوسع أمارتها، وبذلك تمكن الروس من القضاء على الدولة الخزرية. ويقول عبد الرحمن غنيم في هذا المجال: «قامت في القرن السابع الميلادي دولة الخزر التترية، التي تهودت في القرن الثامن أيام شارلمان وكان للخزر مركزين واحد على سواحل بحر قزوين عند مصب الفولغا والثاني القرم، الغي الأول في القرن العاشر الميلادي، وظل الثاني حتى القرن الحادي عشر^(١٥)».

هذا ولم يكن للخزر حضارة وتقدم وثقافة، لأنهم شعب بدائي همجي، ويقول المؤرخ السوفيتي «ارتامونوف» صاحب كتاب «تاريخ الخزر»: (تحللت مملكة الخزر وتهاوت إلى أجزاء، تداخلت أغليبتها في الشعوب الأخرى المتصلة بها، أما الأقلية التي استقرت في - اتل - فقد فقدت قوميتها وتحولت إلى طبقة

طفيلية ذات صبغة يهودية^(١١). ولعل آخر ذكر لوجود الخزر، جاء على لسان «كاربين» في مؤلفة «تاريخ المغول» اذ انتهى وجودهم بشكل نهائي في عام ١٢٤٥ م.

العلاقة بين يهود الخزر والاندلس:

لقد نسجت علاقة وطيدة وراسخة، بين يهود الأندلس والخزر، مع أن يهود الأندلس كانوا يتمتعون بحريات واسعة، وبسلطات كبيرة، ونفوذ عظيم، إلا أنهم كعادتهم لا يحفظون المودة والرعاية والمساعدة وسرعان ما يتحولون الى متآمرين على من احتضنهم، ووفروا لهم الحياة السعيدة الهانئة، ولعل مثال اليهودي «حسداي بن شبروط» خير شاهد على ذلك.

لقد ولد حسداي بن شبروط في قرطبة عام ١٩١٠ م، واشتغل بالطب والترجمة، وراسل حاخامات بغداد المثقفين، ورعى الشعراء والنحويين العبريين، واصبح وزيراً لدى خليفة قرطبة «عبد الرحمن الثالث الأموي» - ٨٩١ - ٩٦١ م - الذي كان اميراً خلال الفترة ٩١٢ - ٩٢٩ م، وخليفة منذ عام ٩٢٩ م، والذي وحد الاجزاء الجنوبية والوسطى من شبه جزيرة «إيبيريا» وأسس الخلافة، واصبحت عاصمته قرطبة، ذات الاشعاع الحضاري على اوروبا، حيث كانت مكتبتها تضم ٤٠٠٠٠٠٠ مجلد مفرس، ضمن هذا المناخ، وهذه الثقة التي منحت الى الوزير اليهودي «حسداي بن شبروط»، عاش اليهود في الأندلس، حياة ملؤها الرخاء والحرية، وتنعموا بهذا العصر الذهبي، في ظل الدولة الاسلامية وما بعدها ٩٠٠ - ١٢٠٠ م «والتاريخ الاسباني يذكر لنا أن اليهودي حسداي بن شبروط كان من ابرز شخصيات الدولة الاندلسية، وانه ظل طيلة حياته وزيراً للمالية رغم تعصبه العنصري^(١٢)».

وحسداي بن شبروط الذي حاز على ثقة الخليفة الأموي، لم يتوقف عند حدود صلاحياته في مجال وزارة المالية، بل انه تعدى ذلك الى مجال العلاقات الخارجية، واصبح معنياً بحل المشاكل الدبلوماسية، الناشئة بين الخلافة وبيزنطة، وبينها وبين الممالك المسيحية في شمال الأندلس، وعليه فإنه وظف اتصالاته الدبلوماسية ومركزه الرفيع، بجمع المعلومات عن يهود الشتات وركز بشكل رئيس على مشاكل اليهود لدى الامبراطورية البيزنطية، اذ أنهم كانوا مضطهدين، ولما كان «حسداي» صاحب نفوذ لدى البلاط البيزنطي، وخاصة في عهد «رومانوس» اذ أن الاخير كان حريصاً على حياد قرطبة، ازاء الحرب والحملات البيزنطية التي يشنها ضد المسلمين في الشرق. وهكذا استثمر «حسداي» نفوذه لدى البيزنطيين، وعمل على اصلاح وضع اليهود، ورفع الضغط عنهم، وتحسين معاملتهم لدى الامبراطورية البيزنطية.

هذا وقد سمع اليهودي «حسداي»، بوجود مملكة يهودية خزرية واسم ملكها «يوسف»، وبقية التأكيد من ذلك، وتوثيق العلاقة بين يهود الأندلس ويهود الخزر، فقد وجه الى الملك يوسف، رسالة تتضمن مجموعة من الاسئلة، يستوضح فيها عن دولة الخزر وشعبها ونظامها وحيوشها والى أي الاسباط ينتمي الملك «يوسف»، كما أنه بدأ رسالته بقصيدة عبرية، وتحدث فيها ايضاً عن رخاء اسبانيا الاسلامية، وعن حياة

اليهود المستقرة والرغيدة، في ظل الخليفة «عبد الرحمن» من خلال مبعوثيه، وكان يهدف للحصول على أوسع المعلومات عن دولة الخزر اليهودية. ورد عليه الملك «يوسف»، برسالة يجيب فيها على التساؤلات التي طرحها عليه برسالته.

ورغم أن الملك «يوسف»، يضمن رسالته اتجاهات السياسة الخزرية، فنراه يعلن مواقف العدائية من الروس، ويتحالف مع البيزنطيين. وكان توجه (حسداي) يرمي الى خلق علاقات وطيدة بين بيزنطة والخزر، وحماية يهود بيزنطة ومنحهم الحريات الواسعة، كما انه من جانب آخر، يحول دون تمكن الخلافة الاسلامية في بغداد، من مد نفوذها، بخلق حالة من التعاون والتنسيق بين الخزر والبيزنطيين، والوقوف في وجه الخلافة الاسلامية في بغداد. فمن جهة، يحقق السياسة الاموية في قرطبة، ومن جهة ثانية، يخدم بيزنطة ويقوي من نفوذ الدولة الخزرية اليهودية. ويصبح تتمتعها بمركز مؤثر، في صنع الاحداث وتطورها، وفق المصالح اليهودية العليا، التي تعمل على توظيف كافة الفعاليات والامكانيات، من أجل خدمة اليهود، اينما تواجدوا في كافة اصقاع العالم، كل ذلك يؤدي بالمحصلة، الى عدم لقاء بغداد وقرطبة، وعدم تمكن بغداد من الامتداد والتوسع، كما أنه لا يسمح لقرطبة، باستمرار امتدادها وازدهارها، ويساهم في انعاش بيزنطة، العدو اللدود لبغداد وقرطبة. كما انه يتيح لدولة الخزر المتهددة، أن تمتد بنفوذها وسطوتها، ويكون لها دور متميز ومؤثر في سير الاحداث. وتلعب دور الحكم، في حسم الاشكالات والخلافات، ومعالجتها بما يخدم مصالح شعبها المتهدد.

الهجرات الخزرية قبل وبعد انهيار مملكتهم:

لم تبدأ الهجرات الخزرية بعد انهيار وسقوط مملكتهم، وانما تعود هذه الهجرات قبل سقوط دولة الخزر وبعدها، ببديل هجرة العديد من القبائل الخزرية، قبل سقوط دولة الخزر بفترة طويلة، إذ أنها هاجرت الى هنغاريا والتي تعرف باسم «الكابار»، بالاضافة لدعوة الدوق الهنغاري «تاكسوني»، لاستقبال موجة اخرى من المهاجرين الخزر للاستيطان في وطنه، الذين لعبوا دوراً رئيساً في تاريخ هنغاريا القديم. ولكنه تم الحد من نفوذ يهود الخزر، بعد أن أصبحت هنغاريا تدين بالعقيدة الكاثوليكية الرومانية، في بداية القرن الحادي عشر الميلادي. حيث تم الحد من نفوذ اليهود، بموجب الرسوم الذهبية الذي أصدره الملك «اندرية الثاني». ويقول - بارون - : «ويوجه عام ظلت مملكة الخزر المحدودة قائمة، كما دافعت دفاعاً فعالاً تقريباً، ضد كل خصومها حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، عندما سقطت ضحية للغزو المغولي الضخم، الذي قاده جنكيز خان، وحتى في ذلك الوقت، قاومت باصرار حتى استسلم كل جيرانها، وقد امتص سكانها بدرجة كبيرة، في القبيلة الذهبية التي اتخذت بلاد الخزر مركزاً لامبراطوريتها، ولكن الخزر قاموا - قبل الغزو المغولي وبعده -، بارسال فروع منهم الى البلاد السلافية التي لم تقهر، وعاونوا بذلك الى اقصى حد، على تشييد المراكز اليهودية الضخمة في اوربا الشرقية^(١١)»، وحدثت هجرات يهود الخزر والمجر الى هنغاريا، في القرن التاسع الميلادي، كما حدثت هجرات ليهود الخزر إلى هنغاريا في القرن

الثالث عشر ميلادي، هرباً من بطش المغول. وفي القرن الرابع عشر اصيىوا بالطاعون، كما قامت هجرات من بولندا الى لتوانيا، بسبب الاندماج وهربا من المغول والطاعون، ومن بولندا ولتوانيا الى روسيا الامبراطورية، بسبب التقسيم في القرن الثامن عشر، وكذلك الهجرة اليهودية الغزيرة من بولندا الى الغرب، في القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين. ويقول المؤرخ البولندي «آدم فيتولاني» (يوافق الباحثون البولنديون على أن اليهود المهاجرين من دولة الخزر ومن روسيا، هم الذين اسسوا هذه المجتمعات الاقدم، بينما لم يبدأ يهود جنوبي وغربي اوروبا، في الوصول والاستقرار إلا فيما بعد. كما يوافقون على أن نسبة معينة على الأقل من السكان اليهود، تستمد جذورها من الشرق، من بلاد الخزر ثم مؤخراً من روسيا الكييفية^(١٨)).

هذا وقد شجعت المملكة البولندية منذ البداية، هجرة اليهود، اليها بالاضافة الى الارمن والجرمان، وسمحت لهم حتى تملك المعابد، والمدارس، والمحاكم الخاصة، وحياسة الاراضي والعمل في التجارة وكافة الاعمال، بل كان لهم برلمان خاص، خلال حكم الملك «ستيفن باثوري» ١٥٧٥ - ١٥٨٦ م. كما هاجر اليهود الخزر بأغليبيتم الى بولندا ولتوانيا وهنغاريا والبلقان، وأسسوا المجتمع اليهودي الشرقي، اذ انه شكل الغالبية الساحقة ليهود العالم. ويلاحظ أنه في كل من أوكرانيا وبولندا، يوجد كثير من المواقع القديمة، مشتقة اسماؤها من كلمة «خزر» أو «يهود» وكذلك في جبال «الكربات وتارتا» وفي مقاطعات النمسا الشرقية، وايضاً بقيت مجموعات في القرم والقوقاز، كونت مقاطعات يهودية معزولة ظلت قائمة حتى اليوم.

المصاهرة الخزرية اليهودية التركية وأثرها على الوطن العربي

تحدثنا سابقاً عن مصاهرة بين الخزر وبيزنطة، عندما تزوج ولي العهد الروماني من اميرة خزرية يهودية، استهدفت الوقوف في وجه الجيوش العربية الاسلامية من تحقيق اهدافها، وتجددت المصاهرة مع الدولة العثمانية، عندما تزوج سليمان القانوني ١٥١٨ - ١٥٦٦ م، من اليهودية الخزرية «روكزيلان»، والتي اسماها «خرم سلطان»، وذلك في بداية القرن السادس عشر. والتي اصبحت ذات نفوذ مطلق في قصر السلطان العثماني، تماما كدور اليهودية استير في البلاط الفارسي قبل الميلاد، واستطاعت تزوج ابنتها «مهرماه»، من مواطن كرواتي اسمه «رستم باشا»، ودبرت مقتل الصدر الاعظم «ابراهيم باشا»، ونصبت صهرها مكانه، وتآمرت مع صهرها وخنقت ولي العهد، مصطفى بن سليمان القانوني من زوجته الأولى، ولقيت ابنها «سليم الثاني» ولياً للعهد، ثم سلطانا حكم ١٥٦٦ - ١٥٧٤ م واعطت اليهود حق حمل الجنسية للدولة العثمانية، وسهلت دخولهم في الدين الاسلامي، وهم الذين يطلق عليهم «الدونمة»، والتي تعني العودة والرجوع، وقد اطلقت على اصحاب مذهب ديني عرف بمذهب «السبتائين»، نسبة الى زعيمهم «سبتاي سنيغي»، وهو من مواليد أزمير ١٦٢٦ م، ومنحدر من ابوين يهوديين من أصل اسباني. واعلن نفسه أنه المسيح المنتظر ١٦٤٥ م، الا ان «سبتاي»، بعد أن وصل الى طريق مسدود في دعوته وادعائه المسيح المخلص، فقد أسلم واصبح اسمه «محمد عزيز افندي»، وبذا انقذ حياته من الموت على

يد السلطان «مراد»، فعين رئيساً للمستخدمين والبوايين، ووجه دعوة لأتباعه بالدخول في الدين الاسلامي، واصبحوا مسلمين، ولكن بالظاهر الخارجي. هذا وحصلت سلسلة من الانقسامات بين صفوفهم (يعقوبيون، قرقاشيون، وانفصل عن هؤلاء «البابو» وهم حزب ابراهيم آغا).

ويهود الدونمه، من اليهود الاسبان الذين هربوا من بطش محاكم التفتيش وقطنوا الدولة العثمانية، ويشكل خاص في مدينة «سالونيك». كما أن السلطان العثماني «محمد الرابع»، قد سمح وشجع هجرة اليهود المطرودين من اسبانيا، للسكن والاستيطان في تركيا في القرن السابع عشر. ولم يتوقف دور الاتراك الى هذا الحد، بل انهم، وبفعل تأثير اليهود في مواقع السلطة واتخاذ القرار، قد تنازلوا عن اقليم «عربستان» لايران، بموجب معاهدة «ارزروم» في ايار ١٨٤٧، الا أن ايران لم تتمكن من السيطرة على الاقليم الا في عام ١٩٢٥ م بواسطة بريطانيا، علماً بأن مساحة عربستان تبلغ مساحة القطر العربي السوري. وأما اتفاقية «سايكس بيكو» بين بريطانيا وفرنسا، فقد تم بوجها تقاسم مناطق تركيا الآسيوية في ١٦ أيار ١٩١٦، أي قبل ما سمي بالثورة العربية بشهر واحد، هذه المعاهدة والمعاهدات والاتفاقيات اللاحقة، قد سلخت كيليكيا وكلس وعتاب وبلاد الجزيرة العليا من سوريا، ولم تتوقف عند ذلك، بل ان التنسيق الفرنسي التركي، والذي كانت الايدي اليهودية تقف وراءه، هي التي عملت على اقتطاع اجزاء من الوطن العربي وضمه الى تركيا.

كما ان المعاهدة الفرنسية السورية، التي ابرمت في ٩ أيلول عام ١٩٣٦، في ظل حكومة رئيس الوزراء اليهودي «ليون بلوم»، والذي ينحدر من أصل بلغاري خزري واسمه الحقيقي «بليو كارفو نكلستين»، فقد كان من نتيجتها التآمر على عروية لواء الاسكندرون، حيث تم ابرام اتفاقية بين تركيا وفرنسا، في ٢٣ حزيران ١٩٣٩ بضم اللواء نهائيًا الى تركيا.

واستطاع يهود الدونما التسلل الى الاسلام، والى المواقع الريفية في الدولة واخذوا ينفذون المذابح الجماعية بحق الأرمن، حيث تم اعدام /٨٠٠/ شخصية وطنية عربية، حتى اواسط عام ١٩١٦ م على يد السفاح جمال باشا. كما وافق «طلعت باشا»، على انشاء شركة يهودية مرخصة من البرلمان التركي، تتولى الاشراف على اليهود الاتراك، ومنح الحكم الذاتي ليهود فلسطين، وكان ذلك عام ١٩١٦ م، اثر محادثات بين الحكومة التركية، والمنظمة الصهيونية العالمية.

وعندما اصبح السلطان «عبد الحميد» عقبة في وجه تنفيذ المخططات اليهودية، اتخذوا قراراً بازاحته، فاستخدموا قائد الجيش التركي في «سالونيك» - محمود شوكت باشا الذي احتل العاصمة عام ١٩٠٨ م واعتقل السلطان عبد الحميد ونفاه الى سالونيك، وبعدها تم التخلص من محمود شوكت باغتياله، ونصب محمد رشاد على العرش عام ١٩٠٩ م.

وهكذا نرى أنه بفعل المصاهرة الخزرية التركية. أمكن لليهود التسلل الى الاسلام، والانضمام تحت رايته، والوصول الى مواقع متقدمة في كل المجالات، حتى آلت كافة الأمور الى اليهود الدونمة، وتآمروا على فلسطين وعربستان وكيليكيا وكلس وعتاب وبلاد الجزيرة العليا ولواء الاسكندرون. هذا بالاضافة الى نفوذ اليهود لدى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية وغيرها، مما ادى الى انعكاسات سلبية

خطيرة على مجمل الوطن العربي.

العلاقة بين يهود الخزر وحركة الاصلاح الديني وامتداد نفوذهم في اوربا واميركا:

لقد كانت العلاقة وثيقة بين اليهود في المانيا، وحركة الاصلاح الديني في المانيا، بزعامة «مارتن لوتر» في القرن السادس عشر، وعمل لوتر على ترجمة التوراة، وتعميم اللغة العبرية، والادب العبري في أوروبا، وتلقى الاموال الطائلة من قبل اليهود، الا أنه عندما اكتشف أنهم مخادعون ولم يدخلوا الدين المسيحي بشكل فعلي، انبرى لهم وهاجمهم، وذلك بعد خمسة عشر عاما من التعاون التام بينه وبينهم، وبذا رسّخوا أقدامهم في المانيا بل في أوروبا، وأصبح المذهب البروتستانتي يتبنى النبوءات التوراتية، وخاصة العودة الى فلسطين، واقامة مملكة اسرائيل توطئة لظهور السيد المسيح. «حركة الاصلاح الديني، هي التي نظرت بأن اليهود أمة مفضلة، وأنهم يجب أن يعودوا الى فلسطين بغية التمهيد لعودة المسيح المنتظر⁽¹⁾» ويهود المانيا جاؤوا من بلاد الخزر، وهم من «الاشكنازيم» والتي تعني بالعبرية «المانيا»، ويقول عفيف البزري في هذا المجال «هجرة اليهود الخزر، كانت نحو مناطق الانتعاش الاقتصادي في اوربا الوسطى والشمالية، وقد توّضع أولئك المهجرون على الأخص، على الطريق التجاري، بين اتحاد المدن وبين روسيا، في بولونيا مثلا حيث مركز ثقل كشافتهم، وفي شرقي المانيا وروسيا ودول البلطيق وفلنده، وهؤلاء هم الاشكنازيم المذكورين اعلاه، اي المتهودين الاتراك الخزر بغالبيتهم، الذين أتوا من جهة مملكة اشكناز التوراتية، واعطوا المانيا اسم هذه المملكة⁽²⁾». ولعل المؤرخ العالمي ول ديورات، يلقي الضوء بشكل واضح على مدى تأثير اليهود، في حركة الاصلاح الديني فيقول: «وبلغ تأثير اليهودية ذروته في الاصلاح الديني، ومن الوجهة الدينية كان هذا الاصلاح، رجوعاً الى اصل العقيدة البسيطة والاخلاق الصارمة، في صدر المسيحية اليهودية، فإن عدااء البروتستانتية للصور الدينية والتماثيل كان عوداً الى عدااء السامية للصور المنحوتة»، واحتفلت بعض الفرق البروتستانتية بيوم السبت (مثل اليهود)، وان انكار عبادة العذراء وعبادة القديسين، ليقرب كثيراً من التوحيد الصارم عند اليهود، كما ان ارتضاء القساوسة الجدد للزواج والجنس، جعلهم أشبه بأحبار اليهود، منهم بالكهنة الكاثوليك، ان نقاد رجال الاصلاح الديني اتهموهم «بالتهود»، واسموهم «اشباه» اليهودية، أو «انصاف اليهود⁽³⁾».

والمعروف أن المذهب البروتستاني، هو السائد في انجلترا وفرنسا، وفي معظم دول اوربا الغربية، كما أنه المذهب الذي يشكل اتباعه ما يقارب مائة مليون في الولايات المتحدة الامريكية. وهم الذين يطلق عليهم «الزنابير البيض» والمنحدرون من أصل انجلوسكسوني، هؤلاء البروتستانت هم اصحاب القرار في الولايات المتحدة الامريكية ولذا فإن السياسة الامريكية، بتوجهاتها الرئيسة وحتى الفرعية، تستمد مصداقيتها من مواقف البروتستانت، ولما كانوا يؤمنون بالعصر الألفي السعيد، وبضرورة، اقامة مملكة اسرائيل في فلسطين، توطئة لظهور المسيح المخلص، ويعتبرون ذلك واجباً دينياً مقدساً، فمن هنا تأتي خطورة

مواقفهم، تجاه القضايا القومية للأمة العربية، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

العلاقة بين اليهود والخزر والسامية، وهل اليهود ساميون ويتمتعون بالنقاء الجنسي:

ان كلمة السامية، تسمية حديثة، اطلقت لأول مرة على يد اللاهوتي اليهودي النمساوي «شلوترز»، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

ولما كان اليهود الخزر قد اطلق عليهم «اشكنازيم»، بالنسبة الى مملكة اشكناز التوراتية، والتي تعود بالنسب الى ابناء اشكناز، وهم من ابناء يافث وفق ما ورد في التوراة - سفر التكوين - والاصحاح العاشر.

وهذه مواليد بني نوح. سام وحام ويافث، وولد لهم بنون بعد الطوفان. بنو يافث، جومر وماجوج وماداي ويادان وتوبال وماشك وتيراس وبنو جومر أشكنازا. وريفات وتوجرمة^(٢٢).

ولما كان اليهود يعتبرون أنفسهم من نسل سام حسب رواية التوراة - الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين، والخزر ينتمون الى يافث، فما هي العلاقة التي تربطهم بالسامية توارثياً؟ هذا من جانب، أما الجانب الآخر، فإن التوراة تقع في تناقض في نصوصها حول النسب الى سام، فمرة تعتبر أن عابر أحد احفاد ارفخشاد بن سام بن نوح، وليس أحد احفاد آرام بن سام، وعليه فانه ليس آرامياً، ومرة أخرى تعتبره آرامياً لأنها توردد أن حفيده ابراهيم آرامياً، فقد ورد في التوراة «آراميا تائها كان ابي فانحدر الى مصر، وتغرب هناك مع نفر قليل^(٢٣)»، ومن خلال هذه الاشارات السريعة الى بعض النصوص التوراتية، فإنها تفقد مصداقيتها، هذا، اذا سلمنا جدلاً بصحة ما ورد فيها، وهناك الكثير من التناقضات التي تزخر بها نصوص التوراة ولا مجال لبحثها هنا، ويؤكد القائد المناضل حافظ الاسد، على عدم وجود علاقة بين يهود الخزر والساميين فيقول: «ان هؤلاء المهاجرين من اليهود السوفيت، لم يكونوا لا هم ولا اجدادهم، في أية فترة من فترات التاريخ، مواطنين في فلسطين. وهم ليسوا من بني اسرائيل، وليسوا من الساميين، رغم أنهم يتهمون الآخرين المخالفين لهم في الرأي، باللاسامية، انهم بقايا الخزر الذين جاؤوا من مناطق الشرق، واستقروا في مناطق جديدة، واقاموا فيها دولتهم. وهذه المناطق هي الآن - بعد انهيار دولة الخزر - جزء من الاتحاد السوفيتي»^(٢٤).

ويقول الكاتب العربي في القرن الحادي عشر الميلادي «يافث بن الي»، وهو ينتمي الى الطائفة القرائية، بأن يفسر كلمة «ابن الزنا» بأن يضرب مثلاً بالخزر، الذين أصبحوا يهوداً دون أن يكونوا متممين الى السلالة^(٢٥). وقد قال علماء الاجناس البشري في جامعة كولومبيا: ان اليهود هم شعب يعتقد الديانة اليهودية، وهو خليط من جميع الاجناس بما يمثلها الزنجي والمغولي. اما يهود اوربا، فهم خليط من عدة سلالات مختلفة ايضاً، ومن الاقوام غير السامية، التي اعتنقت الديانة اليهودية خلال العصور المتعاقبة، وكانت رقعتها تمتد بين نهري القولغا والدون، وتمتد حتى شواطئ بحر الخزر والبحر الاسود. وقد عاشت قوية متنعشة مدة طويلة، وبعد اندثارها، تشتت ابناءؤها من القوقاز واوربا الشرقية، الى مختلف الانحاء وقسم كبير منهم. هاجر الى العالم الجديد. وشعب الخزر، خليط يعود باصله الى اواسط آسيا وشرقها^(٢٦).

وبغية ابقاء السيطرة على جموع اليهود الفقيرة والبائسة، ومن أجل القيام بمزيد من الاستغلال، والاستثمار من قبل البرجوازية اليهودية. فقد كان لابد من اختراع سلاح السامية، واتهام كل من يقف أمام مصالح اليهود باللاسامية، حتى وان كان يتحدر من أصل سامي. فقد ورد في التلمود «من ضرب اسرائيليا على فكه فكأنه اعتدى على الحضرة الالهية». وهنا فإن الخلط بين الأمور الدينية والدنيوية، وممارسة ذلك على غير اليهود هو اللاسامية بعينها^(٢٧)

كما أن فيلسوف الحركة الصهيونية، ومنظرها الفكري تيودور هرتزل، يعبر عن اسباب، ودوافع عدم اندماج اليهود، في المجتمعات التي يعيشون فيها. لأن هذه المجتمعات تناصب اليهود العدا. فيقول: «ان الأمم التي يعيش فيها اليهود، هي بمجموعها، اما ضد السامية بشكل سافر، او بشكل العدا. وانطلاقاً من فهمه هذا، فإنه يعتبر الاشتراكية واللاسامية متطابقتان بنتائجها، لأن كلاً منهما ضد البرجوازية اليهودية.

بالاضافة إلى أن اليهود، لا يتحدرون جميعهم من أصل سامي، وإنما الغالبية الساحقة تنتمي خارج اطار النسب السامي. وبذا، لا يحق لليهود، استخدام سلاح السامية، وهم الذين استخدموا عشرات المرات في قتل اليهود في العراق والمانيا وروسيا. كما أنهم قاموا بقتل عشرات الآلاف من العرب، الذين ينتمي اليهم سام بن نوح.

وأما ادعاء النقاء الجنسي لليهود، سواء كانوا خزراً أم غيرهم من أجناس أخرى، فإن هذا الادعاء يدحضه العلم والتاريخ. فاليهود يختلفون اختلافاً كبيراً من مجموعة الى أخرى في الخصائص الفيزيائية: القامة، الوزن، لون البشرة، لون الشعر والعينين، عظام الجمجمة، عظام الوجه، وفئات الدم والتوراة نفسها تؤكد على هذا الاختلاف اذ ورد فيها:

«ثم تحي تقول بين يدي الرب الهك ان ابي كان آراميا تائها»^(٢٨).

«وقل هكذا قال السيد الرب لاورشليم: معدنك ومولدك من أرض الكنعانيين وأبوك آرامي وحمية»^(٢٩).

«فأرسل وأتى به وكان أشقر»^(٣٠) ويقصد به داود.

«أنا سوداء لكن جميلة يابنات اورشليم كاخبية فيدار، كسرداق سليمان، لاتلفتن الى كوني سوداء، فإن الشمس قد لوحتنى، قد غضب علي بنو أمي فجعلوني ناطورة الكرم، والكرم الذي لي لم انظره»^(٣١).
وإذا أردنا العودة الى نصوص التوراة، فإنه بدءاً من ابراهيم الخليل، فقد تزوج من زوجات غير يهوديات «هاجر - قطورة بنت يقطان» فولدت له الأولى اسماعيل والثانية ستة بنين، كما تزوج امرأة رابعة وهي حجور بنت أرهير، من قبيلة حرهم فولدت له خمس بنين»^(٣٢).

كما أن أولاد يعقوب (اسرائيل) الاثني عشر ابناً، ولد اربعة منهم من امهات لسن يهوديات، والملك داود تزوج من امرأة حثية وهي زوجة «أوريا الحثي» قائد جيشه، فانجب الملك سليمان من زوجته الحثية. ووفق الديانة اليهودية، فكل من لم ينجب من أم يهودية لايعتبر يهودياً. ويقول «لامروز» - ان اليهود المحذثين، هم آخر الأمر، وفي النهاية، أقرب إلى الآرية منهم إلى السامية - كما أن اليهود العرب، ليسوا

منحدرين من أصل يهودي ولا يمتون لا بصلة الدم ولا القربى الى اليهود. ويقول الكاتب فرانت شايدل بكتابه - اسرائيل امة مفتعلة - «لقد اندمج اليهود منذ القدم بالآشوريين والبابليين والفرس وغيرهم من المجتمعات، كما يستدل على الاندماج والاختلاط من وجود جاليات يهودية، في عصر الحكم الروماني، والخلافة الاسلامية وابان حكم العثمانيين.

كما أن علم الانثروبولوجيا، وهو علم دراسة الانسان طبيعيا واجتماعيا، اي النظرية التي تقول بوحداية أصل الانسان، أو النظرية الثانية التي تقول بوجود أصول متعددة، انحدرت منها الاجناس المختلفة للانسان الحديث، اذ ان كلا النظريتين تفيان ارتباط الدين بالجنس^(٣٣). وهكذا تسقط هذه الادعاءات، علميا وتاريخيا بالنقاء الجنسي لليهود، كما سقطت قبلها محاولة الانتفاء للسامية، سواء لليهود الحزر أو لليهود بشكل عام.

الهجرة اليهودية الروسية ومخاطرها

لم تكن الهجرة اليهودية الروسية حديثة العهد، بل انها تمتد الى تلك البدايات البعيدة، عندما بدأت حركة البيلو، بتهجير اليهود السوفييت الى فلسطين، بعد اغتيال القيصر الروسي عام ١٨٨١ م. وكذلك الهجرة اليهودية الروسية، بين عامي ١٩٠٣ - ١٩٠٥، على أثر المذابح التي تعرض لها اليهود الروس. واستمرت الهجرات من الاتحاد السوفييتي الى خارجه. ولكنها كانت بمعظمها، تتوجه الى غرب اوربا والولايات المتحدة الامريكية وكندا. وكانت الولايات المتحدة الامريكية، ولا زالت تضغط بقوة على الاتحاد السوفييتي، للسماح بالهجرة اليهودية مقابل مقايضتهم بالقمح الاميركي، فأذعن السوفييت لهذا الضغط، وتدفقت الهجرة اليهودية، من المستوعد البشري في الاتحاد السوفييتي، والذي يقدر تعداده بثلاثة ملايين يهودي. وعندما وصلت طلائع الهجرة اليهودية الى النمسا، بدأ التبخر لهؤلاء المهاجرين اليهود، حيث أنهم تسربوا الى شوارع ومدن: بون وروما وباريس واستوكهولم، والولايات المتحدة الامريكية. وبذا خاب أمل الكيان الصهيوني، باعمار النقب وسيناء، وزرع المستوطنين بكثافة في الجولان والجليل والضفة الغربية وقطاع غزة. واعتمادهم وقوداً بشريا للآلة العسكرية الصهيونية، ووصلت نسبة المتسربين من اليهود السوفييت ٨٦٪ حتى عام ١٩٨٩.

ويثور تساؤل عام، لماذا التركيز على الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي؟ ولماذا تجاوبت القيادات السوفييتية المتعاقبة، مع هذه الهجرة واذعنت للضغوط المتتابة؟ وما هو موقفنا نحن العرب، تجاه هذه الهجرة وأية هجرات يهودية أخرى، وبالتالي ما هو موقفنا تجاه السرطان اليهودي في فلسطين؟ لو عدنا قليلاً الى الوراء في روسيا، لاستطعنا ملاحظة انخراط اليهود في الحزب الشيوعي الروسي، وفي غيره من الاحزاب الثورية، بناء على تعليمات من المنظمة الصهيونية، والمجلس الكهنوتي الأعلى الذي يقود يهود العالم: وعندما نجحت الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ م، كان على رأس الحكومة اليهودي «ليون تروتسكي»، حيث تزعم أجهزة الأمن اليهودي «بوكودا» وعندما كشف امره عين بدلا عنه، اليهودي

«بريا» واستطاع هؤلاء اليهود بحكم مواقعهم، اعدام واعتقال الآلاف من خيرة المواطنين السوفيت، قبل اكتشاف تأمرهم وخيانتهم. وكانت اللجنة المركزية المكونة من سبعة عشر عضواً من الحزب الشيوعي الروسي تتكون من اليهود باستثناء ثلاثة وذلك عام ١٩٥١، وكان الثلاثة هم ستالين وفيرشيلوف ومولوتوف، ولكن زوجاتهم كن يهوديات. وكان لليهود نفوذ في مفوضية الشعب، ومعظم المشرفين على الصحافة منهم، وأما الميادين الثقافية والتوجيهية، فكانت معظمها تخضع لكتاب يهود عام ١٩٥٤، بالإضافة الى نفوذ العديد منهم في أجهزة الشرطة، والجيش والاستخبارات، والدعاية والاعلام والخارجية. وبدأ ستالين يشن ضدهم الحملات منذ عام ١٩٤٠ فثارت نائرة اليهود في اوربا والغرب، مطالبة بانقاذ اليهود. ورغم أن اليهود اقلية في الاتحاد السوفيتي، ولايشكلون أكثر من ١٪ من السكان، إلا أنهم احتلوا مواقع متقدمة في التعليم والوظائف الادارية فهناك ١٤٪ اطباء، ١١٪ علميون، ١٧٪ مناصب ووظائف ادارية، ٤، ١٠٪ محامون، ٥، ٨ كتاب وصحفيون، ٧٪ فنانون^(٣٤).

ولذا فإن جوزيف ستالين، كان على حق عندما قال بشأن اليهود «لقد أخرج موسى اليهود من مصر، أما أنا فأخرجهم من لجنة الحزب المركزية ومن الحكومات والادارة»^(٣٥).

وكان الحريُّ بالقيادات السوفيتية، أن تعمل بتحقيق مقولة ستالين لتقليم اظافر اليهود، الذين يشكلون أقوى المخاطر واشدها، على الاتحاد السوفيت ومنظمة الدول الاشتراكية، وكافة حركات التحرر في العالم. وعليه فأصبح هناك توجه في الاتحاد السوفيتي للتخلص من اليهود، ولكن لايجوز أن يكون ذلك على حساب الآخرين، بمعنى إذا أراد السوفيت، وكانت لديهم الرغبة بتهجير اليهود من بلادهم، فيجب أن يخضع الى ضوابط صارمة، فلا يعقل أن ينعم السوفيت بالتخلص من اليهود، وان يتبلى شعبنا العربي بهم، نحن مع تسهيل هجرتهم، ولكن باتجاه مناطق أخرى من العالم، لأن هذه الهجرة ستكون على حساب شعبنا العربي الفلسطيني، وعلى حساب أمتنا العربية، وليس هناك من قيود تستطيع وقف الاستيطان، في الضفة وقطاع غزة والجلولان، مهما أبدى قادة العدو من تصريحات، سرعان ماتتبخر ويتم تحقيق عكسها. وازاء هذا الفيض العارم، من الهجرة اليهودية المتدفقة من الاتحاد السوفيتي، والتي بلغت ستين الفا في النصف الاول من هذا العام. والتي ستضاعف خلال النصف الثاني من عام ١٩٩٠، وخير مثال صارخ على التسارع في عملية الهجرة والاستيطان، تلك الاعداد الهائلة من بناء الوحدات السكنية، والتي تقدر شهرياً بسبعة آلاف، وهذا يعني بأبسط التقديرات، استيعاب مليون خلال هذه السنة والسنة القادمة، ولكن أين سيتم استيطانهم واستيعابهم، فإما أن يكون على حساب سكان الضفة الغربية وقطاع غزة، بطردهم من ديارهم خارج فلسطين. أو اللجوء لعمل عسكري توسعي، على حساب الجوار من الارض العربية المحيطة بفلسطين. وفي كلا الحالتين والوضعين، فإن الجريمة كبيرة والمؤامرة عظيمة، والمخاطر جمة. وهذا الأمر، يجعلنا نستعيد ونستلهم قول القائد المناضل حافظ الاسد، عندما دق ناقوس الخطر الذي يهدد الأمة حيث قال «سورية الشاعرة بحجم الآتي، بقدر ما يهدد الوطن العربي بكل اقطاره، تفرع ناقوس الخطر، وتطلب أن يرتفع الجميع الى حيث يتطلب الظرف، وان توضع الاهواء والصغائر الشخصية جانبا، فسورية كما كانت في ماضيها، تكون اليوم وستكون غداً، الحريصة على عزة الأمة، والمضحية من اجلها،

دون حدود ودون حساب» (٣٦) وقال القائد الأسد في مواجهة الصهيونية، والمتغيرات الدولية (فأين العرب كأمة من التغيرات الدولية، والاحتمالات المستقبلية المفتوحة، لاسيما أن عليهم قبل غيرهم، أن يتمعنوا جيداً في ماتفعله الصهيونية الآن، على الساحة الدولية وفي مايمكن أن تفعله غداً، وأن يستذكروا مافعلته الصهيونية منذ بداية هذا القرن» (٣٧).

ان المواجهة العملية، للمستجدات، والمتغيرات على الساحة الدولية، وتأثيرها على الوطن العربي، تتطلب منا إعادة النظر بكل مواقفنا السابقة، والخروج من المستنقع القطري، الى الساحة القومية الشاملة، علينا ترتيب البيت العربي لمواجهة التحديات الخطيرة وأن نتعلم من شعوب العالم، التي اتجهت باتجاه تحقيق وحدتها القومية، ولنا في الوحدة الالمانية التي تحققت مؤخراً أكبر مثال يجب أن يدفعا الى اقامة تضامن عربي فعال، واتخاذ المواقف القومية المبدئية، بالحفاظ على وجودنا القومي ومواجهة الخطر المحدق بموقف عربي موحد، يتسلح باستراتيجية قومية شاملة، تأخذ بعين الاعتبار، كافة الظروف والامور والتغيرات في الشرق والغرب، وعلى صعيد كافة دول العالم. واذا كان العالم يتجه الى اقامة وحدات قومية او اقليمية أو قارية، فنحن العرب أحرى بنا تحقيق وحدتنا القومية، التي لايقف في طريقها عائق، سوى التخلي قليلاً عن الانانية، والاقليمية. والتوجه بخطة عربية قومية، تستطيع الوقوف بقوة وصلابة أمام المخاطر، وصولاً الى تحقيق التفوق الاستراتيجي على العدو الصهيوني، وهذا الامر ليس صعباً، بل انه في متناول ايدينا لو توافرت النيات الحسنة والغيرة على الوطن، والاجلص لامتنا والدفاع عن وجودنا القومي، وبدون ذلك فإن الخطر محقق بنا من كل جانب، ولا مهرب من ذلك الا بالوحدة القومية. فهل تحمل الأيام المقبلة.

تلك التباشير الوحيدة المخلصة، نأمل تحقيق ذلك، وعلينا كجهاير عربية، أن نصعد من ضغوتنا لتحقيق هذه الاهداف العظيمة، التي توفر لنا الرخاء والقوة والأمن والاستقرار.

مصادر البحث

- ١) آرت كوستلر - امبراطور الخزر وميراثها - صفحة / ٢٨ - ترجمة حمدي متولي مصطفى صالح دار الجليل - دمشق ١٩٨٥.
- ٢) الدكتور ماجد شدود - الاصل التاريخي ليهود الخزر - البعث الاسبوعي - العدد (٨٢١٨) - تاريخ ٢ / ٤ / ١٩٩٠ - دمشق.
- ٣) الدكتور احمد شلبي - التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية - الجزء الاول صفحة (٢١٨) - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٩
- ٤) الدكتور احمد شلبي - صفحة (٢٣٣) - مصدر سابق.
- ٥) ابي جعفر محمد بن جرير الطبري - المجلد السابع - صفحة / ٧١ - دار سويدان بيروت ١٩٦٦.
- ٦) ابي جعفر الطبري - صفحة / ٧٠ - مصدر سابق.
- ٨) سليمان ناجي - المسلدون في الارض - صفحة / ٢٢٣ - دار العربي للاعلان والنشر والطباعة - دمشق ١٩٧٣.

- ٩) الدكتور احمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ - صفحة / ٥٧٤ - المكتب العربي للاعلان والنشر - دمشق
- ١٠) الدكتور ماجد شذود - البحث - العدد (٨٢٢٥) تاريخ ٩/٤/١٩٩٠ .
- ١١) الدكتور ماجد شذود - البحث - تاريخ ٢/٤/١٩٩٠ .
- ١٢) آرثر كوستلر - صفحة (٩٠) - مصدر سابق .
- ١٣) آرث كوستلر - صفحة (٢٠) - مصدر سابق .
- ١٤) عبد الرحمن غنيم - المرتكزات النفسية للفكرة الصهيونية - صفحة (٣٠) منشورات الطلائع - دمشق ١٩٧٣ .
- ١٥) آرث كوستلر - صفحة (١١٦) - مصدر سابق .
- ١٦) سليلان ناجي - صفحة (٢٨٦) - مصدر سابق .
- انظر ايضا تارود - طريق اسرائيل - صفحة (٨٩)
- ١٧) آرث كوستلر - صفحة (١٧٥ - ١٧٦) مصدر سابق
- ١٨) آرث كوستلر - صفحة (١٨٩) - مصدر سابق .
- ١٩) حكمت بلعاوي - السرطان اليهودي عبر التاريخ - صفحة (١٥٧) قيد الطبع .
- ٢٠) عفيف البرزي - نشوء الامة العربية - صفحة (١٣٠ - ١٣١) ايلول ١٩٨١ .
- ٢١) ول يلورانت - قصة الحضارة - الاصلاح الديني - الجزء الخامس من المجلد السادس صفحَة (١٤١) - ترجمة محمد علي ابو درة - جامعة الدول العربية - القاهرة .
- ٢٢) الكتاب المقدس بالمهد القديم - سفر التكوين الاصحاح العاشر - جمعية الكتاب المقدس في الشرق الادنى - بيروت - ساحة النجمة - ١٩٧١ .
- ٢٣) الكتاب المقدس - سفر التثنية - مصدر سابق .
- ٢٤) الرئيس القائد حافظ الاسد - كلمة القائد الاسد بمناسبة انعقاد المؤتمر العام الخامس لاتحاد شبيبة الثورة - جريدة الثورة - العدد (٨٢٠٠) - ٩/٣/١٩٩٠ .
- ٢٥) آرث كوستلر - صفحة (٩٨) - مصدر سابق .
- ٢٦) الفريد ليلتال - ثمن اسرائيل - صفحة (٢٣٠ - ٢٣١) .
- ٢٧) انظر ايضا مصطفى مراد دباغ - بلادنا فلسطين - المجلد الاول - صفحة (٥٧٤) .
- ٢٨) حكمت بلعاوي - الصهيونية حركة لاسامية واليهود ليسوا ساميين - مجلة الطلائع - العدد (٥٣٨) - تاريخ ١٢/٥/١٩٨١ - دمشق .
- ٢٩) الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر ثنية الاشرع / ٢٦/٥ - مصدر سابق .
- ٣٠) الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر جزفياي / ١٦/٣ - مصدر سابق .
- ٣١) الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر الملوك - ١٦/١٢ - مصدر سابق .
- ٣٢) الكتاب المقدس - العهد القديم - نشيد الاناشيد لسليمان / ١/٥٢٤ - مصدر سابق .
- ٣٣) ابي جعفر الطبري - المجلد الاول - صفحة / ١١٣ - ١٩٦٧ - مصدر سابق .
- ٣٤) روجيه ديورم - اني اتمم - صفحة / ٣١٣ - ترجمة نخلة كلاس - منشورات دار الجرمق - دمشق ١٩٨٠ .
- ٣٥) روجيه ديورم - صفحة (٣١٧) - مصدر سابق .
- ٣٦) الرئيس القائد حافظ الاسد - جريدة الثورة - العدد / ٨٢٠٠ - مصدر سابق .
- ٣٧) الرئيس القائد حافظ الاسد - الكلمة القومية في افتتاح المؤتمر العام العاشر للاتحاد الوطني لطلبة سورية - جريدة البحث - العدد / ٨٢٥٢ / تاريخ ١٧/٥/١٩٩٠ .

اليهود المغاربة في اسرائيل

سليم الجنيدي*

مقدمة :

المجتمع الاسرائيلي، كما هو معروف، مجتمع حديث النشأة والتطور، بل يمكن القول أنه «تجمع بشري» لم يبلغ بعد طور المجتمع المتبلور المنسجم، وذلك تأسيساً على حقيقة أنه «مجتمع هجرة» تكون خلال فترة زمنية قصيرة بموجات متتابعة من الهجرة اليهودية، كانت اولها قد دشنت في ثمانينات القرن الماضي، وازدادت وتيرتها في ثلاثينات وأربعينات هذا القرن، ثم بلغت أوجها في التهجير الجماعي لليهود الأقطار العربية بعد إقامة الكيان الاسرائيلي وحتى بداية الستينات.

* باحث من فلسطين

نشرت مجلة ابحاث المغربية هذه الدراسة في عددها ٢١ السنة الخامسة، صيف ١٩٨٩. وقد سمحت لنا «ابحث» بنشره في مجلة الكاتب، بناء على اتفاق بتبادل النشر.

وحتى تستطيع زعامة الكيان الاسرائيلي خلق مجتمع واحد منسجم متناسك من مئات ألوف اليهود المهاجرين متعددي الاصول الأثنية والانتهاآت الحضارية، عمدت الى عملية دمج قسري باستخدام أساليب ووسائل لاحصر لها، في محاولة لاستيعاب جميع فئات اليهود المختلفي الاصول والانتهاآت الحضارية في نموذج مجتمعي حضاري واحد غربي الهوية والانتهاآت.

إن المتابع لشؤون الكيان الاسرائيلي وتطوره الاجتماعي والسياسي، لابد واجد أن سياسة الدمج والاستيعاب، وإن كانت قد حققت بعض النجاح، إلا أن هذا النجاح بدا باهتا ضعيفا أمام الاستقطاب الاجتماعي الحاد بين اليهود من أصل غربي (أوروبي - أمريكي)، واليهود من أصل شرقي عربي إسلامي، هذا عدا عن الاختلافات والفروق، وأنماط السلوك المتباينة داخل كل من هاتين المجموعتين الرئيسيتين.

يهود شرقيون . . . ويهود غربيون :

«يهود شرقيون» و «يهود غربيون» أو «سفراديم» و «أشكناز» تعابير اصطلاحية فضفاضة غير دقيقة، تثير اللبس في أحيان كثيرة، وعلى سبيل المثال، يعتبر يهود بلغاريا وشبه البلقان - بالرغم من تواجدهم في أوروبا - امتداداً أثنيّاً ليهود تركيا السفرايين، كما أن جزءاً مهماً من يهود غرب أوروبا وأمريكا اللاتينية يعودون إلى أصول سفرادية هاجرت أساساً من شبه الجزيرة الايبيرية بعد سقوط الحكم العربي - الإسلامي هناك. هذا في حين أن اليهود الأشكناز الغربيين، هم الذين يعودون في أصولهم إلى وسط وشرق أوروبا، بولندا، روسيا، ألمانيا، رومانيا، وهي أقطار تصنف - فيما عدا - ألمانيا المعروفة الآن بالغربية - على أنها «الشرق الاشتراكي» بحيث يمكن أن ينعكس هذا الوصف على اليهود المهاجرين منها، ويختلط، بالتالي، الأمر بينهم وبين «اليهود الشرقيون»^(١).

وبالرغم من هذه الصعوبة المنهجية في التصنيف والتمييز، فإن من المتعارف عليه الآن، أن تعبير اليهود الأشكناز أو الغربيين يعني اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين قبل وبعد ١٩٤٨ من أقطار أوروبا والعالم الجديد، حيث النمط الحضاري الغربي، في حين أن تعبير اليهود الشرقيين - السفراديم يشير بخاصة إلى اليهود الذين هاجروا من أقطار العالم العربي - الإسلامي.

من المعروف تاريخياً أن الأفكار الصهيونية قد انتشرت في أوساط الجاليات اليهودية الغربية، وخاصة في وسط وشرق أوروبا، كما كانوا السباقين في إنشاء الهيئات والمنظمات الصهيونية على أرض فلسطين بالهجرة والاستيلاء على الأرض والاستيطان، ثم إقامة الكيان الاسرائيلي عام ١٩٤٨. هذا في حين أن مساهمة اليهود الشرقيين في كل ذلك كان محدوداً جداً، إن لم يكن معدوماً، وهكذا نجد أنه حتى العام ١٩٤٨، كانت نسبة اليهود من أصل شرقي، لم تتجاوز نسبة ٩٪ من مجموع اليهود في فلسطين^(٢) وإذا استثنينا يهود فلسطين الأصليين، نجد أن يهوداً من اليمن والعراق ومصر، وبعض اليهود المغاربة قد هاجروا إلى فلسطين في عام ١٩٤٨، لكن الأسباب والدوافع لم تكن عقيدية-ايديولوجية صهيونية، بقدر ما كانت دينية - روحية، أو اقتصادية تجارية، على عكس ماكان عليه الأمر بالنسبة للمهاجرين الأشكناز.

البنية الديمغرافية:

اتخذت الهجرة اليهودية الى فلسطين بعد ١٩٤٨ منحى معاكساً، حيث أصبح العنصر الشرقي، هو العنصر الغالب، ولقد أدى هذا الانقلاب في حركة واتجاهات الهجرة ومصادرها، إلى انقلاب مائل في التوازن السكاني. وهكذا فبعد أن كان اليهود الشرقيون لا يمثلون أكثر من ١٠٪ من مجموع السكان اليهود في فلسطين أواخر عام ١٩٤٨، بلغت هذه النسبة ٤٢,٣٪ عام ١٩٦١ و ٥٦٪ عام ١٩٧٢ وحوالي ٦٥٪ عام ١٩٨٥. وبواقع الأرقام المجردة، فقد ارتفع عدد اليهود من أصل شرقي في اسرائيل الى أكثر من عشرة أضعاف خلال عقد ونصف من السنين من حوالي ٩٠ ألف نسمة عام ١٩٤٨ إلى حوالي مليون نسمة عام ١٩٦١، ثم وصل عام ١٩٨٥ إلى حوالي مليونين ونصف المليون نسمة^(٣).

الزيادة الكبيرة لعدد اليهود الشرقيين في الكيان الاسرائيلي، تفسرها، من جهة، الهجرة الجماعية ليهود الأقطار العربية بعد عام ١٩٤٨، حيث ساهمت قبل غيرها في قلب التوازن السكاني. ومن جهة ثانية، تشير إلى عامل آخر لا يقل أهمية، وهو المتعلق بالزيادة الطبيعية للسكان، حيث نسبة الولادات لدى اليهود الشرقيين أعلى منها لدى اليهود الغربيين، مما يعمق من أثر العامل السابق، ويعطي ديناميكية إيجابية لصالح ازدياد نسبة اليهود الشرقيين في المستقبل، بالرغم من نضوب مصادر الهجرة الشرقية.

إذا ذهبنا الى مدى أبعد في إيضاح صورة البنية الديمغرافية، سنجد أن أكبر الفئات الشرقية اليهودية في الكيان الاسرائيلي، هم اليهود من أصل مغربي، حيث تشير إحصائيات عام ١٩٨٥، أن عددهم يصل الى ٤٧٨٣٠٠ نسمة، يليهم يهود العراق بواقع ٢٦٧٨٠٠ نسمة، ثم يهود اليمن بواقع ١٦٥٦٠٠ نسمة. إذا أضفنا اليهود من أصل تونس وجزائري الذين يصل عددهم الى حوالي ١٢٤٣٠٠ ويهود ليبيا حوالي ٧٧٣٠٠، فإن يهود الشمال الافريقي يصل عددهم الى حوالي ٧٠٠ ألف نسمة^(٤).

الشرقيون.. قاعدة الهرم الاجتماعي:

اليهود الشرقيون، الذين يشكلون حوالي ثلثي السكان اليهود في الكيان الاسرائيلي، يشكلون في ذات الوقت قاعدة الهرم الاجتماعي، في حين يشكل اليهود الغربيون قمة هذا الهرم باستثنائهم بموقع اقتصادي وسياسي - ثقافي متميز.

ويبدو أن هذا الوضع لم يكن عفويًا، ذلك أن زعماء الحركة الصهيونية والكيان الاسرائيلي، عندما خططوا لاستقدام اليهود الشرقيين، كان في أذهانهم، أن يشكل هؤلاء اليد العاملة في الصناعة والزراعة، وجنوداً عسكريين يحتاجهم جيش ذو قيادة اشكنازية لتغذية مغامرات العدوان والتوسع، وقد استقدمت أول جالية يهودية من قطر عربي، وهم يهود اليمن تحديداً، للعمل في المشروعات اليهودية كعمال غير مهرة، للحلول محل اليد العاملة العربية التي كان يجري استبعادها باستمرار في إطار ماعرف «بالعمل العبري»^(٥). كان هذا قبل إقامة الدولة، أما بعد إقامتها عام ١٩٤٨، حيث أخذت أفواج المهاجرين اليهود

الشرقيين في القدوم إلى الكيان الجديد، عمل الجهاز السياسي الحاكم، وهو اشكنازي غربي بطبيعة الحال، على استيعاب المهاجرين الجدد اقتصادياً، بحيث جرى تركيزهم كيد عاملة رخيصة في مختلف قطاعات الاقتصاد الاسرائيلي، بعد أن كانوا قد اقتلعوا عنوة من بيئاتهم الأصلية، ومن وضعهم الاقتصادي المتميز^(٧).

وحيث أن الغالبية العظمى من اليد العاملة لليهود في الكيان الاسرائيلي، هم من اليهود الشرقيين، فإن ذلك يعني ضعفاً وتدنياً في مستوى المداخيل، ومن ثم في مستوى المعيشة، يضاعف من حدته الحجم الكبير للأسرة الشرقية المعروفة بكثرة الأبناء.

التفاوت والاستقطاب الاقتصادي، عبر عن نفسه في مظاهر اجتماعية حادة في تعبيراتها، تقترن في العادة بمظاهر مختلفة للتمييز العنصري - الطائفي. وهكذا فإن انخفاض المستوى المعيشي لليهود الشرقيين، ينعكس سلباً على شروط الحياة الاجتماعية، عامة. حيث يتكدس الشرقيون في أحياء وتجمعات مدنية مميزة هي، في واقع الحال، «أحزمة الفقر» حول المدن الكبرى، أو في «مدن التطوير» في مساكن تفتقر للشروط الصحية الملائمة، صغيرة المساحة لا تتلاءم مع الحجم الكبير للأسرة الشرقية. هذا في حين يسكن الغربيون الأحياء الراقية والمساكن الفارهة، التي تزيد في الغالب الأعم، عن الحاجة الحقيقية لأسرة هي في الغالب صغيرة الحجم^(٨).

هذا الفرق الكبير في مستوى المعيشة وشروط الحياة، مقروناً بمظاهر التفرقة والتمييز، أوجد وضعاً من التوتر الاجتماعي، بالإضافة إلى انتشار مظاهر الجريمة والفساد الاجتماعي في أحياء وتجمعات اليهود الشرقيين بشكل لافت للنظر.

في المجال السياسي أيضاً، حيث العلاقة الجدلية بالوضع الاقتصادي - الاجتماعي، ينقسم المجتمع الاسرائيلي إلى أقلية - نخبة سياسية حاكمة اشكنازية، في حين يكاد اليهود من أصل شرقي، أن يكونوا غير ممثلين في المؤسسات السياسية، وتحدبداً الحكومة والكنيست والأحزاب السياسية والأجهزة الادارية العليا في الدولة، حيث لا يتمتعون بنصيب تمثيلي يتناسب مع ثقلهم العددي^(٩).

وفي المجال التربوي - الثقافي، تعرضت الثقافة والهوية الحضارية لليهود الشرقيين في اسرائيل، لحرب شعواء وعملية تدمير، لصالح الثقافة الغربية التي حاولت النخبة الاشكنازية مخضها على جميع فئات المجتمع الاسرائيلي. وقد اتخذت هذه العملية نهجاً عنصرياً، استعلائياً، وتميزاً تعرض له الشرقيون في مختلف المؤسسات التعليمية الأكاديمية والثقافية، بهدف تغريب الشرقيين من جهة، ومن جهة ثانية قطع كل صلة ثقافية - حضارية، وكل شعور بالانتماء للعالم العربي - الاسلامي، كجزء من التعبئة الايديولوجية الصهيونية، ولإعطاء مصداقية للصراع الجذري الممتد، وحالة العداء المتأصل بين هذا الكيان المصطنع والعالم العربي الاسلامي^(٩).

تلك صورة عامة مختصرة لأوضاع اليهود الشرقيين، رأينا أن نعرفها، قبل أن نعرض للجالية اليهودية المغربية في اسرائيل، حيث تشكل هذه الجالية، أكبر الجاليات الشرقية من حيث الحجم، وأحدثها من حيث زمن الهجرة. وأكثرها من حيث الشعور بالاضطهاد والظلم والتمييز، وبالتالي أكثرها بروزاً على صعيد

التوتر الاجتماعي وحركات الاحتجاج، ومنظمات بعث التراث والبحث عن الهوية والانتفاء الثقافي - الحضاري.

اليهود المغاربة:

اليهود المغاربة، هم أكبر الطوائف اليهودية في الكيان الاسرائيلي، وبالرغم من أن وجودهم لم يكن ليذكر حتى عام ١٩٤٨ (حوالي ألف مهاجر فقط)، إلا أن عددهم يتجاوز اليوم نصف مليون نسمة، ويشكل هؤلاء مع اليهود من أصل جزائري - تونسي - ليبي، وحدة اثنية تكاد تكون متجانسة، يتجاوز حجمها ثلاثة أرباع مليون نسمة، وبالتقريب ربع مجموع السكان اليهود المقيمين في الكيان الاسرائيلي^(١٠).

هجرة اليهود المغاربة الى اسرائيل تمت في موجتين، كانت أولاهما في النصف الثاني من الخمسينات، في حين كانت الهجرة الثانية في الثلاث سنوات الأولى من الستينات، وهي بالتالي أحدث الهجرات الجماعية إلى الكيان الاسرائيلي.

وعن أسباب ودوافع هذه الهجرة، تختلط الدوافع الدينية والاقتصادية، بجهود الحركة الصهيونية ومنظمتها السرية بالمغرب، مقرونة مع عامل الخوف والقلق والتشكك من المستقبل في ظل الاستقلال الوطني، الذي بثه الدعاية الصهيونية بينهم.

وكيفما كان الحال، فقد أدت هذه العوامل وغيرها، الى هجرة مايقارب الربع مليون نسمة من يهود المغرب إلى الخارج، وصل مانسبته ٦٠٪ منهم إلى الكيان الاسرائيلي، في حين فضل الباقون الاستقرار في أقطار العالم الغربي، فرنسا وكندا وأمريكا اللاتينية على الخصوص.

الوضع الاقتصادي - الاجتماعي:

المحطة الأولى لمهاجري المغرب، كانت مساكن مؤقتة عرفت بـ «المعابر»، وتعني مراً أو ممرأ مؤقتاً ينتقل المهاجر بعدها إلى سكن وعمل دائمين، ضمن عملية استيعاب ودمج عناصر المجتمع الاسرائيلي بمختلف انشاءاتها، لكن هذه المعابر التي كانت مؤقتة فعلاً بالنسبة لمهاجري أوروبا الاشكناز، كانت بالنسبة ليهود المغرب - كما هو الشأن بالنسبة للغالبية للعظمى من اليهود الشرقيين - سكوناً شبه دائم استمر لأعوام طويلة، وفي الوقت الذي كان الغربيون ينتقلون منها إلى مساكن جيدة واسعة صحية، فإن اليهود من أصل مغربي - كما باقي الشرقيين - انتقلوا بعد فترة المعابر الطويلة، للسكن في مساكن صغيرة المساحة غير صحية شديدة الازدحام، عرفت كأحياء خاصة مميزة. ومن الأحياء التي عرفت بساكنيها من اليهود المغاربة، حي المصراة في القدس، حي وادي الصليب في حيفا، بالإضافة إلى مدن تطوير أو مدن مشارف الصحراء مثل عسقلان، المجدل، بئر السبع^(١١)... الخ.

التحول الى طبقة عاملة :

تجربة المعابر، كانت التجربة المبررة الأولى للمهاجرين في «الوطن الجديد»، فهي بالنسبة لسانة اسرائيل الاشكناز نجسيد، أو تطبيق عملي لنظرة عنصرية استعلائية تجاه ما هو شرقي، كما تركت آثاراً غائرة في جسد المجتمع الاسرائيلي، وذكريات مبررة لكل من عانى من هذه التجربة، وفيها جرت بقسوة وعنف، عملية التطويع القسري، وتحويل المهاجرين الجدد إلى قاعدة الهرم الاجتماعي الذي تربعت النخبة الاشكنازية على قمته.

وهكذا، فبعد أن كان اليهود المغاربة في وطنهم المغرب، جزءاً من الطبقة البرجوازية بمختلف فئاتها، تحولوا في اسرائيل إلى جزء من الطبقة العاملة، لا بل أدنى مستوياتها، إذا ما قورنوا بطوائف يهودية شرقية أخرى كيهود العراق، الذين سبقوهم زمنياً في الهجرة الى اسرائيل، ولا يوجد أدنى من اليهود من أصل مغربي في السلم الطبقي، إلا اليد العاملة العربية، التي تشكل جزءاً مهماً من القاعدة الدنيا من اليد العاملة في اسرائيل.

حي المصرة في القدس أحد الأحياء الكبيرة المعروفة بساكنيها من اليهود المغاربة، عُرف في الوقت نفسه كأحد أكثر الأحياء فقراً وبؤساً في الكيان الاسرائيلي، وأطلق عليه تسميات عديدة تشير إلى مدن الفقر والبؤس الذي يعانيه القاطنون فيها منها «مملكة الفقراء»، «مملكة القذرين الأشرار» «حتالة البؤس الاجتماعي»^(١٢).

التمييز العنصري :

الوضع الاقتصادي لليهود من أصل مغربي، لا ينفصل عن النظرة العنصرية التي تنظر بها النخبة الحاكمة لليهود الشرقيين عموماً وللمغاربة منهم بشكل لافت للنظر. فيهود «الشمال الافريقي» وبصورة خاصة اليهود المغاربة المتجمعون في البروليتاريا المستغلة ينظر إليهم «كجبهة خطيرة». وبين غوريون، أول رئيس لوزراء الكيان الاسرائيلي، الذي حذر من «غزو الثقافة والروح الشرقية للمجتمع الاسرائيلي» وتخوف من أن «يصبح الاسرائيليون عرباً»، ورأى أن من واجب الحكم الاسرائيلي «الحفاظ على القيم اليهودية الشرعية كما كانت مجسدة في يهود المجتمعات العربية...» أوجز ذلك كله في عبارة عنصرية ضد اليهود المغاربة فقال «لأريد لثقافة مراکش أن تكون عندنا هنا...» وغولدا مثير الغنية عن كل تعريف أوجزت ذلك بالقول: «نحن في اسرائيل، بحاجة الى مهاجرين يتمتعون بمستوى رفيع... إن لدينا مهاجرين من مراکش وليبيا وايران ومصر، ومن بلدان أخرى، ترجع مستوياتهم الاجتماعية الى القرن السادس عشر...»^(١٣).

الفقر، البطالة، البؤس، ونظرة عنصرية استعلائية، يعاني منها اليهود من أصل مغربي، أفرزت ظواهر اجتماعية ميزت المجتمع الشرقي عامة، وجمتمع اليهود المغاربة بصورة خاصة، لعل أهمها تفشي

الجريمة من جهة، والشعور بأنهم قد خدعوا بدفعهم الى اسرائيل، وزيادة إحساسهم بالظلم الاجتماعي والتمييز العنصري، الطائفي من جهة ثانية، الأمر الذي أدى الى تبلور مظاهر الاحتجاج التي بلغت درجة العنف في الكثير من الحالات، وسنجد أن اليهود المغاربة تحديداً، كانوا الأكثر وعياً للواقع الاقتصادي - الاجتماعي لليهود الشرقيين عامة، ومن ثم كانوا المبادرين الى بلورة مظاهر الاحتجاج الاجتماعي والتبلور السياسي، وتعزيز الانتفاء الاثني - الحضاري .

الهوية والانتفاء:

الوجه الثاني من سياسة التطويع القسري لليهود الشرقيين، هو عملية الصهر والدمج التي اتبعتها النخبة الاشكنازية، بهدف خلق مجتمع منسجم متناكس، يتجاوز الاصل الاثني والحضاري للمهاجرين اليهود، أما النموذج الحضاري الذي اختير ليندمج جميع اليهود فيه، فكان النموذج الغربي، وبمعنى آخر، فإن عملية الصهر والدمج لعناصر المجتمع المتناقضة، لم تخرج عن أن تكون عملية تغريب قسري للمجتمع اليهودي الشرقي .

عقدة الولاء . . . !؟

يوجز المحامي اليهودي المغربي الاصل ابراهام بوردوغو العملية التدميرية لأسس اليهودية الشرقية فيقول:

«في البدء مررنا نحن اليهود الشرقيين بعملية تحويل الى يهود غربيين، وذلك أن الدولة كانت ومازالت تحت سيطرة الطبقة الاشكنازية . . . وفي البداية كانوا يجهدون لجعل اليهودي العربي يتجمل من أصله . . . ويتجمل من عاداته . . . ويتجمل من الحديث باللغة العربية، باعتبارها لغة العدو، ويتجمل من الاستماع لأغنية عربية أو موسيقى عربية، وخلقوا لدينا مايسمى بعقدة الولاء للدولة»^(١٤).

تشبيه اليهود الشرقيين بالعرب، شتيمة تكاد تكون على لسان كل يهودي اشكنازي، وهي بالاضافة الى أنها تذكير دائم لهم بأنهم ليسوا من طينة اليهود الرواد الذين «صنعوا اسرائيل» والذين جلبوا الحضارة والمدنية والديمقراطية معهم، بل إنهم جزء من مجتمع الاستبداد الشرقي المتخلف، وهذا أحد المثقفين من أصل مغربي يقول: «إن أقذع شتيمة يقذفونها بها - يقصد اليهود الغربيين - هي تذكيرنا بأننا عرباً، بحيث أخذ يتأبنا شعور بعقدة الدونية بالنسبة للاشكناز» ويدلل على ذلك بأنه في إحدى مظاهرات الفهود السود، نعته أحدهم بقوله «ياعربي» فما كان منه إلا أن إنهال عليه ضرباً ولكما. لكنه مع الزمن أخذ يسائل نفسه، أولست عربياً فعلاً؟!، ليصل الى إجابة سريعة بسيطة: «نعم إنني يهودي عربي». ويشير هذا المثقف الى حقيقة أن الاضطهاد الجماعي الذي عاناه اليهود المغاربة تحديداً كان الأكثر حساسية وقسوة. (١٥).

الانتظام:

اليهود المغاربة، كما رأينا، كانوا أكثر الطوائف الشرقية معاناة من التمييز والاضطهاد ومن الحقد العنصري، ومن آثار الاستيعاب والصهر والدمج القسرية الاشكنازية، وبسبب ذلك، ولكون هذه الطائفة أكبر الطوائف الشرقية، بل أكبر الطوائف اليهودية في اسرائيل على الاطلاق، وبحكم تركيزهم الاجتماعي في احياء ومدن تطوير خاصة بهم، هي الأكثر فقراً وبؤساً من غيرها، بحكم ذلك كله، كانوا رواد الاحتجاج والتبلور الثقافي - الحضاري، وتعود أولى محاولاتهم للانتظام على هذا الأساس الى عام ١٩٥٩، حين أقدم مهاجر مغربي وصاحب مطعم في حي وادي الصليب البائس، على تأسيس اتحاد مهاجري شمال افريقيا^(١٦).

كان هدف الاتحاد احتجاجاً بالدرجة الأولى، ولنفس الهدف، ظهرت حركة الفهود السود في أوائل السبعينات، في حي المصراة في القدس، قبل أن تنتشر لتعم مختلف تجمعات اليهود المغاربة والشرقيين عموماً. وكانت زعامة الحركة من يهود المغرب، الذين دخلوا السجون الاسرائيلية، لتورطهم في جرائم مختلفة على تماس مع الوضع المتدهور للطوائف الشرقية، ثم تسيسوا وأخذوا في استقطاب اليهود الشرقيين عامة، والمغاربة منهم بوجه أخص في حركة احتجاج صاخبة، فرضت نفسها على الحياة السياسية الاسرائيلية، حتى أواخر السبعينات، حيث تم استيعابها أخيراً وتوزعت شظاياها المنقسمة على أكثر من حزب وتنظيم سياسي.

حركة بياحد.. عودة الى الذات:

تختلف حركة «بياحد» عن سابقتها في أنها لم تظهر إلى الوجود كحركة احتجاجية اجتماعية، ولكنها كانت حركة رفض للاستيعاب والتغريب والتذويب، حركة عودة إلى الذات في محاولة لتأكيد الهوية الخاصة المميزة لليهود شمال افريقيا، الذين يشكل اليهود من أصل مغربي غالبيتهم العظمى.

لقد جعلت حركة بياحد أحد أهم أهدافها، لا بل مبرر وجودها، يتمثل في «إنقاذ، إبراز التراث التاريخي لليهود شمال افريقيا»، وفي هذا الاطار، أعادت الاعتبار لعديد من العادات والشعائر الدينية الخاصة بيهود المغرب العربي، كإعادة الاحتفال بعيد «الميمونة» منذ عام ١٩٨٣، كما عملت على تنمية روح الفخار والاعتزاز بالنفس، بهدف تغيير الصورة السيئة والمطبوعة في الأذهان حول يهود الشمال الافريقي، من خلال إبراز النواحي الإيجابية في حياتهم وتراثهم التاريخي - الحضاري^(١٧).

على مستوى الشعور العفوي العام، غير المنضبط في أطر تنظيميه، نجد مظاهر التأكيد على الجذور ورفض التغريب والتذويب، سلوكاً عاماً لليهود ومن أصل مغربي، كما هو الشأن بالنسبة لعموم اليهود الشرقيين، من هذه المظاهر، العودة الى حميمية العلاقات الأسرية المتسمة بقوتها ودفتها في المجتمع الشرقي عامة. ومنها أيضاً الالتصاق أكثر فأكثر بالغناء والموسيقى المغربية، والغناء والموسيقى العربية بشكل عام.

ويصل الأمر الى حد التمسك بعادات المأكل وأصناف الأطعمة، وحتى «الأنثى» المغربي!

وبطبيعة الحال فقد انبرى الاختصاصيون الاجتماعيون «الاشكناز» لتحليل أسباب فشل عملية التغريب، فبرى «يوحان بيرس» الباحث في جامعة تل أبيب، أن التمييز وانعدام المساواة الاقتصادية والاجتماعية والموقع الطبقي المتدني، كانت العوامل الأساسية في فشل عملية الاستيعاب^(١٨) في حين أن الباحث في جامعة حيفا «شلومو سيرسكي» يشير في كتاب له حول هذا الموضوع، إلى أن تحول الصراع «الطبقي - الطائفي»، الى صراع حول المركز، هو مايفسر هذا «الارتداد الشرقي إلى الذات»، ذلك أن الوضع الفريد لصراع طبقي - طائفي، يجعل كل شيء في اسرائيل يذكر الشرقي بأنه شرقي، «لأنه أينما اتجه يجد أمامه وضعاً اجتماعياً خاصاً بالشرقيين - المغاربة منهم بشكل اخص - مثل العدد الكبير من الاولاد والثقافة المتدينة، والهجرة الى بلد غير متطور. . وهكذا، يقول سيرسكي - شرقي لأنه تعود أن يجد شرقيين كثيرين يعادلونه في المكانة، واشكنازين بمراتب عليا. . إنه شرقي لأنه من خلال اتصالاته بالأجهزة المسيطرة المختلفة، يشعر بالتنكر والغربة، لأنه لايجد منهم الدلائل والأشكال المعروفة لديه من بيته وبيئته. .»^(١٩).

ما من شك في أن لهذه العوامل تأثيرها في فشل سياسة التغريب، والارتداد الى الذات لدى اليهود الشرقيين عامة، والمغاربة بوجه خاص، لكن تبقى حقيقة هامة لم يولها الباحثون الاجتماعيون (وهم من النخبة الاشكنازية) عنايتهم، أو هم تجاهلواها عن قصد وسوء نية، وتمثل هذه الحقيقة في عمق الروابط التاريخية والثقافية مع مجتمعات الأصل، وثراء التراث الثقافي والفكري - خاصة ليهود المغرب ويهود العراق - الذي يمتد عميقاً في التاريخ. ومن المعروف أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر، فإن مراكز الإشراف الحضاري والثقافي لليهود كانت اليهود الفرادية، وهذه الحقيقة تفسر كثيراً عقدة النقص التي شعر بها الغربيون تجاه الشرقيين، حيث يفقدون إلى عنصر الإثراء الثقافي اليهودي بصورة خاصة، والذين انقطعوا عن التفاعل الحضاري - الثقافي - مع المحيط لقرون عديدة خلال عزلتهم داخل أسوار الفيتو، في الوقت الذي كانت فيه الجاليات اليهودية في العالم العربي الاسلامي، وخاصة في المغرب والأندلس والعراق تتفاعل مع محيطها مؤثرة فيه ومتأثرة به، مما جعل الفكر اليهودي والثقافة اليهودية هنا أكثر عقلانية، وأكثر انفتاحاً. ولعل أوضح مثال يساق عادة في هذا المجال، الفيلسوف الحاخام العقلاني، «موسى بن ميمون» أعظم فلاسفة ورجال الدين اليهود خلال العشرة قرون الأخيرة، والذي كتب مؤلفاته باللغة العربية، جنباً إلى جنب مع اللغة العبرية - الأندلسية (الفرادية)^(٢٠).

المجال السياسي .

عند هجرتهم الى الكيان الصهيوني، كان اليهود المغاربة يفقدون الى عناصر النخبة القيادية في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية، ويعود ذلك الى حقيقة أن زعماء الجالية في المغرب، من ذوي التأطير السياسي والمستوى الثقافي والاقتصادي المرتفع، لم يهاجروا الى اسرائيل، حيث كانت

خياراتهم عديدة، فآثروا الهجرة الى غيرها من أقطار العالم المختلفة . وهكذا افتقد اليهود المغاربة في اسرائيل، الأطر القيادية والثقل السياسي، مما جعل منهم مجالاً خصباً لتنافس الأحزاب الاسرائيلية على أصواتهم الانتخابية، وكان حزب الماباي، ثم وريثه حزب العمل، السباق في استقطاب أصوات اليهود المغاربة، بالنظر الى سيطرته على مفاصل السلطة، وأجهزة الوكالة اليهودية ومؤسسات الهجرة والاستيعاب .

لكن الوضع لم يستمر على هذا المنوال، حيث ازدادت أوضاع اليهود المغاربة - كما باقي اليهود الشرقيين - سوءاً مع مرور الوقت، كما أخذوا بالتدريج يعون الواقع الاسرائيلي، ووضعية الاستغلال الاقتصادي والتمييز الاجتماعي، الذي عانوا منه في ظل سيطرة حركة العمل «اليسارية» .

الاحتجاج والتمرد

كما أشرنا، فإن اليهود المغاربة، كانوا الأكثر معاناة، ويؤسا من بين جميع الطوائف الشرقية، وبالتالي كانوا الأسبق من غيرهم، لابل تزعموا حركات الاحتجاج والتمرد . فكانت انتفاضة «وادي الصليب» أحد أحياء حيفا المكتظ بقاطنيه من اليهود المغاربة من ٩ - ١٣/٧/١٩٥٩ . تلك الأحداث التي بدأت عندما هاجم رجال الشرطة الاسرائيلية أحد المقاهي التي يتردد عليها اليهود المغاربة، فقتلوا واحداً منهم . ومع شيوخ الخبر، اندلعت التظاهرات في الحي، ثم مالبت أن امتدت بسرعة الى طبريا وبئر السبع ومجدل هعيمق، حيث كانت الشرطة، والمحلات التجارية والسيارات العائدة لليهود الغربيين هدفهم المباشر!! لقد عمدت السلطة الاسرائيلية على احتواء الأحداث، وشكلت لجنة تحقيق، توصلت في تقرير وضعته وقدمته للكنيست، الى أن «ممارسة التفرقة والتمييز ضد قطاعات كبيرة من الجالية اليهودية في شمال افريقيا، وخاصة أولئك القادمين من المغرب . . . كانت من أهم العوامل في نشوب الأحداث» (٢١) .

وكان قد سبق انتفاضة وادي الصليب، بفترة قصيرة، تشكيل أول إطار تنظيمي خاص باليهود المغربية «اتحاد مهاجري شمال افريقيا» ومن غير شك وجود علاقة ما، بين هذا التبلور التنظيمي المتواضع، وانفجار الأحداث على هذا النطاق الواسع .

تمكنت السلطات الاسرائيلية بالكاد من السيطرة على الوضع واحتوائه، لكن حقيقة عدم تحسن أوضاع اليهود الشرقيين عامة، ومن هم من أصل مغربي بوجه خاص، بالرغم من الوعود والادعاءات الرسمية، أدى مع تقادم الوضع الى نشوء حركة احتجاج ذات مضمون سياسي . وذلك عام ١٩٧١، ومن حي المصراة بالقدس، حين أراد بعض اليهود، أغلبهم من أصل مغربي، التظاهر سلمياً أمام دار البلدية احتجاجاً على التمييز والبؤس الذي يعاني منه سكان الحي، وأرادوا في الوقت ذاته الإتكاء على الممارسة الديمقراطية الاسرائيلية، فعمدوا الى طلب التصريح القانوني بها، لكن السلطات، ممثلة برئيسة الحكومة الاسرائيلية آنذاك، غولدا مئير، أصدرت قراراً بعدم السماح لهم بتنظيم المظاهرة، في الوقت ذاته أقدمت شرطة «شلومو هيل» (وزير الشرطة - عراقى الأصل) على شن حملة اعتقالات واسعة النطاق، كإجراء عملي

للحيلولة دون خروج المظاهرة، لكن المظاهرة، بالرغم من كل شيء خرجت، وكانت الشرارة الأولى لما عرف فيها بعد بحركة «الفهود السود». بعد أن خرجت من نطاق حي المصراة وشهدت استقطابات واسعة بين التجمعات السكانية المغربية والشرقية بصورة عامة، وبالتدرج أخذ «أشقياء» الفهود السود يتحولون الى زعامة، وقيادة ميدانية لآمال وطموحات الشرقيين بالمساواة والعدل الاجتماعي، وقد عرف من بين هؤلاء في حينه، كوخاني شيمش، شارلي بيظون، سعاديا مرشيانو، رويين افيرجيل، وموني الياكيم، وهم في عدا هذا الأخير، من أصل مغربي(٢٢).

وبالرغم من أن السمة الأساس للفهود السود، كانت حركة احتجاج، لكنها بدت أيضاً كأول تبلور سياسي لليهود الشرقيين في اسرائيل، وإن لم يصل هذا التبلور مداه ووضعه الطبيعي كقوة سياسية بين القوى والأحزاب السياسية في اسرائيل.

- من جهة بدا لبعض زعماء الفهود السود، أن هناك علاقة وارتباط مابين الوضع السياسي لدولة اسرائيل والصراع العربي الاسرائيلي، وبين زيادة الضغوط على اليهود الشرقيين الذين يتحملون عملياً، التكاليف المادية لسكرة المجتمع الاسرائيلي، لتظل وضعيتهم، على ماهي عليه، بحجة الحفاظ على الوحدة الوطنية والوفاق الداخلي.

- ومن جهة ثانية، بدا لنشيطي الحركة، أن يتوجهوا للمشاركة في لعبة المؤسسات النقابية والتشريعية واستخدامها - من ضمن وسائل أخرى - كمنابر للدفاع عن حقوق اليهود الشرقيين، وحيث أن خبراتهم السياسية والتنظيمية محدودة، عمدوا الى الاتصال بعضو الكنيست السابق شالوم كوهين (مصري الأصل) الذي قد انفصل عن حزب أورني افنري، «معوام هزي» فوضع خبرته السياسية والتنظيمية بتصرف زعامة الحركة، التي أوردت على رأس قائمة انتخابية لانتخابات المستدروت عام ١٩٧٣، حيث تمكن بالفعل من الفوز ودخول المستدروت برصيد ضئيل.

وفي نفس العام حيث كانت انتخابات الكنيست الثامنة على الابواب، أقدمت الحركة على تنظيم حملة للوصول الى المجلس التشريعي، لكن الرياح هذه المرة، لم تكن مواتية، في ضوء تأجيل الانتخابات بسبب نشوب حرب أكتوبر ١٩٧٣، ثم إجراؤها بعد عدة أشهر في ظل الصدمة العسكرية الثقيلة، وهموم السياسة والأمن التي سادت الحملة الانتخابية على حساب القضايا الاجتماعية، ليدفع الفهود السود الثمن، وتكرر الفصل عشية التحضير لانتخابات ١٩٧٧، حيث كانت الحملة الانتخابية والتحضيرات التي واكبتها كافية لتفتيت الحركة، وإنهاء وجودها كحركة قائمة بذاتها، وتوزعت زعامتها على أكثر من حزب سياسي، فانضم شارلي بيظون الى ركاكح - الحزب الشيوعي - في حين انضم مرشيانو وكوخاني شيمش الى حركة شيلي، في حين انضمت قلة الى الحركة الديمقراطية للتغيير(٢٣).

نزعة التطرف.. دعم اليمين:

استيعاب واحتواء ظاهرة الفهود السود، وفشلهم في التبلور في حزب سياسي يساري تبعاً للقوى

الاجتماعية التي يمثلونها، هذا الفشل، ارتبط بظاهرة لافتة للنظر تمثلت في اندفاع اليهود المغاربة والشرقيين بصورة عامة نحو اليمين منذ بداية السبعينات، وبالمخصوص منذ انتخابات عام ١٩٧٧ حيث أصبح معروفاً، أن وصول تكتل ليكود اليمين المتطرف الى السلطة والمغاربة منهم على وجه الخصوص، الذين آثروا دعمه وتأييده، وإيصاله الى السلطة دون أن يعيروا كبير اهتمام لحركتهم الاحتجاجية - الفهود السود .

لقد قيل الكثير في تفسير هذه الظاهرة، ولعل أهم ما قيل، هو أن اليهود الشرقيين عامة ينزعون نحو التطرف ضد العرب، وضد كل ما هو عربي؟ وهذا ما تردده وسائل الاعلام الاسرائيلية والنخبة السياسية والثقافية الاشكنازية، يؤكد ذلك ويدعمه بعض الزعامات السياسية ذات الالتئام الشرقي، سواء في تصريحاتها أو في ممارساتها العملية، كما يدعمه ويؤكده واقع التصويت في الانتخابات، وحقيقة وجود يهودي من أصل مغربي هو دافيد ليفي كأحد أركان حركة حيروت، وتكون ليكود الأساسيين.

واقع التصويت الانتخابي، لانتخابات ١٩٨٤، تشير إلى تصويت شبه إجماعي لليمين في مدن التطوير المعروفة بقاطنيها من اليهود المغاربة، على سبيل المثال، فإن بلدة تيفون التي لا يسكنها إلا اليهود المغاربة حصل الليكود وهتيا وتامي (حزب أبو حصيرة) على ٩٠٪ من مجموع أصوات الناخبين. وفي الأحياء التي يسكنها اليهود المغاربة في المدن الكبرى (مثل المصراة في القدس ووادي الصليب في حيفا - مركز الاحتجاج الاجتماعي) انخفضت هذه النسبة قليلا فتراوح التصويت لأحزاب اليمين ما بين ٧٠ - ٨٠٪. وتشير المعطيات العامة لأتجاه التصويت بين اليهود المغاربة إلى أن تجمع المعراخ لم يحصل سوى على ١٨٪ فقط من مجموع أصوات اليهود المغاربة في كل البلاد، في حين حصل الليكود وحده على ٦٧٪. وذهب ال ١٥٪ الباقية لأحزاب أخرى هي الأكثر تطرفا وعنصرية، وشوفينية حتى من الليكود نفسه (هتيا، تامي، مورشا، شاس وحزب كاهانا). في حين لم تجد الأحزاب المصنفة في مواقع اليسار أي قدم لها بين اليهود من أصل مغربي^(١١).

لقد قيل الكثير عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى هذا الاستقطاب اليميني، كما وجد من يشك - من بين صفوف اليهود الشرقيين - في حقيقة ومضمون ظاهرة الاستقطاب، وهؤلاء يقولون إن ظاهرة التصويت لصالح اليمين لا تعني بالضرورة قناعة إيديولوجية بالمواقف والنهج السياسي المتطرف ضد العرب والقضية الفلسطينية، بقدر ما هو موقف احتجاج يعبر به اليهود الشرقيون عن عمق المعاناة والاضطهاد والتميز الذي تعرضوا له في ظل حكم وسيطرة أحزاب المعراخ على الحكم طيلة السنوات التي سبقت صعود ليكود إلى السلطة عام ١٩٧٧، ويدللون على ذلك بأن اليهود الشرقيين كانوا السابقين في تأييد منحيم بيغن، حينما أبرم اتفاقيات السلام مع مصر، على عكس اليهود الاشكناز الذين ترددوا في إبداء تأييدهم، ونظموا حركات رفض واحتجاج واعتصام في المستوطنات اليهودية في سيناء بهدف الحيلولة دون الانسحاب منها^(١٢).

لكن يبدو أن النخبة الاشكنازية التي تنظر باستمرار نظرة تشكك وخوف نحو الهوية العربية لليهود الشرقيين، وحقيقة ولائهم للكيان الذي أقاموه هم، والخوف من إمكانية اللقاء بين هؤلاء الشرقيين والمواطنين العرب، ذلك الخوف الذي عبر عنه بن غوريون وغولدا مثير وغيرهم، والخوف من أن يؤدي مثل

هذا الاحتمال إلى اهتزاز السيطرة الاشكنازية، لا بل اهتزاز الطابع الحضاري الغربي لإسرائيل لحساب هوية شرق أوسطية عربية الملامح. هذا العامل، مع عوامل أخرى، دفعت غخططي الاستيعاب إلى توطين يهود الأقطار العربية، إما في نفس الأحياء والمسكن التي كان العرب يقطنونها قبل تهجيرهم، أو في المناطق الحدودية، حيث الاحتكاك المباشر مع عمليات المقاومة الوطنية المسلحة، وخبر مثال لذلك مستوطنة الخالصة (كريات شمونا) والقرى الاستيطانية في الشمال عموماً.

وما من شك في أنه في كلا الحالين سيكون العرب واليهود، كل منهما في مواجهة الآخر، مما يمكن للسلطات الإسرائيلية من اصطيد أكثر من عصفور بحجر واحد: أولاً باستغلال هذا الوضع لاشغال اليهود الشرقيين عن حقيقة وضعهم الاقتصادي والاجتماعي، بقضايا الأمن أو مصير الوجود الإسرائيلي حيث يجب أن يعلو «الاجماع القومي» في هذه القضايا على غيره. وثانياً تحقيق مستوى متزايد من التعبئة النفسية لليهود الشرقيين ضد العرب، وربط ذلك بمخزون ذهني - تاريخي موهوم عن نزعة عداة عنصرية تعرض لها اليهود في الأقطار العربية. ومن جهة ثالثة خلق الانطباع لدى العرب داخل اسرائيل وفي الأرض المحتلة والخارج، أن اليهود الشرقيين هم العدو الأول الأكثر تطرفاً وعنصرية من الاشكنازين، فها هم قد استولوا على منازلهم، وها هم يقيمون في مستوطنات الحدود يتصدون لمقاتلي المقاومة، وينفذون خطط الاستيطان. والاستيلاء على الأراضي من المواطنين يعزز مثل هذا الانطباع الذي يصل حد القناعات الثابتة التي لا تقبل الجدل، أن اليهود الشرقيين هم العنصر الأساسي في الجيش والشرطة وأجهزة القمع المختلفة، حتى المواطنون الفلسطينيون، والشعوب العربية المجاورة هم ضحاياها المباثرون.

كما لا شك أن للضغوط الاجتماعية - النفسية التي يعيش اليهود الشرقيون في أجوائها أثرها في زيادة حدة التطرف المنسوب إليهم، فهم يتعرضون للتمييز وعدم المساواة والعنصرية، بسبب كونهم يهودا عربا، يشبهون العرب، أعداء إسرائيل، كما أن استمرار حالة الصراع والعداء يبرر من قبل السلطات، بضرورة تغليب قضايا الأمن والدفاع على القضايا والمسائل الاجتماعية، وهم معنيون قبل غيرهم بإيجاد حلول لها. وهكذا يجري التنفيس عن الضغوط الاجتماعية - النفسية المكبوتة في غير محلها، تطرفاً وعدوانية ضد العرب باعتبارهم أحد أهم الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى وضع المعاناة والتمييز العنصري الذي يعانون منه في الداخل، أو هكذا يترأى لهم قناعات ووعي زائف بعيد عن حقيقة الواقع.

التبلور السيلسي:

تشير عملية التصويت والتأييد الجماعي لصالح أحزاب اليمين، إلى تزايد التأثير والثقل السياسي لليهود الشرقيين، والذين هم من أصل مغربي على الخصوص، لا بل يمكن اعتبار ذلك جزءاً من عملية التبلور السياسي الذي خططت حركة الفهود السود خطته التنظيمية الأولى.

لقد شهدت انتخابات عام ١٩٨١، مرحلة جديدة من مراحل التبلور السياسي بين اليهود المغاربة، بظهور حركة «تقاليد إسرائيل - تامي» بزعامة الحاخام المغربي اهارون أبو حصيرة. ومشاركتها في

الانتخابات كقائمة مستقلة بعد انشقاق أبو حصيرة عن حزب المدال، بعد أن قيل، إن الحزب قد لفق التهم الرشوة والفساد لأبو حصيرة على خلفية عنصرية. هذا ولم تتمكن هذه القائمة من تطوير ثقلها السياسي في انتخابات ١٩٨١، حيث فقدت اثنين منها، مما أفقدها الأهمية النسبية التي تمتعت بها في الحياة السياسية الإسرائيلية قبل الانتخابات (كلسان ميزان في الوضع السياسي الإسرائيلي الحساس)^(٣١) في نفس الوقت الذي تراجعت فيه حركة تامي، برزت إلى الوجود حركة دينية متطرفة، العنصر اليهودي المغربي، هو العنصر الغالب فيها، وذلك كنتيجة لانشقاق طائفي في حزب «اغودات إسرائيل» الديني، وذلك عشية انتخابات عام ١٩٨٤، وشكل المنشقون قائمة انتخابية حملت اسم «قائمة حراس التوراة الشرقيين - شاس». وتمكنت هذه القائمة من إيصال أربعة من أعضائها إلى الكنيست الإسرائيلي^(٣٢).

التمثيل السياسي في المؤسسات:

حتى عام ١٩٥٩ - عام انتفاضة وادي الصليب - لم يكن لليهود المغاربة تمثيل لا في الأحزاب السياسية، ولا في أي من المؤسسات السياسية الإسرائيلية. في ذلك العام، وكجزء من عملية احتواء الأحداث، أقدمت الأحزاب الرئيسية، وخاصة أحزاب الحكم، ماباي والحزب الديني مفدال، والحزب الليبرالي، على ضم أعداد كبيرة من اليهود الشرقيين، وخصوصاً يهود المغرب، في صفوفها. وتؤكد هذا الاتجاه تحديداً منذ انتخابات الكنيست الخامس عام ١٩٦١، حيث تم ادخال بعض اليهود المغاربة إلى اللوائح الانتخابية لهذه الأحزاب، وكان من أهداف هذه الخطوة، بالإضافة لعملية الاحتواء، هو اكتساب أصوات الشرقيين، وخاصة لليهود من أصل مغربي، وذلك على إثر الزيادة الكبيرة في أعدادهم وقوتهم التصويتية بعد الهجرة الجماعية منذ منتصف الخمسينات.

ومع ذلك، فإن استقطاب اليهود المغاربة في عضوية هذه الأحزاب، وخاصة في أجهزتها القيادية، بدأ ضعيفاً ومحدوداً، وبدا أن الأحزاب الإسرائيلية ذات البنية والقيادة الاشكنازية، كانت تريد الحصول على تأييد ودعم اليهود الشرقيين عموماً في حملاتها الانتخابية، ودون أن تسمح بأن يؤدي ذلك إلى تمثيل مواز لذلك في عضويتها، وهيئاتها القيادية، وبطبيعة الحال فقد انعكس هذا الوضع بوضوح على الوضع التمثيلي لليهود الشرقيين عامة، في الجهاز التشريعي (الكنيست) والحكومة الإسرائيلية. في هذا المجال اثارَت دراسة قام بها الباحثان الإسرائيليان «عمانونيل تموتمان» و«يعقوب لاندو» إلى أن من بين ٢٧٤ نائباً عضواً في الكنيست، حتى ولايته الثامنة (أي من ١٩٤٩ - ١٩٧٤) كان عدد الأعضاء من أصل شرقي ٢٧ عضواً، منهم ثمانية فقط نواب أعضاء كنيست من أصل مغربي. هذا في حين أنه لم يدخل الوزارة الإسرائيلية خلال كامل هذه الفترة سوى أربعة وزراء شرقيين، لم يكن منهم من هو من أصل مغربي^(٣٣).

انتخابات عام ١٩٧٧، ووصول تكتل ليكود إلى السلطة، حملت معها تغيراً نوعياً مهماً بالنسبة لتمثيل اليهود من أصل مغربي، والشرقيون بصورة عامة، في كل من الكنيست والحكومة، بعد أن أخذت الأحزاب تدرج المزيد منهم في أماكن مضمونة النتائج في قوائمها الانتخابية، وذلك كجزء من عملية التنافس المحموم على أصوات الشرقيين، وهكذا، ارتفع عدد أعضاء الكنيست من اليهود الشرقيين في انتخابات ١٩٧٧ إلى ٢٢ عضواً، منهم سبعة أعضاء من أصل مغربي^(٣١). وفي انتخابات الكنيست العاشرة عام ١٩٨١ ارتفع عدد الأعضاء الشرقيين إلى ٢٧ عضواً، برلمانياً منهم عشرة من أصل مغربي وفي انتخابات الكنيست الحادية عشرة عام ١٩٨٤ قفز عدد الأعضاء الشرقيين إلى ٣٢ عضواً، منهم أربعة عشر عضواً برلمانياً من أصل مغربي^(٣٢).

على الصعيد الحكومي، فإن أول يهودي من أصل مغربي يدخل الوزارة الإسرائيلية كان في حكومة مناحيم بيغن الأولى، الذي يبدو أنه أراد مكافأة اليهود من أصل مغربي، على دعمهم إياه في الانتخابات التي أوصلته إلى سدة الحكم، فأدخل اثنين من أصل مغربي في حكومته الأولى، هما في الوقت نفسه الوزيران الوحيدان من أصل شرقي، وهما ديفيد ليفي من حيروت - ليكود وكوزير للاستيعاب والإسكان، والحاخام اهارون أبو حصيرة عن حزب المجدال - قبل انشقاقه عنه - كوزير للاديان. وأضاف بيغن وزير ثالث شرقي من أصل غير مغربي، في حكومته الثانية. وفيما بعد في حكومة شامير الأولى وحكومة الراسين (الوحدة الوطنية) اقتصر تمثيل اليهود المغاربة على وزير واحد فقط، هو ديفيد ليفي^(٣٣).

خلاصة:

نخلص من هذا العرض التحليلي لواقع اليهود من أصل مغربي في الكيان الإسرائيلي إلى ملاحظة

ما يلي:

- كجزء من اليهود الشرقيين، تعرض اليهود المغاربة لظروف اجتماعية اقتصادية قاسية، وهم، على العموم، يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعي - الاقتصادي لليهود في إسرائيل، وبالرغم من تحسن نسبي طرأ على وضعهم العام في العقد الأخير، إلا أن هذا التحسن لم يغير مواقعهم «الائتية - الطبقيّة» القائمة فعلاً.
- اليهود المغاربة كغيرهم من اليهود الشرقيين، ينظر إليهم من قبل النخبة الاشكنازية نظرة عنصرية استعلائية، تفسر جزئياً وضعهم الاقتصادي - الثقافي المتدني، كما تفسر محاولة النخبة القضاء على مقوماتهم الاجتماعية واستيعابهم ثقافياً وحضارياً في النموذج الحضاري الغربي.
- اليهود المغاربة، وهم الأكثر حداثة من حيث زمن الهجرة، والأكبر حجماً من بين جميع فئات وطوائف اليهود الشرقيين، كانوا الأسبق في التمرد والاحتجاج، والعودة إلى الذات والتبلور السياسي، سواء بإقامة التنظيمات الاحتجاجية، التراثية، السياسية، أو بالثقل الانتخابي الذي أخذ يبرز بوضوح منذ أواسط السبعينات.

● سمة مميزة ولافتة للنظر تتمثل في التوجه اليميني لليهود الشرقيين عامة، وتحديداً لليهود من أصل مغربي، وذلك بتأييد اليمين الإسرائيلي، بحيث كان دور اليهود المغاربة حاسماً في وصول اليمين إلى الحكم عام ١٩٧٧، وبقي هو الحاسم في إستمرار وبقاء اليمين في الواجهة السياسية إلى الآن. هل هذا يعني أن اليهود المغاربة، والشرقيون عموماً، هم الأكثر تطرفاً وعنصرية وعدوانية ضد الشعب العربي الفلسطيني والعالم العربي، من اليهود الاشكناز الذين قادوا الحركة الصهيونية، وأقاموا الكيان الاسرائيلي على أرض فلسطين وأنقاض شعبيها؟!!

في الواقع، هذا ما يسوقه الإعلام الإسرائيلي «الاشكنازي»، لكن حقيقة اندفاع اليهود الشرقيين عامة نحو اليمين، تفسره خيبة الأمل الكبرى في حزب العمل «اليساري»، باعتباره كان المسيطر على المؤسسات والمنظمات الصهيونية والحكومية وشبه الحكومية، على أنه المسبب الأول لمحتهم في إسرائيل، فكان توجههم نحو اليمين، احتجاجاً على الواقع، أكثر منه اقتناعاً وإيماناً بإيديولوجية صهيونية متطرفة. ولعل من المفيد أن نلاحظ أنه ليس من بين قياديين وأعضاء الحركات والمنظمات الصهيونية الأشد تطرفاً وعدوانية ضد العرب والفلسطينيين مثل غوش ايمونيم، وحركة كاخ، والمنظمات الارهابية السرية العديدة. ليس منهم من هو من أصل شرقي بالإطلاق، فهم كلهم اشكنازيون غربيون، يريدون تجسيد ما تبقى من الهدف الصهيوني على أراضي الضفة الغربية والقطاع باستئصال الوجود العربي الفلسطيني من هناك

الهوامش

(١) هيلدا صايغ، التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل، سلسلة دراسات فلسطينية رقم ٨٥، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧١، ص ١٧ - ٢٢.

(٢) Jews of the Arab countries, Dr Ali Abdo - P.L.O. Research Center, Beirut 197/P:17.

Op. Cit, P:82. (٣)

(٤) مستخرج من الإحصائيات الرسمية الإسرائيلية في: Statistical Abstract of Israel Bureau of statistics, p: 66 Israel 1988 n.37, Gen.

Abdo, op cit, p: 53. (٥)

(٦) إعداد الإقليم وإكراه اليهود الشرقيين على التحول إلى طلبة البروليتاريا المستغلة في إسرائيل الثانية، مجموعة كتاب يهود، ترجمة نؤاد جديد، منشورات فلسطين المحتلة، بيروت ١٩٨١ ص ١١٠ - ١١١.

(٧) نفس المصدر، ص ١١٧ - ١٢٠.

(٨) شؤون فلسطينية - الهوة الطائفية في التمثيل السياسي في إسرائيل، دراسة بقلم حنة شاهين، عدد ١٣٨ - ١٣٩، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٩) نفس المصدر، ص ١٠٢.

(١٠) في مقابلة أجرتها صحيفة يديعوت أحرونوت مع أحد زعماء حركة «بياحد»، ذات الطابع المغربي ١٢/١٢/١٩٨٠، أشار إلى أن ٢٥٪ من يهود إسرائيل هم من أصل شمال إفريقي.

- (١١) مجلة الأرض، مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية - دمشق ١٢/٢١/٨٥، ص: ٢٧ وكذلك هيلدا صايغ، مصدر سابق، ص ٩٣-٩٥.
- (١٢) الفهود السهود، شلومو مالكا في: إسرائيل الثانية، مصدر سابق، ص: ١٦٩.
- (١٣) إحصاء الإقليم: في إسرائيل الثانية، ص ١٢٣.
- (١٤) صحيفة القيس الكويتية ٢٦/١٠/١٩٨٧.
- (١٥) من دراسة ل: شالوم كوهين بعنوان: المنفى في العودة، في: إسرائيل الثانية، ص: ٩٠-٩١.
- (١٦) مجلة كل العرب ١١/١٢/١٩٨٥.
- (١٧) شلومو مالكا في: إسرائيل الثانية، ص ١٧٥-١٨٧٦.
- (١٨) يوحنا بيرس، علاقات الطوائف الشرقية في: جزيرة يديعوت احرونوت الإسرائيلية ١٧/٧/١٩٨١.
- (١٩) شلومو سبيرسكي، ليسوا ضعفاء، بل مستضعفون في: يديعوت احرونوت ١٧/٧/١٩٨١.
- (٢٠) عن ذلك انظر حاييم زعفراني، اليهودية في المغرب الإسلامي، دراسة في: إسرائيل الثانية، مصدر سابق، ص: ٣٣-٤٢، ودراسة أخرى بعنوان حياة وموت اليهودية - الإسبانية، حاييم سيمناه، في نفس المصدر، ص ٤٣-٤٨.
- (٢١) صايغ، مصدر سابق، ص ١٥٢-١٥٥.
- (٢٢) نفس المصدر، ص ١٧٥-١٧٦.
- (٢٤) مجلة الأرض للدراسات الفلسطينية، عدد ٢٤، تاريخ ٩/٧/١٩٨٤، ص ٤.
- (٢٥) على سبيل المثال، انظر، شالوم كوهين في إسرائيل الثانية، مصدر سابق، ص ٨٩-٩٠.
- (٢٦) جريدة هآرتس الإسرائيلية ٣١/٧/١٩٨٤.
- (٢٧) نفس المصدر.
- (٢٨) مجلة شؤون فلسطينية، عدد ١٣٨-١٣٩ سبتمبر/أبريل ١٩٨٤، ص ١٠٣.
- (٢٩) يديعوت احرونوت ١٩/٦/١٩٧٧.
- (٣٠) مستخرج من جريدة دافار الإسرائيلية ٢٩/٧/١٩٨٤، وهآرتس ٩/٢/١٩٨٤.
- (٣١) مجلة الأرض عدد ٧، تاريخ ٢١/١٢/١٩٨٥، ص ٢٤-٢٥.

الهجرة اليهودية بداية وجود ونهاية أمل

د. عبد الله محمود حسن*

اعتبرت الهجرة اليهودية ركناً أساسياً في سياسة المنظمة الصهيونية العالمية منذ الساعات الأولى لظهورها على مسرح الأحداث إثر مؤتمر بال الذي عقد في سويسرا عام ١٨٩٧، ومازالت تعتبر العنصر الأكثر أهمية في حياة الصهيونية العالمية وكيانها القائم فوق الأرض العربية المحتلة .

فبالهجرة ومن خلالها تمكنت الصهيونية من إقامة الكيان الصهيوني فوق قسم من أرض فلسطين عام ١٩٤٨، ثم ازدادت رقعة الأراضي المستولى عليها إثر الاعتداءات المتتالية والغزوات المتكررة التي تعرض لها الوطن العربي عبر السنين السابقة، وسيبقى كذلك، عرضة للاعتداءات حتى يحقق العدو الصهيوني أطماعه اللامحدودة، ومن ثم تحقيق حلم اسرائيل في إقامة امبراطورية مترامية الأطراف، تمتد من النيل إلى الفرات . . كل هذا وذاك، مرهون بتنامي أعداد المهاجرين وزيادة أعداد المستوطنين فوق الأرض العربية . . وقد أشار دافيد بن غوريون أكثر من مرة إلى حقيقة الأطماع التوسعية ومجالاتها، منها قوله: «ليفهم الجميع بأن اسرائيل قامت عن طريق الحرب وسوف لن ترضى بتلك الحدود التي وصلت إليها، وسوف تمتد الامبراطورية الاسرائيلية من الفرات الى النيل . .»^(١).

غاية الهجرة:

ترسي المنظمة الصهيونية العالمية من وراء عمليات تهجير اليهود الموزعين في شتى أنحاء العالم إلى إيجاد حل للمشكلة اليهودية المزعومة، والتي ظلوا يعانون منها عبر الأجيال، من هنا، فقد أولت المنظمة الصهيونية هذا الجانب كل الاهتمام وشكلت له العديد من اللجان المنتشرة في شتى أصقاع المعمورة، تعمل في صفوف اليهود لتوليد القناعات الكافية من أجل إقناعهم بترك مواطنهم الحالية والهجرة إلى أرض اللبنة والعسل . . الأرض الموعودة . .

عميد ركن وبلد في التاريخ من فلسطين.

فالغاية من الهجرة إذن، نقل مجموعات كبيرة من اليهود من أماكن إقامتهم الحالية إلى أرض فلسطين وغيرها من الأراضي العربية المحتلة، لتغذية الكيان الصهيوني بنسج دائم ومتجدد يضمن له استمرارية الحياة والوجود . .

فلولا الهجرة اليهودية المتنامية لم يكن للصهيونيين وجود فوق أرض العرب . . ولما نجحت هذه الحركة في إقامة الكيان . . فالهجرة كانت بداية الوجود . . والأمل الصهيوني، وستبقى كذلك، مادامت تؤمن للكيان الصهيوني رفداً دائماً . .

إن الهجرة هي إحدى الوسائل التي تمكن الصهيونية من تحقيق أهدافها وإلى هذا أشار بن غوريون عام ١٩١٥: (إن ماينجزه الصهاينة على أرض فلسطين نفسها من هجرة واستيطان وعمل هو السبيل لبلوغ الهدف الصهيوني . .) (١). لتتمكن الحركة الصهيونية العالمية من تجاوز العثرات الكثيرة والفوارق الكبيرة بين اليهود الذين يعدون لأصول متعددة الأجناس متباينة، ولأنه (وختلافاً لكافة الحركات القومية والتحريرية المعروفة في العالم، لم يكن للصهيونية شعب، ولذا وجب إيجاد نظرية عمل صهيونية تصلح لبعث القومية اليهودية في جماعات اليهود المقيمين في العديد من دول أوروبا الشرقية والغربية وأمريكا من ناحية، وكذلك وجب على الصهيونية أن تنقل هذه الأخطا من تلك الدول إلى الأرض المرغوب في تحريرها من الاحتلال الاجنبي من ناحية ثانية، فالصهيونية لا تملك الشعب ولا تملك الأرض . .) (٢). ولذا وتلافياً لكل إشكال، وحسباً لكل نقاش أو خلاف قد يحدث، سنت القوانين الملائمة. فبحسب قانون العودة الصادر في عام ٥٧١٠ عبرية ١٩٥٠م وقانون الأحوال في اسرائيل يمكن اعتبار أي شخص مهما كان غربياً ومتبائناً في اللغة والثقافة والعرق يهودياً له الحق في الذهاب إلى فلسطين، إن هو اعتنق اليهودية فقط . . وأعطي حق الإقامة الدائمة في اسرائيل لجميع أعضاء الجاليات اليهودية . . .

المهم لدى الصهيونية تهجير الجماعات المنتمة لليهودية الى فلسطين دون النظر إلى أرومتها . . لتكوين أكثرية سكانية تضمن لهذه الحركة تحقيق أهدافها السياسية الموضوعة في مؤتمر بال وغيره من المؤتمرات الصهيونية السرية والعلنية . . .

تنظيم الهجرة:

طرحت الصهيونية العالمية برنامج عمل من خلال مؤتمرها الأول المنعقد في بال عام ١٨٩٧م وكان مايرمي اليه هذا البرنامج: (. . أن هدف الصهيونية هو خلق وطن في فلسطين للشعب اليهودي يضمه القانون العام) . . ولكي يتم تحقيق ذلك يتبنى المؤتمر الوسائل التالية:

الععمل على تشجيع استيطان فلسطين بالعمال الزراعيين اليهود والصناع اليدويين والصناعيين وغيرهم من أصحاب المهن التابعة لذلك .

تركيز الجماعات اليهودية بأكمله عن طريق مؤسسات عامة تتلاءم مع القوانين المرعية الإجراء في كل بلد .

تقوية المشاعر اليهودية والوعي الذاتي القومي لدى اليهود.

الحصول على موافقة الحكومات المعنية لتحقيق غايات الصهيونية وأهدافها. (١٠)

بعد أن توضحت الخطوط العريضة لبرنامج العمل الصهيوني، سعى الصهاينة لتنظيم العمل من أجل تنفيذ مقررات المؤتمر الصهيوني، فشكلت لذلك لجنة الاستعمار وتم إنشاء المصرف الاستعماري اليهودي (Jewish colonial Trust) عام ١٨٩٨ م. وجعل مقره في لندن. (١١) وبعد ذلك تم إنشاء الصندوق القومي اليهودي (كبرين كايتم) عام ١٩٠١ م بقصد ابتياع الأراضي في فلسطين. وكانت ملكية الأراضي تسجل باسم الصندوق كملكية جماعية. وبعد الحصول على تصريح بلفور، تم إنشاء الصندوق التأسيسي (كبرين هايسود) لتمويل عمليات الهجرة والإستيطان عن طريق جمع التبرعات من الجاليات اليهودية.

اشترى الصندوق القومي منذ تأسيسه حتى عام ١٩٠٨ ما مجموعه (٨٧٠٠) دونم من الأراضي في فلسطين. وبلغت المساحات التي تم شراؤها حتى عام ١٩٢٠ ما مجموعه (٢٢٣٦٢) دونماً من الأرض التي اعتبرت ملكاً قومياً لليهود. (١٢)

وظفت مبالغ طائلة في حقل الاستيطان خلال الفترة (٢١ - ١٩٤٥) كانت موزعة وفق الآتي:

جدول نفقات وتوظيفات الوكالة اليهودية والكبرين هايسود في حقل الاستيطان

الاجمالي العام	١٩٤٥-٤٠ جنيه فلسطيني	١٩٣٩-٢١ جنيه فلسطيني	حقل النفقات
٣٥٦٦٠٠٩	٣٤٩٦٥٧٨	١٠٦٩٤٣١	الهجرة والتدريب
٥٦٢٨٠٢٩	٢٩٠٤٨٦٩	٢٧٢٣١٦٠	الاستيطان الزراعي
١٨٨٨٢٥٦	٩٩٤٠١٣	٨٩٤٢٤٣	العمل والإسكان
٩٥٤٣٦١	٦١٦٧٤٧	٣٣٧٥١٤	الصناعة والتجارة والاستثمار
٥٩٢٠٠٣٠	٥٥٢٣٣٦	٥٣٦٧٦٩٤	التعليم والثقافة
١٧٠٠٣٢٦	٤٤٥٢٥	١٦٥٥٨٠١	الصحة والخدمات الاجتماعية
٢٨٩٤٦٣٠	٢٥١٩٨٠٧	٣٧٤٨٢٣	التنظيم الوطني والأمن ومساعدات الطوارئ
٨٨٧٥٦٦	٣٠٦٩١٦	٥٨٠٦٥٠	الإدارة ومتفرقات
٢٢٤٣٩١٠٧	١٠٤٣٥٧٩١	١٣٠٠٣٣١٦	المجموع

يضاف إلى ذلك:

- استثمارات الصندوق القومي اليهودي في شراء الأراضي (٩٠٢ - ١٩٤٧) ٨, ٣٧٥, ٥٧٧.
- استثمارات الصندوق القومي في مشاريع الاستيطان حتى ١٩١٤ ٥٤٣٦٩٠.
- نفقات اللجنة التنفيذية الصهيونية في فلسطين ١٨ - ١٩٢١ ٩٨٣٢٣٧.

- نفقات الوكالة اليهودية والصندوق القومي ٤٥ - ١٩٤٧ ١٩٤٦٦ ٤٢٥٤٢٦٦ .

نجد مما سبق أن إجمالي المبالغ الموظفة في ميدان الهجرة والاستيطان والخدمات اللازمة لها هي (٨٧٧, ٤٠٣٩٥) جنيهاً فلسطينياً تم جمعها من تبرعات اليهود ولازالت الجباية اليهودية تقوم بدور فعلي في مجال تأمين الأموال اللازمة للكيان الصهيوني حتى الآن: فقد كانت الأموال الجاري جبايتها كما يلي:

١٩٦٦ - ٤٩	١٤١٥ مليون دولار
١٩٦٦	٥٩ مليون دولار
١٩٦٧	٣٤٦ مليون دولار
١٩٦٨	١٥٨ مليون دولار
١٩٦٩	١٧٢ مليون دولار
١٩٧٠	٢٨٧ مليون دولار
١٩٧١	٢٣١ مليون دولار
١٩٧٢	٣٠٦ مليون دولار
١٩٧٣	٧٩٨ مليون دولار
١٩٧٤	٣٨٩ مليون دولار
١٩٧٥	٥٠٠ مليون دولار
المجموع	٤٦٦١ مليون دولار

وقد أنفقت الوكالة اليهودية خلال الفترة ١٥/٥/١٩٤٨ - نيسان ١٩٦٧: ٣, ١٥٩٨ مليون دولار على احتياجات الهجرة والاستيعاب.
أما واردات الصندوق التأسيسي فكانت:

من الولايات المتحدة	٧٨٢,٢ مليون دولار
انكلترا - كندا - جنوب افريقيا	١٣٩,٢ مليون دولار
نيوزلندة - الشرق الاقصى	٨٥,١ مليون دولار
أوروبا	٣١,١ مليون دولار
المجموع	١٠٣٧,٦ مليون دولار

إضافة لذلك، فقد تقرر في المؤتمر الصهيوني الثامن الذي ترأسه دافيد ولفسون (Wolffsohn) إنشاء دائرة خاصة لشؤون فلسطين تتبع اللجنة التنفيذية للمؤتمر، وتأسيس مكتب صهيوني في يافا باسم مكتب فلسطين، واعتبار اللغة العبرية لغة رسمية للحركة الصهيونية^(١). وعام ١٩٢٩ تم إنشاء الوكالة اليهودية الموسعة، وإشراك جماعات يهودية غير صهيونية فيها. أخذت الوكالة اليهودية على عاتقها منذ إنشائها مهمة رئيسية وهي تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإقامة المستعمرات الزراعية. منذ قيام الكيان الصهيوني، كان هناك تقسيم في الأعمال وتوزيع للأدوار والمهام بين الوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية

كما هو محدد بقانون ١٩٥٢ للمنظمة الصهيونية العالمية، وكذلك بموجب البيان الميثاق المعقود بين الطرفين عام ١٩٥٤، وتشمل أعمال الوكالة اليهودية مايلي:

- ١ - تنظيم الهجرة اليهودية في الخارج.
 - ٢ - ترحيل المهاجرين اليهود من أماكن تجمّعهم الى اسرائيل.
 - ٣ - توطين المهاجرين اليهود وصهرهم في المجتمع الاسرائيلي.
 - ٤ - هجرة الشبيبة اليهودية.
 - ٥ - إقامة المستعمرات الزراعية والإشراف عليها ومدّها بالمساعدات.
 - ٦ - جمع الأموال والمساعدات والتبرعات من الخارج.
 - ٧ - ترغيب الهجرة الى اسرائيل بين يهود العالم وثقيفهم. ^(١).
- في عام ١٩٢٧ تأسست الجباية الموحدة لفلسطين التي تغير اسمها عام (١٩٥٣) الى الجباية الموحدة لاسرائيل ومركزها نيويورك ومهمتها الأساسية تقوية الهجرة اليهودية الى فلسطين وتنفيذ مشاريع الإسكان فيها. ^(٢).
- وغير ذلك من الأجهزة والمنظمات التي جندت نفسها وكل إمكانياتها لتأمين أكبر عدد ممكن من المهاجرين اليهود إلى فلسطين. وتوفير كافة مستلزمات إيوائهم.

وسائل وأسباب الهجرة:

لم تترك الحركة الصهيونية باباً الا وطرقته ووسيلة ظنت أنها بها بعضاً من نجاح إلا واستخدمتها من أجل تحقيق أهدافها في تأمين الهجرة اليهودية.

من الطرق المستخدمة من قبل الصهيونية ومثلها نجد:

أ - مقابلة المسؤولين أو إرسال الكتب اليهم . . لإتاحة الفرصة أمام اليهود المهاجرة أو للتوسط لدى السلطان العثماني - فترة الحكم العثماني ومقابل الانتداب - للسماح للمهاجرين اليهود لدخول فلسطين: فهاهو هرتسل الزعيم الروحي للحركة الصهيونية والرافض بأن يكون لليهود ولاء آخر غير الولاء الصهيوني على الإنسان أن يختار بين صهيون وفرنسة. ^(٣) . . يكتب في الحادي عشر من أيلول عام (١٩٠٣) رسالة إلى مدير الدائرة الآسيوية في الخارجية الروسية ورئيس الجمعية الروسية الفلسطينية يدعو فيها لتنظيم الهجرة اليهودية من روسيا إلى فلسطين التي تتادهم جميعاً لتقدم لنا حكومة جلاله الامبراطور (الروسي) مساعدة لدى السلطان حتى يفتح فلسطين للهجرة اليهودية بشكل واسع. ^(٤).

ب - إنشاء منظمات عديدة كالتي سبقت الإشارة إليها أعلاه - في عدد من الدول بغية تهيئة الظروف المساعدة على الهجرة، فالمنظمة النسائية الصهيونية (الهاداسا) مثلاً، أسستها عام ١٩١٢ في الولايات المتحدة الاميركية، اليهودية الاميركية الصهيونية هنريتا زولد، بهدف نشر المبادئ الصهيونية بين النساء الأمريكيات.

ج - استغلال المؤتمرات وتوظيف مقرراتها لخدمة أهداف الحركة الصهيونية وفي مقدمتها موضوع الهجرة فمن مقررات وتوصيات مؤتمر بليتمور ١٩٤٢ نجد:

أن المؤتمر يحث على فتح أبواب فلسطين، وأن تخول الوكالة اليهودية سلطة الإشراف على الهجرة إلى فلسطين، والسلطة اللازمة للنهوض بالبلاد.^(١٧)

ولنا في محاولات وإيژمن نفسه مثلاً واحداً من المساعي والجهود التي لا تعرف الكلل أو الملل . فقد قال عنه السيد تشارلز ويستر: لقد اخبرني أنه قام بالفني مقابلة للتوصل إلى تصريح بلفور.^(١٨)

ورغم كل هذا، والحصول على تصريح بلفور فقد قال بن غوريون حيال هذه الأمور: « . . إن مقصد وعد بلفور وهدف انتداب عصبة الأمم يظان قصاصات من الورق، مالم نعمل نحن على استحضر اليهود إلى فلسطين وتهئية الأرض للاستيطان على مقياس واسع»^(١٩).

وما أن خضعت فلسطين للانتداب البريطاني وتحققت أهداف وآمال الصهيونية، حتى تمكنت من السعي بشكل أو بآخر من تعيين الصهيوني المعروف هربرت صموئيل كأول مندوب سام بريطاني في فلسطين . . وهو الذي صرح فور وصوله لفلسطين: « . . إن السياسية - سياسة حكومة جلالاته وقد جئت لأنفذها - وهي تشجيع هجرة اليهود إلى حد أن يصيروا أكثرية في خلال خمسين أو مئة عام . . »^(٢٠) . وعند ذلك يكون لمصالحهم من التفوق ما يضمن إنشاء حكومة يهودية في فلسطين . . واستمراراً في نفس المنحى، وهو التزام بريطانيا بتنفيذ تصريح بلفور، نجد دليلاً آخر على هذا الالتزام يقدمه لنا المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطاني . فقد قام وفد إسلامي بمقابلته في آذار (١٩٢١) وحاطبهم بقوله: «تطلبون مني أن أتكرر لوعده بلفور وأن أوقف الهجرة، ليس هذا في مقدوري ولست أرغب فيه أيضاً. إننا نظن أنه من الخير لليهود، ومن الخير للامبراطورية البريطانية، كما أنه من الخير للعرب أيضاً ونحن نستهدف أن يكون هذا حقاً . . »^(٢١).

إن مواقف كهذه، تدل دلالة أكيدة على مقدار الانحياز والتآمر البريطاني ضد العرب وتعاطف غير محدود مع الصهيونية العالمية التي تمكنت بأحبابها ودهائها أن تخدع العالم، وتضمن إلى جانبها الكثير من الأنصار المؤيدين لمشاريعها، وللأسف مازالت كذلك رغم كل مانفذته وتنفذه العصابات الصهيونية العالمية من مجازر واعتداءات ضد العرب . . هذا الانحياز والتأييد لم يكن مقصوراً على بريطانيا وحدها، وإنما هي في العديد من دول العالم وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبرها الصهيونية العالمية خط الدفاع الثاني - بل الأول - عن إسرائيل . . بها قدمته وتقدمه من مساعدات مالية وعسكرية وإعلامية ومواقف مؤيدة لحدود لها في كل المحافل الدولية والمجالات المختلفة . .

هذا، وفي مجال المقارنة مع الطرف الآخر (الأطراف) ألا وهم أصحاب القضية . . العرب فقد استعظم احد اعضاء الوفود العربية خلال اجتماعات مؤتمر بلودان (٨ - ١٢ حزيران) بأن يرصد مبلغ مليون - بنيه للهيئة العربية العليا لتمكين من تنفيذ مهامها . . وترك أمر البت، والموضوع لكل حكومة على حده.^(٢٢)

وطبيعي لم يبت به حتى الآن . . كذلك فقد كانت تبرعات العرب لدعم مكاتب الدعاية عام ١٩٤٥

كما يلي: ١٠٠٠٠٠٠ جنيه من العراق، ٤٠٠٠٠٠ من سورية، ٢٠٠٠٠٠ من الاردن، ٢٥٠٠٠٠ من عرب فلسطين. أما الحكومة المصرية فلم تسهم بشيء^(١٤).

في ضوء هذا، هل هناك مجال للمقارنة بيننا وبين أعدائنا. . الأموال تتدفق بالملايين من أجل ترسيخ وجود باطل. . ونحن نضن على أنفسنا وقضيتنا بثمن بخس دراهم معدودة. . قد لا تكفي حينذاك لتغطية نفقات ولا تم المؤتمرات الكثيرة الصخب. . القليلة الفاعلية والمردود. .

ج - الترغيب والترهيب. . كانا من الأساليب المتبعة من قبل الصهيونية وأعوانها لحضّ اليهود على الهجرة إلى فلسطين. . وفي هذا الصدد يقول أوربي أفنيري: «إن الاضطهاد هو سبب الهجرة الكبيرة من روسيا»^(١٥).

د - استغلال الشعور الديني لدى اليهود، وأن هجرتهم تشكل تحقيراً وتنفيذاً لنبوءة الأنبياء. . لأن هذه الهجرة ليست الا عودة إلى أرض الميعاد التي وعد الله شعبه المختار بها منذ قديم الزمان. . .

هـ - استغلال اللاسامية. . واللاسامية بدعة اخترعتها الصهيونية، وهي تهمة سرعان ما تلصق بفلان من الناس أو نظام أو كيان، لمجرد أن يتجرأ على قول الحقيقة والمجاهرة برأي مناقض للصهيونية. حتى أن المذابح التي تمت في العديد من الدول الأوروبية أخذت الإطار نفسه لأنها تنطلق من المفهوم ذاته، فمذابح اليهود في اسبانيا والمذابح النازية في المانيا وقبلها المذابح في روسيا القيصرية كان منطلقها اللاسامية التي تكمن العداة كل العداة لليهود المستضعفين في الأرض. . حسب تعبير الصهاينة.

و- تحذير اليهود من الاندماج في المجتمعات التي يعيشون في صفوفها لما تشكله مثل هذه الظاهرة من مخاطر القضاء على اليهود خاصة بعد أن زادت نسب مثل هذه الظاهرة وتنام أعداد اليهود المتزوجين من نساء غير يهوديات. . لذا استغلت الصهيونية هذا الجانب من أجل تسهيل الهجرة وازدياد وتيرتها انطلاقاً من الحرص على المحافظة على الشخصية اليهودية والحيلولة دون ذوبانها في المجتمعات المحيطة بها. .

ز- التسهيلات والاعراض المادية التي كانت تقدم للمهاجرين مثل القروض والاعفاءات الجمركية والضريبة وغيرها. .

ح - الطرق القسرية التي لجأت اليها الحركة الصهيونية خلال معالجتها لموضوع الهجرة والبحث عن الوسائل التي يمكن من خلالها ترغيب اليهود بالهجرة الى الأرض الموعودة وعندما لا تفلح الأساليب الأخرى السابقة الإشارة إليها كانت تلجأ الصهيونية لاتباع طرق قسرية مثل افتعال المذابح ضد اليهود في المانيا التي أثبتت الوثائق النازية أن هناك تعاوناً وثيقاً بين النازيين والحركة الصهيونية غايتها القيام بالمذابح ضد اليهود وبالتالي اضطرابهم للهجرة قسراً. وقد استغلت الصهيونية فيما بعد وما زالت حتى الآن تستغل هذا الموقف للحصول على تعويضات مالية تدفعها السلطات الالمانية للكيان الصهيوني. والشيء ذاته حدث للعراق. فقد فرح اليهود في العراق لاحتلال بريطانيا له واعتبروا يوم الاحتلال هذا يوم الأعجوبة وذكروه في صلواتهم لسنين عديدة. . حتى إن الحاخام الأكبر في كركوك أقام صلاة خاصة على شرف البريطانيين عند احتلالهم للمدينة في ١٩١٨/٥/٧^(١٦).

كان للعراق نظرة خاصة لأنه يجوي على أكثر من مئة وعشرين الفاً من اليهود.^(١٧)

تشكلت عام ١٩٤٢ في العراق حركة بابل الطليعية بهدف نشر الصهيونية واللغة العبرية ودرّبت أفراد المنظمات الصهيونية على استخدام السلاح والهجرة إلى فلسطين.^(٣٧) ورغم عدم هجرة اليهود فقد أنشأت الهاغاناه عام ٥٠ - ١٩٥١ منظمة سرية في العراق بمهمة القيام بأعمال تخريبية ضد اليهود لإرغامهم على الهجرة القسرية، وهذا ماتمّ فعلاً.^(٣٨) وقد أشار الفرد ليليتال إلى هذه الإجراءات «يظهر لي بوضوح أن عملية إلقاء القنابل هذه كانت من تدبير الصهيونية، والذي اعتقده من كل مارواه هو لأنخافة اليهود وجعلهم يعتقدون بأن العرب يريدون القضاء عليهم.. لقد ظهرت كميات ضخمة من الأسلحة في بعض بيوت اليهود وفي المعابد اليهودية وقد توصلت الحكومة إلى أن القنابل التي استعملت والتي أحدثت أضراراً في المناطق والمؤسسات اليهودية هي من نوع الذخيرة التي وجدت في المعابد وفي بيوت بعض اليهود»^(٣٩).

لقد كان الغرض من النشاط الصهيوني في العراق إرهاب اليهود لإرغامهم على الهجرة إلى إسرائيل لا للاستفادة منهم.. وقد سميت عملية نقل هؤلاء اليهود المهاجرين بعملية علي بابا^(٤٠).. بلغ عدد المهاجرين ٤٨ - ١٩٥٢ (١٢٥٨٩٦) وشكلوا ١٧٪ من مجموع السكان^(٤١).

الهجرة اليهودية:

تنامت أعداد اليهود في فلسطين منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتى أيامنا هذه وذلك من خلال موجات الهجرة المتتالية التي لم تنقطع يوماً.. والتي تسهم في دعم وإمداد الكيان الصهيوني بأفواج جديدة من المهاجرين الشباب..

كان عدد اليهود في فلسطين عام (١٨٠٠) حوالي ١٠٠٠٠ عام (١٨٥٠) ما يقرب من (١٢٠٠٠) أما عام ١٨٨٠ فقد وصل عددهم إلى ٢٥٠٠٠ يهودي^(٤٢) وكان عدد المستوطنات المقامة فوق أرض فلسطين في هذه الفترة خمساً فقط^(٤٣).

مرت الهجرة اليهودية تقسيمياً بثلاث مراحل هي:

أ - فترة العهد العثماني حتى بداية الانتداب البريطاني.

ب - فترة الانتداب البريطاني.

ج - فترة قيام الدولة وحتى الآن.

١ - الهجرة اليهودية خلال العهد العثماني:

تمكنت الحركة الصهيونية من تهجير عدد كبير من اليهود، وخلال هذه الفترة تحت أسماء مختلفة وذرائع شتى. فتارة يقدون إلى الديار المقدسة كحجاج وأخرى كسياح وغيرها. وهناك تتناولهم الجهات الصهيونية وتقوم بايوأهم داخل المستوطنات والمدن. كان أبرز موجات الهجرة في هذه الفترة موجتا الهجرة الأولى والثانية والتي بلغ عدد المهاجرين اليهود خلالها ٦٥٠٠٠ يهودي (١٨٨٢ - ١٩١٤م).

لكن ما لبثت حركة الهجرة هذه أن تعثرت بسبب الحرب العالمية الأولى، خاصة وأن فلسطين كانت مسرحاً لعمليات حربية كبيرة دارت رحاها فوق أرضها فيما بين القوات العثمانية من جانب والقوات البريطانية والعربية من جانب آخر.

عموماً، يمكن القول: إن الهجرة في هذه الفترة، وقياساً لما شهدته المنطقة فيما بعد، كانت قليلة لعدد، وكذلك لم تتمكن الصهيونية من الحصول على وعود من السلطان العثماني بمنح التسهيلات اللازمة لليهود، الأمر الذي حدّ من الهجرة والاستيطان. يضاف إلى ذلك بدايات الوعي القومي العربي في المنطقة، والانتباه إلى خطورة المؤامرة الصهيونية الذي أثر بدوره في الحد منها.

فترة الانتداب البريطاني:

كانت هذه الفترة أفضل من الفترة السابقة بما يتعلق بموضوع الهجرة والاستيطان، فقد سخرت سلطات الانتداب كافة الإمكانيات المتاحة لتذليل الصعوبات التي يمكن أن تواجه عمليات الهجرة اليهودية، والاستيلاء على الأراضي حيث قدمت مساحات كبيرة لهم والتي كانت تؤول ملكيتها إلى الدولة العثمانية.

دخل فلسطين مثلاً في السنوات العشر الأولى من الانتداب (٧٦٧٠٠) يهودي من بلدان أوربية الشرقية وهذا العدد يفوق تعداد الوافدين لفلسطين طيلة العهد العثماني بكامله (١٨٨٢ - ١٩١٤). كانت نسبة اليهود من أوربية الشرقية (٧٦٪) من مجموع المهاجرين، فكانوا يتوزعون (٥٠، ٤٪) من بولونيا، (٢٧٪) من روسيا. أما باقي المهاجرين فكانوا يتوزعون: (٣٪) من العراق، (٥، ١٪) من تركيا، ١٪ من كل من الولايات المتحدة، اليمن، ألمانيا، ٥، ٠٪ من بريطانيا، ١٦٪ من باقي بلدان العالم. وأعمار معظم المهاجرين تزيد عن ١٦ عاماً. وبلغ عدد المهاجرين خلال هذه الفترة من ١٩١٩ - ١٩٤٨ ٤٦٣٣٨٨ يهودياً.^(٣٠)

عموماً، أرست هذه الفترة ورسخت الوجود الصهيوني فوق الأرض العربية من عدة مجالات:

- أ - فتحت أبواب الهجرة واسعة أمام الصهانية.

- ب - قدمت الأراضي للاستيطان، وساعدت بشتى الوسائل والأساليب لنقل ملكية الأراضي لليهود.
- ج - قعمت وبعثت غير محدود كل أشكال المعارضة العربية ضد الوجود الصهيوني في فلسطين، بالقتل، والطرده، والسجن، والتعذيب، ونسف البيوت، وفرض الضرائب، والغرامات وكم الأفواه واغلاق الصحف وغيرها.

- د - سمحت بإقامة منشآت عسكرية صهيونية (معسكرات، مراكز تدريب، مصانع أسلحة) وحالت دون وجود الحد الأدنى لدى العرب.

- هـ - اعترفت بشرعية الصهيونية، وجعلت اللغة العبرية لغة رسمية للبلاد. الخ. . . وغيرها من الإجراءات العديدة التي أسهمت بشكل أو بآخر في تهيئة الفرصة الملائمة لإعلان قيام دولة إسرائيل. ونقل السلطات

من سلطات الانتداب الى الصهيونية ومنظمتها الجاهزة والمعدة سلفاً في ظل وإشراف سلطات الانتداب البريطاني . .

ج - فترة قيام الدولة :

بعد أن تم إعلان قيام دولة اسرائيل يوم السبت (السادس من ايار ٥٧٠٨ عبرية) والموافق (الخامس عشر من ايار ١٩٤٨) أخذت تندفق على فلسطين أمواج إثر أمواج من المهاجرين الصهاينة من شتى أصقاع العالم، خاصة، وأن القيود الشكلية - وإن اعتبرنا أن هناك بعضاً من القيود قد وجدت في الفترة السابقة قد زالت نهائياً الآن .

كان عدد اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ (٦٥٠٠٠٠) يهودي، وبقي في القسم المحتل من أرض فلسطين (١٥٦٠٠٠) عربي، كانوا يشكلون (١٨٪) من مجموع السكان وقتذاك. (٣) ومن الجدول التالي تتبين الزيادة التي طرأت على سكان الوطن المحتل، من جراء موجة الهجرة والزيادة السكانية الناجمة عن الولادات .

جدول يبين تطور تعداد السكان في فلسطين المحتلة ٤٨ - ١٩٧٥

السنة	مجموع السكان	عدد اليهود	عدد العرب	نسبة العرب لليهود
١٩٤٨	٨٠٦٧٠٠	٦٥٠٠٠٠	١٥٦٠٠٠	٪٢١,٧٦
١٩٥٠	١٣٧٠١٠٠	١٢٠٣٠٠٠	١٦٧١٠٠	٪١٣,٨٩
١٩٥٥	١٧٨٩١٠٠	١٥٩٠٥٠٠	١٩٨٦٠٠	٪١٢,٤٨
١٩٦٠	٢١٥٠٤٠٠	١٩١١١٠٠	٢٣٩٣٠٠	٪١٢,٥٢
١٩٦٥	٢٥٩٨٤٠٠	٢٢٩٩١٠٠	٢٩٩٣٠٠	٪١٣,٠١
١٩٦٦	٢٦٥٤٠٠	٢٣٤٤٩٠٠	٣١٢٥٠٠	٪١٣,٣٢
١٩٦٧	٢٧٧٦٣٠٠	٢٣٨٣٦٠٠	٣٩٢٧٠٠	٪١٦,٤٧
١٩٦٨	٢٨٢١١٠٠	٢٤٣٤٨٠٠	٤٠٦٣٠٠	٪١٦,٦٨
١٩٦٩	٢٩٢٩٥٠٠	٢٥٠٦٨٠٠	٤٢٢٧٠٠	٪١٦,٨٦
١٩٧٠	٣٠٢٢١٠٠	٢٥٨٢٠٠٠	٤٤٠١٠٠	٪١٧,٠٤
١٩٧١	٣١٢٠٧٠٠	٢٦٦٢٠٠٠	٤٥٨٧٠٠	٪١٧,٢٣
١٩٧٢	٣٢٢٦٦٠	٢٧٤٩٤٠٠	٤٧٧٢٠٠	٪١٧,٣٥
١٩٧٣	٣٢٢٦٦٠	٢٨٣٤٢٠٠	٤٩٧٠٠	٪١٧,٥٥
١٩٧٣	٣٣٣١٨٠٠	٢٨٩٠٣٠٠	٥١٨٧٠٠	٪١٧,٩٤
١٩٧٤	٣٤٠٩٠٠٠	٢٩٥٣٠٠٠	٥٣١٠٠٠	٪١٧,٩٨
١٩٧٥	٣٤٩٠٠٠٠			

ان التزايد الكبير في اعداد اليهود ناجم بالدرجة الأولى عن موجات الهجرة لأن معدل زيادة السكان هو (٢,٥٪) بشكل عام، ٢,٢٪ في صفوف اليهود (٤,٤٪) للعرب... (٣٢)

تعتبر قارة أوروبا وأمريكا المورد الرئيسي للهجرة لأن أعداد المهاجرين هي الأكبر باستمرار فحتى نهاية عام ١٩٧٢ كان توزع اليهود القادمين إلى فلسطين المحتلة تبعاً لقارة الأصل كما يلي:

آسية	٣١٧٦٠٠	٪١١.٧
افريقية	٣٥٨٣٠٠	٪١٣.٢
أوربه وأمريكا	٧٤٢٣٠٠	٪٢٧.٢
	١٤١٨٢٠٠	٪٥٢.١
من اجمالي اليهود حينذاك (٣٣)		

وفي عام ١٩٨٢ فقد أعلن الناطق باسم المكتب المركزي للإحصاء في اسرائيل أن عدد سكان اسرائيل يقدر بـ (٤٠١٠٠٠٠) نسمة بينهم (٣٣٣٥٠٠٠) يهودي و (٦٧٥٠٠٠) غير يهودي. وقد زاد سكان اسرائيل في السنوات العشر الأخيرة بـ (٨٥٠٠٠٠) نسمة تقريباً، منهم (٦٥٠٠٠٠) يهودي. ونحو (٢٠٠٠٠٠) غير يهودي (٣٤). بهذا يتبين لنا بوضوح أن الهجرة اليهودية شكلت ومازالت تشكل الأساس الرئيسي لوجود الكيان الصهيوني، فهي عامل وجوده، وإن استمرار تدفق هذه الهجرة يعتبر عامل ضمان وأمن لهذا الوجود، بل وأكثر من ذلك، تعتبر الهجرة مورداً أساسياً لاستمرارية الأعمال العدوانية، والتوسعية له، حتى تتمكن الصهيونية من تحقيق أهدافها ومخططاتها التوسعية في الوطن العربي، وإقامة امبراطورية اسرائيلية الكبرى.

الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي:

نظراً لأهمية هذا الجانب من الهجرة اليهودية المتكاملة أصلاً، أفردنا لها هذه الاستقلالية، خاصة ونحن نعيش هذه الأيام مرحلة جديدة من هذه الهجرة الكبيرة، والتي تعتبر واحدة من أكبر موجات الهجرة التي رفدت الكيان الصهيوني منذ نشأته. ففي خلال ثمان وأربعين ساعة هاجر الى فلسطين المحتلة (١١٧٣٢) يهودياً، منهم أكثر من عشرة آلاف من روسيا وحدها، عبر بوابة بودابست.. وهو رقم قياسي لم يسبق له مثيل في تاريخ الهجرة اليهودية الى فلسطين.. ويتوقع أيضاً مغادرة أكثر من عشرين ألفاً من

المهاجرين السوفييت خلال الاسبوع القادم (١٧ - ٢٣/٣/١٩٩٠)، وحتى نهاية شهر آذار الحالي (١٩٩٠)، سيصل الى الكيان الصهيوني (٥٠٠٠٠) مهاجر يهودي جديد من الاتحاد السوفياتي، عدا المهاجرين من الدول الأخرى^(٣٧) .

يشكل اليهود في الاتحاد السوفياتي (١٪) من مجموع السكان، ويشكلون نسبة لا بأس بها من إجمالي الطاقة العلمية فيه، (٨٪) من العلماء، (٢٠٪) من الكتاب والصحفيين، (٧،١٥٪) من الأطباء (٨٪) من الفنانين (١٠٪) من المحامين^(٣٨) .

وقد بلغ تعداد اليهود في روسيا، قبل الحرب العالمية الأولى (٥٢١٥٠٠٠) يهودي، من مجموع اليهود البالغ عددهم (١١٥٠٠٠٠٠) يهودي، موزعين في العالم. بنسبة مقدارها (٤٥،٣٤٪) من إجمالي يهود العالم.

بدأت الموجة الأولى للهجرة اليهودية الى فلسطين إثر اغتيال القيصر الروسي الكسندر الثاني، سنة ١٨٨٠، وما نجم عن ذلك من مجازر ارتكبت بحق اليهود بعد أن ثبت أن هناك دوراً كبيراً لهم في تدبير عملية الاغتيال. تراوح عدد اليهود المهاجرين من روسيا إلى فلسطين، خلال الفترة (١٨٩٠ - ١٨٩٦)، ما بين (٢٠ - ٣٠ ألفاً) . وفي الفترة الواقعة ما بين (١٩ - ١٩٤٥م) بلغ عدد المهاجرين من اليهود الروس (٣٠٨٣٦) يهودياً. وكانت نسبة هؤلاء أقل من (١٠٪) من إجمالي المهاجرين^(٣٩).

أما إجمالي عدد الذين قدموا الى فلسطين، من يهود الاتحاد السوفيتي، فقد بلغ (٣٢٠٠٠) مهاجر وذلك خلال الفترة الواقعة، ما بين (١٧ - ١٩٤٨م)^(٣٧). فليس محتماً أن يتوجه كل مهاجر من روسيا الى فلسطين المحتلة، وإنما كانت هناك أعداد كبيرة منهم تتوجه الى الولايات المتحدة، وغيرها من دول العالم. ولعدم الوقوع في مطب كهذا، تجرى عمليات التهجير الحالية بإيصال المهاجرين مباشرة إلى تل أبيب. منعاً للتوجه إلى أماكن أخرى. وكذلك داخل العديد من المدن الرئيسية في الاتحاد السوفيتي، وهم كما يلي: عدد اليهود في المدن السوفييتية عام ١٩٧٣: ^(٣٨)

عدد اليهود في المدن السوفييتية عام ١٩٧٣

موسكو	٧٠٠٠٠٠
لينينغراد	٣٢٥٠٠٠
كييف	٣٠٠٠٠٠
اوديسا	٢٠٠٠٠٠
خاكوف	١٢٠٠٠٠
مينسك	٤٨٠٠٠
كيشينيف	٤٣٠٠٠
لفوف	٤٠٠٠٠
ريغا	٤٠٠٠٠
طشقند	٤٠٠٠٠
فيلنا	١٥٠٠٠

وتشير المصادر الصهيونية إلى أن هناك أعداداً كبيرة من اليهود الروس، يهاجرون بشكل دائم، لكن كثيرين منهم، يتجهون إلى أماكن غير الكيان الصهيوني ومن الجدول التالي، يتضح لنا أن هناك أعداداً كبيرة من المهاجرين يغيرون طريقهم، وبدلاً من التوجه إلى فلسطين المحتلة، تغادر أعداداً كبيرة منهم إلى دول أخرى. . وقد ذكر بريجينيف أن (٦٨٠٠٠) يهودي غادروا الاتحاد السوفييتي حتى عام ١٩٧١^(٣٦).

جدول يبين الهجرة من الاتحاد السوفييتي (٧١ - ١٩٨١ م)

السنة	المهاجرون	من وصل فعلاً الى فلسطين	الفرق
١٩٧١	١٢٨٧٧	١٢٨١٩	٥٨
١٩٧٢	٣١٩٠٣	٣١٦٥٢	٢٥١
١٩٧٣	٣٤٩٣٣	٣٣٤٧٧	١٤٥٦
١٩٧٤	٢٠٦٩٥	١٦٨١٦	٣٨٧٩
١٩٧٥	١٣٤٥٩	٨٥٣١	٤٩٢٨
١٩٧٦	١٤٢٨٣	٧٧٧٩	٧٠٠٤
١٩٧٧	١٦٨٣١	٨٣٤٨	٨٤٨٣
١٩٧٨	٢٩٠٥٩	١٢١٩٢	١٦٨٦٧
١٩٧٩	٥١٦٧٠	١٧٦١٤	٣٤٠٥٦
١٩٨٠	٢١٦٤٨	٧٥٧٠	١٤٠٧٨
١٩٨١	٩٤٥١	١٨٠٨	٧٦٤٣
المجموع	٢٥٦٨٠٩	١٥٨٠٠٦	٩٨٨٠٣

فخلال فترة عقد من السنين، غادر الاتحاد السوفييتي ما يزيد عن ربع مليون مهاجر يهودي، تحول منهم الى بلدان أخرى (٩٨٨٠٣) أشخاص، توزعوا في العديد من دول العالم، وتشكل نسبة هؤلاء (٤٧، ٣٨٪) من إجمالي المهاجرين من الاتحاد السوفييتي فقط. .

الهجرة المضادة:

يصطدم كثير من المهاجرين الصهاينة إلى فلسطين المحتلة بالواقع الجديد، الذي طالما تصوره لهم الدعاية الصهيونية بالعديد من الأشكال المحيية. فالأرض الجديدة ليست إلا أرض اللبن والعسل، وجنة الله في أرضه، وهي أرض الميعاد. . وغير ذلك من النعوت والمغريات الكثيرة التي يتفنن الصهاينة ويرعون في صياغتها. .

لذا يفكر الكثيرون منهم بمغادرة البلاد، رغم الأساليب الكثيرة التي تقوم بها السلطات الصهيونية، من أجل غسل أدمغة أولئك المهاجرين. فنجد أن الإحصاءات الاسرائيلية تذكر أن حوالي (١١٪) من

الاسرائيليين يفكرون بالهجرة. وهناك حوالي (٤٠٠,٠٠٠) يعيشون في الولايات المتحدة الامريكية، كانوا قد هاجروا من فلسطين المحتلة. هذا، وقد هاجر عام ١٩٨٠، حوالي ٨٠٠٠٠ شخص خارج فلسطين. . . يقول عوزي بارعام، رئيس لجنة الهجرة في الكنيست: إن الهجرة والتساقط والنزوح تجاوزت في الوقت الحاضر الخط الأحمر. . . فالهجرة أقل مما عرفناها، في أي وقت مضى، والتساقط شبه شامل، ونسبة النزوح ضعفت نسبة الهجرة. . . لقد غادر اسرائيل بقصد الهجرة والاستقرار في دولة أخرى، في السنتين الاخيرتين، نحو (٥١) ألف رجل وامرأة (٢١٠٠٠) سنة ١٩٨١ و ٣٠ ألفاً في سنة (١٩٨٠) ومقابل هؤلاء، جاء إلى اسرائيل (٣٨ ألفاً) فقط في السنتين المذكورتين. . . لكي نحافظ على النسبة القائمة بين اليهود والعرب داخل الخط الأخضر، نحن بحاجة ماسة إلى ميزان هجرة إيجابي بمقدار (٥٠ ألف) شخص سنوياً^(١١).

وقد ذكر الكاتب اليهودي بنتوتيش: «أن معظم اليهود الذين هاجروا الى «اسرائيل» من بلاد اوروبية، قد عادوا الى مقرهم الأول في رومانيا، انكلترا، بلجيكا، فرنسا، وحتى المانيا. وهذا نفس ما حدث مع اليهود المهاجرين الى «اسرائيل» من الولايات المتحدة الذين عادوا الى امريكا مرة أخرى، بعد سنوات قليلة. . .»^(١٢).

ولاهمية الموضوع وخطورته، فقد قررت الحكومة الاسرائيلية في ٢٣/٣/١٩٨٢ تشكيل لجنة مشتركة لمنع النزوح من «اسرائيل»، وإعادة النازحين اليها. وتشكل اللجنة من نائبي الوزير دوف شيلمسكي وآهرون اوزان، ورئيس إدارة الهجرة والاستيعاب في الوكالة اليهودية روفائيل كوتلوفيتش^(١٣). . . للمقارنة بين المهجرتين الوافدة والمغادرة، ندرج فيما يلي الجدول الذي يبين أعداد المهاجرين الى الكيان الصهيوني، والمغادرين منه، خلال عقد واحد من السنين^(١٤).

السنة	عدد الوافدين	عدد المغادرين	نسبة المغادرين
١٩٧١	٤٤٤٠٠	١٠٦٠٠	٪٢٣,٨٧
١٩٧٢	٥٧٦٠٠	١٢٦٠٠	٪٢١,٨٧
١٩٧٣	٥٦٥٠٠	٦٦٠٠	٪١١,٦٨
١٩٧٤	٣٣٥٠٠	١٩٣٠٠	٪٥٧,٦١
١٩٧٥	٢٠٦٠٠	٢٠٢٠٠	٪٩٨,٠٥
١٩٧٦	٢١١٠٠	١٣٥٠٠	٪٦٣,٩٨
١٩٧٧	٢١٥٠٠	٧٥٠٠	٪٣٤,٨٨
١٩٧٨	٢٦٠٠٠	١٣٠٠٠	٪٥٠,٠٠
١٩٧٩	٣٧٠٠٠	٢٨٠٠٠	٪٧٥,٦٧
١٩٨٠	٢٠٨٠٠	٣٠٠٠٠	٪١٤٤
١٩٨١	١٢٠٠٠	٣٦٠٠٠	٪٣٠٠
المجموع	٣٥١٠٠٠	٢٢٢٧٠٠	٪٦٣,٤٥

كما سبق أعلاه، نجد أن نسبة المهاجرين من الكيان الصهيوني متباينة، ورغم كل الإجراءات التي تقوم بها السلطات المختصة، داخل الكيان، واللجان المختصة خارج الكيان، من أجل وضع حد لظاهرة النزوح والتساقط، وتنامي الهجرة المضادة فإن هذه الجهود لم تفلح في القضاء على هذه الظاهرة التي تؤرق الكيان الصهيوني. . . وتقض مضاجع حكامه، خاصة إذا عرفنا، كما هو مبين أعلاه في الجدول المذكور، أن نسب النزوح تصل إلى ثلاثة أضعاف نسب الهجرة للكيان في بعض السنين، وإجمالي نسبة المغادرين هي (٤٥، ٦٣٪) من إجمالي المهاجرين. . . من هنا نستدل على أهمية وخطورة موجة الهجرة الجديدة التي تتم في أيامنا هذه من الاتحاد السوفيتي إلى الكيان الصهيوني، والتي يسعى قادة الكيان أن تكون الرحلة مباشرة من موسكو، إلى تل أبيب، أو من العواصم الأخرى. . . في المجر أو بولونيا وغيرهما. . . لمنع التحول إلى محطات أخرى.

أسباب الهجرة المضادة:

أما أهم الأسباب التي دعت الهجرة والنزوح، فيمكن إيجازها فيما يلي:

- ١ - الفساد السياسي والاجتماعي الذي يزداد بصورة كبيرة، وخاصة في أوساط الموظفين الكبار والوزراء، والذين سجن كثير منهم بسبب قبولهم الرشاوي، وسوء استخدامهم الأموال الحكومية. . .
- ٢ - سياسة التمييز العرقي التي مارسها الصهيونية - وما زالت تمارسها - منذ إنشاء الكيان الصهيوني حتى الآن. . . وماتج عنها من اتساع الهوة بين مجموعات المجتمع الصهيوني. . . والتي تؤسم الكثيرون من الصهاينة أن يجدوا في المهاجرة إلى فلسطين حلاً لمشاكلهم التي يعانون منها، في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها. ولكن على العكس من ذلك، لقد فوجئوا هنا بمشاكل جديدة لم تكن في الحسبان، أهمها: التمييز العنصري، حتى بين أتباع الديانة الواحدة، فهناك مواطن درجة أولى، ومواطن درجة ثانية وثالثة. . . الأمر الذي يشب زيف وبطلان دعاوى الصهيونية، التي تدعي أنها جاءت من أجل إيجاد حل لمشكلة اليهود كل اليهود!! فإذا بنا نجد أن المشكلات تتفاقم وتنمو من جديد، وبشكل ونوعية غير مألوفين من قبل في صفوف اليهود.
- ٣ - ازدياد في أعمال العنف والجرائم التي تحتج الكيان الصهيوني، حتى أصبح هناك عصابة مافيا خطيرة عجزت الشرطة الصهيونية عن مكافحتها. . .
- ٤ - صعوبة الحياة وقسوتها في جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. . .
- ٥ - عدم التمكن من الاندماج في المجتمع الجديد، والشعور بالغرابة والعزلة. . . وقد أشار إلى هذا أحد النازحين الصهاينة بقوله في سياق حديثه عن الأسباب الداعية لهجرته: (هذه الدولة الصغيرة التي تخنتق في حوار عدائي، منقسمة إلى عشرات الطوائف المتأثرة كل منها ببيئتها الأصلية بشرياً ونفسياً واجتماعياً وجغرافياً).
- ٦ - القلق والخوف من المستقبل - يتابع هذا النازح فيقول: (لقد نخضنا الحرب، وقتلنا من البشري

نعيش، ولكن نجد اليوم أنه في ظل الأوضاع التي يعيشها هذا البلد، لا يمكن التنبؤ بما سيحدث في المستقبل. ويتعزز هذا الشعور ويتنامى، خلال فترات تزايد ضربات المقاتلين الفلسطينيين، والأعمال الحربية مع الدول العربية، لأنه كان ملحوظاً أنه في فترات تعاظم المد الثوري الفلسطيني، وتزايد العمليات الفدائية بمختلف أشكالها وأنواعها، داخل الوطن المحتل، فإن آفاقاً من الصهاينة كانوا يتركون مستوطناتهم الحدودية، ويرحلون إلى الداخل.. كما تزايد موجة الهجرة المضادة وتقل الهجرة في المقابل إلى الكيان.. لأن من أسباب ظاهرة النزوح هذه، استمرار حالة الحرب، واستمرار تدني مستوى الحياة والشعور بعدم الاستقرار والطمأنينة. وحتى بعد توقيع اتفاقية السلام مع مصر، لم تحل هذه المشكلة، لأنها مشكلة أمنية، سببها العمل الفلسطيني المسلح في المنطقة. يضاف إلى هذا الدور الذي يمكن أن تسهم به الانتفاضة الباسلة لبناء شعبنا العربي الفلسطيني، والتي تمضي قدماً على طريق الاستمرارية والنضال، رغم الاجراءات البربرية التي لم تعرف لها البشرية مثيلاً من: كسر وسحق العظام، ودفن الشباب أحياء، ودهس الأطفال، والشيوخ، والعجائز، وغير ذلك من الأعمال الانتقامية التي يتعرض لها أهلنا الصامدون فوق الأرض العربية.. وهكذا، ووفقاً لأحد التقارير التي تتحدث عن هذه الظاهرة وأسبابها.. باختصار فإن المهاجرين الاسرائيليين ضاقوا بالسحب السوداء التي تلوح في أفق «اسرائيل»، وتمنعه من أن تكون مأوى مضموناً لليهود في العالم.. (وهو ما أشار إليه أيضاً ايزنشتاد: «.. إن الحقيقة في «اسرائيل» تحطم آمال المهاجرين إليها من اليوم الأول لوصولهم..»⁽¹¹⁾).

إن هذه الهجرة تشمل مختلف طبقات الشعب، ومن ضمن أولئك المهاجرين المفكرون. وهو ما يعرف بهجرة الأدمغة، التي تعتبر جزءاً رئيساً من الهجرة المضادة بشكل عام. ونظراً لخطورتها وأهميتها، يقول جاد يعقوبي: «إن هجرة الأدمغة ظاهرة تسود معظم دول العالم. وهذه الظاهرة تبرز عندنا أيضاً، على الرغم من الدافع القومي الفريد الذي يعتبر أحد الأركان الأساسية لوجودنا في البلاد. وإذا اتسعت أبعاد هذا النزوح، سيؤثر الأمر في تطور، بل في حقيقة محافظة اقتصادنا على نوعية حياة تسمح باستيعاب الشعب اليهودي في «اسرائيل» كدولة متطورة ونامية..» ثم يقول: «إن استمرار الطريق الحالي، قد يقود إلى بداية النهاية، أكثر منه إلى مواصلة البداية. وهذه هي تقريباً الساعة الأخيرة لبداية جديدة..»⁽¹²⁾.

قادة الكيان والهجرة اليهودية:

كانت بداية «اسرائيل» بالهجرة، وستكون نهايتها بالنزوح، وبالقول عنها، توقف الهجرة، وقد وصف سمحيا ايرليخ امام الكنيست هذه الظاهرة بأنها من أكثر مشاكل اسرائيل أهمية، بل أكثر أهمية من مشكلة الأمن..»⁽¹³⁾

«من هنا فقد حظيت الهجرة اليهودية باهتمامات القادة الصهاينة، وتحدثوا عنها الكثير، لما يشكله هذا الموضوع بالنسبة للكيان الصهيوني، فالهجرة كانت نقطة البداية، أي بداية الوجود.. لذا كانت آراء القادة مهمة حيال هذا الموضوع. ومن هؤلاء دافيد بن غوريون الذي يقول:

«بدون هجرة يهودية لن يكون لاسرائيل مستقبل مضمون. ولانهاية لمشاكله إلا بالهجرة. . . لقد
أخطأنا عندما طلبنا أموالاً من يهود أمريكا، كان علينا أن نطلب هجرة وهجرة فقط. . . » ويقول في مكان
آخر: «إن بقاء «اسرائيل» كدولة واستمرارها في الوجود، يتوقف على عامل واحد هو الهجرة الواسعة إلى
اسرائيل»^(١٧).

«أما غولدا مائير فتقول: « . . . إن قدوم مليون مهاجر إلى اسرائيل، يمنع نشوب حرب جديدة في
الشرق الأوسط، لأن العرب سيقتنعون عند ذلك بعدم جدواها»^(١٨). . . ويقول موشيه دايان: «إن الهجرة
هي مفتاح قوتنا. . . »^(١٩). . . وتؤكد غولدا مائير على أهمية الهجرة بقولها: «كيف تكون لنا دولة بدون
هجرة؟!»^(٢٠).

أما بنيامين طومكفيس فإنه يتحدث عن أهمية الهجرة بقوله: «إن الجميع يعلمون أننا من دون هجرة
واسعة، لانتطيع كدولة أن نصمد. . . وفي هذه الفترة تنخفض الهجرة ويزداد النزوح. . . »^(٢١).
وقال مدير عام شؤون الهجرة في «اسرائيل» سموئيل ليس: «الهجرة من أكثر المشاكل خطورة، ومن
أكثرها إثارة للقلق في اسرائيل. . . »^(٢٢).

مخاطر الهجرة اليهودية:

كلما تقلصت الهجرة إلى الكيان الصهيوني، كلما استبد القلق بالمسؤولين الاسرائيليين. لذا، وكما
سبق الحديث عن هذا، فإن الهجرة اليهودية تعتبر مصدر استمرارية وجود الكيان. فكما كانت في الأصل
بداية وجوده، فإنها قد تكون نهاية الأمل أو العكس. . . ومن مخاطر الهجرة اليهودية يمكن أن نستخلص
مايلي:

١ - زيادة السكان: بشكل يمكن أن يؤثر في البنية السكانية داخل الكيان، وخاصة أن قادة الكيان ينظرون
إلى الوجود العربي داخل الكيان، بأنه قنبلة ديمغرافية في غاية الخطورة، خاصة إذا علمنا أن نسبة تزايد
السكان في صفوف المواطنين العرب تزيد عن مثيلاتها بين السكان اليهود. ولا زال الموضوع يقلق سلطات
الاحتلال في منطقة الجليل، مثلاً، حيث أن السكان العرب هناك يشكلون أغلبية كبيرة. لذا فإن هناك
العديد من الدراسات حيال هذا الموضوع والمخططات الموضوعية، من أجل الإقلال من مخاطر التفوق
العربي العددي في منطقة الجليل، وهو ما يمكن أن يقال فيما يتعلق بالصفة الغربية وقطاع غزة المحتلين. . .
وهذا ما يشير إليه يهوشافا فاط هركابي بقوله: « . . . إن تزايد عدد العرب في الأراضي المحتلة، واصطدامهم
برفض الاعتراف السياسي بهم، من شأنه أن يزيد من طغيانهم، واتساع ردود أفعالهم، ولا سيما العنيف
منها. . . وهو أمر يحدث الآن قبل أن يشكلوا الأغلبية في الدولة. وعليه فإن دولة يهودية تضم نسبة ٤٠٪ من
سكانها وأكثر من العرب، وعددهم النسبي يتزايد باستمرار، ستكون دولة غير مستقرة، تنطوي على
اضطراب داخلي (بلغاست) ينسب أعلى، وربما شكلت طبعة جديدة من لبنان، وربما أيضاً
مختلفة. . . »^(٢٣).

وعن أثر السكان العرب هؤلاء يتابع هركابي تحليله فيقول:

«لو اختفى عرب الضفة بأعجوبة، فإنه يكون من الممكن ضم الضفة بكل سرور، ولكن ماداموا سيستمرون وعددهم يكبر، فإن ضم الضفة سيخلق مشكلة استراتيجية وسكانية وهو أمر أكثر خطراً من المشكلة الاستراتيجية والاقليمية.

يعيش في منطقة غربي نهر الأردن الآن، في المجال بين الأردن والبحر المتوسط في «اسرائيل»، وفي الأراضي المحتلة، حسب احصاء ١٩٨٣ (٣٤٨) ألف طفل عربي، في عمر يتراوح بين صفر وأربع سنوات، مقابل ٣٥٩ ألف طفل من الأولاد اليهود، من نفس فئات الأعمار السابقة. عندما سيكبر هؤلاء الأولاد، سيكون عدد الشباب المخصصين للجيش في كلا الطرفين تقريباً متساوياً أقل قليلاً أو كثيراً. . في سنة ٢٠٠٠، ووفقاً للاتجاهات الراهنة، وتبعاً للحسابات التي أعدت في قسم السكان في الجامعة العبرية، سيكون أبناء العرب في غرب الأردن أكثر نسبة (٢٠٪) من أبناء اليهود، في نفس العمر. ومن الاحصاء السنوي في «اسرائيل»، لسنة ١٩٨٤، يتضح بأنه في سنة ١٩٨٣ كان للعرب الاسرائيليين (٢٣٨٣١) ولادة، ولعرب المناطق المحتلة (٥٢٣٩٧) ولادة، بمعنى أن مجموع الولادات كان في اسرائيل جميعها (٧٦٢٢٨) ولادة للعرب و (٧٤٨٩٣) ولادة مقابلها لليهود.

في سنة ١٩٨٤ كانت (٧٨٦٠٠) ولادة للعرب، منها (٥٤٦٠٠) في المناطق المحتلة سنة ٦٧ و (٢٣٩٥٩) في المناطق المحتلة ١٩٤٨ و (٧٤٣٥٠) ولادة لكافة اليهود.

نسبة السكان في المساحة كلها بالنسبة لهذه الايام، هي (٣٦٪) يهود، مقابل (٣٧٪) عرب. والسكان اليهود هم الأكبر سناً. .

وحسب الحسابات التي أجراها كل من الأستاذ فريد لندر وغولد شيدر حول الاتجاهات الحاضرة حتى سنة ١٥ - ٢٠ سيكون السكان العرب والسكان اليهود متساوين في عددهم - والنسبة بينهم ستختل لغير مصلحة اليهود. .

ويضيف هركابي: «.. المسألة ليست كمية فقط، تستطيع جماعة قوية أن تسيطر على جماعة أخرى، إذا كانت هناك هوة كيفية معروفة لمصلحة الجماعة المسيطرة، السكان العرب متقدمون.. طبقة المثقفين بينهم تزداد من يوم إلى يوم.. طلباتها ستكون شديدة، والسيطرة عليها ستغدو أكثر صعوبة.. وهكذا فمن المحتمل أن تؤثر القضية السكانية (الديمغرافية) على مستقبل صراعنا مع العرب، أكثر من أي عنصر آخر..» (٣٣).

توطين المهاجرين بدلاً من العرب:

ان الصهيونية العالمية، قد تمكنت من خلال مساعيها لدى الولايات المتحدة الامريكية التي استطاعت بالضغط على الاتحاد السوفيتي، تأمين الموافقة على السماح بالهجرة اليهودية الى الكيان الصهيوني بأعداد كبيرة، وتهدف السلطات الصهيونية، من وراء استقدام الموجات الجديدة، إلى توطين هؤلاء

المهاجرين في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة بشكل تضطر هذه السلطات يوماً بعد يوم، إلى الاستيلاء ومصادرة الأراضي العربية، بغية إقامة المستوطنات الجديدة عليها، بل لا يستبعد أن تقوم بعمليات طرد واسعة لعرب فلسطين بذرائع قد يسهل على السلطات إيجادها، مثل الاشتراك بالانتفاضة الباسلة، وغير ذلك من الحجج الواهية، والتي تتمكن بموجبها من تهجير السكان، وطردهم حتى من مدنهم وقراهم، وهذا ليس بجديد على هذه السلطات. . وبالتالي تحول او تخفف من مخاطر وتأثير السكان العرب المنزعين في أرضهم، والصامدين هناك كصمود جبال نابلس، والكرمل، وكنعان. لقد ركزت التعاليم الصهيونية المستمدة من التوراة، وأقوال الحاخامات، على ضرورة طرد الأعراب ومنع سكنهم في أراضي «إسرائيل» يجب طرد عبدة الكواكب وإسكان أبناء إسرائيل. . وهذه أوامر سكن الأرض في نظر الحاخام شموتيل يوسف، والتي تنحصر مهمتها في طرد أو إجلاء الأجنبي في أرض «إسرائيل»، ليسكن فيها بنو إسرائيل. وحسب ادعاء الحاخام مثير كاهانا، فإن طرد العرب يقوم بوظيفتين:

- الأولى: سياسية، لأن هذا الطرد يحظر على العرب أن يشكلوا الغالبية التي ستؤدي إلى تصفية «إسرائيل».
- الثانية: يشكل الطرد وسيلة مدروسة، تؤدي إلى مجيء الخلاص والمسيح. عرب «إسرائيل» يشكلون تلوئناً لاسم (للإله) بشكل سافر، فإن عدم تسليم العرب بالسيادة اليهودية على أرض فلسطين، يشكل رفضاً لسيادة رب «إسرائيل» ومملكته. . «^(٥٧)». وكثيرون هم الذين ينادون بمثل هذا، وي طرحون آراء ماثلة وأكثر جرأة، من آراء هؤلاء الحاخامات، فالحاخام ش. د. فولغا، يقول بعدم جواز سكن الأجانب في أورشليم. . وكذلك الحاخام موشيه بن ميمون الذي يقول: «لا يحق حتى للوثني الذي تهود جزئياً أن يسكن في أورشليم. وهذا مايتحقق في الواقع عندما تكون «إسرائيل قوية» وشديدة. وإذا لم تتوفر الإمكانية الآن لطردهم بالقوة، فلا يعني أنه يجب أن نشجعهم على الاستقرار هناك. .

وقدم الحاخام كاهانا مشروع قانون للكنيست، يجعل منع السكن لأي وثني تهود قانوناً في دولة إسرائيل. وقد رفضت رئاسة الكنيست تقديم المشروع في ١٢/٣/١٩٨٤. . «^(٥٧)».
لذا فالذرائع جاهزة. . ولا ينقص الكيان الصهيوني الا التنفيذ والوقت الملائم لذلك. . فهل نبغي متفرجين. . ننتظر المزيد من أعمال الطرد والذبح والتوسع؟!!

٣- تنفيذ مشاريع توسعية جديدة:

إن المهاجرين الجدد سيزيدون من أعداد السكان، وبالتالي زيادة القوات المسلحة الصهيونية، أداة العدوان، وعدة تنفيذ المشاريع التوسعية ضد الوطن العربي. ولهذا نجد أن قادة الكيان يفكرون بمثل هذه الأمور، ويخططون لها منذ سنين عديدة. فقد خاطب ليفي اشكول رئيس الوزراء أعضاء المجلس الصهيوني العام المنعقد في القدس، في آذار ١٩٦٤، بالكلمات التالية:
«ينبغي علينا منذ الآن، أن نرسم الخطط للمليون الرابع والخامس، من أين ومتى يأتون، وماذا سيكون مصير الشعب اليهودي في الشتات؟

ولكي تتمكن اسرائيل من الاستمرار في تأدية رسالتها يجب أن يكون هناك توسع دائم في سكانها. غير أن المسألة . . ليست مجرد إيجاد ثلاثة ملايين، أو حتى خمسة ملايين يهودي في الدولة. مهمتنا لانتهي عند هذا الحد، وهذه ليست نهاية الرؤية الصهيونية. . إن رسالتنا التاريخية تتحقق بالوجود والقوة. (١٤٠). هكذا تغدو مسألة تحقيق (الرسالة الصهيونية) وتأديتها، مشروطة بالوجود والقوة العسكرية، وهي التي تعتمد بدورها على معدل الهجرة. . ويشير د. شمشون يونيتشان، عضو المجلس الصهيوني العام إلى أنه «لا يمكن للأجانب والعرب أن يجروا حساباتهم دون الالتفات إلى المالكين الحقيقيين. يجب عليهم أن يفهموا أنه لاشرقى الأردن، ولا القدس، هي بالنسبة لنا موضع أخذ ورد ومساومة. إنها ملكتنا وسوف تكون لنا. (١٤١)» . .

ونجد أن بن غوريون كان أكثر وضوحاً في هذا الجانب، عندما تحدث عن الأرض التي لم تستوطن بعد، والتي يعتبرها هو والصهاينة جميعاً ضمن حدود دولة «إسرائيل» ومن زاوية المناطق المجاورة حيث يقول: « . . هناك ساحات واسعة وخالية في فلسطين الشرقية، والأردن ليس بالضرورة الحد الدائم لهجرتنا واستيطاننا. (١٤٢)» . .

لذا وليس مستبعداً، وفي السياق نفسه، أن تقوم الصهيونية ممثلة بكيانها الصهيوني، وأداته العسكرية بعمليات عسكرية جديدة ضد الأردن يتم بها احتلاله، ومن ثم إجبار المواطنين العرب في الضفة والقطاع على مغادرتها، وتوطينهم هناك، حيث يفتح المجال أمام القيادة الصهيونية لتنفيذ طروحاتها السياسية، بصدد حل قضية فلسطين، من خلال الخيار الأردني، الذي يصبح متاحاً بعد تنفيذ هذه الخطوة، بل يصبح أمراً واقعاً لا مندوحة عنه. ولا يستبعد أن تحتفظ بمناطق الأغوار والمناطق الحصية من الأردن، وإن أمكنها الوصول إلى منابع اليرموك، لضمان الحصول على كل المصادر المائية الرئيسية والمهمة لحياة هذا الكيان من منابع الأردن والليطاني. وعن اليرموك في هذا السياق، وتحت عنوان عندما تنضب الأنهر، قالت مجلة نيوزويك الأمريكية: إن الشرق الأوسط أصبح يملك مصدراً جديداً للتوتر: المياه. . ويقول البروفيسور طوم ناف من جامعة بنسلفانيا، بعد دراسة لمياه حوض البحر المتوسط: «إن إسرائيل تستخدم وجودها كقوة إقليمية لأخذ حاجتها من المياه، حيثما وجدتها أو بأية طريقة. (١٤٣)» . . لأنه وطبقاً للتقاليد الصهيونية في الحروب، انتصر الأقوياء لا أصحاب الحقوق(١٤٤). خاصة إذا علمنا أن قيادات «إسرائيل» معتادة على الحروب. ولقد حققت مكاسب من كل الحروب(١٤٥).

٤ - زيادة القدرة العسكرية التي تعتبر أساساً في إقامة الكيان والمحافظة عليه واستمراره في تنفيذ أطماعه التوسعية، وصولاً لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية التي سبقت الإشارة إلى ذلك في أكثر من مرة. . ومن المعروف أن المجتمع الصهيوني هو مجتمع عسكري، كل مواطن فيه مجند، حتى لو ارتدى الزي المدني، لأن القوات المسلحة الصهيونية، تقوم على تجنيد كل أبناء الكيان، لذا فإنه، ونتيجة لطبيعة هذا الكيان القليل العدد، والمعتمد على القوات الاحتياطية أساساً في قواته المسلحة، بحيث تشكل العصب الحيوي والأساسي لبنيان وتنظيم هذه القوات، وتؤثر في تنميتها وزيادة أعدادها قدرة الكيان السكانية المحدودة، والتي يحاول من خلال استخدام التقنيات الحديثة، والاحتياط والضربات الوقائية، التعويض

عن مثل هذه الفوارق لذا فإن أفواج المهاجرين الجدد، ستضمن له تأمين زيادة في السكان، ومن ثم زيادة في تعداد قواته المسلحة، خاصة إذا علمنا أن نسبة كبيرة من المهاجرين الجدد، هم من الصغيري السن نسبياً، وأصحاب الكفاءات والشهادات العليا .

٥ - تبدل في الهرم السكاني:

إن ديمومة الهجرة واستمراريتها، توفر للكيان الإمداد الدائم بالدم الجديد، والحيوية المطلوبة التي يمكن بالتالي أن تؤثر في بنية وطبيعة الهرم السكاني في الكيان الصهيوني . . الذي يميل الى الهرم والكهولة، نتيجة لقلّة المواليد، وفي حال توقف الهجرة . . من هنا تتبين أهمية الهجرة في تغيير دم الكيان، وتعديل الهرم السكاني . . الذي يعتبر ضرورياً وهاماً لكيان توسعي عنصري استيطاني . . قام بالقوة واستمر بها . . وسبق على هذا الوجود من خلالها . . هذه بعض من مخاطر الهجرة اليهودية والتي ينبغي أن لا نكتفي بالتدبير القوي بها . وإنما نتخاذ كل التدابير الكفيلة بإقلال المخاطر المحتملة الناتجة عن تناميها لأن آثارها لن تنال قُطراً عربياً دون آخر، فأخطار الصهيونية هي محددة للعرب كل العرب، في شتى أقطارهم . وينبغي على العرب الإعداد والاستعداد العملي لجولة جديدة محتملة من الصراع مع العدو الصهيوني، الذي لا يمكن أن يحول دون غطرسته وتقديه في مشاريعه التصفية والتوسعية إلا القوة العربية الواحدة الموحدة، والتي يمكن بالتالي أن تفرض على العالم احترام الإرادة العربية والأمة العربية . . لأنه لا يمكن للدول أن تحترم الضعيف، وخاصة ونحن نعيش في عصر القوة . .

إضافة لذلك، يجب على العرب دعم انتفاضة أهلنا في الأرض المحتلة لتعزيز صمودهم، خاصة اذا علمنا أنهم يمثلون الآن خط الدفاع الأول، عن الأمة العربية، فإن سقط هذا الخط سرعان ماتتهوى بعده الحصون الواهية والقلاع الخادعة . . فدعم الانتفاضة دعم لصمود أمتنا في وجه الخطر الصهيوني المحقق بالجميع . .

إن مزاعم السلام . . والحلول السلمية، هي مجرد دعوات كاذبة، او محطات يسعى من خلالها الكيان الصهيوني استعادة الأنفاس، واعداد العدة لجولة جديدة أخذت تلوح في الأفق بوادر انبلاجها، فأحاديث قادة العدو من شامير وييريز وكاهانا وشارون وغيرهم المطالبة بتحقيق وإقامة «اسرائيل الكبرى» لن تكون مجرد أقوال . . واذا لم تستيقظ أمتنا العربية، وتبع حقيقة الأخطار الجديدة المحدقة بها . . وقبل قوات الأوان . . وتعد لكل أمر عدته بشكل جاد وصادق، بعيداً عن الأقوال والمؤتمرات التي لن تغني، ولن تسمن من جوع . . فإنه سيأتي يوم لن ينفع فيه النادمين ندمهم . .

الهوامش

١ - النظرية والتطبيق للصهيونية العالمية، أكاديمية العلوم السوفيتية، معهد الفلسفة، موسكو ١٩٧٨م ص ٤٤

٢ - د. أحمد طربين، فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية جامعة الدول العربية، القاهرة، طبعة أولى ١٩٧٠ ج ١ ص ٩٨.

٣ - المصدر السابق، ص ٣٧

٤ - نفس المصدر ص ٢٦ صدر قانون العودة عام ٥٧١٠ عبرية ١٩٥٠م.

Low of return, 1950, laws of the state israel, 5710 (1949- SO) vol iv, P 114

٥ - انجلينا الحلو، عوامل تكوين اسرائيل، مركز الأبحاث في بيروت سلسلة دراسات رقم ٢١٦ طبعة أولى آب ١٩٦٧، ص ٤٧ - ٤٨.

٦ - د. عبد الرحمن كيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، طبعة أولى ٢٠٠٢، ١٩٧٠، ص ٣٧.

٧ - الحلو، مصدر سابق، ص ٦١، د. طربين، المصدر السابق، ص ١٠٤.

٨ - المصدر السابق ص ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٧٩، بقي الجنيه الفلسطيني يستخدم في فلسطين كوحدة نقد طيلة فترة الانتداب وحتى قيام الكيان الصهيوني.

٩ - اسرائيل، سياسياً، اقتصادياً، اجتماعياً، إصدار إدارة الاستطلاع دمشق، ١٩٨٠: ص ٣٦ - ٣٨.

١٠ - د. طربين مصدر سابق ص ٩٦.

11- Hain taylor, prelude to Israel New York, 1959, P46

١٢ - اسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، مركز الأبحاث في بيروت، طبعة ١٩٦٧ ص ١٠٦ - ١٠٧ اسرائيل مصدر سابق ص ٣٤ - ٣٥.

١٣ - د. طربين مصدر سابق جزء ٣ طبعة ١٩٧٢، ص ٢٢.

١٤ - المصدر السابق، ج ١ ص ٣٨.

١٥ - نفس المصدر ج ١ ص ٨٢.

١٦ - نشرت مقررات مؤتمر بليتيمور في: Revirew, 22 May, 1942

١٧ - د. طربين المصدر السابق ج ١ ص ١٠٨ - ١١٤ - ١٢٢

18- Ben Gurion, looks back in talks with Moshe pearman, New York 1956, P 23

19- J.M.N. Jeffries, Palestine, The Reality, London, 1939, P.373

20- Ibid, P 457

٢١ - محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، المطبعة العصرية، صيدا، طبعة أولى ج ٤ ص ٥٩.

٢٢ - د. طربين، مصدر سابق ج ٣ ص ١٩٣.

٢٣ - اسرائيل، مصدر سابق، ص ٩٣

٢٤ - فهوجي، المصدر السابق ص ١٢٠.

25- J.H. Jausen, Israel Zionism Aaian Movements, Beirut, 1971, P 244

٢٥ - فهوجي، المصدر السابق.

٢٦ - فهوجي المصدر السابق ص ١٢١، ١٢٢

27- A. Lilienthal, the other side of the coin, New York, 1966, - P 38

٢٨ - د. ابراهيم عبده ود. خيرية قاسمية، يهود البلاد العربية مركز الأبحاث في دراسات فلسطينية رقم ٨٢. بيروت ١٩٨٢ ص ٧٣.

٢٩ - يهود العالم مصدر سابق ص ١٢٠.

٣٠ - د. كيالي مصدر سابق جدول رقم ٤ ص ٤١٦

٣١ - د. طربين مصدر سابق ج ١ ص ٤٢

٣٢ - نجيب صدقة قضية فلسطين بيروت طبعة أولى ١٩٤٦ ص ١٠٦

٣٣ - د. كيالي مصدر سابق جدول رقم ٣ ص ٤١٤ - ٤١٥

وليم فهمي، الهجرة اليهودية الى فلسطين، القاهرة ١٩٧٤

٣٤ - حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، قسم الدراسات السنوي العدد ٦٤ بيروت كانون الثاني ١٩٨٢ ص ٣٥.

٣٥ - اسرائيل مصدر سابق ص ٥٢

٣٦ - نفس المصدر ص ٥٠

٣٧ - نفس المصدر السابق ص ٥١

- ٣٨ - عال مشيار ٢٩/٤/١٩٨٢
- ٣٩ - جريدة الثورة دمشق العدد ١٩٨٢-٦ شعبان ١٤١٠ هـ الموافق ١٦ آذار ١٩٩٠ ص ١
- ٤٠ - يهود العالم، مصدر سابق، ص ٦٣
- ٤١ - المصدر السابق، ص ٧٧، ٨٣
- ٤٢ - الأهرام ٢١/٦/١٩٧٣ ص ١
- ٤٣ - يهود العالم، مروان كنعاني، الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق ص ٦٤
- ٤٤ - الكتاب السنوي اليهودي ١٩٧٣ ص ١٩٠، ١٩١
- ٤٥ - الأهرام ٢١/٦/١٩٧٣ ص ١
- ٤٦ - هآرتس ٢٨/١٠/١٩٨١/٢٩/١٢/١٩٨٧
- ٤٧ - دافار ٢٠/٢/١٩٨٢
- ٤٨ - هآرتس ٢٥/٣/١٩٨٢
- ٤٩ - هتسوفيه ١١/١/١٩٨٢، دافار ٥/١٣/١٩٨١
- ٥٠ - دافار ٣٠/٤/١٩٨٢
- ٥١ - فتح التقرير السنوي مصدر سابق ص ٤٢٥
- ٥٢ - فتح المصدر السابق
- ٥٣ - اسرائيل مصدر سابق ص ٨٧
- ٥٤ - نفس المصدر ص ١٠٠
- ٥٥ - جيوسالم بوست، ١٦/٦/١٩٧٢
- ٥٦ - فتح مصدر سابق ص ٤٢٦
- ٥٧ - نفس المصدر السابق ص ٤٣٢
- ٥٨ - يوشافاط هركايب، قرارات مصيرية مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر، دبي، طبعة أولى نوفمبر ١٩٨٠، ص ٥٤
- ٥٩ - المقصود بالعرب الاسرائيليين: العرب الخاضعون للاحتلال منذ ١٩٤٨ في منطقة الجليل وغيرها.
- ٦٠ - هركايب، مصدر سابق ص ٥١، ٥٢
- ٦١ - المصدر السابق ص ١٧٠
- ٦٢ - نفس المصدر ص ١٧١
- ٦٣ - على عتبة المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين، الخطب التي القيت في جلسات المجلس الصهيوني العام القدس، ١٩٦٤، ص ١٢، ١١، ٧
- ٦٤ - المصدر السابق ص ٦٤
- ٦٥ - دافيد بن غوريون، الصهيونية - الطريق الصعب والطريق السهل، نقاش افتتاحي في المؤتمر الصهيوني السابع عشر المتعقد في بال، حزيران - تموز ١٩٣١ في كتاب: بحث اسرائيل ومصيرها، نيويورك ١١٩٥٤، ص ٣٥
- ٦٦ - مترجمة في جريدة الشرق، بيروت، العدد ١٢٢٦١، ٢٢ آذار ١٩٩٠ ص ٧
- ٦٧ - هركايب، المصدر السابق، ص ٢٠٨
- ٦٨ - نفس المصدر، ص ١٠٦

الإعلام الفلسطيني المعاصر و صناعة الوعي الزائف

عوني صادق*

الحديث في موضوع الإعلام وعنه حديث يطول كثيراً، ولا يسمح وقت المحاضرة لأكثر من ذكر العناوين، التي يمكن أن تندرج تحته. فالإعلام لفظ يتسع في معناه العام، لأكثر نشاطات الإنسان تنوعاً، وأستطيع أن أزعم، أن في كل نشاط إنساني جانب إعلامي. فالأدب، مثلاً، نشاط إنساني إبداعي مستقل بذاته، ومع ذلك، فإن رواية جيدة يمكن أن تقدم شعباً، في صورة تعجز عن تقديمها مجموعة من الصحف الرديئة، على مدى سنوات من الصدور، ومهما حاولت تجميل الصورة. كذلك يمكن أن نقول الشيء ذاته عن لوحة فنية متقنة، أو فريق رياضي جيد، أو قطعة موسيقية متميزة. أما الإعلام بالمعنى التقني التخصصي الضيق، فيمكن أن نضع له أكثر من تعريف، قد يختلف كل

○ صحفي وكاتب من فلسطين.

○ محاضرة القيت في مقر الشبيبة الفلسطينية - مخيم جرمانا في ٢٨/٧/١٩٩٠

منها في الصياغة، ولكن كل التعريفات الممكنة تشترك في تحديد الجوانب الرئيسية، التي تجعل من الإعلام علماً وقتاً في الوقت ذاته. فهناك من يرى أن الإعلام هو «نشر الحقائق والأفكار والأخبار والآراء بوسائل الإعلام المختلفة، كالصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون، وذلك بهدف الأتقاع وكسب التأييد». غير أن هذا التعريف المحايد للإعلام، يبدو ناقصاً، لأنه يجعله وكأنه شيء خارج السياق السياسي والاجتماعي، بينما الأمر عكس هذا تماماً. لذلك أجدني أميل إلى الأتفاق مع تعريف يقول: بأن «الإعلام عملية إجتماعية، تهدف إلى إرسال مضمونات سياسية وإجتماعية بعينها، بقصد تحقيق وظائف يسعى إلى توصيلها، وهي بالضرورة انعكاس لظروف البناء الإجتماعي».

على أية حال، ومهما كان التعريف المختار، فإن لفظ الإعلام يحمل دائماً ثلاثة مدلولات هي:

(١) الإعلام بمعنى نشر المعلومات بعد جمعها وانتقائها، ويدخل في المجال، إبراز الأخبار وتفسيرها ووضعها في إطار معين.

(٢) الإعلام بمعنى الدعوة، أو التعبئة، أي النشاط الهادف إلى نشر أفكار معينة، والتبشير بها وكسب المؤيدين لها.

(٣) الإعلام بمعنى «الدبلوماسية المفتوحة» كما توصف، ويشمل التوجه إلى الجماهير في الداخل وإلى شعوب العالم في الخارج.

ومعظم خبراء الإعلام، يرون أن للإعلام ثلاثة أهداف رئيسية هي:

(١) نقل وتوصيل المعلومات للآخرين. و(٢) محاولة التأثير في آرائهم وأفكارهم وتشكيلها. ثم (٣) الترفيه والتسلية وتمضية أوقات الفراغ. ومن هنا يرى هؤلاء الخبراء أن «وظيفة الإعلام، هي التعبير عن الرأي العام، أو السيطرة عليه والتحكم فيه وتوجيهه وجهات معينة بالذات». وبسبب من هذه الوظيفة، يرتبط الإعلام ارتباطاً وثيقاً ببناء المجتمع ككل وتركيبه الطبقي، ويتأثر متأثراً مباشراً، كما يؤثر، بالأوضاع الثقافية والاجتماعية، وبالتنظيمات السياسية والأنساق الأيديولوجية السائدة في المجتمع المعين.

وأياً كانت المادة الإعلامية المقدمة، لا بد أن تحقق الأهداف الثلاثة في وقت واحد، ولكنها تفعل ذلك بدرجات متفاوتة، وحسب ما تخطط له السياسة الإعلامية المقررة، وفي كثير من الأحيان، يتم التركيز على هدف واحد على حساب الهدفين الآخرين.

وإذا ما دققنا في العملية الإعلامية، وجدنا جوهرها يقوم دائماً على الإتصال الجماهيري، أو التواصل مع الرأي العام الموجهة إليه العملية. والرأي العام، في أحد تعريفاته، يمثل «مجموع وجهات النظر والإتجاهات والمعتقدات الفردية، التي تعتنقها نسبة لها دلالتها من أعضاء المجتمع، حول موضوع معين بالذات».

والعلاقة بين الرأي العام، والتعبير عنه، أو التحكم فيه، هي العلاقة ذاتها بين السلطة والجماهير، وتستمد من المساحة المتاحة لحرية التعبير وإستقلال الأجهزة الإعلامية عن السلطة. فإذا كانت هذه المساحة من الإلتساع، بما يسمح بحرية التعبير عن الحركة الشعبية، وتوجيه النقد إلى السلطة، كان الإعلام قادراً على التعبير عن الرأي العام، وأمکن أن يكون أداة لنقل آراء الجماهير والدفاع عن احتياجاتها

وطموحاتها. أما إذا ضاقت أو انعدمت هذه المساحة من الحرية، تحولت وسائل الإعلام إلى أداة تابعة للسلطة، لفرض مفاهيمها وسياساتها. وفي هذه الحالة تنقلب المهام الإعلامية وتستبدل، فبدلاً من أن تكون التوعية والتثقيف قد تصبح التجهيل وغسل الأدمغة، وبدلاً من نشر الحقائق قد تصبح نشر الأضاليل، وبدلاً من التعبير عن آمال الشعب، قد نجد التعبير عن رغبات السلطة.

لقد أدى النمو والتطور الهائلان في وسائل الإعلام وعلومه، الإتصال في السنوات الأخيرة، إلى أن أصبح الإعلام جزءاً أساسياً من حياتنا اليومية. ولا بد أن يدرك كل فرد في المجتمع، الدور الذي يمكن أن تقوم به هذه الوسائل بأساليبها، وبما تقدمه من مواد إعلامية، في تشكيل حياته وكيانه والبيئة التي يعيش فيها.

والمواقف السلبية خطيرة وكذلك المواقف المحايدة، ولا بد أن يكون للناس رأيهم، في ما يقدم لهم عبر وسائل الإعلام.

إن أشهر وسائل الإعلام هي الصحافة، ولكن التلفزيون أخطرها حتى الآن. والصحافة تعتمد مثل كل وسائل الإعلام الأخرى على (الخبر)، بل إن كلمة (الإعلام) هي مصدر للفعل المتعدي (أعلم) ومعناها (أخبر). وما يميز الخبر، أي خبر يستحق أن يقال عنه كذلك، هو الجديد الذي يحمله. وإذا كانت العملية الإعلامية تعني نشر المعلومات، فإن هذه المعلومات لا بد أن تحمل الجديد، لتصبح مادة إعلامية صالحة. وبين كل التعريفات التي وقعت عليها، أعجبتني تعريف أورده المؤلف الأميركي دافيد داري الذي أعاد كلمة (خبر) إلى أصلها اللاتيني ومعناه (الشيء الجديد) وقال في تعريفه: إنه «أي تقرير مكتوب أو مسموع أو مرئي، يركز إليه، عن حادث يتضمن معلومات غير معروفة، تؤثر في حياة القراء أو المشاهدين وسعادتهم ومستقبلهم».

والحقيقية أن هذا التعريف على قدر من الدقة والعمق والشمول، إلى درجة أنه يحدد الفهم السليم الإيجابي، للعملية الإعلامية بكافة عناصرها، والذي يعتبر الخبر أساسها. وبقراءة التعريف السابق ثانية، نجد أن مواصفات (الخبر) أولاً، ثم مواصفات الإعلام الجيد ثانياً هي: (١) المعلومة الجديدة، (٢) الموثوقة، (٣) النافعة للناس في حاضرهم ومستقبلهم. وهكذا يصبح الإعلام نشاطاً إنسانياً في خدمة الناس، وبناء حياتهم السعيدة. وفي رأيي أن أي إعلام خارج هذه المواصفات، هو إعلام لا يستحق الإحترام.

● هل هناك إعلام فلسطيني؟

قبل اندلاع الثورة الفلسطينية المعاصرة، يصعب الحديث عن «إعلام فلسطيني»، ولكن بالتأكيد يمكن الحديث عن صحافة فلسطينية. لذلك فإن الدقة تستدعي الحديث عن «إعلام فلسطيني معاصر». أما الصحافة الفلسطينية حتى العام ١٩٤٨، فقد يكون من المفيد أن نستعيد هنا، التلخيص الذي وضعه الصحفي الفلسطيني الراحل أحمد خليل العقاد، في مقدمة كتابه «تاريخ الصحافة الفلسطينية»، وهو الأهم في الموضوع حتى الآن. فقد كتب يقول: إن الصحافة الفلسطينية حتى ١٩٤٨ مرت في

عهدين رئيسيين هما:
(١) العهد العثماني التركي . . عهد اشتهر بالجهل والتخلف وباضطرار الإنسان أن يجوب قرية من أقصاها إلى أقصاها، باحثاً عن يفك الخط ويقرأ له رسالة .

ولعلنا نستطيع أن نتخيل واقع الصحافة الفلسطينية في هذا العهد، ووعورة الطريق أمامها، ومدى ما يمكن لها أن تتطور داخل هذا الإطار. ثم جاءت الحرب العالمية الأولى، لتقضي على هذه الصحافة وهي لما تزل في حداثتها بعد، وتكون سبباً لتوقفها عن الصدور حتى عام ١٩١٩ .

(٢) العهد البريطاني الاستعماري . . . وقد حمل في طياته الصهيونية، وصك الانتداب على فلسطين، منفذاً مخططاً وحلماً قديماً للاستعمار والصهيونية، مهاداً لوضع البلاد، في حالة تسمح معها بإنشاء الوطن القومي اليهودي، كما جاء في إحدى مواد صك الانتداب البريطاني .

ويتابع العقاد في مقدمة كتابه قائلاً: «وقد حاولت الصحافة الفلسطينية في هذا العهد، أن تتصدى للمؤامرة الدولية على فلسطين، في حدود ما سمحت به إمكانياتها، وقوانين الإنتداب» .

ولم يكن ذلك يعني أن الصحافة الفلسطينية في تلك الفترة، كانت أقل شأناً من شقيقاتها العربيات . وقد جاء في مقال كتبه الصحفي الفلسطيني إبراهيم الشنطي، صاحب ورئيس تحرير جريدة (الدفاع) عن الصحافة الفلسطينية قوله:

«فقرت الصحافة في فلسطين قفرتها الواسعة في الفترة من ١٩٣٤ - ١٩٤٨ . وفي مصر كانت (الأهرام) وحدها، تبيع في حدود الثمانين أو التسعين ألف نسخة . وبلغت الدفاع رقم الأربعين ألفاً ثم جاوزته» . ويؤكد الشنطي في مقاله أن أعلى نسبة من القراء بين البلدان العربية حتى ١٩٤٨ كانت في فلسطين .

إذن، حتى ١٩٤٨ كان لدينا صحافة فلسطينية ولم يكن لدينا إعلام فلسطيني . لكن بعد إنطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة في مطلع ١٩٦٥، بدأ يتشكل مايمكن أن ينطلق عليه تعبير «الإعلام الفلسطيني المعاصر» .

● الإعلام الفلسطيني المعاصر مراحل ومشاكلة

منذ صدور «وعد بلفور» تحولت قضية (الوطن القومي اليهودي)، إلى نشاط تنفيذي على أرض فلسطين، وتعاونت من أجل تحقيق الحلم الإمبريالي - الصهيوني، قوى ودول كثيرة، في مقدمتها الحكومة البريطانية والوكالة اليهودية . وكان الوجه الآخر لهذا النشاط هو بداية القضية الفلسطينية . وفي ظروف كهذه، فإن مهمة أي إعلام فلسطيني، كانت لا بد أن تكون متجسدة في التصدي للمؤامرة وللدفاع عن قضية الشعب . وقد أشرنا قبل قليل إلى دور الصحافة الفلسطينية في هذا الصدد، حتى قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨، كتعبير عن نجاح المؤامرة الدولية .

وعندما نتحدث اليوم عن الإعلام الفلسطيني المعاصر، فإننا نتحدث في الحقيقة عن الثورة الفلسطينية المعاصرة، وعن السياسات التي اتبعتها م.ت.ف، في إطار أهداف هذه الثورة. ولعل ما يمكن أن يسجل لهذا الإعلام، أنه كان مرآة صادقة لما جرى في الساحة السياسية الفلسطينية في هذه الفترة، وللتطورات التي أصابت القضية الفلسطينية في ربع القرن الأخير.

ويمكننا أن نقسم الإعلام الفلسطيني المعاصر إلى ثلاثة أقسام، أو إلى ثلاث مراحل، هي:

(١) المرحلة الأولى، ويمكن أن نطلق عليها «مرحلة الإعلام المسلح»، التي بدأت مع الإنطلاقة الأولى للثورة المسلحة في مطلع ١٩٦٥.

(٢) المرحلة الثانية، وسنطلق عليها «مرحلة الإعلام المزدوج»، والتي بدأت مع انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة في العام ١٩٧٤.

(٣) المرحلة الثالثة، وسنطلق عليها تعبير «مرحلة الاعلام الدبلوماسي»، وبدأت مع الانعقاد التاسع عشر للمجلس الوطني الفلسطيني، وقرارات الجزائر لعام ١٩٨٨، ولا تزال مستمرة.

ولابد لنا أن نشير هنا بسرعة إلى الإعلام الفلسطيني في الفترة التي ولدت فيها م.ت.ف في العام ١٩٦٤. فلأن ميلاد المنظمة نفسها، جاء نتيجة الصراع بين اتجاهين سياسيين عربيين، ونوعاً من استباق الأمور، أو بشكل أوضح جاء محاولة لسبق الثورة المسلحة، التي كانت مؤشرات انطلاقها قد أخذت تتكاثر، فإنه يمكن اعتبار الإعلام الفلسطيني في هذه الفترة القصيرة، امتداداً للوضع الفلسطيني إبان الأربعينات. في عبارة أخرى، كان الإعلام الفلسطيني التابع للمنظمة، على شاكلة المنظمة نفسها تحت الوصاية العربية بالرغم من التنازع والتنافس القائم داخل الجامعة العربية. فكانت مفرداته مفردات عامة، تتحدث عن العدو الصهيوني وتحريروا فلسطين كاملة، وعن الحشد العربي ليوم التحرير... الخ دون التطرق لأي من مواقف وسياسات الدول العربية. وحتى جيوش التحرير الفلسطينية التي أنشئت، كان كل جيش منها خاضعاً من الناحية العملية وتابعاً للدولة التي يقف ويتواجد على أراضيها.

بعد انطلاقة الثورة المسلحة بدأت تتكون نويات الإعلام الفلسطيني المعاصر، عبر نشرات قليلة بعضها سري وبعضها الآخر علني، إلى أن وقعت حرب حزيران ١٩٦٧، التي كانت حستها الوحيدة أنها أتاحت المجال للإنطلاقة الثانية للثورة، حيث تشكلت منظمات المقاومة في العلن، وتوجهت كل منها لإثبات وجودها، واستقطاب الجماهير الفلسطينية ما وسعها ذلك. وكانت الصحف والمجلات والإذاعات تتكاثر، كما الفطر في غياب الدولة الأردنية ونتيجة للهزيمة الحزبانية التي لحقت بالانظمة العربية وأفرغت الساحة العربية من مشروع نظامي مقبول.

وجاء الإعلان عن ولادة المقاومة المسلحة نوعاً من الرد على السياسات العربية العاجزة والمهزومة، فكان الكفاح المسلح يمثل لدى الجماهير بديلاً حقيقياً للسياسة الذليلة الخائفة، ومن هنا كان الإعلام الفلسطيني يجد طريقه بسهولة إلى قلوب الجماهير الفلسطينية والعربية، وكان الإتفاق على تبني الكفاح المسلح والتحرير الكامل، يجعل مساحة الحرية المتاحة للتعبير كافية لإضفاء الحيوية على الإعلام الفلسطيني، وتحددت مهمة الإعلام في هذه المرحلة، في ترسيخ القناعات وتحريض الجماهير، للإلتفاف

حول الثورة وشعاراتها وأهدافها. مع ذلك، فإن الإعلام الفلسطيني لم يرق بمهمته بالشكل الصحيح، بل عانى من مجموعة من المشاكل لا يستهان بها، وحدثت من قدرته ومن دوره، وهي مشاكل لازمتها طول الوقت، وإن كانت قد تفاقمت في سنوات التراجع والانحسار. من هذه المشاكل مثلاً:

١) التنافس السياسي: كان تنافس المنظمات على كسب الجماهير، يدفع على اللجوء إلى إعلام، أقرب ما يكون إلى أسلوب الإعلان التجاري، بل وإلى تجاوز كل الأساليب الإعلامية الموضوعية والريزية، من أجل الطعن والتشهير بالمنظمات المنافسة. وقد عرفت هذه المرحلة، جملة من الانشقاقات السياسية، وكثيراً من الاشتباكات العسكرية، وبين هذه وتلك انتشرت المؤامرات. وقد انعكس ذلك كله، على الإعلام ومن خلاله.

٢) الكفاءات المتدنية: كان اعتماد مبدأ الولاء قبل الكفاءة، إحدى مشاكل الإعلام الفلسطيني. ولأن كل منظمة كانت تريد دعاء لها وموافقتها، كان أعضاؤها هم الذين يتولون المسؤولية، في وسائل الإعلام التابعة لها إلا ما ندر. ولأن الإعلام موهبة وعلم وفن، فإن مجرد الولاء لا يصنع إعلامياً جيداً، وبالطبع لا يصنع إعلامياً جيداً.

وحتى الكوادر الإعلامية الحزبية الجيدة، كثيراً ما كانت تتصرف لا كإعلاميين جيدين، مطلوب منهم القيام بمهام إعلامية أولاً، كحزبيين يستمدون مكانتهم من تحزيمهم. وقد أدى هذا إلى عدم حاجة الكثيرين منهم، لبذل أي جهد حقيقي للقيام بهذه المهام على النحو المطلوب. وفي النهاية أصبحت المسألة نوعاً من الوجاعة، وطريقاً إلى مراكز القوى، وتكوين الشلل، أكثر مما هي تكليف بمسؤولية خطيرة.

٣) الخضوع للقيادة وللدولة المضيفة: كون الوسيلة الإعلامية ملكاً للتنظيم، جعلها إلى حد كبير ملكاً لقيادة التنظيم، وبالطبع كان هذا الوضع يغطي بالإخلاص للتنظيم. لكن هذه العقلية حولت الوسيلة الإعلامية والإعلاميين فيها في الواقع، إلى أبواق، وخلقت الفرصة للشللية والعلاقات العامة. وشيئاً فشيئاً، غابت كل وظائف الإعلام الحقيقية، باستثناء تمجيد القيادة، وتبرير مواقفها، وتفسير إجراءاتها، والدفاع عن أخطائها.

في الوقت نفسه، كانت منظمات المقاومة، تحرص وتحذر إعلاميها من إحراج، أو الإساءة إلى العلاقات مع الدولة المضيفة، ما دامت هذه الدولة قادرة على إيدائها، وهي وضعية سمح بها وكرسها الوجود العلي للمقاومة. وقد أصبح هذا واضحاً جداً، وقاعدة عامة في المراحل اللاحقة، بعد أن استعادت الأنظمة قوتها.

وبهذا الخضوع المركب للقيادة وللدولة العربية المضيفة، ضعفت قدرة الإعلام الفلسطيني على الإقناع، وظلت نوعاً من الإعلان عن وجود المنظمة وقيادتها، وليس وسيلة وأداة للنضال في سبيل قضية وطنية.

وبالرغم من ذلك كله، ومع وجود هذه المشاكل وغيرها، ظل في الإمكان بروز عدد كبير من الإعلاميين الفلسطينيين الجيدين هنا وهناك، كما أمكن إقامة أكثر من ثورة إعلامية متفوقة.

وقد ازدهر في هذه المرحلة، كل من مركز الأبحاث ومركز التخطيط التابعين لمنظمة التحرير، وكانا يصدران عدداً من المجلات والنشرات والتقارير، التي قدمت على صعيد البحث والدراسة، نتاجات عن جانب كبير من الأهمية حتى العام ١٩٧٤.

في نهاية هذه المرحلة، تعرضت الثورة لامتحان قاس في الساحة الأردنية، ونتيجة للسياسات الخاطئة، والتخطيط السيء حل أيلول الأسود عام ١٩٧٠، ولم يتصف العام ١٩٧١، حتى كانت الثورة قد طردت من الأردن إلى لبنان وسوريا. وبدا للجميع أن مهمة الإعلام الفلسطيني - من خلال ما قدمه - في السنوات الثلاث التي تلت ذلك الخروج، قد تلخصت في الدفاع عن القيادة والهجوم على النظام الأردني، ونادراً ما تعدت ذلك، مع استمرار الإعلان عن الكفاح المسلح، وهدف التحرير، وتكرار الشائعات للإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية... إلخ.

المرحلة الثانية بدأت تظهر إرهاباتها في مطالع السبعينات، في النشرات الداخلية لبعض المنظمات، حيث بدأ يجري التلميح عن ضرورة تغيير التكتيك الثوري المتبع، من أجل إقامة «دولة فلسطينية». لكن التعبير الواضح والرسمي، عن أفكار وأساليب وأهداف هذه المرحلة، جاء في قرارات دورة المجلس الوطني الفلسطيني الثاني عشر، التي عقدت بعد حرب تشرين ١٩٧٣.

في هذه المرحلة «اختلفت وازدوجت» الأمور والحقائق. ففي الوقت الذي ظل الحديث فيه يدور عن التحرير والكفاح المسلح على استحياء، بدأ الحديث عن الدولة والسلطة الوطنية و«كل أشكال النضال» يأخذ مساحات أوسع وتوجهات جديدة، وأخذت وسائل الإعلام الفلسطيني تتحدث عن «المرحلة» «التكتيك» وال«استراتيجية» وبضعة مفاهيم أخرى، كان الهدف منها، تبرير السياسات الجديدة اللاحقة، التي ظلت رغم كل التحايل، تعني بداية التخلي عن الشعارات والأهداف الاستراتيجية، التي رفعت في لرحلة الأولى، والتي تضمنها الميثاق الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية.

ويمكن إعتبار هذه المرحلة، مرحلة انتقالية فصلت بين مرحلة الإنطلاقة الثورية في العام ١٩٦٥، وبين مرحلة التخلي عن الثورة في الجزائر في العام ١٩٨٨. وفي الخمس عشرة سنة المذكورة، كان دور الإعلام الفلسطيني بإختصار شديد، تكذيب نفسه وشطب ثلاثة أرباع ما سبق وجهد في ترسيخه في عقول وقلوب الجماهير، والدعوة إلى الإيمان به، وتهيئة هذه الجماهير للمرحلة الجديدة. لكن تلك المهمة الشاقة، تمت عبر كثير من الأساليب الإعلامية المتلوية، واستندت إلى هزائم واقعية بررت، في النهاية، للإعلاميين ومن قبل للسياسيين الفلسطينيين، التخلي عن منطلقاتهم ومواقفهم الأصلية.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فحلت بعد أن ترعزت الثقة لدى أكثرية الجماهير الفلسطينية وفقد الإعلام الفلسطيني مصداقيته، وتبين للجماهير أنه ليس سوى «صوت سيده». وفي هذه المرحلة، تابع الإعلام الفلسطيني وظيفته التقليدية، وهي الدفاع عن القيادة وتبرير سياساتها، ومحاولة إقناع الجماهير الفلسطينية، أن السياسة الراهنة هي السياسة الصحيحة، ولكن بعد أن انتهت الإزدواجية في الموقف، إلا عند البعض من القواعد الذي وجد صعوبة في التنصل من تاريخه ومبادئه. لكن قرارات الجزائر حسمت الأمور، وغيبت الأصوات الشاذة.

● الأعلام الفلسطيني والوعي الزائف

الآن، لا بد لنا أن نواجه سؤالاً محاسيناه حتى الآن طويلاً هو: باستعراض ربع قرن من عمر الإعلام الفلسطيني المعاصر، وبأذا، وكيف، نستطيع أن نلخص دور هذا الإعلام، الذي يفترض فيه، أنه جاء ليكون في خدمة القضية الوطنية الفلسطينية، ومن أجل الدفاع عنها؟.

جوابي المباشر عن السؤال هو، أن دور هذا الإعلام لم يكن غير صناعة الوعي الزائف. وقبل إيضاح كيف قام الإعلام بهذا الدور، لابد من كلمة قصيرة عن الوعي والوعي الزائف.

فالوعي إنعكاس للواقع، إنه شكل بشري خاص لإستيعاب الواقع روحياً، موضوعه، معرفة الشيء، واستجلاء ماهيته. وهو لا يرد إلى التفكير وحده، بل يشتمل أيضاً على الخيال والحدس والإنفعالات والإرادة والضمير، وغير ذلك. والوعي الإجتماعي، هو انعكاس للواقع الإجتماعي في عقل الفرد، ويعبر عن نفسه في أشكال عديدة، كالفن والأخلاق والدين والعلم والفلسفة... الخ.

إن الإعلام الصحيح، هو الإعلام الصادق القادر على إعطاء صورة موضوعية صحيحة، لكل جوانب الواقع الذي يعيشه المجتمع، والقادر أيضاً على تنمية الوعي بجوانب هذا الواقع، من أجل مزيد من معرفته، ومن القدرة على تطويعه، والسيطرة عليه لما فيه خير المجتمع.

وبالنسبة لإعلام ثوري، أو بالنسبة لشعب يعيش مرحلة التحرر الوطني، يتوجب أن تتحدد مهمته، بتنمية وعي المواطن بواقعه، وبإمكانياته، وبمخاطر هذا الواقع، بحيث يصبح قادراً على تحقيق هدف الثورة. ويتضمن ذلك، تعريفه وتوعيته بنواقصه وبمصادر قوته ومواطن ضعفه، وتوجيه ذلك كله، لتحقيق الأهداف الوطنية المنشودة.

وفي عبارة سهلة ومختصرة، يمكن تعريف الوعي، بأنه إدراك الناس وتصوراتهم للعالم المحيط بهم، بما يشتمل عليه من علاقات بالطبيعة وبالإنسان والمجتمع. أما الوعي الزائف، فيصبح في ضوء هذا التعريف، هو التصور الجزئي المشوه والمغلوط، للواقع والمحيط والعلاقات القائمة فيه.

والآن، ماذا فصلت بصناعة الوعي الزائف في إطار الوظيفة الإعلامية التي قام بها الإعلام الفلسطيني؟. إنني أعني أن هذا الإعلام، قد فشل في إعطاء الجماهير الفلسطينية، صورة موضوعية صحيحة لواقعهم، كما فشل في إعدادهم وتنمية وعيهم، لإنجاز التغيير الثوري اللازم، لتحقيق الهدف الذي جاءت من أجله الثورة.

إن مراجعة سريعة للأساليب التي سادت الإعلام الفلسطيني. تظهر طبيعة الوظيفة الإعلامية التي أنجزها، وتظهر أن هذه الأساليب كانت:

(١) طفسية، حولت الثورة وأدواتها وأهدافها إلى طقوس دينية ومفاهيم عينية، حتى في مرحلة الكفاح المسلح الأكثر تقدماً. فتحولت البندقية إلى طوطم، كما تحولت البدلة المبرقعة إلى تعويذة. ولم يفتن أحد إلى أن هذه الأشياء، لا تقدم ولا تؤخر، بدون وعي سياسي عميق لطبيعة وضرورات واحتياجات الكفاح المسلح، الذي هو في النهاية مجرد أسلوب للنضال.

لقد ساعد ذلك على انتشار مظاهر «البروزة»، وروح التعالي على الجماهير، وأدى أحياناً إلى استغلال إسم الثورة، وحب الناس لها، في أمور أبعد ما تكون عن الأهداف الوطنية والثورية. وبمجد الإعلام، ظاهرة الكفاح المسلح وكل ما يتصل به على نحو أدى إلى تشويه الوعي السياسي، فأصبح المهم أن يضع المقاتل مسدسه على خصره، أو يحمل رشاشه في الاستعراضات العسكرية، واستعراضات القوة الفارغة، التي تبين في النهاية أنها لم تحم الثورة ولا قضية الثورة، في الوقت الذي تخيل فيه المواطن العادي، أن مجرد وجود الفدائي والمظاهر المسلحة المحيطة به كفى لانتصار القضية، حتى الموت أصبح مشهداً طقسياً، فقد الكثير من مدلولاته السياسية والإنسانية بعد أن اقتصر على المظاهر الخطابية والجنائزية.

٢) القدرية: لقد فهم الإعلام الفلسطيني عملية التعبئة، بأنها عملية تحريضية ساذجة، وليست تنمية متواصلة لكل قدرات الإنسان، وأفهم المواطن الفلسطيني، أن قدره هو أن يعيش كما يعيش وأن يفعل ما يفعل، وأن لا مفر من كل ما يواجهه من مأس ونكبات، ولكن النصر آت في النهاية. كيف، وما علاقة تحقيق الإنتصار بما يجري، لم يدر أحد بل لمجرد أن الأمور يجب أن تنتهي على النحو الذي يشر به. وبطبيعة الحال، فإن إنتشار الروح القدرية تساهم في تربة المسؤولين عما يتعرض له الشعب من ويلات، بقدر ما يضعف الروح النقدية لدى الجماهير. وتصبح المعادلة أنه مادام هذا قدر الشعب، فإذا تستطيع القيادة أن تفعل، ولن توجه الجماهير انتقاداتها!.

٣) اللاموضوعية: لم يرقم الإعلام الفلسطيني بدوره، لأنه لم يكن موضوعياً في معالجته. لقد اعتمد العاطفة، ولبأ إلى المبالغة والتهويل، وأظهر عدم إحترام للحقيقة، عندما لجأ أحياناً إلى طمس الحقائق. والنتيجة الطبيعية لإعلام غير موضوعي، إنتشار الكذب وخلق الأوهام، وتكوين رأي عام، لا يمتلك غير صورة جزئية مشوهة ومغلوطه، عن حقيقة ما يواجهه وما يجري من حوله، فتحوّلت الجماهير إلى مطية لنزوات القيادة. وبرع الإعلام في إقناع الناس بأنه ليس في الإمكان أبعد مما كان، فضاعت الحقيقة والمسؤولية معاً. وهذه الطريقة، أمكن تحويل الهزائم إلى انتصارات تاريخية.

طبعاً كانت هناك أساليب أخرى، منها الإفساد وشراء الضائتر، والفصل والمحاصرة وتهديد كل إعلامي يشذ عن القاعدة، حتى وصلت الأمور في أحيان كثيرة، إلى حد التصفية الجسدية. وهذه الطرق والأساليب، لم تكن من فرصة متاحة لغير إعلام قاصر تضليلي، ولم تكن من قدرة مثل هكذا إعلام لصنع غير الوعي الزائف.

تري، هل أنا في حاجة لضرب الأمثلة؟.

حسناً، سأحاول ضرب بعض الأمثلة دون تفصيل أو توسع، بل سأكتفي ببعض الإشارات:
- المثل الأول، يمكن أن نجده مختصراً في الكيفية، التي تحوّلت فيها مهمة الإعلام الفلسطيني، من تعبئة الجماهير لتحقيق التحرير الكامل وتصوير أن ذلك سهل جداً، إلى إقناع هذه الجماهير لقبول الحكم الذاتي، بوصفه خطوة صحيحة نحو الدولة الفلسطينية المستقلة، التي قال البعض إنها قامت ويقول البعض إنها ستقوم قريباً جداً.

- المثل الثاني، نستطيع أن نختصره أيضاً في عملية الإقناع أولاً، بأن الكفاح المسلح، هو الأسلوب

الوحيد لتحرير كامل التراب الوطني، ثم الإقناع الجاري، بأن العمل الدبلوماسي هو السبيل الوحيد لتحرير ما تقبل إسرائيل أن تتنازل عنه من الضفة والقطاع، والبالغ ٢٣٪ من أرض فلسطين.

- المثل الثالث، كيفية الانتقال من الرفض القاطع للتفاوض والإعتراف والصلح، إلى الإعتراف والركض وراء التفاوض والصلح مع العدو.

- المثل الرابع، في كيفية تغطية والتعامل مع إنتفاضة الأرض المحتلة، التي تحولت إلى ورقة إعلامية في خدمة المغامرات الدبلوماسية، فأحياناً تبدو الإنتفاضة قادرة على فرض الجلاء الإسرائيلي عن الضفة والقطاع، وأحياناً تصغر إلى حد يمنعها من تجاوز حدود الورقة الإعلامية.

لقد حقق الإعلام الفلسطيني، معجزته من خلال دفاعه بالحماس نفسه عن الميثاق الوطني وعن قرارات ٧٤ وقرارات ٨٨، واستطاع أن يقنع الجماهير في كل مرة، أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان!!.

هذه هي مسيرة الإعلام الفلسطيني المعاصر، وهذا دوره مع شديد الأسف. ولكن هذه المسيرة وهذا الدور، لا يلغيان أدواراً بطولية لبعض الإعلاميين الفلسطينيين الكبار، الذين وصلت تضحياتهم إلى حد التضحية بالحياة، وفي مقدمة هؤلاء الشهداء المناضلين غسان كنفاني وناجي العلي.

لقد كان الإعلام الفلسطيني المعاصر مرآة عاكسة بصدق لمسيرة الثورة المعاصرة، تقدم عندما تقدمت، وتراجع عندما تراجعت، لأن كان تابِعاً للقيادة ولم يكن قائداً للجماهير. والإعلام التابع يتنازل عن وظيفته ودوره، وهو ما فعله الإعلام الفلسطيني المعاصر.

المتغيرات السوفياتية والصراع العربي - الصهيوني

منير الخطيب*

إن السياسة السوفياتية الجديدة، التي انطلقت مع صعود غورباتشوف، تشتمل على بعدين أساسيين، بعد داخلي يتعلق بتحديث الاقتصاد السوفياتي، والقضاء على بيروقراطية الدولة، وإنجاز مشروع ديمقراطية المجتمع وتحديثه، وبعد كوني يشمل الرؤية السوفياتية الجديدة للنظام العالمي، ويشكل خاص طبيعة العلاقة مع الغرب الامبريالي. وبين هذين البعدين، يبرز جدل الداخل والخارج باعتباره مدخلاً هاماً لفهم ما يجري فهماً عقلانياً يتجاوز الرومانسية في الوعي، والبوليسية في التفسير. وبالتالي يأخذ بنظر الاعتبار، ان السياسة هي علاقات موضوعية، تعبر عن موازين القوى والحقائق الواقعية والاحتمالات الممكنة.

لقد احدثت «البيروستريكا» تغييراً هاماً في محددات السياسة الخارجية السوفياتية، التي هي نفسها محدداتها تجاه الصراع العربي - الصهيوني:

- ١ - المصلحة القومية للاتحاد السوفياتي.
- ٢ - الصراع او التنافس مع الغرب بوجه عام، ومع الولايات المتحدة بوجه خاص.
- ٣ - العامل الايديولوجي^(١).

إن التغيير الذي ادخلته «البيروستريكا» على السياسة الخارجية السوفياتية عامة، وعلى موقفها من الصراع العربي - الصهيوني خاصة، سيزيد من شهامة أولئك الذين تحكّمهم عقدة الكره للاتحاد السوفياتي، ويصدم أولئك الذين تحكّمهم عقدة الهوى له. وبالتعارض مع أصحاب عقد «الكره والهوى»، تبرز

كُتِبَ من سورية.

الضرورة لأن يمتلك العرب وعياً تاريخياً مناسباً للسياسات الدولية، بدلالة مشروع الأمة العربية، الذي يهدف للقضاء على التأخر والتجزئة والاستعمار الاستيطاني الصهيوني، والهيمنة الامبريالية.

إن الصراع العربي - الصهيوني، هو الصراع المحدد الذي تتركز وتتكتف فيه سائر صراعاتنا الاخرى، باعتباره صراعاً بين مشروعين متناقضين تاريخياً، مشروع امتنا في النهضة والتقدم، ومشروع الصهيونية الطامحة الى اقامة دولتها التوراتية المنشودة «من النيل الى الفرات» لذا لا بد من ان تنعكس المتغيرات في السياسة الخارجية السوفياتية على هذا الصراع، سيما ان الحضور السوفياتي فيه، كان يرمي بثقله لمصلحة امتنا.

بادىء ذي بدء لا بد من تثبيت مجموعة من المسائل الهامة، حول السياسة السوفياتية في وطننا. أولاً - لم يحدث تاريخياً - بسبب طبيعة البنية الاقتصادية الاجتماعية السوفياتية - تعارض بين المصلحة القومية العربية وبين قوى الانتاج السوفياتية، كما حدث مع الغرب الامبريالي، بسبب تطور قوى الانتاج، وصولاً الى المرحلة الامبريالية.

ثانياً - ان السياق التاريخي - الجغرافي السوفياتي، يدفع الى أن تكون المصالح السوفياتية والعربية غير متعارضة^(٢).

ثالثاً - ان العامل الايديولوجي الذي يضيف على السياسة الخارجية السوفياتية طابعاً مبدئياً، يدفعها الى مناصرة النضال التحرري الذي تخوضه الشعوب المستعمرة، ومنها بالطبع شعبنا العربي.

رابعاً - إن طريق النهضة العربية، نتيجة لما سبق ذكره، كان ولازال يوازي طريق الصداقة العربية - السوفياتية ولم يصل هذان الطريقتان، في أية لحظة من اللحظات الى درجة التناقض، كما الحال مع الغرب الامبريالي، الذي كانت مصالحه على الدوام تناقض المصلحة القومية العربية.

خامساً - ان السياسة السوفياتية، ليست نفيًا للسياسة البورجوازية، بل إنها تتسمان بنفس السمات التي تسم السياسات الحديثة التي تأسست على ميكافلي، وتتابعته بعده، والقائمة على مبدأ الفائدة والمنفعة القومية، والتي تشترك بها يمكن أن نسميه «الواقعية السياسية»، وإن هذه السياسة الحديثة، كانت تنويجاً لسيرة العلمنة والعقلنة التي اصابت المجتمع الغربي بشقيه الامبريالي والاشتراكي.

هذه العلمنة والعقلنة التي اصابتها المجتمع العربي، التي اعطته مزيداً من النضج والقوة والسيطرة على مقدراته الخاصة، اعطت سياساته مساراً جديداً: فبالاضافة الى ديمقراطية مركز القرار السياسي، التي املت مبدأ الفائدة او المصلحة (القومية بالطبع)، كانت موضوعة التمييز بين الواقع والمعتقد، بين الواقع والرغبة، بين الواقع والحق، تفرز مبادئ اخرى في توجيه السياسة:

- ١ - القوة وأثرها في إقامة نظام جديد للأمر.
- ٢ - مفاعيل الزمن في خلق وإلغاء الحقائق الواقعية.
- ٣ - تغيير اساليب العمل مع تغير الظروف، الخ.

وإذا شئنا تلخيص الخاصيات الاساسية للسياسة الحديثة نقول: انها قائمة على العقلانية في تحريك الاشياء والبشر أولاً، وقائمة على الفائدة ثانياً، وانها تصاغ في مجتمع تدمقرط مركز القرار فيه ثالثاً^(٣) فعل

قاعدة المصلحة القومية السوفياتية، التي ترن بقوة في صياغة قراره الخارجي أولاً، ونتيجة لموقعه في الصراع العالمي ثانياً، وكون القضية الفلسطينية قضية عربية، وليست قضية سوفياتية ثالثاً، تبرز نقاط الاختلاف بين الرؤية العربية، المستندة الى المشروع القومي الديمقراطي ذي الأفق الاشتراكي، والرؤية السوفياتية للصراع العربي - الصهيوني، والتي تتجلى في:

أولاً- ان الصراع العربي - الصهيوني هو صراع تاريخي بين وجودين ومشروعين متناقضين، لا يمكن أن يقوم أحدهما إلا على أنقاض الآخر، مشروع امتنا في النهضة والتقدم، ومشروع الصهيونية في إقامة دولتها التوراتية المنشودة.

هذا الفهم يختلف مع الرؤية السوفياتية التي تنظر الى الصراع على أنه صراع اقليمي، يمكن تسويته على اساس توازن القوى والمصالح.

ثانياً- الرؤية السوفياتية التي ترى أن الصراع صراع اقليمي، هي مع حق «اسرائيل» في الوجود والامن والسلام، باعتبارها احدي دول «الشرق الاوسط».

لذا يعمل الاتحاد السوفياتي على انسحاب «اسرائيل» من الاراضي العربية التي احتلت عام ٦٧، وفق قرار مجلس الامن رقم (٢٤٢)، والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، بما فيها حق العودة، وحق تقرير المصير، وإقامة دولته المستقلة، ويعتبر ان الاراضي العربية المحتلة، هي الضفة الغربية وقطاع غزة فقط، ويدعو الى حل النزاع في المنطقة حلاً سلمياً، بصرف النظر عن موازين القوى، وطبيعة المرحلة التاريخية، والذي لن يكون في ظل الشروط الموضوعية الراهنة إلا إذعانا للشروط الاسرائيلية.

هذا يختلف أيضاً مع الرؤية القومية العربية، الطامحة لبناء دولة الوحدة، والقضاء على التجزئة والتأخر والهيمنة وهذا لن يكون إلا بتدمير الكيان الصهيوني.

ثالثاً: إن الاتحاد السوفياتي الذي ينظر إلى الصراع العربي - الصهيوني من زاوية صراعه مع الغرب، ويدافع عن حق «اسرائيل» في الوجود، ويعتبرها دولة حليفة أو موالية للغرب، ينفي الطابع العضوي للكيان الاستيطاني الصهيوني في البنية الامبريالية العالمية، لذا فان القضاء على الهيمنة الامبريالية، لا يمكن أن يتم إلا عبر القضاء على احدي اهم ركائزها في المنطقة، وهو الكيان السياسي لدولة «اسرائيل».

بمعنى آخر مختصر، تنطلق السياسة السوفياتية من الحقائق الواقعية القائمة في المنطقة، وعدم جواز المساس بالوضع الجيو-ستراتيجي، خارج إطار الرؤية التي سبق ذكرها.

مما لا شك فيه ان السياسة السوفياتية الجديدة، وسعت وعمقت الفجوة بين الرؤيتين العربية والسوفياتية للصراع العربي - الصهيوني، من خلال انقشاع الغطاء الايديولوجي عن السياسة أولاً، وتعمق مفهوم المصلحة القومية للاتحاد السوفياتي ثانياً، واتجاه السياسة الخارجية نحو كسر حالة الحرب الباردة، ووقف سباق التسلح، والاتجاه نحو التصالح مع الغرب، والتشارك في حل المشكلات العالمية حلاً سلمياً، وفق مقولة «على الخصوم ان يتحولوا إلى شركاء».

لقد ادخلت البيروسسترويكيا تغييرات اساسية على محددات السياسة الخارجية السوفياتية، وهي المصلحة القومية، والعامل الايديولوجي، وتطور فيها مفهوم المصلحة القومية، وخضعت مقتضيات

الصراع الدولي لواقع استحالة سباق التسلح والحرب النووية والتقليدية بين المعسكرين . ومن ثم تحول الخصوم الدوليين إلى شركاء ، في ظل الحالة الجديدة للانفراج الدولي ، الامر الذي يضع حركات التحرر الوطني ، والثورة الديمقراطية في بلدان العالم الثالث ، امام اختياراتها التاريخية ، ذات الأعباء الثقيلة في ضوء امكاناتها الذاتية اساساً ، وفي ظل حقيقة انتقال بؤرة التوتر والمواجهة في الصراع الدولي إلى هذه البلدان^(١) . إن الستالينية التي غالت في تقديس دور الحزب ، الذي انابته عن الجماهير ، ضخمت من دور الدولة في التدخل القسري في مجرى الاحداث ، وبالتالي حاولت لي حركة الواقع واتجاهاته الفعلية ، وحشرها في المفهوم ، مما أدى الى تضخم الجانب الايديولوجي ، وحجبه للحقائق القائمة ، والتي كان ابرزها ، ازمة النظام الاشتراكي ، وازمة النظام العالمي . فازمة الأول تتجلى بغياب الديمقراطية ، وتضخم بيروقراطية الدولة ، وتخلف الاقتصاد قياساً باقتصاد الغرب ، وازمة النظام العالمي تتجلى بلا جدوى في سباق التسلح ، واستمرار التوتر والحرب الباردة بين المعسكرين ، لأنه لا وجود لمنصر بينهما في حرب تقليدية أو نووية ، فالاسلحة التي تراكمت في حوزتها كافية لتدمير الحياة على هذا الكوكب .

إن السياسة السوفياتية الجديدة ، عبرت عن وعي عميق بهاتين الازمتين ، فنزعت الحجاب الايديولوجي عن السياسة ، ووصفت الوقائع ، كما هي ، بدون مسبقات واسقاطات دوغمائية . فلم تعد المهمة التاريخية الراهنة هي اسقاط الامبريالية ، ودعم حركات التحرر الوطني في العالم ، وتصدير «الثورات» ، كما كان سائداً اثناء الحرب الباردة ، بل اصبح الملح والراهن ، هو تجاوز ازمة النظام الاشتراكي بالتحديث ، واشاعة الديمقراطية ، والقضاء على كوابح الاقتصاد ، بمعنى آخر ، اعادة بناء النظام الاشتراكي على ضوء المعطيات الواقعية ، وتجاوز ازمة النظام العالمي بنزع اسلحة الدمار الشامل ، ووقف سباق التسلح ، والوصول الى علاقات تعاون بين جميع الامم والشعوب ، بغض النظر عن طبيعة النظم الاجتماعية والسياسية لها .

إن هذا التطور الجديد ، ينسجم مع المصلحة القومية السوفياتية التي تحتاج الى وقف التوتر عالمياً ، لكي يتسنى لها الانطلاق للبناء الداخلي ، وسينعكس ذلك سلباً على الصراع العربي - الصهيوني من خلال :

أولاً - لم يعد دعم حركات التحرر الوطني ، والثورات القومية الديمقراطية ، في أولويات السياسة السوفياتية ، بل تراجع ذلك على حساب تقدم أولوية تجاوز النظام الاشتراكي لازمته ، والتعايش السلمي على الصعيد العالمي .

ثانياً - ان سياسة التعايش السلمي على الصعيد العالمي ، تقتضي الابتعاد عن ساحات المواجهة المباشرة مع الامبريالية الأمريكية ، والصراع العربي - الصهيوني ، هو احدى هذه الساحات الساحنة .

ثالثاً - إعادة بناء السياسة الخارجية السوفياتية ، على اساس موازين القوى والحقائق الواقعية ، مع تقدم مفهوم المصلحة القومية على حساب تراجع العامل الايديولوجي ، يلقي ظلالاً سلبية على الصراع العربي - الصهيوني ، في ظل رجحان ميزان القوى المحلي لمصلحة «اسرائيل» ، وسيطرة دول قطرية عاجزة عن تعديل هذا الميزان لمصلحة الطرف العربي .

رابعاً - ان سياسة التعايش السلمي مع الامبريالية، تقتضي التعايش مع جميع مؤسسات النظام الامبريالي العالمي، والكيان الاستيطاني الصهيوني، هو احدى هذه المؤسسات.

خامساً - مع ازدياد عامل المصلحة القومية في السياسة السوفياتية، وانفشاع غطاها الايديولوجي، واخذها بعين الاعتبار الحقائق القائمة، لم تعد تولي الاهتمام لخطوط القوة الكامنة، في رحم حركة الواقع، والتي يمكن ان تغير الحقائق القائمة مستقبلاً.

من هذا المنطلق، فان قوى الثورة القومية الديمقراطية العربية، التي لا تزال في طور الكمون، ومحاصرها ويشلها الاستبداد والتأخر، وتحمل امكانات تغيير ميزان القوى الراهن، لن تلقى الدعم المأمول من السياسة الرسمية السوفياتية، مادامت كذلك.

سادساً - ان العلانية والمكاشفة، التي أكدت عليهما البيروسترويك، والمسيرة الديمقراطية التي بدأتها، أستغلت من قبل المنظمات الصهيونية الموجودة في الاتحاد السوفياتي، التي نشطت في اوساط اليهود، ومارست الابتزاز على القيادة السوفياتية، بالتنسيق مع الامبريالية العالمية، أدى للسماح لليهود السوفيت بالهجرة الى فلسطين. . صحيح ان الاتحاد السوفياتي لا يمكن ان يمنع الهجرة عن مواطنة، بصرف النظر عن انتباههم الديني أو القومي، خاصة في سياق تأكيده على حقوق الانسان، لكن هذه الهجرة تؤكد مجموعة من القضايا:

١ - فشل التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، بدمج اليهود بمجتمعهم، وتحويلهم إلى كتلة متجانسة مع النسيج الاجتماعي. وهذا يعود بالدرجة الاولى الى ضعف مقدمات الاشتراكية، وأعني المسألة القومية الديمقراطية.

٢ - إن اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفياتي، هم اليهود المشبعون بالفكر الصهيوني، والمتحمسون لبناء دولة «اسرائيل الكبرى».

٣ - إن هجرة اليهود السوفيت، تشكل اعتداءً سافراً ووقحاً على حقوق المواطنين العرب عامة، والمواطنين العرب الفلسطينيين خاصة، لأنها ستسهم في طرد العرب من اراضيهم، لكي تتمكن من توطين الوافدين الجدد.

٤ - ان زيادة عدد المهاجرين اليهود، يزيد حاجة الكيان الصهيوني للارض، وبالتالي فإن هذا لا يشجع عدوانية «اسرائيل»، ويدعم نزعتها التوسعية. فقد تقدم مستقبلاً نتيجة لذلك بضم الضفة الغربية وقطاع غزة، وتفكر باحتلال ارض عربية جديدة.

٥ - اسهمت الهجرة الى حد كبير في التخفيف من آثار احد العيوب الاستراتيجية في الكيان الصهيوني، وهو ضآلة حجمه البشري، قياساً بالحجم العربي. لذا يجب ان يُنقذ الاتحاد السوفياتي من موقع الحليف والصديق لساحة لليهود بالهجرة، لا لأنهم مواطنون سوفيت، بل لأنهم مدفوعون بجنون حلمهم التلمودي، ويحملون الايديولوجيا الصهيونية العدوانية والعنصرية.

ان وقف هذه الهجرة، يتوقف بالدرجة الاولى على تطور ميزان القوى المحلي، لمصلحة الامة العربية.

سابعاً - ان الامبريالية العالمية، والامريكية منها على وجه الخصوص، التي تعمل جاهدة لتطويق نتائج البيروسترويكا، وتسعى باتجاه افشال طموحاتها واهدافها الاستراتيجية، بعيدة المدى، لانها تدرك جيداً انها تشكل هجوماً استراتيجياً، ان الامبريالية هذه، ستستغل هذه الفترة الانتقالية التي قد تطول، قبل ان تتبلور اشكال اخرى للصراع، وقبل ان تتشكل مراكز اخرى في العالم، تتيج هامشاً لحركات التحرر الوطني بالتحرك، وستستغل ايضاً الانسحاب السوفياتي من مناطق الصراع، في تشديد هيمنتها على المنطقة، بدءاً بتطبيق الخناق الاقتصادي وصولاً الى التدخل العسكري المباشر.

ملاحظات ختامية :

● ان الاتحاد السوفياتي، وسائر الدول الاشتراكية تبقى الحليف والداعم لشعبنا في نضاله ضد الصهيونية، بصرف النظر عن نقاط الاختلاف، فالتحالف لا يفترض التطابق في وجهات النظر، كما ان الاختلاف لا ينفي التحالف.

● ان الصراع المباشر والعملي بين الدوليتين الكبيرين قد توقف، لكن الصراع بين النظامين الاشتراكي والراسمالي لا يزال مستمراً، خاصة في دول العالم الثالث، التي اصبحت تشكل ميدان المحاربة الاول بين المعسكرين، والصراع العربي - الصهيوني، هو احد تجليات ومظاهر الصراع العالمي.

● إن الواقعية الجديدة في السياسة السوفياتية، أعطت مبرراً عالمياً للسياسة الرسمية على الساحتين العربية والفلسطينية للتصالح مع معطيات العصر «الاسرائيلي»، بدعوى «الواقعية»، وعدم ملائمة الظروف العالمية للوقوف في وجه الهجوم الامبريالي - الصهيوني. على المنطقة، متجاهلة ان هذه «الواقعية»، في ظل ميزان القوى الراهن، ما هي إلا استسلام ذليل للشروط الامريكية - الاسرائيلية.

● ان مستوى الدعم السوفياتي لقوى الثورة العربية، مرتبط بمدى تحقيق البيروسترويكا لمهامها الداخلية أولاً، وبمدى نجاح قضية الانفراج العالمي ثانياً، وعلى ضوء تطور ميزان القوى المحلي ثالثاً.

إن السياق العالمي الجديد يحمل اعباءً اضافية للمشروع القومي الديمقراطي العربي، ويلقى ظلالاً شاحبة على الصراع العربي - الصهيوني، ويضع قوى التحرر والديمقراطية وجهاً لوجه امام الغطرسة الامبريالية والصهيونية، وهذا يتطلب منها التحلي بأعلى درجات الوعي والارادة والتنظيم، فهل تكون بمستوى المهام التاريخية النلقاة على عاتقها. ؟ .

الهوامش :

- ١ - ياسين الحافظ الهزيمة والايديولوجيا المهزومة ص ٣٦٨
- ٢ - ياسين الحافظ الهزيمة والايديولوجيا المهزومة ص ٣٧٠
- ٣ - ياسين الحافظ اللاعقلانية في السياسة ص ١٣
- ٤ - جاد الكريم الجباعي - حدود الواقعية الجديدة في السياسة السوفياتية - مجلة الفكر الاستراتيجي العربي ص ٩.

تاريخ وتراث

من كتاب «صفحات عن حيفا وصركتها الأخيرة»

الشيخ عبد الرحمن مراد

الموقع :

تقع مدينة حيفا في القسم الشمالي الغربي من فلسطين على البحر الأبيض المتوسط جنوبي خليج عكا يحتضنها جبل الكرمل الشهير ويجتمع فيها البحر بالجبل بالسهل وقد جعلها هذا الموقع مرفأً محمياً طبيعياً ومكاناً صالحاً لرسو السفن الكبيرة ، كما جعل منها مطمعاً للمستعمرين عبر السنين وقد حبتها الطبيعة بجمال فريد أخذ مع سماء صافية وبحر هادئ وأكسبها جبل الكرمل طابعها المميز من مناظر جميلة ومناخ معتدل لطيف ومن على سفح هذا الجبل يغرق البصر في مشهد رائع ومنظر جميل ، فالمدينة مستلقية متألثة في منحدرات الجبل وعلى شاطئ البحر ، ونهر المقطع يخترق مرج ابن عامر ويصب في البحر شمال المدينة في موقع قريب منها وخليج عكا الواسع الهلالي الشكل ومدينة عكا العريقة في التاريخ يبدوان لناظريك وقد لفهما التاريخ بعقبه وأريجيه وزرقة البحر الذي لا نهاية له تحطف الأبصار وسماء صافية وسهول ومروج وجبال تلوح لناظريك فتكون بذلك منظراً رائعاً يسر القلب ويهيج النفس ولا تمحوه الأيام .

مجاهد من فلسطين شغل عدة مناصب قضائية عالية.

أصل تسمية المدينة :

اختلف المؤرخون والباحثون في أصل كلمة حيفا ومعناها .. إذ يرى الاستاذ الكبير مصطفى الدباغ في موسوعته (بلادنا فلسطين) انها كلمة عربية من الحيفة بمعنى الناحية وذات الحيفة من مساجد النبي محمد ﷺ بين المدينة وتبوك . كما يذكر أن بعض المؤرخين يرجحون أن بقعتها القديمة أنشئت عليها بلدة كنعانية (فنيقية) هذا بينما يرى باحثون آخرون أن اسمها مشتق من الجذر العربي «الحَيْفَ أو الحَيْفَ» وهو حد الحجر الجارح ، دعيت بذلك لوقوعها على شاطئ البحر عند الصخور الكبيرة ، ويقول عنها «ياقوت الحموي» في معجم البلدان أن الأصل مأخوذ من حيفاء وهي من الحيف بمعنى الجور وقد وردت في التلمود على صورة حيفة ومعناها الفرضة والرفأ كما وردت في الكتابات التلمودية باسم سكيمنينوس أما الصليبيون فكانوا يطلقون على المدينة اسم «كيفا» «Caypha» أحياناً واسم سكيمنينون أحياناً أخرى ويعني باليونانية شجرة التوت .

ولعل تلك التسمية جاءت لكثرة شجر التوت فيها ويرجح أن آثار سكيمنينوس واقعة في موقع تل السمك الذي يعلو البحر عند حيفا القديمة وقد سمي بذلك لوجود كميات كبيرة من الأصداف البحرية عند قاعدته .

أما في القرن الرابع للميلاد فقد عرفت المدينة باسم «إيفا EFA» وهي حيفا القديمة . ولم يرد اسم حيفا في مصادر الفتح الإسلامي وأقدم ذكر لها أورده الرحالة ناصر خسرو ٤٥٢ هـ - ١٠٦٠ م ثم أوردها بالاسم نفسه الشريف الإدريسي ٥٦٠ هـ - ١١١٥ م وياقوت الحموي ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م وعلى الرغم من تعدد الأسماء لهذه المدينة وظهور اسمها بعدة أشكال في اللغات الأجنبية فان التسمية المتعارف عليها والمشهورة الآن هي التسمية العربية «حيفا» .

الموضع :

مرت حيفا بمرحلتين من تاريخها الطويل . أما المرحلة الأولى فقد كانت تقع فيها في الطرف الجنوبي لحليج عكا فوق منطقة ساحلية مكشوفة يصعب الدفاع عنها مما جعلها لقمة سائغة لقرصنة البحر وجيوش الأعداء وأدى إلى خرابها عدة مرات كما كانت المستنقعات تنتشر على طول سواحلها مما أدى إلى انتشار كثير من الأمراض التي كانت تفتك بسكان المدينة وتمنع استقرارها وازدهارها وبقي الحال على ذلك حتى كانت سنة ١٧٥٠ م فتبدلت الحال غير الحال

وبدأت المرحلة الثانية من تاريخ المدينة إذ قام الشيخ ظاهر العمر رئيس عرب الزيادة وحاكم صفد بالانفصال عن والي دمشق وضم منطقة الجليل ومنطقة حيفا إلى أمارته . وقد عمل على هدم مدينة حيفا القديمة لصعوبة الدفاع عنها وكثرة تعرضها للغزو وقام ببناء مدينة جديدة داخل الخليج وجنوب شرق المدينة القديمة وسمها العمارة الجديدة وغلب عليها فيما بعد اسم حيفا الجديدة ، وقد تميز موقعها الجديد بواجهة بحرية عميقة هي بمثابة مرفأً طبيعي محمي يسهل الدفاع عنه ، كما يصلح لرسو السفن الكبيرة ويخلو من العوائق الطبيعية كما يمثل مفترق طرق رئيسي بين شمال فلسطين وجنوبها وشرقها . وهي حيفا الحالية تُغر فلسطين الزاهر ومينائها الكبير والذي يعد من أهم وأكبر الموانئ على البحر الأبيض المتوسط .

نظرة خاطفة على تاريخ المدينة وقضائها :

لم يستطع المؤرخون تحديد فترة زمنية معينة لنشوء المدينة وبداية سكن البشر فيها ، ولكن يستدل من المكتشفات الأثرية أنها كانت من المدن التي استوطنها الإنسان في أقدم العصور ، فلقد تم العثور على هياكل بشرية في مغارة الواد بالقرب من عتليت الواقعة في منطقة حيفا وفي «نقي شعنان» قرب حيفا تعود إلى العصر الحجري القديم أي منذ ١٥ ألف سنة قبل الميلاد كما عثر في تلك المكتشفات على رسوم منحوتة في الحجارة تعود إلى العصر الحجري الوسيط أي بتاريخ ١٢٥٠٠-٦٠٠٠ سنة ق.م .

ويؤخذ من هذه الرسوم أن أول ولادة للفن الفلسطيني كانت في منطقة حيفا . كما عثر على مجموعة كلب يستدل منها أن سكان هذه المنطقة كانوا أول من دجن هذا الحيوان وذلك لخدمة الإنسان ، وبعد التاريخ المدون كان العرب الكنعانيون أول من سكن ديار حيفا حيث عمروا البقعة التي تقوم عليها هذه المدينة والكثير من مدنها وقراها ، منها قيسارية وعتليت والطنطورة وغيرها وأقاموا المدينة على بعد حوالي ٢ ك.م جنوبي مدينة حيفا الحالية . وقد دلت الآثار التي وجدت على ذلك منها مدافن على شكل ثلاث قناطر ، كما أنه وقعت على سواحل قضاء حيفا أول معركة بحرية مصورة عرفت في التاريخ العالمي وكانت بين المصريين والايبيجين وذلك عام ١١٩١ ق.م في عهد رمسيس الثالث . وفي عهد هذا الفرعون تمكن النكاليون من تأسيس دولة مستقلة لهم في الطنطورة الواقعة في منطقة حيفا . ثم بعد ذلك التاريخ وقع الساحل الممتد من الكرمل إلى غزة في أيدي الفلسطينيين القادمين من كريت حيث أسسوا دولة لهم في ربوعه

وبعد تلك الحقبة تمكن بنو اسرائيل في عهد اليسع بن نون من احتلال بعض أجزاء من فلسطين وجعلت حيفا من نصيب سبط «منسي» وإن كان لم ييسط سلطانه الفعلي عليها ، ثم دانت بلاد حيفا للأمم التي أغارت أو حكمت بلادنا في العصور القديمة من آشوريين وبابليين ويونان وسلوقيين وفرس ورومان وهؤلاء الرومان هم الذين دخلت البلاد في حكمهم في القرن الأول قبل الميلاد ويذكر الانجيل أن السيد المسيح عليه السلام وطىء أرض حيفا وباركها حين مر بها مع والدته السيدة مريم العذراء في طريقه من مصر إلى الناصرة ، كما مر بها بولس الرسول في رحلته الثالثة عام ٥٨ ميلادية وكانت حيفا تقوم أيام حكم الرومان على موقع تل السمك غربي حيفا وجنوبي رأس الكرمل .

يدل على ذلك ما عثر عليه من الآثار الرومانية القديمة التي كشفت في هذا الموقع ، وهي أبنية مرصوفة بالفسيفساء وقبور منحوتة بالصخر بالإضافة إلى اكتشاف حمام وورصيف بحري في حيفا القديمة تعود للعصر الروماني المذكور .

وقد انتهى عهد الرومان بدخول بلاد الشام جميعها بما فيها فلسطين وحيفا في حوزة العرب المسلمين في الفتح الإسلامي الذي اكتمل بالاستيلاء على قيسارية آخر معقل للرومان في البلاد وكان ذلك في عام ١٩ للهجرة الموافق ٦٤٠ ميلادية .

بعد الفتح الإسلامي : أخذت القبائل العربية بعد الفتح تنزل في جميع أرجاء فلسطين وقد استقرت في حيفا وأطرافها عدة قبائل منها قبيلة جزام وقبيلة بني عامر التي سكنت في مرج ابن عامر وقبيلة بني لام التي أقامت في قرية كفر لام التي بناها الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وجميع هذه القبائل من العرب القحطانية ثم جاءت بعدهم جماعة من بني مخزوم القرشية منهم العائلة التي تحمل اسم القيسراني ، وعرفت بلاد حيفا في العهد العربي الإسلامي بكثرة خيراتها ولكن لم يكن للمدينة شأن يذكر في وقائع الفتح العربي الإسلامي الكبير .

في الحروب الصليبية وعصر المماليك : كانت حيفا تابعة للدولة الفاطمية عند غزو الصليبيين لفلسطين في عام ١٠٩٩ م حيث مروا على سواحلها دون احتلالها وهم في طريقهم للهجوم على بيت المقدس ، وفي حزيران عام ١١٠٠ م وصل إلى حيفا اسطول بنديقي مؤلف من ٢٠٠ سفينة قام بمهاجمة المدينة بمساعدة جيوش الأمير تنكرد الصليبي وبعد حصار وقتال عنيف بين الفرنجة الغازين وأهل المدينة والحامية المصرية الصغيرة التي كانت موجودة فيها سقطت في أيدي الأعداء بعد أن قتل معظم سكانها وتسلم الحكم فيها الأمير «تنكرد» وكان

ذلك بتاريخ ٢٥/١١/١١٥٥ م وكانت تعرف باسم كايغاس أو كيفا . وفي حيفا آثار تعود إلى هذه الفترة منها بقايا القلعة التي بناها الافرنج جنوب حيفا وقد بقيت المدينة تحت حكم الافرنج حتى عام ٥٨٢ هـ الموافق ١١٨٧ م حيث عادت لأصحابها بعد انتصار السلطان الناصر البطل صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين الخالدة والتي هزم فيها الفرنج شر هزيمة وأسر ملكهم وأمراؤهم وأبيد معظم جيشهم وبقيت في حكم المسلمين حتى عام ٥٨٧ هـ الموافق ١٩١ م حيث استعادها الصليبيون بعد أن رحلت عنها حاميتها وهدمت أسوارها وحصونها بأمر من صلاح الدين حتى لا يستفيد الأعداء منها وقد أعاد الافرنج بناءها وتحصينها عام ١٢٥٠ م بأمر من الملك لويس التاسع ملك فرنسا وبقيت في أيديهم حتى أعاد فتحها الملك الظاهر بيبرس البندقداري عام ١٢٦٥ ميلادي ثم خربها وأحرق أبراجها حتى لا يستفيد الأعداء منها أيضاً وعاد إليها الصليبيون بعد ذلك التاريخ وبقوا فيها حتى أخرجهم منها ومن آخر معاقلمهم في فلسطين وبلاد الشام الملك الأشرف خليل بن قلاوون من حكام المماليك في مصر وكان ذلك في عام ١٢٩١ م حيث انتهت الحروب الصليبية التي ادمت قرابة مائتي عام من الزمان كانت بلادنا فيها المسرح الرئيسي لتلك الحروب وذاقت من ويلاتها ألواناً من الكوارث والنكبات ، وخوفاً من استعادة الأعداء لحيفا فقد أوقع المماليك الخراب بها وبغيرها من المدن الساحلية وقد وصف القلقشندي المتوفي سنة ٨٢١ هـ الموافق ١٤١٨ م المدينة في صحيح الأعشى فقال : وهي خراب على الساحل : وكانت حيفا خلال العهد المملوكي جزءاً من عمل اللجون الذي كان تابعاً لصفد والقاعدة الخامسة من قواعد المملكة الشامية .

في العهد العثماني : انتقلت حيفا إلى العثمانيين في عهد سليم الأول عام ٩٢٢ هجري الموافق ١٥١٦ ميلادي بعد انتصاره على المماليك في معركة مرج دابق ، كما انتقلت البلاد الشامية بأسرها إلى ذلك الحكم الذي بقي سائداً فيها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى فيما عدا فترة زمنية محدودة احتلت فيها القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا بلادنا لمدة لا تزيد عن عشر سنوات ، وقد أشير إلى حيفا في مطلع العهد العثماني بأنها قرية في ناحية ساحل عتليت الغربي التابع للواء اللجون أحد ألوية ولاية دمشق الشام . وقد بدأ العثمانيون منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر بعمارة الساحل الشامي ومنه حيفا وسارت عملية إعمارها ببطء وكانت حيفا ضمن إقطاع آل طرباي الذين أصبحوا يعرفون باسم الأسرة الخارثية في مرج ابن عامر (٨٨٥ هـ - ١٠٨٨ هـ) الموافق (١٤٨٠ - ١٦٧٧) م وأخضعها فخر الدين المعني لسيطرته عام

(١٠٣٣ هـ - ١٦٢٤ م) ثم تم الصلح بين المعنيين والحوارث في العام نفسه وعادت حيفا إلى الأمير أحمد الحارثي الذي عمل بعد ذلك على الاهتمام بالميناء وأعطى الرهبان الكرمليين إذناً ببناء مساكن في الميناء وضمانات بالحماية ، وقد ضم قسم كبير من الأراضي المحيطة بحيفا وفيها الخليج الشمالي إلى ولاية صيدا الجديدة في القرن السابع عشر وعملت الدولة على تعميرها وتعمير الساحل فأدى ذلك إلى تحول العناصر السكانية نحو الساحل وإلى ازدهار تجاري وعمراني فيه . حكم الشيخ ظاهر العمر : دخلت حيفا تحت حكم الشيخ ظاهر العمر شيخ عرب الزبادة وحكم صفاً بعد أن ضم منطقة الجليل ومنطقة حيفا إلى أمارته وكان ذلك في منتصف القرن الثامن عشر وقد خرب حيفا القديمة وبنى إلى الجنوب الشرقي منها عند نهاية الخليج بلدة جديدة هي حيفا الحالية وأقام فيها برجاً ولا تزال منطقة برج أبي سلام قائمة حتى الآن ، وبنى حول المدينة سوراً له بوابتان شرقية وغربية كما بنى قلعة على نتوء صخري يشرف على المدينة من الناحية الجنوبية وشيد أبناء الشيخ ظاهر السراي والجامع الكبير اللذين لا يزالان قائمين حتى الآن وأقام الكرمليون ديرهم على قمة الجبل عام ١١٨١ هجري الموافق ١٧٦٧ ميلادي وعلى مسافة سبع كيلو مترات من حيفا .

وقد صارت حيفا بعد الشيخ ظاهر إلى أحمد باشا الجزائر واحتلها كليبر القائد الفرنسي الكبير عام (١٢١٤ هـ - ١٧٩٩ م) وأقام نابليون قيادته على جبل الكرمل واتخذ الدير مشفى لجرحاه والمرضى الطاعون أثناء حصار عكا ، ثم أحرقه لما انسحب إلى مصر ، بعد ذلك عادت حيفا إلى سلطة الدولة العثمانية ودخلت تحت حكم ابراهيم باشا عام ١٨٣١ م إلى ١٨٤٠ م وفي عام ١٨٤٠ م وصل سواحل حيفا اسطول مؤلف من دوارع تركية وانجليزية ونمساوية وضربها بالقنابل وسد بقنابله فوهات مدافع المدينة وأحدث أضراراً كبيرة في أسوارها ثم سلمها للأتراك .

وفي منتصف القرن التاسع عشر بدأت حيفا بالازدهار والنمو السريع وأصبحت عام ١٣٠٥ م هجري الموافق ١٨٨٧ ميلادي مركزاً لقضاء يحمل اسمها وكثر عدد القادمين إليها وكان من جملة القادمين الجدد جالية المانية جاءت من ورتمبرغ في المانيا وأقامت حياً خاصاً بها بعد أن سمح السلطان عبد العزيز في عام ١٨٦٨ م لبعض الألمان من ورتمبرغ بتأسيس أحياء خاصة بهم في فلسطين فوقع اختيارهم أول الأمر على حيفا وقدموا إليها ونزلت أول جماعة المانية أرض حيفا عام ١٨٦٩ م وفي السنة التالية قام المهندس وشوماخر بوضع خريطة للحمي الألماني وجرى بناء ذلك الحمي الذي لا يزال قائماً حتى الآن يشهد للبانين له بالدوق السليم والتنظيم

الدقيق والبناء الصحي المتين .

وفي عام ١٨٩٨ م زار حيفا في طريقه إلى القدس امبراطور المانيا «غليوم الثاني» مع زوجته الامبراطورة فاستعدت الحكومة العثمانية لتلك الزيارة استعداداً كبيراً ومنت رصيفاً على الشاطئ لرسو يخت الامبراطور قرب الحي الألماني غربي المدينة كان الأهالي يسمونه «البونط الألماني» وكان من أماكن النزهة لسكان المدينة ، كما تم إنشاء طريق عربات بين حيفا ويافا وأعيد ترميم الجسور استعداداً لتلك الزيارة .

في الحرب العالمية الأولى : أعلنت الحرب العالمية الأولى في شهر آب ١٩١٤ م ودخلت تركيا الحرب في ٥ تشرين ثاني ١٩١٤ م وقد أصاب حيفا كما أصاب غيرها من المدن الشامية كثير من ولايات تلك الحرب وشدائدها وضربت الدوابع الانجليزية ميناء حيفا كما ضربت أماكن عديدة من المدينة منها مستودع الكاز والطاحونة الألمانية ودار القنصل الألماني ومنع التجول في شوارع المدينة بعد الساعة العاشرة ليلاً وحُظر استعمال المصاييح واشعالها في البيوت وخاصة تلك التي تشرف على البحر وتوقف الكثير من المحلات التجارية عن العمل ، كما توقفت الجرائد والصحف عن الصدور وأعلن التجنيد العام من سن السابع عشرة إلى سن الخمسين وسادت حالة كساد عام كما خرب الجراد المزروعات في شهري آذار ونيسان من عام ١٩١٦ م حتى كان سقوط المدينة في أيدي القوات الانكليزية وجلاء القوات العثمانية عنها فدخلت في عهد جديد هو العهد البريطاني عهد الانتداب وما رافقه من ولايات وكوارث على فلسطين ومستقبل أبنائها .

في العهد البريطاني : استطاع الانجليز احتلال حيفا في ١٩١٨/٩/٢٣ م وذلك بعد معركة مع الحامية التركية الصغيرة الموجودة في أقصى حدود المدينة تساندها المدفعية الألمانية الموجودة على جبل الكرمل . وقد هباً الوجود البريطاني لليهود كل التسهيلات للهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها واستملاك الأراضي ، كما هباً لهم حرية التنقل والتدريب العسكري وجلب السلاح وكل ما يمكنهم من إقامة دولة لهم على الأرض الفلسطينية العربية وقد تولى حكومة حيفا منذ الاحتلال البريطاني الجنرال «كينج» ثم تبعه الميجور «ايرامسون» ثم الكولونيل «ستورس» وبعده بالوكالة الميجور «نوت» ثم الكولونيل «ستانتون» والذي يوجد شارع كبير باسمه في المدينة . ثم في أول تموز عام ١٩٢٠ م تولى حكومتها الكولونيل «سامس» ثم توالى بعد ذلك تعيين حكّام لواء لها على اعتبار أنها عاصمة اللواء الشمالي وكان آخر حاكم لواء هو المستر «لو...» ثم انطوى حكم الانتداب البريطاني عنها وعن فلسطين ليحل حكم مظلم دخيل يخيم

بظلاله الكثيبة على الأرض المقدسة فلسطين .

مساحة حيفا وعدد سكانها :

تبلغ مساحة حيفا ٥٤٣.٥ دونماً أما عدد سكانها فقد كانوا كما يلي :

السنة	١٩٢٢	١٩٣١	١٩٤٥
عرب	١٨٤٠٤	٣٤٥٦٠	٦٢٨٠٠
يهود	٦٢٣٠	١٥٩٢٣	٦٦٠٠٠
نسبة العرب	٧٤٫٧٪	٦٨٫٤٪	٤٨٫٧٪
نسبة اليهود	٢٥٫٣٪	٣١٫٦٪	٥١٫٣٪
المجموع	٢٤٦٣٤	٥٠٤٧٣	١٢٨٨٠٠

وكان معظم المسلمين يتجمعون في المنطقة المنخفضة والساحلية من شرق حيفا والمسيحيون في الجهة الغربية منها وبعضهم في الضاحية الألمانية بينما كان اليهود يتجمعون في شرقي المدينة وكان لهم حارة اسمها حارة اليهود وسط الحي الإسلامي يعيشون فيها بأمان في العهد العثماني ثم بدؤوا في الاستيطان في حي هادارها كرمل وتركوا حرمهم القديم في العهد البريطاني بعد أن بدأت الصهيونية في التوسع والاعتداء على الحقوق العربية . وبعد النكبة في عام ١٩٤٨ ذكرت احصاءات العدو انه كان في حيفا في ٨/١١/١٩٤٨ م (٨٨٨٩٣) نسمة بينهم (٨٥٣٢٧) يهودياً وفي عام ١٩٤٩ م ١٢٠٧٠٠ منهم ١١٥٠٠٠ يهودي وفي عام ١٩٥٠ م أصبح عدد اليهود ١٢٢٠٠٠ ثم زاد عددهم فأصبح في عام ١٩٦٣ م مائة وواحد وتسعين ألفاً ١٩١٠٠٠ نسمة .

مناخ المدينة : حار جاف صيفاً ودافئ ماطر شتاءً ومتوسط درجة الحرارة السنوية ٢٠-٢١ تنخفض إلى درجة ١٢ شتاءً وترتفع إلى درجة ٢٨ صيفاً . أما المعدل السنوي للرطوبة فهو ٧٠٪ يزداد خلال فصل الشتاء ويتناقص خلال فصل الصيف نتيجة هبوب رياح الخماسين الحارة الجافة . ويبلغ معدل تساقط الأمطار السنوي في مدينة حيفا حوالي ٦٠٠ ملم يرتفع ليصل إلى ٧٠٠ ملم في جبل الكرمل ، ويختلف المناخ في حيفا من منطقة إلى أخرى وكلما ارتفع البناء عن سطح البحر وتسلق جبل الكرمل كلما كان الهواء أطف وأنعش للنفس مصادر

المياه : الأمطار هي المصدر الرئيسي للمياه ويمكن الوصول إلى المياه الجوفية في منطقة حيفا على أعماق تتراوح بين ٢٠-٤٠ متراً حسب بعد الشاطئ وقربه . أما المياه السطحية فتمثلها الأودية والأنهار التي في المنطقة وهي :

- ١- نهر المقطع : ويعرف باسم نهر حيفا ويصب شمال المدينة بثلاث كيلو مترات ويعتبر ثالث أنهار فلسطين . وتتجمع مياهه من منطقة سهل مرج ابن عامر
- ٢- نهر الزرقاء : أو نهر التمساح ويصب في البحر المتوسط بين قيسارية والطنطورة .
- ٣- مجموعة الأودية الفصلية مثل وادي الفلاح ووادي المغارة ونهر الدفلى ويقتصر جريان هذه الأودية على فصل تساقط الأمطار .

جبل الكرمل : كلمة الكرمل من أصل سامي كنعاني وتعني جنة الله أو كرم الله، وكان يعرف لدى المصريين القدماء باسم أنف الغزال نظراً لشكله الذي يشبه أنف الغزال بينما كان يرمز الكرمل في العهد القديم إلى الجمال والخصب . يقع جبل الكرمل الذي هو قسم من جبال نابلس في القسم الشمالي من ساحل فلسطين ويتميز بأنه المرتفع الجبلي الوحيد الذي تصل نهايته إلى البحر دون أن تترك مجالاً لتشكيل سهل ساحلي . وأبعد نقطة منه تدخل البحر من جهته الشمالية تدعى رأس الكروم .

يبدأ جبل الكرمل من وادي الملح الذي تصب مياهه في نهر المقطع وينتهي على شاطئ البحر الأبيض المتوسط عند حيفا . يرتفع جبل الكرمل بتدرج زائد من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الشرقي حتى يصل أعلى قمة له قرب خربة عين الحايك . طول الجبل ١٥ ميلاً وعرضه ٤ر٥ ميلاً وارتفاع أعلى قمة فيه (٥٤٠) متراً أما ارتفاع رأس الكرمل عن البحر فهو (١٧٠) متراً وكمية الأمطار التي تسقط عليه غزيرة ومتوسط درجة الحرارة السنوية ١٨-٢١ درجة . تكثر حول الجبل الينابيع والوديان منها عين السياح وعين أم الفرج ووادي العشاق ووادي الجمال وتنمو على سفوحه أشجار الصنوبر والبلوط والتين وتكثر الأزهار والرياحين وقد اكتشفت على مرتفعاته أشجار سنديان يقدر عمرها بحوالي خمسة آلاف سنة ويقال أن بعض الأنبياء تقيئوا ظلها . سكن البشر هذا الجبل منذ آلاف السنين حيث اكتشف فيه هياكل عظيمة إنسانية ترجع إلى العصر الحجري القديم ، وكانت الجيوش المصرية القديمة تدور حوله في حروبها في عهد المملكتين الوسطى والحديثة واسم الكرمل منحوت في اللوحات التي عثر عليها في تل العمارنة من أيام الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة وفي السجلات المدونة لدى الأسرة التاسعة عشرة . لقد كان الكرمل على الدوام مكاناً مقدساً وملجأ ارتبطت به عدة آلهة كانت تسمى بعل أي الله

أو السيد . والكهنة الكنعانيون كانوا يقدمون القرابين على مرتفعاته بالإضافة إلى أن الكرمل كان مشهوراً بحكيم يلجأ إليه الامبراطور «فسيبيان» للاستشارة وفي سفر الملوك الثالث الفصل ١٨ ورد ذكر انتصار النبي الياس في جبل الكرمل على الوثنيين وذبحه إياهم .

وقد سكن جبل الكرمل الكثير من الرهبان والنساك في العهد المسيحي وكذلك بعد استرداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس .

وفي عام ١٢٠٢ م تأسست الرهبانية التي نسبت إلى الكرمل ثم كثر عدد أتباعها الذين انتشروا في مختلف أنحاء أوروبا ثم هرب الكرمليون في عام ١٢٩١ م بعد سقوط عكا بيد سكان البلاد وخلت الديار منهم ، ثم عادوا وأقاموا لهم ديراً على قمة الجبل عام ١٧٦٧ م وقد اتخذه نابليون فيما بعد مشفى للطاعون عندما جاء لحصار عكا ، ثم أحرقه عندما خرج من البلاد وجدد بناؤه فيما بعد عام ١٨٢٧ م ثم أقام العثمانيون بالقرب من الدير فنان حيفا الذي لا يزال قائماً حتى الآن . وفيما بعد قام البهائيون ببناء المعبد البهائي والحدائق الفارسية التي تحوي تماثيل من الحجارة لمؤسسي المذهب بالإضافة إلى مكتبة وتعد هذه المنشآت من أجمل مناطق حيفا . كما أن الحكومة أنشأت حديقة عامة على سطح الجبل دعيت بوادي الأحلام أو بستان بنيامين وكانت تعرف بين الناس باسم بستان الهادار .

بعض ما جاء في وصف مدينة حيفا

قام العديد من الرحالة والمؤرخين والأدباء بزيارة حيفا في أزمان مختلفة وفيما يلي بعض ما جاء على ألسنتهم في وصف المدينة :

١- قام الرحالة الفارسي ناصر خسرو بزيارة المدينة في القرن الحادي عشر ميلادي وذكرها في سفرنامه بقوله (ثم غادرتها (عكا) إلى قرية تسمى حيفا في طريق به كثير من الرمل الذي يستخدمه صياغ العجم المسمى بالرمل الملكي .

وحيفا مشيدة على البحر وبها نخل وأشجار كثيرة وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودي) .

٢- أما الشريف الادريسي الجغرافي المعروف فقد وصفها في القرن الثاني عشر ميلادي بقوله : [حيفا تحت طرف الكرمل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى حسن لإرساء الأساطيل وغيرها ومدينة حيفا هي فرضة طبريا وبينهما ثلاث مراحل خفاف] .

٣- وأما ياقوت الحموي فقد وصفها في معجم البلدان في عام ١٢٢٥ م بأنها حصن على ساحل الشام بقي في أيدي المسلمين إلى أن سقط عام ١١٠٠ م بأيدي الفرنجة .

٤- وقد زار الشاعر والأديب الفرنسي الشهير لامارتين المدينة وكان ذلك في أثناء حكم المصريين لها فتغنى بروعة خليجها وسهولها وجبلها ومناظرها الخلابة التي لا مثيل لها وسجل ذلك في كتابه (ذكريات وانطباعات وأفكار ورؤى خلال رحلة الشرق عام ١٨٢٢-١٨٢٣ م) أو مذكرات مسافر المطبوع في باريس عام ١٨٣٥ م .

٥- أما الأب ماري جوزيف الكرملّي فقد وصفها في مجلة المشرق عام ١٩٠٤ م بقوله :
[أصبحت حيفا مدينة عامرة يتوارد إليها الناس] .

٦- وقد وصفها مؤلفاً جغرافية فلسطين رفيق التيمي - ومحمد بهجت في عام ١٩٢٣ م بقولهما (لقد ساعدت الطبيعة حيفا في موقعها فانها واقعة على بحر وطرف سهل وسفح جبل فالبحر ينفعها من الجهة التجارية والسهل من الجهة الزراعية وجبل الكرمل يزيد موقعها جمالاً وميناءها آمناً حتى أن السفن لا ترسو في فلسطين عند اشتداد الأنواء في فصل الشتاء إلا فيها .

وحيفا مدينة حديثة لا يعد ماضيها شيئاً البتة بالنسبة إلى ماضي جارتها عكا ولا يسعنا هنا إلا الاتيان على شيء من المقابلة بينهما . إن من يرى حيفا حية زاهرة بالتجارة والصناعة أهلة بالسكان الذين يقدمون إليها كل يوم ثم يرى عكا نائمة وقد هجرها قسم كبير من سكانها يحكم بلا تردد أن الدهر يومان وأن الأيام تدور ...

كانت عكا مرفأ فلسطين وأمنع حصن فيها ومركز سياسة ومطعم أنظار الفاتحين وأم التجارة وكان حال لسانها يقول : إني نلت ما ينال ولذا فقد مللت قدوم السفن إليّ من كل أنحاء البحر المتوسط وأتخمت من بضاعة قوافل الشرق وسئمت صليل سيوف الفراعنة والسلجوقيين والصليبيين وصلاح الدين وهزأت بمدافع نابليون وقعت بقلاع الجزائر وحصونه فكان هذه العجوز شبتت من حوادث الأيام ولم تعد ترى جديداً فيها فأثرت الهدوء وراحة البال وانسحبت من الميدان وقد تركته لهذه الفتاة حيفا التي تأنس في نفسها اليوم القوة على الحياة فتفتخر وتطرب غير مبالية بما هو مخبأ لها في طيات الأيام ، دخلت حيفا في عصر جديد منذ صارت محطة للخط الحجازي واتصلت بدمشق وحوران وشرقي الأردن ، وهذا الاتصال صيرها ميناءً تصدر منه حبوب هذه الأقاليم ويدخل بواسطته كل ما يلزمها من الديار الأوروبية والأميركية فالبضائع التي كانت تأتي إلى حوران ودمشق بواسطة بيروت بعد تسلقها جبال لبنان الشاهقة أصبحت

ترد إلى حيفا وتنقل إلى خط حديدي يسير في طريق سهل طبعي قديم ، زد على ذلك ارتباط حيفا بمصر بواسطة الخط الحديدي العريض فصار معظم المسافرين من مصر إلى سوريا ومن سوريا إلى مصر يمرون فيها .

فهذه العوامل رفعت شأن حيفا ووسعت نطاق تجارتها وصناعتها وساعدت على النمو فقد رحل إليها كبار التجار من الشام ومصر وغيرهما وازدادت فيها الصناعات وهي شبيهة بيافا على أنها لحد الآن لم تتكافأ تجارتها مع تجارة يافا ولا بد للمفكر من القول أن حيفا ينتظرها عصر مجيد وعظمة محققة لأنها بفضل موقعها ومواصلاتها تكاد تكون ميناء جزيرة العرب والعراق ولأن شاطئها يصلح صلاحاً خاصاً لمرفأ خطير الشأن فإذا تم لها ذلك وصارت ميناء الجزيرة والعراق ضحك لها الزمان وأعلى منارها . والمدينة تنمو من جهتين الشمال والجنوب على أن هذا النمو يتناول سفح الكرمل أيضاً بل الكرمل نفسه الذي شيدت عليه أبنية جميلة وهناك طريقان معبدان يصعد منهما إلى دير مار الياس والعمارات الأخرى القائمة على الكرمل حيث توجد إدارة الزراعة وعلى ذكر إدارة الزراعة نقول أن إدارة السكك الحديدية موجودة بحيفا أيضاً ، وأول من بنى في الجهة الجنوبية الجالية الألمانية ولعلمهم أول الجاليات الألمانية التي قدمت فلسطين . وفي حيفا مدارس كثيرة للطوائف المختلفة أشهرها المدرسة الإسلامية للذكور وأخرى للإناث والمدرسة الكاثوليكية ومدرسة مار لوقا ومدرسة البنات الانكليزية ومدرسة الفرير ومدرسة التكنكوم المشهورة .

٧- وجاء وصف حيفا في النشرة الدورية للهيئة العربية العليا لفلسطين الصادرة في ١٥/٦/١٩٦٠ م حيث قالت : «على ساحل البحر الأبيض المتوسط وفي الشمال البعيد من فلسطين تربض حيفا أجمل مدن الشرق وأزحمها بالحياة فمن على سفح كرمها الشاخ يغرق البصر في أجمل مشهد وأروع منظر كانا لمكان وأرض ، امتداد لا نهاية له لزرقة البحر المتلألئ ، فخليج عكا الهلالي فتيجان خضراء يانعة من جبال وجبال ، فسهل مرج ابن عامر يشقه نهر المقطع ... ومنذ اليوم الثالث والعشرين من أيلول ١٩١٨ م بدأ عهد جديد خيم بظله الأسود فميا بعد على حيفا فلسطين والشرق العربي كله حيث احتل المدينة الجميلة الجنرال اللنبي والكونولويل ستانتون وهما يقودان الجيوش البريطانية التي اشتبكت في معركة حربية مع بقايا الجيش العثماني الذي كانت مدفعيته الألمانية تتمركز بين غابات الصنوبر الملتفة في الكرمل المتعالي والجدير بالذكر أنه لا يزال من بين تلك المدافع وأحد معطل حتى أيامنا هذه في المكان المسمى بـ«فريشلي» يروي قصص أزمان وحكايات مضت ، وخلال عشرين عاماً فقط بعهد

الانتداب البريطاني وتفاعل سكان البلدة مع عوامل النهضة الحديثة ففتزت مدينة حيفا إلى مرتبات كبريات المدن في الشرق الأوسط كله فشقت فيها الشوارع العريضة كشارع الملك ذي الطول ٣ كيلو مترات والعرض ٤٠ متراً والقائم على حساب قسم كبير من مياه البحر غطى الرمال وردم كتكملة طبيعية للمرفأ الكبير الذي نجز سنة ١٩٣٣ م . هذا المرفأ الذي يعد من أكبر مرافئ البحر الأبيض المتوسط وأحسنها استقبالاً لأضخم البواخر السياحية والتجارية ولمعظم ما يرد البلاد الفلسطينية من بضائع توزع توزيعاً منظماً على مختلف أنحاء البلاد والجهات بواسطة القطر الحديدية والشاحنات والسيارات الفخمة . ومما زاد في ازدهار حيفا وجعلها مصدر الرزق للكثيرين من خارج البلاد ، بناء المصفاة الكبيرة التابعة لشركة التكرير المتحدة فيها سنة ١٩٣٣ م وحيفا ذات شبكة مواصلات دقيقة ومنظمة سواء أكانت هذه الشبكة داخلية تربط بين أحيائها المتعددة أو كانت بينها وبين المدن الأخرى من فلسطين وحسبنا في هذا المجال أن نذكر أن للمدينة هذه ثلاثة محطات سكك حديدية وهي الشرقية والرئيسية والكرمل وأنها منطلق كبير لمشروع سكة حديد الحجاز الذي بدأت فكرته تتخذ صورة العمل مع بداية القرن العشرين ويمكن للزائر المتجول في البلدة أن يعيش بساعات قليلة من الزمن قروناً متباعدة من العاريج ، فالبلدة القديمة منها حيث المسجد الكبير والسوق العام والمحلات التجارية تحتفظ بطابع شرقي محب وقديم بينما تمتد المباني الحديثة والشوارع الفسيحة في الأحياء الحديثة أو ما يسمى بالمدينة الجديدة ابتداءً من الجهة الغربية حيث شاطئ الخياط فوادي الجمال فالكولونية الألمانية فشارع الملك الذي له في نهايته الطويلة النصب التذكاري للمغفور له الملك فيصل الأول ، وابتداءً من الجهة الشرقية حيث شارع الناصرة ومحطة توزيع الكهرباء بانحراف قليل إلى الشمال فعبور جسر وادي رُشُميا إلى الهادارها كرمل وكذلك صعوداً إلى قمة جبل الكرمل بشارع الجبل العمومي وفيه أماكن البهائين وسط حدائق جميلة يأخذ سحرها بالألباب ، وإلى حيث في نهاية الصعود دبر الكرمليت «مار الياس» الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثاني عشر ميلادي ومن حوله فنار (ستيلا ماريس) ففنار الخضر (مار جرجس) عليه السلام وفي الجبل الكرمل ، كان للتاريخ شأن من القديم ، القديم منه قتال النبي ايليا لكهان بعل . هذا ومن أهم شوارع البلدة الرئيسية وساحاتها الكبرى : اللني ، ستانتون ، اللورد بلومر ، الخمرة (ساحة الخناطير) الجرينة ، السوق الأبيض ، سوق الشوام الذي أطلق عليه هذا الاسم نظراً لأن أكثر تجاره كانوا من العرب السوريين .

٨— ووصف الأستاذ محمود العابدي وهو مؤرخ معروف مدينة حيفا في مقاله المنشور في

العدد الثالث من السنة الثالثة من مجلة (رسالة المعلم) الصادرة في عمان في حزيران سنة ١٩٨٥ م قائلاً ما يلي :

تاريخ حيفا المعاصر يبدأ من اليوم الذي تحرك فيه قطار الحجاز في سنة ١٩٠٥ م عندما ربطها بدمشق والحجاز وكذلك أحد أيام ١٩١٨ م عندما أوصل إليها الجيش البريطاني أول قطار من مصر ، وأحد أيام سنة ١٩٤٠ م عندما بدأ الجيش البريطاني يرسل فيها أول قطار إلى بيروت فطرابلس الشام ، بهذه السكك الحديدية ارتبطت حيفا بالخطوط الرئيسية في العالم كما أصبح يتدفق إليها ألوف العمال ليعيشوا من هذا المورد الجديد ومن أحد أيام حيفا ذات التأثير الفعال في اقتصادها أحد أيام سنة ١٩٣٣ م عندما فتح مدير شركة بترول العراق أنبوب الزيت وصبه في مستودعاتها لأول مرة. ويوم آخر من أيام الزيت هو اليوم الذي بدأت فيه معامل التكرير عملها لتزويد الشرقين الأدنى والأوسط وما فيهما من جيوش الحلفاء بأعز مادة ضرورية في حياة الحرب العالمية الثانية . ومن أيام حيفا الخالدة يوم ٣١ تشرين الأول سنة ١٩٣٣ م اليوم الذي دشنت فيه مينائها الحديث الذي صرف عليه مليون وربع المليون من الجنيهات ليكون ثاني ميناء على البحر الأبيض المتوسط بعد ميناء مرسليليا ، حتى أصبح الشريان الحيوي لفلسطين والأردن وسوريا والعراق وإيران وغيرها من الأقطار الآسيوية ، فإذا أضيف إلى هذه الأعمال ما كان فيها من أعمال البناء واستخراج الاسمنت وصناعة السجائر والمغازل والمناسج اللباسية تبين لنا قوة المغناطيس التي كانت تجذب إليها العامل العربي من سائر بلاد الشام دون حساب للحدود السياسية المصطنعة ، ولذلك كان جنيته حيفا يداعب خيال كل طموح ولا سيما التاجر السوري الذي نجح نجاحاً باهراً في مزاحمة اليهود تجارياً .

لذلك كانت حيفا مركز العمل والعمال في فلسطين وفيها تبلورت حركتهم التقدمية فأنشؤوا جمعية منظمة وصناديق توفير وجمعيات تعاونية ضمت أصحاب مهن في البلاد وركزت اقتصاد العامل والمنتج الصغير وأصبحت تبشر بالخير وما يستلفت النظر أن معظم هؤلاء العمال كانوا من التمسكين بالدين المحافظين على حضور دروس الوعظ والإرشاد في مساجدها . وفي هذه الحلقات استطاع المرحوم الشيخ عز الدين القسام أن يقوم بعمل لم يكن في الحسبان ، ففي سنة ١٩٣٤ م قال له عامل بسيط عندما استمع إلى درس الجهاد «هل سمع سيدنا بحكاية البراميل التي اكتشفت بالصدفة وهي مملوءة بالأسلحة الفتاكة التي يهربها اليهود ليومهم الموعود»؟؟ فانتفض الشيخ وابتسم وفي العشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ م نشرت الصحف خبراً هز العالم العربي مفاده أن الشيخ القسام يلبس الكوفية والعقال والبنطلون الكاكي والسلاح هو

ورجاله ويتدربون في غابات يعبد بقضاء جنين استعداداً للجهاد المقدس ، حينما فاجأهم مدير البوليس البريطاني بقواته التي أصلتهم بنيرانها فاستشهد القسام مع أربعة من رجاله . إن هذه الثمرة الحيفاوية كانت باكورة لجهاد فلسطين ضد الاستعمار من أي نوع كان في سبيل الله وفي سبيل الوطن .

ومن أيام حيفا الخالدة اليوم السادس من أيلول سنة ١٩٣٣ م اليوم الذي استقبلت جثان فيصل وقد امتلأت بمعظم سكان فلسطين والأردن والشام جاؤوا يستقبلون الأمل الباسم في تاريخ الاستقلال العربي ، وأبت حيفا التي تقدر رجال العرب إلا أن تقيم نصباً تذكاريّاً ليفصل أمام جامع الاستقلال تاركة مكان الرأس ناقصاً حتى يركبه غيره ببنائه درجة جديدة في سلم استقلال العرب ووحدتهم . ومن أيام حيفا الباسمة عيد مار الياس في أواخر الصيف الذي يشترك فيه المسيحي بديره والمسلم في زاويته (مسجد الخضرة عليه السلام) كما كان يسمح لليهود للقيام بصلواتهم خارج المكان ، وعلى سفح هذا الجبل قبر البهاء «عباس» أفندي في أنزه بستان وأجمل نزهة .



تاريخ وتراث

المعتقدات الشعبية العربية الفلسطينية (١)

محمد خالد رمضان

المعتقد الشعبي^(١) ، هو مجموعة التصرفات والسلوك والتصورات التي يتخذها الإنسان ، إزاء بعض الأحداث والأشياء التي تقابله في يومه . وهو إيمانه بقضايا الحياة والوجود ، وما يتصوره بعد انتهاء حياته ، وكيف تخيل الآتي البعيد وعلاقته الشخصية كفرد وكجماعة به . وبذلك ارتبط المعتقد بعلوم عديدة ، منها علم النفس ، وعلم الاجتماع والفلسفة عامة ، ويعلم الأساطير ، ويعلم الانسان ، وهو رد غير علمي على ما ذكرناه من أمور ، وتصور^(٢) يدخل في إطار الحلم الإنساني والخيال ، يمارسه الإنسان ضمن طقوس تتداخل في ممارستها الأشياء المادية ، وسواها من رموز ، وإيماءات وحركات غامضة ، منها العنيف ، ومنها البسيط البطيء ، ومنها المتداخل بأشكال هندسية مختلفة .

وللمعتقد علاقات مع الزمان ، ومع الانسان ، وصلة قوية بالأرض التي يقوم عليها وينام فوقها ، وبالتاريخ والجغرافية وعدة فنون شعبية أخرى ، إضافة لذلك ، فإن المعتقدات الشعبية ، تصل بين الإنسان وغيره من الناس ، الذين يعيش معهم ويعاشرهم .

ولا ريب أن المعتقدات الشعبية ، هي جزء من التراث الشعبي العام ، أي هي تعبير عن الوجدان الجمعي ، وعن الشخصية العامة للمجتمع ، وهي تكوين اعتقادي جماعي ، اتفق عليه من قبل الأكثرية

شاعر من سورية

المطلقة من الناس الذين يعيشون في بيئة واحدة ، ويتكلمون لغة واحدة ، ويحسون احساسات متقاربة . وللمعتقد الشعبي قوة ابرائية ، لا يمكن تخطيها . فهي مزروعة فينا عبر آلاف السنين ، هي أقوى من القوانين والكلمات ، بل إن القوانين اعتمدت في تكوينها عليها . فلها السيادة المطلقة في مكانها الذي تعيش فيه ، وإن من يحاول تخطيها ، ينبذ من المجتمع الذي يعيش فيه . فلا يتجرأ أحد على معاملته أو بيعه أو الشراء منه أو حتى التكلم معه ، ويحاصر حتى يضطر للهجرة . فالاعتقاد إذن ، هو اتفاق المجتمع على قضية ما ومن هذه الزاوية يستمد قوته وفعاليته .

وللمعتقدات جذور اجتماعية اقتصادية ، مثل ما للتراث الشعبي كله ، وهي متصلة بالصراعات والجدل ، إن كان في جدل الإنسان مع الطبيعة ، أو مع غيره ومع الرؤية الانسانية لهذه الحركة التاريخية . (إن القاعدة الاولى ، التي تفرض نفسها علينا في تأسيس علم الاجتماع الثقافي الشعبي ، هي الملاحظة العلمية ، بأن جميع الظواهر الثقافية متصلة ، متداخلة ، متفاعلة ومتصارعة ، أو هي بمعنى آخر ، تعبير سوسولوجي عن الاتصال البشري ، وتداخل القوى الاجتماعية تفاعلاً وتصارعاً ، ثباتاً وتغييراً . إن جدلية الديمومة ، (المؤسسات الثقافية) وجدلية الصورة ، (التبدل الاجتماعي الثقافي) تفرضان أيضاً على الباحث ، أن يلاحظ مدى تبدل أو استمرار الظواهر الثقافية التي يجري درسها (٣) .

والمعتقد الشعبي الجمعي ، تلبس في لحظة زمنية معينة ، في لحظة ايمانية قدرية لا فكك منها ، يخترق الاعماق ، ويسري في الشرايين ، ويستقر في كل أنحاء الذاكرة والوعي الجمعي .

بدأ المعتقد من ملاحظات الانسان القديم واصطدامه بظواهر الطبيعة ، فرؤية البري وسعاع اصوات الرعد القاصفة ، ودويها وصدى هذا الدوي ، ومشاهدة الشمس والقمر والنجوم ، وتحولات هذه المشاهد اليومية ، والبحر وأمواجه والرياح الهائجة العاصفة ، التي تسرع أحياناً ، لتحمل معها أشياء وأشياء وقد تكون سبباً في موت انسان أو اصابته ، فيموت وتختفي أخباره . فإلى أين ولماذا وكيف ؟ كلها أسئلة احتار الانسان فيها ، ولم يعرف الاجابة عليها . فبقيت تشغله ليل نهار ، حتى اعتقد فيها ما اعتقد وتخيل ما تخيل . وبقي المعتقد زمناً مديداً في عقلية الانسان وتكوينه ، حتى ينفي بتفسيرات عقلية بيته تفسر ما أشكل عليه .

وفي الحياة تتعدد المعتقدات بتعدد الشعوب وتطورها . فلكل شعب معتقداته الخاصة ، والتي تكونت من خلاله ومن خلال صلته بأرضه وتاريخه وشخصياته الهامة والتاريخية ، ثم اصلته . . . وحيث تكون هذه المعتقدات ، احدى سمات هذا المجتمع حتى إذا سمعت في مكان ما يقال : هذا المعتقد معتقد هذا الشعب أو ذاك ، أو سلوك هذا الشعب أو ذاك ، وهو لغة خاصة لكل شعب بذاته ، تدخل في صميم كيانه ، وتبناها ويقولها حسب مواصفاته وعلاقاته مع غيره من الشعوب المجاورة . وهو لغة الوطن وناسه نحس فيه حرارة الناس وجهدهم وأيامهم وعلاقاتهم ببعضهم ، نحس قمرهم وشمسهم ، ثم تلك المناخات التي تتوالى عليهم ويغرفون منها ، وأفراحهم وأتراحهم ونظرتهم الى الكون والحياة . فيستدل بها عليهم وتمهر بها هويتهم . وهو تاريخ يومي تختزنه الشعوب في لاوعياها ، وفي وعياها ، أسلة وأجوبة ولغة متفردة قاطنة في صميمها .

وتفعل المعتقدات فعلها في أي لحظة من لحظات حياتنا ، إن كان في يقظتنا أو منامنا في عملنا وسكوننا ، وفي مجمل ما نمارسه من سلوك يومي . فهي طقوس لا تبعد عنا ، نحاورها ونحوارنا في كلمات أحفورية عميقة في الذاكرة والحلم والأزمان .

وكما أن للشعوب والأمم كافة ، معتقداتها التي تميزها عن غيرها كذلك للشعب الفلسطيني معتقداته الخاصة . التي ميزته وتميزه عن غيره ، ووسم بها على مر الأيام والسنين وحملت عراقته التي تعود الى آلاف السنين ، وتتصل بالكنعانيين الذين كان وجودهم في فلسطين واقعاً تاريخياً بينته الدلائل العلمية والأثرية واللقى . ومعتقدات الفلسطينيين اليوم ، هي معتقدات أجدادهم الكنعانيين مستمرة في سلسلة مستقيمة . وهذا الموروث الشعبي من المعتقدات هو حضور انساني ، حضور في التراب والنبع والطرق والجبال ، وما يتبع ذلك من البيئة وعلاقتها بالانسان ، وكيف سلكت في معتقداته وكيف بقيت على علاقة لا تنفصم في وجدانه . والمعتقدات الشعبية الفلسطينية تمثلت ثقافة ماضيها وحاضرها ، وقد ساهمت بشكل رئيسي ، في تكوين تفكير الانسان ، وفي تلوين عقلية بالوان البيئة والتاريخ ومن خلال هذا الترابط التاريخي ، تلمسنا تأثيرها وكيف مورست في حيز الواقع الموضوعي ، وبين الناس إن كان في صورتها الفردية أو الجمعية ، وكيف برزت هذه الصلة على مدار الحياة . وتأثير ذلك في التكوين النفسي للفرد والجماعة ، وكيفية تقبل حدث ما والسلوك اثناء هذا التقبل والنتيجة الأخيرة التي يتفق عليها . ثم كيف تجل هذا المعتقد في اللغة أو أي لغة اختار ؟

ما هي اللهجات التي قيل فيها ؟ وكيف تداولته الجماهير في القرية والمدينة ؟ وهجراته الداخلية والخارجية ؟ ومن هذه النواحي التي ذكرنا ، ننتقل الى بحث دوره في حفظ الهوية ، ومدى مساهمته في ربط هذا الشعب بأرضه . وإبقاء هذه الصلة التي لن تنقطع بين الفلسطيني ووطنه وتاريخه ، إن كان في المنافي أو في أرض الوطن ، وجذبه اليه . ثم بحث علاقة هذا الدور وكيف مورست .

وقد بحثنا هذا الدور ، من خلال علاقة المعتقد بما يحيط به وعلاقته بالتاريخ العام لهذا الشعب ، بالأشخاص المحليين إن كانوا بشراً حقيقيين أو أشخاصاً أسطوريين . وبحث المعتقد في السلوك البشري الفردي والجمعي . ومن خلال الأديان الساوية . ثم علاقته بالأسطورة المحلية ، والأساطير المحيطة . ومعتقدات البيئة ، درست كعلاقة مع المكان وتبايناته من حيث هو جبل أو سهل أو غابة أو صحراء أو أشجار ، مع الينابيع والأنهار وغير ذلك من ظواهره وعلاقته بالانسان ، والكائنات الحية اجمالاً . أي ليس من حيث المكان كمكان فقط . ثم علاقته كأشجار تنبت في مكان معين وتعيش فيه ، ومشهورة بأنها من تلك البيئة ، وأنها أشجار لها رائحة ونكهة وتعمل سيات فلسطينية معينة . وهذه السمات تلون الكلمات والسلوك والطريقة ، بالوان متجانسة تدل على الأصل ولا تضعيح إذا اخترقت الحدود وسافرت ، بل تبقى هي هي لا يمكن أن تحتوى وتفتنى .

وفي قسم المعتقد والأسطورة ، والذي هو قسم هام في هذا الباب يبحث علاقة المعتقد الفلسطيني الحي ، الذي يعيش بيننا بالأسطورة والمعتقدات الكنعانية ، والتي تظهر تلك الصلة العميقة بين الماضي والحاضر .

المعتقدات الشعبية الفلسطينية في أبعاد الشعب وكوامنه ، تذهب عميقاً في النفس وتساعد على استمرار شدتنا الى أرض الوطن شداً محكماً ، وتشكل لبنة أساسية من لبنات هذا التراث الشعبي . وهي إحدى الدعائم الرئيسة في هذا العالم الرحب . وهي مسافات واسعة ، من الذكرى والتاريخ والفكر والسلوك ، والعوامل الانسانية والسير والملاحم . مسافات تمتد من الماضي إلى الحاضر والمستقبل ، في تواصل لا ينتهي .
تخترق الأشياء والسدود ، لتلتقي مع تاريخنا المشرق الأصيل .

١ - المعتقد والبيئة :

حمل الانسان الفلسطيني بيئته أينما حل وارتحل ، وتأثر بها وعانق امتداداتها ، وعالجها في فكره ، ونظمها في سلوكه ، فبقيت في شواهد دالة . وتحمّرت ضمن معطيات حياته ، إذ رآها ويراها كل يوم . فهي في مكونات نظره ومن مشاهداته اليومية . فالبيئة المكان بما فيه ، من البيت الذي يعيش فيه الانسان وموقعه ، الى الحقل الذي يزرعه ، والمرعى الذي ترعى فيه أغنامه وأبقاره ، الى الجبل والساحل والغابة المتشابكة . ثم أشجار هذه الغابة ، والطاحون ودرها ، وغير ذلك من ظواهر البيئة . وهو يعتقد بأن للشمس تأثيراً على البيئة والانسان ، وهذا ناتج عن معتقد كنعاني قديم ، حيث أن أجدادنا الكنعانيين قد عبدوا الشمس وقدموها ، وقد نشأت حولها معتقدات كثيرة ، منها أن الطفل الفلسطيني إذا قلع ضرره ، يقف تجاهها ويرميها ويقول : أيتها الشمس خذي سن الحمار واعطيني سن الغزال^(١) . وذلك كي يبدل سنه بسن أجمل . أي أن شمس الوطن شمس فلسطين لها القدرة على هذا الأبدال . وهذا استمرار للمعتقد الكنعاني . ثم أسماء الأماكن وعلاقتها بظواهر البيئة ، فمدينة أريحا معناها : مدينة القمر^(٢) . وهذا يدل على ما للقمر من تأثير على الانسان ، وكيف فكر فيه وأعطاه قيمة عظيمة ، حتى أنه عبده . واعتقد الفلسطيني بأن منشأ الزلازل هو نقل الثور للأرض من قرن إلى قرن ، وأن الأرض محمولة على قرني ثور . وما زال هذا الاعتقاد الأسطوري الى الآن ، لدى بعض الاوساط الشعبية ضارباً في جذور التاريخ القديم للشعب الكنعاني . علماً بأن بعض شعوب المنطقة ، قد أثر وتأثر بهذا الاعتقاد مثل الشعب البابلي والاشوري ، والمصري .

وفي فلسطين يوجد حمام أيوب ، الذي يعتقد بأن الاغتسال فيه يشفي وهذا اعتقاد لازال الى الآن ، وله صلة بمحنة النبي أيوب هذه الصلة المتسمة الى الآن ، ضمن معتقد البيئة المكانية . وهناك اعتقاد بأن النبي آدم ، قد هبط من الجنة ظاهر مدينة نابلس^(٣) ، ولا زال يذكر هذا المعتقد الى الآن ، لدى الفلسطينيين كلما ذكرت مدينة نابلس ، اثناء تبادل الحديث في سهرة أو جلسة ، أو اثناء المرور في تلك المدينة والسفر منها أو إليها . وما نزال نسمع الاعتقاد الذي يقول ، بأن حواء وهي زوجة آدم قد ماتت ودفنت في بيت المقدس ، وهذا المعتقد ، قد زاد في تقديس ذلك المكان لدى الشعب ، أما أشجار الخروب^(٤) فقد لوحظت منذ القديم بأنها من ضمن أشجار البيئة الفلسطينية . والخروب يتفرع

كثيراً ، ويعتبر من الأشجار الحراجية ويرتفع عالياً في السماء ، لذلك اعتقد الناس بأن الجان تسكن أعاليه ، وكان المرور بجانبه ليلاً مدعاة للرعشة ومنه أتى اللون الخرنوبي للشعر والثياب . وكذلك هناك اعتقاد بأن الجن تأوي ليلاً الى اشجار التن ، ذات الثمر الأسود والحجم الكبير ، وهي أشجار تشتهر بها البيئة الفلسطينية . ويعتقد بأن نبع جفنا ، الذي يقع في قرية جفنا من أعمال قضاء رام الله ، هو مأوى للجان . ويقولون عن هذا النبع بأنه مسكون ، ويعتقدون بأن الجان تحبسه أحياناً عن الناس . لهذا يلجأ الناس الى محاولة استرضائها ، بالطوفان بالبخور على جوانب النبع . وتلمس عند كثير من العائلات الشعبية اقامة حفلات البخور . وكذلك يُنشر البخور في اعراسنا الشعبية . وهناك اعتقاد بأن عين سلوان ، وهي عين فلسطينية مشهورة ، تسكنها روح لا يدرك كنهها على هيئة جمل . وذلك الجمل قد مات ، وسكنت مكانه دجاجة من الجان هي وصيصالها . لهذا يقال بأن المار بجانب العين ، قد يسمع صوت الصوصاة . ومن مساكنها أيضاً ، نبع مدينة أرمحا ، حيث يعتقد سكان البلدة بأن جنية مخيفة تسكنه . ويعتقدون بأنها تندب أو تغني . وأنهم إن سمعوا تندب وتنوح فلا بد من وقوع حدث سيء في المدينة ، قد يكون موتاً أو حريقاً أو كارثة تصيب المدينة .

أما إذا سمعوا تغني ، فقد يكون ذلك زواجاً أو عودة غائب من السفر أو طهوراً . لهذا فهم يحاولون اسكانها بوسائل عدة منها البخور^(٨) ، ومنها نوم جماعة بجانب النبع كي تهرب الجنية أو تسكت . ويعتقدون بأن بعض الآبار والعيون الشهيرة ، هي مكان للجان تقضي فيه الليالي ، أو تقيم فيه دائماً مثل بئر السحر شمال دير طريف وهي بئر عميقة يسحب منها الماء صيفاً . وعين ابونياق في دير غسان ، وعين الوهرة في كفر توت ، وفي عين صربا وغيرها . ويعتقدون بأن تلك الجنيات التي تسكن العيون ، تغير اشكالها من يوم الى يوم ، وتظهر مرة على هيئة عرائس جميلات ، أو حيوان ما ، أو على هيئة شكل يرمى أمام المار . أو امرأة ظريفة ، وفي المعتقد أن هذه الجنية ، قد تسحب الرجل وراءها لتغريه ثم تهلكه . وتسكن الجنيات تلك الآبار والعيون ، لبعدها عن النور . فالنبع في الأعماق عادة ، وهو بعيد عن ضوء الشمس . ولهذا المعتقد أشباه في المعتقدات الكنعانية ، تبين عمق الصلة بين الماضي والحاضر . إذ قدس الكنعانيون مصادر المياه ، وحرصوا عليها جيداً من العبث والأذى ، حتى أن أيل الآله الكنعاني ، قد تزوج بواحدة من جنيات الماء حرصاً عليه وعلى الينابيع ، لتبقى غزيره معطاء . ومن المعتقدات أيضاً حول الجان ، أن شجرة الصنوبر تعتبر مأوى لها ، وهي شجرة عالية موجودة في الجبال الفلسطينية . ومن الأشجار التي تأوي إليها شجرة السريس ، وهي من الأشجار الحراجية . وهناك شجر السنديان الضخم المفرع والذي تسكنه الجان .

أما نبات السداب المحلي فهو في المعتقدات الشعبية منفر للجان ، إذ تخافه ولا تسكن الأمانة التي تواجد فيها^(٩) ، لأنه ينشر رائحة غريبة تطردها .

أما نبات الميرمية الذي يتكاثر في البيئة ، فورقه مشروب شعبي يتداول في السهرات والجلسات ، وهو نبات يطرد الجان حسب المعتقد الشعبي لذا يندر أن نجد عائلة لا تشرب الميرمية ، وهذا المعتقد يستمر الى الآن .

ويشرب حب الرمام أمام العروس لكي تدوسه ، وتمشي عليه كي تتكاثر الذرية كثرة هذا الحب ، وشجر الرمام يتكاثر في البيئة ، وخاصة الذي يكون ثمره كبيراً . ويكثر وجوده على السواحل . أما وادي الحمام ، فقد كثرت المعتقدات حوله وحول ما يحويه ، وقد سمي بوادي الحمام ، لكثرة فيه وخاصة البري ، وتكثر في هذا الوادي ، أنواع الحمام جميعها تقريباً ، ففيه المطوق والقمرى وحمام الصخرة والبربريسي . ويقع هذا الوادي قرب قرية المجيدل في قضاء الخليل . ويقال بأنه أحد مساكن الخضر ، لهذا فالمسير فيه يبعد الجان والكوارث والشورور .

وهناك شجرة الزيتون ، تلك الشجرة المقدسة . فقد قيلت حولها اعتقادات كثيرة ، وهي شجرة مباركة . والمعتقد حولها بأنها أول شجرة زرعت في الأرض وهو معتقد كنعاني . ولهذا علاقة بها تقدمه للإنسان والحياة ، فحبها طيب منذ وصندوري ، وهذه الشجرة قدست منذ فجر التاريخ إذ قدسها^(١١) أجدادنا الكنعانيون وحرصوا عليها وعلى زراعتها . ولقد سميت قرى كثيرة باسمها ، وباسم ما تنتجها خاصة الزيت . فهناك قرى : عين الزيتون ، بيرزيت ، زيتا ، زيتون ، وادي الزيتون زيتونات ، زيتونة ، ومن خشب شجرة الزيتون ، تصنع إيقونات مقدسة للعدراء ، والسيد المسيح ولجميع القديسين ، إذ إن خشبها مناسب لهذه الصناعة ، التي انتشرت في القرى والمدن ، التي تجود فيها زراعتها ، وخاصة في بعض المدن المقدسة كبيت لحم والناصرة وبيت المقدس . ومن حبها صنعت مسابح مختلفة الأشكال والأنواع والأحجام . فمنها الألفية الطويلة ، ومنها سبعة المئة حبة ، ومنها سبعة الثلاث ونلائن ، وبعض المسبحات الصغيرة للأطفال . عدا أن خشبها يستعمل للوقود . والاعتقاد بقديسية هذه الشجرة ما زال إلى الآن . وانتقلت قدسيتهما إلى الأديان السواوية . حيث أن المعتقد الذيني المسيحي يقول بأنها : ترمع في ليلة عيد الصليب خاشعة للروح القدس ، أما في الدين الاسلامي فقد ذكرت في أكثر من آية شريفة منها (والتين والزيتون وطور سينين) وشجرة الزيتون^(١٢) من أشجار الخصب في المعتقد الكنعاني . ومن أشجار التجدد ، وقد دعت بشجرة الطفل دلالة علاقتها بالخصب^(١٣) والحياة . وعلاقة الإنسان الفلسطيني بهذه الشجرة ، قديمة قدم وجودها ووجوده . وهي علاقة متينة^(١٤) . لذا نشأت حولها تلك المعتقدات الكثيرة . ويقال أن أجدادنا الكنعانيين ، قد نقلوا زراعتها إلى اليونان وإيطاليا . ومن مسمياتها أنها شجرة آدم ، حيث أنها أول شجرة اعطيت لأدم وحواء بعد طردهما من الجنة . والزيتون شجر دائم الخضرة . وقد استمر شعبنا ، في حرصه على هذه الشجرة وزراعتها ، وتطوير تلك الزراعة . وهي شجرة تعطينا الخير . فمن ثمرها ذي الطعم الرائع والنكهة الطيبة ، إلى مانجبه من خشبها في الوقود والأعمال الأخرى . لهذا كله ، قدسها انساننا القديم ، وهذا دليل ربط المعتقد ، بالمسألة الاقتصادية لاهميتها الفائقة .

ويكثر الزيتون حول المزارات التي لها علاقة بالعبادات والمعتقدات . كمزار إبراهيم الخليل في الخليل . وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة ومدينة بيت المقدس . ويقال ان من يزور هذه الأماكن يشفى إن كان مريضاً أو يسعد في حياته وينجح في عمله ، إلى آخر ما هنالك من الاعتقادات التي ما زالت باقية وسارية ، لما لهذه الأماكن من علاقات مقدسة .

أثرت الشخصيات البارزة المعروفة في المعتقدات الشعبية . وكان لها حضورها القوي . إذ أثرت حركاتها ، وأقوالها وأفكارها ، وطرق معيشتها وحياتها في الناس الذين عاشوا معها . فقدست الأمكنة التي عاشت فيها . والجبال التي تعبدت فيها . والدروب التي مرت منها . وفي الوجدان الشعبي استمر وجودها المعنوي ، فتعوذ بها إلى الله زلفى وتسمت بها الاسماء الشعبية^(١٤) . وبنيت لها المزارات والأماكن المقدسة . وتبوركت المعتقدات بذكرها . وهناك أسماء بارزة معروفة ، لأشخاص أسطوريين عاشوا في وجدان الشعب وفي معتقداته ، حيث تمثلهم ويمارس تمثلهم على أرض الوطن . وفي المعتقدات التي حملت تلك الأسماء ، ارتباط بالوطن والأرض والشعب ضمن علاقة جدلية واحدة . إذ أن تلك الأسماء عاشت على أرض واحدة مع هذا الشعب . وتحركت معه وتزامن وجودها مع وجوده ، وفكرت من خلاله وحملت همومه ، وطرحته أفكارها وأبرزتها بينه ، وسارت مع بعض أفرادها . أما الأسماء الأسطورية ، فإنها تلك التي تمنأها الشعب وحلم بوجودها فاعتقد أنها موجودة وتعامل معها على هذا الأساس .

ومن هذه الأسماء البارزة هناك : ١ - المسيح ، ٢ - السيدة مريم العذراء ، ٣ - الخضر ، ٤ - مجموعة الرسل مثل ، بطرس - بولس - يوحنا - وهم القديسون والحواريون الأوائل الذين آمنوا بالسيد المسيح . إضافة إلى بعض أسماء الأبطال المحليين وأدم وحواء . ونستعرض فيما سيأتي ، أثر بعض هذه الشخصيات الهامة في معتقداتنا .

١ - المسيح :

وهو النبي عيسى بن مريم الذي بشر بالدين المسيحي . وقد ولد في بلدة بيت لحم . انطلق في تبشيره بين الناس . وكان شخصية قوية ترك أثراً هاماً ، وتركت تعاليمه في وجدان الناس بقايا تاريخية وتنقل في أرجاء فلسطين من مكان إلى مكان . وفي كثير من المعتقدات الشعبية الباقية ، يذكر السيد المسيح إذ تطلب الحاجات أو يسمى الطفل باسمه وتتبارك الأشياء به وسميت بأسمه بعض الاعياد^(١٥) . واعتقد الناس اعتقادات كثيرة في صفاته وامكاناته وأعماله . وبقيت هذه المعتقدات في ذاكرة الناس تشهدم إلى مهدد وإلى الأماكن التي عاش فيها . والأشياء التي لمسها أو تركها ، وإلى التراب الذي عانق مجالسه .

٢ - مريم العذراء :

هي السيدة مريم والدة السيد المسيح ، والبتول المقدسة العذراء وقد أقيمت لها كنائس وأديرة كثيرة . وهي موجودة في الوجدان والذاكرة الشعبية . وقد تسمت بأسمها الكثيرات حيث يستمين باسم مريم أو العذراء أو البتول . وكذلك حفرت لها الأيقونات في أوضاع روحية مختلفة ، وبوركت بأسمها

الاناث . وحكيته عن امكانياتها الحكايا . وبقيت في المعتقدات ، لوحة خالدة تشد الناس الى تراب بلادهم ، والى تلك الامكنة التي عاشت فيها ، والتي زارتها ، والدروب التي قطعنها . فهذا الوطن هو الوطن ، الذي ضم جسدها ويقاياها وتعاليمها .

٣ - الخضر :

وهو شخصية بارزة في التاريخ الفلسطيني ويدعى أيضاً مار جرجس وقد دعت باسمه أمكنة كثيرة للعبادة والتبرك . فهناك كنائس ومقامات ، وأحد مزارته يقع على مقربة من بيت لحم الى الشمال من برك سليمان . وله عيد باسمه يدعى عيد الخضر . وصلات تاريخية تعود بالأصل الى الكنعانيين . وعلاقة بالخصب والتجدد والاحضرار . ويرقى الأطفال الصغار باسمه خوفاً من الشر ، ومن الاشياء الغامضة المخيفة والكوارث . وتتعلق بالخضر اعتقادات كثيرة ، بقيت الى الآن متوارثة من مئات السنين تتداخل في سلوك الناس اليومي ، إذا صادفتهم مشكلة لا يستطيعون حلها ، فيلجؤون إليه منادينه أن يساعدهم في حلها . وأن يعينهم على تفسيرها . واسم الخضر ، يشد الانسان الفلسطيني الى الوطن ، والى أماكن زيارته ومقاماته ، ومقدساته ، والى هذا التراب الذي قدس فوقه اسمه . وأقيمت أعياده ومواسمه الربيعية .

٤ - آدم :

هو نبي الله آدم او البشر وهو بمعنى من المعاني ، الأرض كلها ما عليها فالأديم هو سطحها . وله مقامات ومزارات كثيرة في فلسطين . ودعت باسمه المواليد الذكور . وفي كثير من المعتقدات الشعبية ، أن آدم كان فلسطينياً . وهناك معبد آدم في كنيسة القبر المقدس ، وأن جثمانه الطاهر حمل الى بيت المقدس . ويوجد اعتقاد بأن قبره موجود في مدينة الخليل . لهذا وغيره فهي مدينة مباركة . ويبعث اسمه التقديس في النفس ، وفي المعتقدات كثرة من العلاقات مع آدم وقدراته ، ودلالات الاسم الرامزة الى الأرض ، مربوطة دائماً في الوجدان الشعبي . وهذا المعتقد يجبر الناس الى أرض الوطن ، وبكل ماله علاقة مع آدم في الأرض الفلسطينية ، والتاريخ والأصالة الحضارية .

حواء ؛

أما حواء ، أم البشر في التراث عامة ، وفي الموروث الشعبي خاصة ، وهي زوجة أبي البشر آدم . واسمها مقدس ومعروف ، وهي شخصية بارزة . وقد استقر اسمها ، في الوجدان والذاكرة الشعبية فتجلى في تسمية الاناث باسمها . بين الأسماء الشعبية ، الذي يوحي بالدفء والهدوء . والمعتقد الشعبي يقول



بأنها دفنت في بيت المقدس . وكان ذلك أحد اسباب تسمية المدينة بهذا الاسم ، اضافة لأسباب أخرى ، واسم حواء أتى من الحياة . وبمعنى أوضح هو الحُصْب والتجدد ، والبقاء ، وجدل الانسان والأرض . والاعتقاد بها وبمعانيها ، هو ارتباط بالتراب وروح الأرض والمجتمع فهي تعيش في المعتقدات بكامل أعماقها . ولا يزال هذا المعتقد يعيش في زمننا بكل حضوره . وهي في تاريخنا اتصال وصلته مستمرة من الماثي الى الحاضر . وشواهد حواء في معتقداتنا كثيرة . كما لوحظ ورود اسمها في بعض الرقى والتعاويذ الشعبية ، دلالة قدسيته . مثل هذه التعويذة :

بجاه أما حوا . . . بجاه أما حوا

تبعد يا ربنا . . كل شي أذى جوا

كما ويبارك باسمها للأطفال الصغار ، ويسمى به عليهم . وفي المعتقد ، أن رائحتها في نبات المريمية ، لذلك يهتم به الفلسطيني ، وفي قرية أرطاس يقولون : حذي شمي ريحة أمك (١٦) .

١ - خليل أحمد خليل - سوسولوجية الثقافة الشعبية .

٢ - هاجرتي كراب - علم الفولكلور

٣ - نحو سوسولوجيا للثقافة الشعبية ص ١٥

٤ - ما زالت هذه العادة باقية الى اليوم ، كما ذكرتها مجلة الفنون الشعبية الاردنية ع / ٩ / ١٩٧٦ ص ٢٣ .

٥ - قاموس الكتاب المقدس ص ٧٤٣

٦ - بلادنا فلسطين - مصطفى مراد الدباغ

٧ - المصدر هو ما جمعناه من معتقدات شعبية من سلوك الناس وعملهم

٨ - اللآلئ في النصوص الكنعانية ص ٨٨ - وجاء في الكتاب المذكور (ويعتمد الكنعانيون في اقامة الطقس العشتروتي على التبخير) .

٩ - انظر كتاب : المعتقدات الشعبية في التراث العربي لحسن الباش ومحمد توفيق السهلي ص ٥٨ .

١٠ - اللآلئ من النصوص الكنعانية - مصدر سابق ص ٩٢ جاء : (وكما يلتهم الزيتون انه يجلب الهدايا الى الأرض) .

١١ - جاء في القرآن الكريم (ليوثق من شجرة مباركة زيتونة) قرآن كرين - سورة النور - آية ٣٥

١٢ - مجلة الفنون الشعبية الاردنية عدد ١٢ كانون ثاني ١٩٧٦ .

٣ - يقول المثل الشعبي الفلسطيني :

١ - ان كان عندي خبز وزيت زقت وغنيت

٢ - قومي كلي يا أمونة خبزة وبصلة وزيتونة

١٤ - بعض الأسماء الشعبية : ١ - عيسى ، ٢ - فاني ، ٣ - مخلص ، ٤ - مريم .

١٥ - بعض الأعياد : ١ - عيد الصليب ، ٢ - عيد الميلاد ، ٣ - عيد القيامة .

١٦ - المعتقدات الشعبية في التراث العربي ص ٣٥٠

ادب ونقد

مقاربات الصورة والقناع

شهادة حول البعد الخامس لقصة
«أربع شهادات على جدار متصدع»
للقاص جمعة بوكليب

احمد الفيتوري*

● عالم جمعة بوكليب القصصي بالنسبة لي كالبحر، كلما توغلت فيه وأحسست أنني أقبض عليه بين يدي أجدني أبدأ من جديد. كثيراً ما كنت أجده عالماً سهلاً يمكن النبيل منه من النظرة الأولى، بل ويمكن طعنه إن شئت الحكم عليه من القراءة الأولى، ولكن الإشكال أني لم أكن أحسن شفي غليلي، فكنت أجدي لأرجع إلا (صفر البيدين) فهو عالم أكثر تعقيداً مما أعتقده رسداً كافياً. إن هذه الشفافية التي تبدى من النظرة الأولى هي عملية متشابكة، دلالاتها الاجتماعية مخفية بإحكام، فالخيوط الكلاسيكي في بناء القصة الذي يبقى خفياً حين يشف عن نفسه!! يكون الوصول إليه في تركيب القصة عملية أكثر صعوبة من تلقيه، ثم المحاولة المستميتة في تكثيف عالمه القصصي كثيراً مانعزى بالحكم السهل: هذه عملية تكرار. ولكن الفحص الدقيق لتشكيلة المفردات، وتركيب الصور، وتوظيف اللغة، والصياغة والحبكة... الخ

كاتب من ليبيا.

تدفع لاكتشاف خطأ الحكم، فهنا يتم حفر مستميت لعالم موصول بخيط خفي هو الذي قد يوقع في هذا الوهم.

أما المحاولة في تحطيم البناء الكلاسيكي للقصة، وحشد القدرة الغدّة في توظيف إسهامات فنون الدراما فهو عملية تشكيل خاصة تشعر أنها قلقلة وملولة، ولكنها مستميتة في الحفر بشقاء طفولي لايتغرض إلا أن ينساب مع الحالة القصصية.

أخطر هنا إلى الوقوف وتوضيح القصد والقول: إن عملية الخلق ذاتها والحالة القصصية هي التي تسهم بدور كبير في عملية التجديد في بنائية القصة عند «بوكليب» أكثر مما تسهم فيها عملية القصد والإحكام الخارجي. ودليلي حاد كنصل يمكن استنباطه من هذا التدفق الهادر الذي ترصده في بناء القصة، ليست المكتوبة في هيئة واحدة، بل وأيضا المقرّوة كذلك، هكذا تفرض جسدها على قارئها ولهذا أحسها جسداً عارياً لا بد من تبيين غوره ومتاليات أعماقه، في تشريح وشرح أن هذا العالم القصصي رغم هذا الوصف كثيراً ما يكون غنائياً، كثيراً ما تكون الشخصية هي ذاتها الحالة ولكنها المقدمة في شفافية تقبض على قارئها وتسرّبل برسامة بليونة.

إذاً فالقصة عند «بوكليب» زاوية حادة مسلطة على الحالة، هي قصة (الحالة) وهي عملية مسرحية الواقع. وهذا التشكيل المضاف يوظف كل التفاصيل والشعاب المحيطة بالنفس لتصوير «رد الفعل». من ذا تأتي الشخص، في كثير من الأحيان، في حالة المفعول به، المدينة تفعل فعلها، وكذا «النورس» يوقع إيقاعه، والشخصية الرئيسية ترقص على هذا الإيقاع.

وفي عالم قصصي مثل هذا لا يمكن استهداف القلب ولكن الهدف حالة القلب، جس النبض. إن مدخلنا هذا لا بد منه لإضافة شهادة أخرى لـ «أربع شهادات على جدار متصدع»، مع ملاحظة أن ثمة أكثر من قاص كان قدرهم التلقي السريع بمعنى أن القارئ الناقد كان يجد مايقول من القراءة الأولى. ولكن المدهش حقاً - والحقيقي - أن موقف هؤلاء كان سرعان ما يتبدل مع الوقت والدراسة المتأنية والمثابرة. لقد قرأت الشهادات الأربع عدة مرات وفي كل مرة يشدني خيط ولازلت وأنا أحاول الكتابة أرفض مفتاحاً وأمسك بآخر ولكن... لتكن شهادتي: البعد الخامس.

(٢)

«يبدو أن الفنان الذي رسمها توقف لحظة وابتعد عنها قليلاً ليتمعن فيها، فاكتشف هول ما صنعت يدها فتركها ونجا بجلده».

بهذه الجملة يبدأ القاص يقص، وبتأنٍ، وخبث الفنان يُجسّم القاص بيته، وبعناية ينقش من أجل السيطرة علينا في محاولة للإيقاع بنا في فخ - إيقاع صمت أحرش مدلّمة، تسبق الشهادة وتدور حولها، الرواي يلبس ثوب ضمير المتكلم ليجسم الوهم ويكشف الشبكة منذ البدء، «لمست عيناى الباب الخشبي»، خلط بين اللمس والعين. لهذا فإن الجملة الأولى في القصة تحتوي على الحدث. ندخلنا في الحدث، في هذا البيت المشتقق المتصدع المنحني، الكثير الحفر، الضيق المظلم، الدهليز الحاد العفونة،

نلج هذا الكهف لنقف عند «دورة كالدلهيز الداخل إليها... تسلمه إلى سطح أملس مبلل في نهايته حفرة ننته»، في الخطوة التالية وسط الحوش سماء شتائية كالحة وأعمدة تذكر بأيام الأتراك، والحجرات وصمتها القاتم اللون كطلانها.

إن هذا التكثيف الشديد لتفاصيل المكان هي وصف داخلي أو كشف الراوي الذي لا يتصف بملامح. إن القاص يلج بنا هذا العالم الموصوف بعناية وبإحكام في التفاصيل اللونية للمكان، وهي التي من خلالها تقدم حالة الراوي التي بدورها تكشف المكان (بيت القصة).

إن هذه المقدمة في القصة ليست مفتاحاً رئيسياً فقط، بل تجرنا إلى عالم يتدفق دون انقطاع ودون عطف ولا حروف ربط، فالصور (الحدث) في ثوب الجمل تضرب إيقاعاً متوتراً ورتيباً من أجل إدخالنا في حالة عالم مسكون بما سيقع.

إن عملية الوصف الدقيقة تضيف على المكان حالة سيكولوجية فيصير المكان (البيت) مسكوناً بالحالة «المسافة بين مدخل البيت ووسط الحوش خمس وعشرون خطوة»، وعند الخطوة الأخيرة يتحول المكان إلى وحشة يستطعمها في القم والرقم (٢٥) يوحى بالخروج على الزمن. والحدث يتشابك مع المكان لبصير نسبجا محاكاً من -عظة ولوج الكلمة الأولى من خرم الثانية، وجاءت صاعقة متتالية وعزف القاص هنا لا مواربة فيه: إدخالنا في الحالة، إنه لا يستهدف تقديم أيما عالم لنا بل هو لايهمهم بالملاح إلا لكونها تعبيراً مجسماً للحالة، وما تقديم الجريمة - إن كانت هنالك جريمة - إلا لتشتبك مع القصة، ونضير جزءاً منها. إن الغرض هو إعدام انحيازنا الخارجي لنسهم بدورنا في تشكيل الدراما المتفجرة، لنتركب نحن أيضاً جريمة بأن نقتل «عويشه»، ولهذا كان التداخل في الضمائر، ضمير المتكلم الذي يزيد في إيهامنا، ضمير المخاطب يشاكلنا، ضمير الغائب يستبعدنا واللغة المكثفة وإيقاعها تهدد وتدمي... «برق برق شديد لم أدر من أين جاء. أمن الغيمة الكبيرة؟ أم من باب الحجر المقابلة لي والذي رأيتُه يفتح... وتقدم منه لمعان وتوامض لا يجيء إلا من برق أو نصل».

الجملة تفرغ فاهما كسؤال مدم لإيقاعنا في وهم التوحد الموحش بين البرق والنصل. الراوي هنا جزئياً ضمير المتكلم المتنفّس، أما الشخصية التي تحدث الفعل فهي شبح للراوي أو كركر لنا، حيث هذه الشخصية فعل بدون فاعل. واللغة تنقل حالة تفجر وتنبؤ عن كينونة الراوي، رغم أن القاص تغرض أن يقدم حالة شخصية، ولم يقدم شخصية إلا أنه بحكم الضرورة أفصح عن كينونة هذه الشخصية من خلال فعل الروي، فالراوي إن لم يكن مهوساً - (حيث يصف ويشهد على جريمة يقتل فيها الابن أمه في غرفة نومها) - فهو الشاهد التراجمي الذي حسه بالفجعة وتعبيره عنها ينبىء عن طبيئته فهو مرتبك، متردد. وهو أصيل في تردده وارتبائه، وهو يمتلك وعياً وحساً فردانياً لامبالياً وذاتاً متورمة تجاه الكون، وعالمها الخاص تقبله لعام لتقدمه بصورة ذات بريق حاد، رغم أنها تحاول الخفاء.

(٣)

● «الأول في الطعان، الآخر في الفرار... كذا تنتبه على الراوي في الشهادة الثانية وكأننا أمام راوٍ جديد

يقدم نفسه غنائياً وبجمل شعرية تجسد حالته الفجيعة. فالراوي هنا كابوس يستيقظ وآخر ينداح: «ارتدى صمنا شاحباً بالزيف»، «ولدت بقلعتي»، «آه... الدنيا ضيقة»، «اختلط الدم الشاحب بصوت المطر... الخ.

إن هذا التكثيف يلحق شهادة تتكلم بشهادة تصف. وعالم الراوي هنا: صراع داخلي شرس وشاحب. والشخصية الثانية المسماة محدها انقسامه على ذاته لتبينه كـ «مفعول به»، مجمود يذهب إلى صمته، الراوي يدخل قلعته. حرب لاتنتهي إلا لتبدأ، والقاص يقوم برفع تكنيك القصة من الصيغة الإخبارية الجافة التي يمكن التسليم بحيادتها إلى صيغة مناقضة، تشابكية ومنحازة.

وهذه الشهادة الثانية من حيث الترتيب ولكنها قد تكون الأولى من حيث الترتيب. إن الشهادة الثانية تقيّم لنا الحالة وتخفي الشخصية أو تطردها من ملكوتها ولكننا ندرك أنها ليست ذات الشخصية التي عرفناها في الشهادة الأولى ورصدنا انعكاس الحدث من خلالها. غير أن زاوية أخرى من القراءة تقول: إن ثمة علاقة وطيدة - إن لم تكن هي نفسها - بين الحالة في الشهادة الأولى وبين الحالة في الشهادة الثانية، وإن اللغة نسيج واحد ينقل رد فعل يجعل من «ثنين (المرصودين) مفعولاً بهما. إن هذا الشاهد ليس فقط أداة لشيء لا يعلمه بالتام لكنه - أيضاً - محمود الذي ينقد «جريمة» محكمة ومحكومة، وذلك لايتأتى لضيق العالم الذي لايسع (حزنه فيما لو تشكل على هيئة وردة)، لايتأتى فحسب بهذه القدرورية الصارمة، بل أيضاً لأن شخصية الشاهد تكشف دوره كشاهد عيان وكمتورط. واللغة تحيك هذا في انسياب شعري متدفق، ويأتي هذا الانسياب تدفقاً متميزاً لصور قائمة تأتي كصراخ في ليل طويل!!.

ومن هذا توائم القصة بين الإشكالية وشكل التعبير، بحيث يمكننا رصد الملامح الاجتماعية والنفسية للشخصية ليس من خلال الإشكالية فحسب، بل وأيضاً من خلال اللغة التي يستعملها القاص في الكشف عن كينونة هذه الشخصية. ونستطيع تتبع ذلك من «الشهادة التي يلحقها الإثم» حيث نرصد الشاهد من خلال الصياغة واللغة البسيطة الأسيانة. فغير أن علاقته بأسرة «عويشة» وصحبته لزوجها، واهتمامه بابنها «محمود» غير هذا فإن الشخصية تقدم بصياغة دالة على أنه ابن للحواري وأنه رجل شعبي بسيط، ويمكن رصد ملامح الكدح فيه، ولكننا نجده، هنا، مورطاً في الإدلاء بشهادة وبطريقة حيادية غريبة، على مثل هذه الشخصية الدرامية التي قدمت لنا، وتبين أنه يؤدي دوراً دخيلاً عليه ويقوم به ببراءة غريبة ويغيب القاص رد فعل هذه الشخصية الجوهرية. فيأتي وكأن دوره، فقط الكشف عن الحالة الشيطانية المتلبسة لراوي الشهادة السابقة والذي اقتحمنا من خلاله بيت العنكبوت، حيث تتسلق العريشة أركان زواياها الحادة القائمة وحيث يغيب كل معنى بشري عدا «دورة المياه». إنه مسرح جريمة مرعب. لهذا فإنني أعتقد أن دور «شهادة يلحقها الإثم» هو إعادة تركيب القصة وإضافة عالم ليس منها، من أجل كشف عوالمها المعقدة.

إن القاص يفرض إثارة القضية من جانب آخر مخالفاً للنسج الذي سار على منواله في كل القصة التي تأتي كعملية تركيب معقد لحدث بسيط، ورصد جاد لأثر هذا الحدث على الشخصيات. وفي هذه الشهادة يكون حضور الشخصية الغائب أكثر تجلياً!!

أما قوام «عويشة» المشوق فانه يلهم برغبة جامحة في الكشف عن جسده، ولكن إلحاح القاص يخفي هذا القوام باستشراسه في اتجاه مضاد، حيث الكشف والرصد للعوالم النفسية بإحكام ينبيء عنه كسر إيقاع الحدث لصالح الحالة، وتداخل في بنائية التصعيد الدرامي حيث يتم تقديم «عويشة» في مدخل القصة في حالة غياب كامل، ثم فيما أسميه - إذا صح التعبير - استرجاعية «فلاش باك» البنائية القصصية بمعنى: إنه يقدم لنا عويشة باعتبارها الجريمة وعنكبوت البيت الذي شكلنا القاص في نقوشه وتفاصيله، ثم تأتي الشهادات بومضات هذه الشخصية المحورية، لكنها ومضات ذاتية أي تأتي من خلال انطباع ذاتي للراوي والشهود، ثم في ختام القصة نتعرف على ملمحين رئيسيين لعويشة - أصل الحدث ونتيجته - وهما الجسد والوصف. ولكن هذا - أيضا - يقدم من زاوية نظر الكاتب «لكن بعد انفلات عنكب الشهوة في جسد استشرس بعد حمول وشهر نصاله اللامعة البراقة».

إن القاص يقول: إن عويشة انفلات لجسد من دفاء الصوف - (هي في القصة تضع الصوف الذي تستلمه من التاجر لتحصل على أجر زهيد) - وأقول إن التنويعات في القصة كالجوع والبرد إن هي إلا كشف عن قدرية العلاقة بين الجسد الحار، الذي يتلملم كعنكبوت «الفرس والحصان»، والصوف الذي يتمرغ فيه.

منذ البدء، قدرها أن تكون جسداً جيلاً، وأن يكون الصوف وفود حياتها، والنصل الذي ينهي هذه الحياة، إنها - أي عويشة - الفرس المنفلتة التي لا يوقفها إلا همهمة السؤال الوجودي - والموت؟! ولكن لهنية.

القاص يحكم الدائرة ويرسمها - إلى هنا - بإتقان، فهذه العوالم المتشابكة من تقديم وتأخير، من تداخل بين الأحداث وتشابك هو تشكيل متقن وصارم لعالم قصصي يصور حالة فجعية تنبئ عن نفسها تجاه واقع مكلوم وأعمى وضحاياه عميان، فأني واقع هذا؟.

إننا نسأل هل رفض القاص لمثل هذا الواقع هو مادفعه إلى إضافة قصة أخرى تشرح وتضيف لتكون هامشا على المتن؟ وهذا في تصوري جاء في عملية قفز بالقصة إلى عالم رمزي أكثر تجريداً، شكل عملية توسيع لما تطرحه القصة، بحيث ترهلت بمقطع زائد عن الحاجة، جاء على شكل تقرير كتبه القاص وأقحمه في الداخل على «المدينة» التي تنام ملء عينها على أحداث أكثر جسامته من هذا الحدث، ولذلك فكابوس الراوي الثاني إضافة خارجية للتشكيل الكابوس للقصة غير محكم، رغم محاولات القاص وخاصة في محاولته تحطيم الوهم القصصي بمحاولة (الدرس الاغترابي)، ولكن هذا علقنا على مشجب خارجي لشاهد ونحاز، غير أن القصة عكس ذلك أدخلتنا في عالم حالة وليس في حالة عالم. ومن ذا فمحاولة قذفنا إلى الخارج تأتي تكنيكياً زيادة في الوهم، ويتبدد الاغتراب بمعناه الاصطلاحي وبدلالته الفنية والاجتماعية على يد القاص ليتحول إلى وظيفة أخرى يخلقها لصالح تجريده الثماني لشخصه من دلالاتها الاجتماعية، من أجل الانحياز لبنائية القصة التي تمتطي شخصها لغرضها الأساسي في تصوير الفجعية والانتباغ عند راوي الرواية (الكاتب) الذي يحول الشخص إلى دمي على مسرحه تلبس ثوباً ليس ثوبها «ثوب الشحاذ مثلاً». وبذا فالمشهد الأخير بكامله زيادة في الصهيل بصور الدم المتخثر على الشفاة التي تلتهمه.

إن التصعيد الدرامي المسكون بنمته تفصيلية لحالة الشخصيات يأتي في إصرار وتوكيد على قيمة قدرية، وعلى استسلام الشخصية لقيمة ايدولوجية، كهنوتية، يمثلها طرح مفهوم العار دونها رصد ولو إيوائي لحالة التناقض التي يطرحها الواقع داخل القيم الاجتماعية الإقطاعية ذاتها، فما بالك لو سلمنا أن الشخصيات المستترة هي فعلا تمثل طبقة اجتماعية مقهورة كادحة وتناضل من أجل حياة أفضل.

إن العار يطرح كمعادل للجريمة ويبررها. وضيق العالم المقدم بصورة محكمة الإغلاق هو عملية تبرير أخرى للجريمة، الجريمة التي كشفت عن انفصام في شخصية «محمود» الذي يلبس أقنعة الشخصيات الأخرى باستثناء هامش «الشهادة التي يلحقها الإنم».

والصراع الذي قُدّم بإسهاب، هو صراع داخلي ينكشف من خلال الراوي المحكوم بالتردد والاندفاع، وهو صاحب القلعة المغلقة والسكين الذي يفتح أحشاء السحب المثقلة التي تحميم على سماء المدينة.

من جهة أخرى فإن «عومة الراوي» صغيرة وجميلة ومشتهاة ولكنها هي الأم في الوقت ذاته لـ «محمود صاحب النصل»، ولذا فالعلاقة معقدة، وفتيا مركبة، وهذه العلاقة يتم الكشف بقوة عن مدلولها السيكلوجي دونها معنى للاجتماعي، والعلاقة بين التاجر وعويشة - بسبب الجريمة كما يفترض - تغيب في دفء الصوف. ولهذا فإن الأسئلة التي تطرح على «عويشة» كلها تجد إجابة باستثناء: الموت يا عيشة.؟ والجوع عدو بدون ملامح تمسه عويشة ولانراه، رغم وجود المفارقة بين دفء الصوف وبرد البيت - العنكبوت.

فالرمز الاجتماعي للصوف تعبير صارخ عن مجتمع رعوي، في المقابل السيارات الفارهة، والفقل إشارة أخرى صارخة لكنها عابرتان كإشارتين معبرتين عن موقعين اجتماعيين يكون الانتقال من الأولى إلى الثانية عبر فنترة ممارسة نوع من المتاجرة / الجسد (العار) إن التأكيد على بقاء عويشة في موقعها الاجتماعي الأول كان يمكن تعميقه ولكن ضيع هذا المعنى، الانقباض والحتمية الوجودية التي تهيمن على أجواء القصة. وعويشة في حفرة الدم / المدينة ليست أكثر من مزيد من الدم، وهذه الإشارات العابرة والذكية لتعقد الإشكالية هي الجانب الوحيد والهام الذي لم يعمق. فإن يقتل «محمود» أو الراوي أمه أو تقتل الأم ابنا. فهذا هو الطبيعي في داخل هذا التشكيل الاجتماعي العجيب الذي يتخفى تحت أقنعة لعمال كادحين، والمدينة هنا ليست إلا مكانا واسعا لبيت العنكبوت الذي يتم وصفه بدقة وعلى الخصوص «مرحاضه» الذي هو «حفرة الدم».

إن القصة «دراميا» تشكلت على منوال يرغب في الكشف عن علاقات معقدة ولكن يمسها على عجلة بحيث تتحول الى دراما مسلوبة الصراع رغم غطاء الفعل / الجريمة، وبالتالي مسلوبة الذاتية حيث تم إعدام الشخصيات حين غيبت ملاحظها الخاصة.

وسأوجز رأيا أعرف أنه غير محكم لكنه محاولة للتصادم مع إشكالية الرؤية التي تحكم هذه القصة، هذه القصة التي تقتلع الشخوص من دلالاتها الاجتماعية، والنفسية الجوهرية وتشكلها في عملية تعريب

كاملة التجريد، بحيث تصوير المرأة • قناعاً وجودياً لإشكالية اجتماعية الموت / العار ومحمود المحاولة المستميتة للوقوف في الخارج، وجريمة القتل مسرح لحدث وليس حدثاً، ليكون هذا العالم مغلقاً. فالموقف من الجريمة المفتعلة إدانة خارجية ذات وجهين، وجه ممتلئ ببريق حاد من التزييف ووجه آخر تبريري، وصديق الزوج وبديلة يشارك في خلق الجريمة وينصاع للنتيجة.

إن هذا كله لا يعني إلا الإدانة الكاملة، إدانة الكل: القاتل والقنيل، القاهر والمقهور. والخلاصة إن الراوي لا يعرف أن ثمة شمساً في هذا الكون «الذي أضيى من حزنه وبريق نصل حاده» إلا من خلال الكوة.

ولكن أية شمس هذه حين يتحول الجميع إلى محمود (قاتل أمه) ويبقى الراوي الشاهد الوحيد كما تؤكد القصة.

إنه تفرد في الرؤية وانفراد في الموقف في تفجع دام أمام عالم مدمر. وبذا تضيف القصة شهادة مزورة متداخلة ومتشابكة ومنحازة حين تحاول تصوير صراع سديمي في الخارج وجودي في الداخل. فأي شهادة يمكن إضافتها؟

إن الإشكالية محتاج إلى قراءة أكثر موضوعية، فيما تطرحه هذه القصة ليس مفصلاً عنا ولكنه التعبير الأكثر وضوحاً والأكثر تعقيداً عن العلاقة بين المنهج والواقع الذي نأمل معالجته والتعبير عنه وتشكيله - ابداعياً - من جديد. لهذا كانت القصة مرآة مفاجئة أرى فيها وجهها محتاج إلى تحديد ملامح.

مواش

• شحاذ نجيب محفوظ

• النفاحة التي تحتوي ديدانها (العطب الداخلي).

أدب ونقد

الغربة / المرأة / السلطة قراءة في نص غالب هلسا الروائي

ثائر يوسف

الى دانة رامي هلسا، آملاً أن تتجنب كوايس زماننا/ بهذا الاهداء المرير يبدأ غالب هلسا روايته
ماقبل الأخيرة / الروائيون / وأقول قبل الأخيرة، لأننا شهدنا فصلاً مريراً آخر هو نهاية غالب وحيداً واحداً
يصارع الرعب ويشور على القمع والكبت، وهو يتأمل ويتأمل ليترك قلمه الساخن المغترب أسئلة وهو اجس
كثيرة عن مصير الانسان، هذا الكائن الذي تكون على الأرض ليمارس وجوده حراً شريفاً، وما آل اليه،
وهو المحاصر بكل أدوات القمع والطغيان - الطبيعة والانسانية - والتي حاول مفكرو البشرية حلها منذ
عرفوها، والتي استعان المبدعون الاغريق والشرقيون بعدد هائل من الآلهة لحلها عبر ملاحهم وأساطيرهم

وفلسفاتهم، ولكنهم عجزوا عن ذلك فبقي هاجس القلق على مصير الانسان يعذبهم ويعذبه ويعذبنا.

عالم غالب الروائي

في محاولة لاعادة بناء العالم الروائي لغالب هلسا على محاور أساسية تشكل - في رأيي - دعائم جهد الكاتب في اقامتها من خلال العديد من الشخصيات التي تتشابه في ملامح عدة، وذلك ليس لفقر عالمه الروائي، بقدر ماهي تركيز على هذه الملامح التي تُقام من خلال شخصوها محاور هذا العالم، والتي توضح رؤية الكاتب الفكرية. ويتم ذلك من خلال أعماله الروائية المميزة: الضحك (١٩٧١)، السؤال (١٩٧٩)، ثلاثة وجوه لبغداد (١٩٨٤) سلطنة (١٩٨٧)، الروائيون (١٩٨٨) مع الإشارة أحياناً الى بقية أعماله لتوضيح بعض المواقف التي كانت بذرة في هذه الأعمال، ثم أخذت تجليات أكبر وضوحاً في بعض الروايات المذكورة^(١).

ومانود قوله قبلاً أن العمل الابداعي - بالنسبة لي - هو مصدر النظرة النقدية، وذلك لسببين، أولهما: عدم معرفتي الشخصية للراحل غالب، ما يجعلني لا أقف عند دقائق حياته بشكل حميمي وقريب. وثاني الأسباب - وهو الاهم - أن نص غالب الابداعي ذاته أساس كافٍ للوصول الى أفكاره وآرائه. فالتتبع لأدبه يتكشف له تمركز غالب الشديد حول محاور أساسية تشكل المهيوم الأولية لشخصياته، وهذه المحاور هي: الغربية / المرأة / السلطة. وثلاثتها تنبع من وسط رؤية فكرية ذات دلالات نفسية حادة تؤثر في صياغة الأفكار وحركة الشخصيات ويتداخل التعبير عن هذه المحاور الثلاثة في رواياته بشكل يجعل من الصعب تجزئة الحديث عنها وتتبع كل منها بشكل منفصل، إذ أنها في الواقع الموضوعي مترابطة. فانتفاء الغربية ومعاناتها المرة مرهون بحميمية المرأة ودفنها، كونها الملاذ والملجأ، وبالمثل فإن فسحة الديمقراطية التي تتيح للمرء ممارسة حقه الأول متمثلاً بالجدارة البدائية / العمل / الوجود الانثوي / الحب / الحرية / الكرامة / يعني الخصب والمصالحة الأقرب مع الواقع القاسي شديد البرودة، كذلك جاءت في الواقع الروائي ضمن ابنية فنية متواضعة حيناً وشاغخة حيناً آخر، مما جعلت أعمال غالب هلسا تحتل مكانة هامة في الرواية العربية.

● الغربية / القسوة الأولى:

ليس غريباً أن تكون الغربية بايقاعاتها المختلفة وتلونياتها القاسية موضوع أغلب أعمال غالب هلسا، إذ أنها مارست ضغوطاتها النفسية الحادة عبر قناتين مادية وروحية. هذا الرجل عانى غربة مبكرة وتحديداً قاسياً في قرية أردنية صغيرة لم يكن - لا هو ولا أحد من أفراد عائلته - لينتمي الى مركز من مراكز القوة فيها، فعاش مضطهداً يُنظر اليه من الخارج على أنه لاجدور نسب وحسب لديه، وكذلك من الداخل - في البيت - من هنا، وكما يقول المحللون النفسيون كان لابد من

استنفار آليات الدفاع الذاتي لتواجه هذا العالم العدائي فيما يشبه / التحدي السري / وكان لا بد أيضاً من إعادة صياغة موقف الاسترابة والتحدي الذي اتخذته من أهله وقريته فانخرط في الحزب الشيوعي الاردني في محاولة تحد لهذا التيار. ثم تطوى صفحة الأردن نهائياً بالنفي والابعاد ليتنقل الى القاهرة معاشياً الغربية بكل وجوها: فهو بعيد عن قريته وبلده / غير مصري / وعانى من هذا الشعور أشد المعاناة حين كان يتعرض له أكثر من مثقف مصري ويتهمه بأنه لا يحق له أن يكتب عن الشعب المصري وخصوصياته أضف الى ذلك جنسيته الدينية / المسيحية / التي كانت تسبب عائقاً واضحاً وخاصة في مجتمع طائفي اقليمي يحظر زواج المسلمة من غير المسلم إلا بشروط وشروط . . . ويحظر ويحظر . . . وبالنتيجة كان أحد أهم الأسباب التي دعت له للانخراط في الحزب الشيوعي هو التخلص من هذه الطائفية المقيتة . وتأني هنا رواية / الضحك / لتفضح الصورة بجزئياتها كلها: معاناة الغريب علاقة الرجل بالمرأة / الاثم والخطيئة / ويأتي السجن والاعتقال - زمن ملاحقة اليساريين في مصر ليطبطا - الغربية بنكهة مرة تزداد قساوة مع ازدياد الوقوف في وجه السلطة القمعية الحاكمة، مما جعله يختار في هذه الرواية - ورواياته المقبلة ابتداءً من السؤال - تلك الفاصل المحرمة المشحونة بانفعال مكبوت مقهور مثال ذلك العلاقة بين المحارم / الشذوذ الجنسي / الموت . . . معبراً عنها من الداخل . وهذا يعني تصويره قسوة الكبت الاجتماعي والسياسي التي تصل الى حد القتل والتمرد^(١).

هذه الغربية طبعت حياته بحساسية جديدة تجاه العالم : الطبيعة تبدو في رواياته مسكونة، انها ليست تلك الطبيعة الجميلة التي يستمتع بها من يقوم بنزهة، وليست الطبيعة للأطفال المرهفين التي تمتلئ بالأرواح الجميلة، ولكنها طبيعة مسكونة بأرواح الشر والعنف: ان الجبل المطل على قريته - في الضحك - يبعث فيه الرغبة على اكتشاف صمته المرعب فيصعد وحيداً، وحين يصل اليه بعد ساعات من التعب والجهد يتخيل أن هذا الجبل وحش قاتل ينام في شبه غفوة متحفزة للانقضاض، فيبكي ويحد في الهرب والالتجاء الى حضن أم أو حبيبة . وكذلك حوارى القاهرة وناسها كانت تشحنه بطاقات انفعالية مستنفرة الى أقصى حد . فعلى باب كل حارة جثة ورجل مخابرات ومومس، وفي كل مقهى وجوه تبعث على القرف والتقرز، حتى لتصبح حياته في القاهرة - في لحظات - كابوساً لا يمحتمل: الحزب والسياسة / الوجوه هي ذاتها / الخروج الى نفس المقاهي / الاشاعات متوقعة تسمعها وكأنك سمعتها من قبل / ثم الحديث عن القراءة والكتابة: مرأى الورق والكتب يثير في نفسه الغثيان وتصبح الكتابة عملية موحشة ومؤلمة، عملية استلاب وهجران للحياة: وكان / ايهاب / يعيش وقائع حياته كأنه شخصية داخل رواية . وهو قد لاحظ بالنسبة له وللغنائين الآخرين أنهم يصاغون بعد مرور فترة من ابداعهم بقنهم . . . قال لنفسه أنه يزحف عليهم كالسوء كالسرطان على وجه التحديد يمحس علاقاتهم وصدقاتهم ومتعمهم ليخلق تلك الثنائية المرعبة: أن تمارس الحياة وأن ترأب نفسك وأنت تمارس الحياة . . .^(٢)

هذه الحساسية الجديدة تجاه العالم وظواهره كانت من أهم تجليات مظاهر الغربية في أغلب أعمال غالب، مما جعله يتخذ أشكالاً مأساوية ومنحرفة للتعبير عنها وتزداد حدة هذا الشعور قرفاً وعداءً بازدياد ضغط الغربية النفسي وهيجانه، ولم يكن غريباً بعد هذا كله أن يصل أبطاله الى مرحلة انهيار جسدي

وعصبي كاملين، وهو البطل الرئيسي في كل الأعمال صاحب التجربة المشحونة بالخبرة والانفعال .
ولا يخفف من وطأة هذا الاحساس والانهباء الا مصالحة /ولو مؤقتة/ مع الواقع والمجتمع، فكان
يبحث ويلهث عن مهذاً أو منقذ وهو يعلم تماماً أن السلطة لن تقوم بمثل هذا الدور فالتجأ الى المرأة .

● ● المرأة / الحلم الموحش

سكنت الأنثى - بكامل مثيراتها - ذهن الأدباء منذ القديم فأعطوها ما لم يكن موجوداً فيها من شفافية
ومثالية مما يرفعها الى مصاف الكائنات السماوية . فكانت الكائن الذي يعيش حليماً في أذهانهم، وتعاملوا
معها كنبع من الالهام ينعكس على كافة معطياتهم الابداعية، هذه الأنثى بكامل ميراثها عبر العصور تصل
الى عصرنا وعصر غالب هلسا لتلتقي جداراً من الكوابيس على امتداد طريق مزروع بشوك من نار، ولتحيا
في ذهنه حليماً لا يتحقق توحش به جوانب الحياة وتسقيه بالغرابة والعقم الذي يملأ ساحتنا . فالمرأة في رواياته
عملة بتاريخ من القهر والخطيئة والبؤس . انها ليست نمطاً بقدر ماهي صورة للخرق المستمر للتقاليد
والعملية الجنسية في ابداعه تكتسب لوناً من الثورة على الاستلاب والرقابة وتقرداً على الكبت والقمع .
والملاحظ أن الجنس عند غالب يصطبغ بنكهة مميزة تختلف من رواية الى أخرى، وبالتالي لاتعتبر تكراراً
رتيباً لاتصال الرجل بالأنثى . وماشرح دينامية العملية بهذه الشفافية والرقبة أحياناً والوحشية والبذاءة أحياناً
أخرى إلا ضرب من التلوين على ايقاع هذه العملية واكتشاف لعالم المرأة من الداخل، فالبغي هي الملاذ
الاول الذي يجده غالب عندما يأتي القاهرة ويتكشف له - فيما بعد - قرف هذه العلاقة ودمارها وكأنه
فريسة⁽⁴⁾، وقد أضفت البغي دلالات نفسية محددة / الماضي + الحاضر / قرف + بغي / وبالتالي فإن
الاخصاء الجسدي / البرود الجنسي / معادل للاخصاء الروحي ومرهون به .

وتلونت ضروب هذا المعطى لديه، فالبغي معادل للواقع السياسي والاجتماعي : وكانت ذكرى
المومسات الرخيصات عندما كان طالباً في المدرسة الثانوية ممارسة الجنس دون ود لايزال حتى الآن قادراً
على استرجاع الرعب والرغبة للذين تثيرها أولئك النسوة بأصباغهن التي تلتصق باليد والقم، يذكر طعم
تلك اللزوجة المعطرة الماسخة . كن تجسيدا للجنس في ذهن /ايهاب/ بما يجبطه من خوف وشعور بالقذارة
والندم . كان للجنس في ذاكرته - الجنس الخطيئة الحرام - رائحة اللحم الفاسد . . .⁽⁵⁾

هذا الضرب المقرز والمقرف لم يفرزه الا فقر الحياة وفقدانها الى كل ماهو حيوي وخصب، وخاصة
في مثل هذه العلاقة التي هي من أرقى ما عرفة الانسان من علاقات . وحين ينقل لنا وجوه المرأة الثلاثة التي
نعيش /بغداد/ في عالم يفقد الروح نستنتج أن هذه المرأة هي ذاتها التي تعيش القاهرة أو عمان أو غيرها
من عواصم الكبت والحرم، وهي في وجهها الاول تلك المرأة القابعة التي لا ترى الشمس ولا تعرف غير
الظلم المتمثل في الرجل تجاهاها، مستلبة تماماً خانعة . هذه المرأة لها تاريخها القديم وراثتها الذي يعود الى
عصور معرقة في القهر والبؤس . . أما المرأة في وجهها الثاني فهي تلك الأم /الحنان/ التي تناضل من أجل
إبناءها وصون بيتها لا أكثر . . وهي المرأة التي تحاول الخروج من الوجه الاول . . الخروج من مستنقع الخوف

والقمع دون تحرر منه بشكل واع .

أما الاشكالية فهي في الوجه الثالث / المرأة التجربة / التي تحاول الخروج في مجازفة غير مأمونة العواقب / انها تتجاوز / تطالع الحياة وهي تتكشف أمامها وتشحنها بكل التوتر والحياة حتى تعطيتها سرها . . وبالتالي توضع هذه المرأة في دوامة التوتر والتساؤل والدهشة على الدوام . .^(٧)

ومن المؤكد - بعد هذا - أن شعور غالب بالغرابة كان مرتبطاً أساساً باحساسه بالجسد . . بهذه المرأة بوجوهها الثلاث . . يقول في حديث معه عن سلطانه : عندما عدتُ للقراءة الثانية لهذه الرواية قبل الطبع اكتشفت بها ثلاث أمهات لي ، أو نساء يحملن ملامح الأمهات ، وأنا بهذا فيما يبدو أعيد طرح علاقتي مع أمي من خلال ثلاثة أقنعة : آمنة وأمي وسلطانه . لكن آمنة وأمي تحتفيان فيما تبرز سلطانه كقناع وحيد - الى نهاية الرواية - كقناع للأم وهي هنا - هكذا - لانفارق حال النموذج المثالي لفعالية الجنس المحصن^(٨) .

وتبقى المرأة بتوقعاتها وإيقاعاتها حلماً يقف في وجه الغربة يتحول أحياناً الى كوابيس موحشة وآلام مرحة ، ومع ذلك يبقى سداً في وجه القيم والموضوعات القمعية يستعيد من خلاله طفولة مفقودة وايدولوجيا مقتولة . . يقول غالب : في حياتي أزمت محددة ، ولعل الأزمة الأولى هي اكتشاف المرأة . كانت المرأة حلماً يعيش معي حتى اكتشفت المرأة / الجسد . كانت خيبة أمل كبيرة جداً . . الحلم لا يزال حتى الساعة موجوداً ، وخبية الأمل لا تزال أيضاً موجودة . والاثنان يعيشان مع بعضهما . . «^(٩)

ولعل هذا الموقف يفسر تجارب غالب الحياتية ، وهي ما يمكن أن نطلق عليه اسم / معاينة الحياة / والتي انعكست بالتالي على أبطال رواياته . فمواقفه لم تكن مجرد نزوة عصبية بل كانت تعكس روحه على حقيقتها : رفض كل القيود القمعية التي تحد حرية الانسان ورغبته في التعبير عن نفسه . . كل شيء مباح عنده للوصول الى الحقيقة المدهشة المتوترة . . يظل طيلة الوقت يكتشف معطيات الشخصيات ويتساءل عن دلالاتها باعادة بناء مواقف الحياة ولحظاتها ليخلق منها لحظات مشحونة . . هذا هو طابعه .

طابع العلاقات الجسدية التي يقيمها وطابع الذكريات التي تتحول الى كتابة فنية . .
فما المرأة الجسد الا الواقع الشرس بكل مافيه من بذاءة وقرف . ومن هنا نقول مرة أخرى : إن البغي والموسم معادل للواقع السياسي والاجتماعي بكل وجوهه القائمة المليئة بالموت . . وما المرأة الحلم الا الرغبة في تغيير هذا الواقع أو خلق الواقع المعادي لهذا الواقع . . فكان البحث عن المرأة الحلم هو بمثابة البحث عن صياغة جديدة لواقع صحي يتنفس المرء فيه حرية وديمقراطية دون خوف أو اختلاس . لم تكن دلالة الموسم أو المرأة التي تتحول كابوساً ثقيلاً مرعباً بعدما كانت حلماً جميلاً بروحها وجسدها ، لم تكن دلالتها إلا تعبيراً عن انهيار هذا الواقع والحلم الجميل الذي عاش ذهن البطل وجعله يحب الحياة ويعيشها ويقام الموت المستمر . . ومثانئية المرأة في أغلب رواياته إلا دلالة واضحة وإشارة الى الحلم وتحطم هذا الحلم :

المرأة الحلم / الواقع المتصور	المرأة الجسد / الواقع المعاش
الضحك / أمينة	نادية
السؤال / تفيدة	سعاد

ثلاثة وجوه لبغداد / ليلى
سلطانة / آمنة
الروائيون / نوال
سهام
سلطانة
زينب

وعندما يتحطم وينكسر هذا الحلم بسبب الواقع السياسي والاجتماعي المعاش كان لا بد من تحطم الروح وانكسار الانسان الباحث عن واقع أجمل ومناخ أرحب . . هذا الاخضاء الروحي يعادله عند غالب - ومن وجهة نظر فرويدية - انكسار واخضاء جنسي حيث العقم والبرود بلغيان كل المفاسل التي تحدد ملامح الانسان السوي القادر على العطاء والاخصاب⁽⁴⁾.

● ● ● السلطة / الخواء واللامعنى

لما كان للقمع والاعتقال المستمر لروح الانسان تراثاً موعلاً في القدم تقوم به سلطة أو بالأحرى جماعة تدعي لنفسها الوصاية والخلافة والأبوة، ولا أحد يعلم من خوفها بهذا الحق المقدس، ونتيجة لهذا الالتفاف التاريخي والتطفل الرهيب رأت هذه النخبة أن جميع العباد والرقاب ينبغي بل يجب أن تنحني وتكفر عن أفعال تمرد ربما تأتي في خاطرها - ولو مجرد طيف - وهذه الطائفة هي بمثابة الأب الوصي، فلا بد من تقديم فروض الولاء له وهو كذلك لا يبخل برحمته فيستئىء لهم مؤسسات ديمقراطية ويوفر مناخاً للعمل والحب تحت ظلال الأمن والاستقرار اللذين يسهر هو وبطانته على توطيدهما، وبالتالي فإن الانسان في هكذا مجتمع غطي في العمق قبل أن يخطيء. وعليه أن يندم ويكفر ابداً عن هذا الشعور. وبهذا يصبح القمع والعقاب مريراً من وجهة نظر / الضحية / وكأنها تبنت وجهة نظر / جلادها / . . لكن انسان غالب المتمرد الراض لكل هذه القيود والقيم القمعية يشعر أنه لا اسم له . . لا بيت . . لا عنوان . . لا رفيق أو رفيقة ليس له الا / السجن / والعيش تحت رقابة رجال الأمن والسلام مما يقيد حركته ويشلها . . وما هذا الوضع الا تمجيد لحالة اغتراب الانسان عن العالم بكل ما فيه . . اغتراب عن الآخرين عن الذات عن المكان وعن العالم المحيط به . . هذا العالم الذي تحول الى سجن . . هكذا تبدأ رحلة غالب هلسا وهكذا تنتهي رحلة الشقاء والمعاناة والألم في سجن متآكل يسمى وطناً أو مدينة تزدهم بالمساجين من كل نوع . . هذا / الغالب / يأمل بالخروج من السجن للتخلص من آلام الاغتراب والتعذيب والموت في الحياة، لكنه لا يجد مكاناً يأويه أو أحداً يعترف بحقه في العيش، فينقلب الأمل يأساً والعالم الخارجي سجناً وقيداً حيث الخواء والموت بانتظاره من جديد.

في كل تجربة يقوم بها، وفي كل محاولة للمتمرد يقع هذا / الغالب / في خطأ التجربة وزيف الطريق الذي سار فيه، لكنه لا سبيل أمامه للخروج من كل هذه القيود الا بالحلم . . بيناء / عالم الأوهام الجميلة / ويسير البطل خطوات وخطوات . . ويحلم ويفتش في داخله عن شعور غير عادي . . فرح / بهجة / انفعال .



يقول: «عندما كنت في الزنزانة الانفرادية في سجن / القلعة / كان يسيطر علي احساس أي في حلم، عندما يأتي احساس كهذا يكون من الصعب أن أقنع نفسي أنني لستُ في حلم، لا يوجد وسيلة للتأكد، عندما يحدث شيء غير متوقع كانت أمي تقول: بابني بحلم يا أولاد أقرصوني. كنا نعتبر قولها نكتة فنضحك، ولكني الآن أفهم كنت أقرص نفسي ولكن شعوري بأني في حلم كان يستمر...»^(١١).

فمن المستحيل أن يبقى الانسان يعاني أزمة الاغتراب واللامعنى والعبث والخواء والهلوسة التي تسيطر على عالمه النفسي كما يفرضها القمع المتمثل سلطة وحكومة وقوانين وعادات وأفراد.

لقد رصد غالب في رواياته البنية العجيبة لهذه التركيبة / الطائفة / ففضحها وفضح ممارساتها وسلوكها على المستويين: الداخلي / الوطني / والخارجي / العدو المترصص / بنفاذ بصيرة وفكر متقدواع. فكان نقده - فضحه - خطيراً وهاماً في آن، مما جعل حكومة وطنه الأول تسجنه. ثم وحين لم يفلح ذلك نفيه وابعاده وفي مصر / كان التضييق والسجن والملاحقة والمراقبة حتى انتهت أخيراً الى منحه تأشيرة الخروج دون عودة. وكذا فعلت / بغداد / لتنتهي فيها بعد رحلة معاينة الحياة بالموت في دمشق.

وهو في رواياته رصد علاقاته هذه السلطة في الأردن / الضحك - سلطنة / ومصر أيام عبد الناصر والسادات / السؤال - الخماسين - الضحك - الروائيون / والعراق / ثلاثة وجوه لبغداد / . . والملاحظ منذ البدء أن السلطة هي السلطة وان تعددت المواقع والأمكنة الا أن فترة اقامته الطويلة زمنياً في مصر جعلته يرصد وبشكل مركز فترة الحكم الناصري والحكم الساداتي من موقع الانسان المنظم المنتمي لحزب تقدمي، المصر دائماً على / الحرية / كأساس أول يهدم العلاقات المبنية على مزيج من البؤس والقمع والتي لاترى الانسان كواقع. . كوجود من حقه أن يعيش الحياة ويستمتع بها - مع الحفاظ على حق الآخرين بالاستمتاع بهذه الحياة / ومادينامية صنع انسان المفاهيم المقبولة أخلاقياً واجتماعياً الا هدف من أهداف السلطة الأبوية التي تستثير أبدأ مشاعر الخطيئة والندم والخوف من المثل الأعلى. لذلك كان من أهم أهداف غالب كسياسي أولاً وكأديب ثانياً هو الدعوة الى الاستمتاع بالحياة ورفض مفهوم بؤسها. يضاف الى ذلك تأكيد كل ماهو واقعي وصادق في اطار التجربة الحية: «قالت زينب: كنت عازبة أقولك اننا كلنا في نفس المازق الجادين والمنحطين وكله. أصل مشكلتنا الوعي اللي مش منسجم مع الواقع مش انحدارنا الى المستوى الحيواني / الوعي طريق في اتجاه واحد مش ممكن التراجع عنه / أنت الشيء الجوهرى عندك هو السياسة مش الرواية: الرواية بالنسبة لك سلاح سياسي وأنت توقفت عن كتابة الرواية لانك بعدت عن السياسة مش لانك بتمارس الجنس معايا...»^(١٢).

والأساس الآخر الذي ينطلق منه غالب في مواجهة السلطة هو / ازالة ذلك التهريج الرسمي الذي يلغى الفرد لصالح الجماعة (والجماعة هنا هي مصالح الطبقة المسيطرة) أو الغاء الجماعة لصالح الفرد والجماعة بالمعنى الثاني تعني جموع الشعب المطالبة بتحتمل البؤس لتدعيم سلطة الفرد. . «من خلال هذه الرؤية الجهورية للبناء الذي تقوم عليه سلطة السلطة نلقي الضوء على شخصية هامة من شخصيات غالب في رواية / السؤال / الا وهي شخصية / السفاح /^(١٣) الممثل الواضح والصريح للموقف السلطوي والذي يمارس القمع بوحشية مرضية عصبية، ونعني بالمرض هنا هو هذا التفاعل الغير مفهوم بين الضحية والجلاذ،

وما يعنيه هذا الجلال من تحولات نفسية وروحية تصب في تلك الشائبة الدائرية للسادية والمازوشية. السفاح من خلال ذلك هو صورة للآب المؤمن ورب العائلة الذي ينوء بحمل تراث قمعي بدائي يحاول أن يضفي عليه من منطق العصر مبدءاً أخلاقياً - قانونياً فيزواج - روحياً - بين ما هو خارج العصر وما هو داخل سياقه. وما على الفرد في هكذا حالة الا أن يندمج في هذا الكيان الناشئ لاغياً تميزه وخصويته. ومن هنا كانت جرائم السفاح تتوجه الى النخبة الحية فيقوم بتصفيتها جسدياً وروحياً وهو في هذا التوجه يعي تماماً أين يكمن الخطر وما الذي يجب فعله لتسطيح الانسان وتهميشه. وغالب حين كتب عن هذا النموذج الصريح الممثل للسلطة القمعية أراد أن يحقق غاية أخرى تتصل بالأدب والأداء عامة - ذلك الأدب الذي مثله نجيب محفوظ وآخرون في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات - وهو التأكيد على ناهج للفضيلة والشجاعة من خلال رسم شخصيات كالمومس التي تشع طهراً في زمن النجاسة واللص الذي يكتب ثورية في حين أن أصحاب المبادئ والمثل يتحولون الى جناء وخونة. لقد روجت هذه النماذج في كثير من روايات تلك الفترة لتقدس السطحي والتافه وتلغي الجوهرى وتسحقه، وما هي الا وسيلة الدعاية الاعلامية الرسمية، صحيح أن غالب درس أوضاع المثقفين والثوريين منهم خاصة وأفرد لهم وللمراسمهم وأفكارهم القسم الأكبر من صفحات رواياته لكنه بحث وحلل الأسباب التي أدت الى تأزمهم وإخفاقهم بوعي ثوري مبنياً ما فعلته بهم السلطة وزبائنها وما فعلوه هم بأنفسهم من موقع المحب والحريص على هذه الزهرة الحية في كيان الأمة ووقع أقدامه على الرصيف يعيد بناء الماضي: ناديه هل كنا نعلم ونحن نبي أحلامنا في الخمسينيات أننا ستحول الى محضيين ومومسات في النصف الثاني من الستينيات؟ عندما رأيت الضحكة في عينيك يناديه تذكرتها في عيون المومسات يتلقفن زبائنهن على نواصي الشوارع؟ هل كانت تلك نبوءة؟^(١٤)

والملاحظ أن غالب يبدأ دائماً من معطيات ذهنية تشكل نقطة الانطلاق لديه فيحلل وينبش في المفصل الأساسية التي يقوم عليها البناء السلطوي ولا تأخذ بهرجة الدعائية وردات الفعل العفوية التي لا تستند على تجربة نافذة. حاول أن يعيد تلك العلاقة المميزة بين الأفكار والابداع ومسألة السبق لأيهما ذهنياً: قال ايها: أزميتي هي الحياة في بلد رئيسها السادات. ان تفاهته لا تجعلنا نشعر حتى أنه عدو. هذا هو القهر الحقيقي: أن يكون عدونا تافهاً. اسمعوه يقول: مش عايزين فلسفة ماخرب بيوتنا غير الفلسفة عندما يتحدث رئيس جمهورية بهذا المنطق فكيف نحاربه؟^(١٥)

لقد عاين غالب السلطة بكل ما تقوم به من نفي واغتراب وسجن وتشرد وترحال مستمر. عاينها وهي تلدوس الناس والاحلام وتشوه كل ما هو جميل وتجمل القبيح وتلغي مساحات الديمقراطية والحرية بأشكالها المختلفة: زهرة أو امرأة أو حلماً. كان يتساءل أبداً وهو يرى التشويه والدمار/ ما الذي فعله ضباط المباحث والسواح بهذا الجسد الجميل؟ كيف كانوا يتعاملون معه/^(١٦)

ونحن نشير بأطراف الأصابع خائفين مرة ومرة: متى وكيف نخرج من عنق الزجاج الى أرض واسعة نتحرك عليها دون خوف وقمع. لقد أحب غالب الحياة وحاول أن يستمتع بهامش حريته ما استطاع صارع الموت حتى يهرب من طريقه. كان يعرف ما المطلوب للمواجهة وللمعاشة ولم يرد أن يتخل عن التجربة حتى آخر لحظة، فبسبب ثرائها تجسد طموحه كله. أن يجعل من جسده وحياته وسيلة لاستكشاف

مناطق جديدة في كتابة العالم والرواية على حد سواء.
 هذه هوامش على صفحات ابداع غالب هلسا نكتبها ونزيدها باستمرار لتشعب وغنى عالم غالب
 الروائي الذي يقف بموازاة عالمه الحياتي والنضالي.. كل منهما يزيد التجربة ويغنيها على الدوام..

الهوامش

- (١) صدر لغالب هلسا عدا الروايات المذكورة في البحث:
 - وديع والقديسة ميلادة وآخرون، قصص عام ١٩٦٨.
 - الحماسين، رواية عام ١٩٧٣
 - زنوج وبدو وفلاحون، قصص عام ١٩٧٧
 - البكاء على الأطلال، رواية عام ١٩٧٨
- (٢) انظر الضحك، بيروت، دار العودة، ١٩٧١
- (٣) الروائيون، دمشق الزاوية للطباعة والنشر، ١٩٨٨، ط ١، ص ١٠
- (٤) الضحك، وبالأخص القسم الأول/ ص ١٩ - ٢٠
- (٥) الروائيون، ص ٢٠٩
- (٦) انظر ثلاثة وجوه لبغداد، قبرص، آفاق للدراسات والنشر، ١٩٨٤، ط ١، الوجه الثالث/ زحف الغابة/ ص ١٩٦٨ - ١٩٦٩
- (٧) من لقاء اجراءه مع عمار الكسان، دمشق، جريدة البعث، ع ٨٠٣٧، ١٣ - ٨ - ١٩٨٨
- (٨) من لقاء اجراءه مع جهاد فاضل، الكويت، جريدة القبس - نشر في ١٢/٢٣/١٩٨٩.
- (٩) انظر: الطوظم والتابو، ترجمة بو علي ياسين، اللاذقية، دار الحوار، ١٩٨٣، ط ١، ص ١٦ وما بعدها
- (١٠) الروائيون، ص ٥٥
- (١١) الروائيون، ص ٣٠٦
- (١٢) غالب هلسا، الفاشية العربية واستعدادها النمط البطرياركي، مجلة فتح: الملحق الثقافي، العدد التجريبي الأول، كانون أول ١٩٨٥، ص ٣٦
- (١٣) انظر: السؤال: بيروت، دار ابن رشد، ١٩٧٩: وبالأخص القسم الأول المعنون بـ /السفاح/
- (١٤) الروائيون، ص ٣٤٦
- (١٥) الروائيون، ص ٣٧١
- (١٦) الروائيون، ص ٣٩١

ادب ونقد

التجديد و مظاهره في شعر عمر أبي ريشه

د. جميل علوش^(*)

فقد الوطن العربي في شهر تموز المنصرم شاعراً عربياً بارزاً له من الصفات والسمات الشخصية والادبية ما يميزه عن جميع معاصريه. فهو لا يشبه شاعراً عربياً لا في القدماء ولا المحدثين. وهو الى ذلك يملك شخصية متفردة متميزة لا تكاد تشبهها شخصية أخرى. وقد نجد في هذه الشخصية الكثير مما يعجب، وقد نجد فيها الكثير مما لا يعجب، ولكنها تبقى شخصية متميزة على كل حال.

فعمر أبو ريشة شاعر معاصر بارز من طبقة الجواهري وبدوي الجبل وبشارة الخوري. ولكنه يختلف اختلافاً كبيراً عن كل واحد من هؤلاء. فهو ليس كالجواهري البتة؛ وهو يختلف كذلك عن بدوي الجبل وبشارة الخوري على الرغم مما يمكن أن يجمع بينه وبينهما من صفات وسمات. ومن هذه السمات العناية بالصورة الفنية، والاخذ بمبدأ التنقية اللفظية، والميل الى جانب الرقة والنعومة. غير أن عمر يبدو أكثر

شاعر ولغوي من فلسطين.

صدقاً وحرارة منها، كما أن شعره يبدو أكثر تماسكاً وموضوعية من شعرهما. وقد رفض في مقابلة أجراها معه مندوب مجلة الحوادث أن يقرن اسمه باسم الجواهري أو باسم بدوي الجبل لسبب أو لآخر. فقد أخذ على البدوي أنه أسرف في أماديجه، وإن اعترف بأن له شعراً وطنياً جيداً.

ومن السهل أن نرد موقف عمر هذا إلى ما يتحكم في نفوس أبناء المهنة الواحدة وبخاصة الشعراء من ميل إلى التنافس والتحاسد، إذ قلَّ من الشعراء من أنصف سواه من أنداده. فالشعور الذي عبر عنه عمر تجاه الجواهري وبدوي الجبل هو الشعور الذي كان يحمله شوقي نحو كل من حافظ ومطران. ومن المعروف أن شوقي كان يضيّق ذرعاً بكلِّ من كان يحاول أن يعقد موازنة بينه وبين أحدهما من النقاد. من السهل أن نرد موقف عمر هذا إلى نزعة التنافس أو التحاسد كما قلنا، ولكن الأقرب من ذلك إلى المعقولة أن نقول: إن عمر كان يدرك ما بينه وبين الجواهري وبدوي الجبل من الفروق الفنية. ولابدَّ أنه كان يثق بأن ما يتوفر في شعره من السيات الفنية يجعله قيمنا بالتفضيل على شعر كل من الجواهري وبدوي الجبل. ويبدو من ذلك أن نفور عمر من أن يقرن اسمه باسم الجواهري أو بدوي الجبل هو شعور له ما يسوغه من الناحية النقدية والموضوعية.

وعمر من جيل الشعراء الذين جاءوا بعد شوقي وحافظ ومطران. ولا شك أن هذا الجيل يتميز عن الجيل السابق والذي هو جيل شوقي وحافظ ومطران، بأنه كان أكثر بعداً عنهم عن المباشرة في التعبير، وأقلَّ عناية باستيحاء المناسبة السياسية أو الاجتماعية أو الشخصية، وأكثر اهتماماً بمبدأ التنقية اللفظية، وأشدَّ حرصاً على تحقيق عنصر الصدق في القصيدة. فالقصيدة عند هؤلاء أقصد جيل عمر ومنهم بدوي الجبل وبشارة الخوري - وأستبعد الجواهري لأن الجواهري نمط آخر من الشعراء - أكثر إيماءً وجمالية وصدقاً من القصيدة عند الجيل السابق.

ولست أقصد أن أفضل هذا الجيل من الشعراء على الجيل السابق. فالجيل السابق يبقى له فضله الذي لا ينكر. فهو أغزر إنتاجاً، وأقدر على المشاركة في الأحداث، وأسرع تلبية لمطالب الجمهور. بل هم أكثر سيطرة على اللغة ومعرفة بأسرارها وخفاياها. وإننا لنستطيع القول إنه ليس ثمة سمة يعتز بها عمر أبو ريشة وجيله إلا ولها جذور في شعر شوقي وأنداده. ولعلنا نستطيع أن نشير بهذا الصدد إلى ظاهرة الصورة الفنية التي تميز بها هذا الجيل، فنحن نستطيع أن نعثر لهذه الظاهرة على جذور في شعر شوقي، فقد كان شديد العناية بالصورة الفنية، غير أن من جاءوا بعده أولوا الصورة الفنيّة عناية أشمل وأعمق.

فاذا كنا نذكر لشوقي عنيته البالغة بالصورة الشعرية التي استعان على تحقيقها بوسائل البيان المختلفة من تشبيه ومجاز وكناية، وإذا كنا نذكر له تحليقه في هذا المجال وبراعته وإبداعه وتفوقه على كثير من السابقين، فإننا نذكر لعمر تفوقه وتحليقه في هذا المجال. فقد استفاد مما اكتسبه في مسيرته العلمية من وسائل وأدوات، مكنته من إغناء الصورة الشعرية وتطويرها نحو الأحسن والأفضل. ولا بأس أن نركز هنا على عناصر بارزة في هذه الثقافة هي التالية:

١ - دراسته العلمية الفنية في معاهد بريطانيا.

٢ - إطلاعه على إنتاج الشعراء الإنكليز وبخاصة شعراء المذهب الرومانسي مثل بيرون وكيتس وشيلي.

٣- ماهياً له عمله السياسي من أسفار ورحلات في أقطار الارض^(١).

هذه العناصر جميعها، علاوة على ما طبعت عليه شخصيته من ميل إلى الاغراب والاغراق والمبالغة، مكته من إتقان الصورة الشعرية الشاملة. ونقصد بالشاملة أن الصورة الشعرية لم تكن عند عمر محصورة في البيت الواحد كما هي عند السابقين، بل هي صورة تخرج من البيت لتمتد إلى القصيدة كلها. وقد يزعم زاعم أن عمر ليس فذاً ولا فريداً في فنه، وأنه ينتمي إلى مدرسة الرومانسيين التي يقف على رأسها في مصر علي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل، كما يقف على رأسها في لبنان الياس أبو شبكة ويوسف غصوب وصلاح لبكي.

وهذا الزعم وإن كان يتضمن بعض الصحة، فهو في مجمله يعمل تناقضاً كبيراً، ذلك لأن عمر يختلف عن هؤلاء جميعاً في أنه يمثل ظاهرة القوة والجرورة في شخصه وفي شعره، في حين يمثل هؤلاء جميعاً، وبخاصة المصريين منهم، ظاهرة الضعف والتخاذل والشكوى. هذه الظاهرة التي أشار إليها العقاد في غير مناسبة مستهجنناً مستكراً، والتي كانت سبباً في أن يقف من ناجي وشعره موقفه المعروف وقد شارك العقاد في هذا الموقف طه حسين مما كان سبباً في أن يفقد إبراهيم ناجي صوابه ويموت حزناً مغموماً. وقد يقال: وماذا بشأن أبي شبكة ويوسف غصوب وصلاح لبكي وهم من أعمدة الرومانسية في لبنان، كما سبق أن ذكرنا، فأقول: إن هؤلاء لم يبلغوا في ضعفهم وتخاذلهم ما بلغه إبراهيم ناجي وأصحابه. ولكنهم لم يمثلوا في شعرهم ما يمثل عمر من إياء وعنفوان. هذا إلى أنه أكثر منهم ميلاً للأخذ بمبدأ التنقيح والتقية. وهو أسلم منهم أسلوباً وأعذب موسيقى وأكثر رصانة وأدق تصويراً.

فعمر أبو ريشة إذن شاعر عملاق لانستطيع أن نحصره في مذهب أو اتجاه. فلئن كنا نستطيع أن نلحظه من خلال عواطفه الجياشة وأحاسيسه المتدفقة ونزعاته الحارة الحادة بالملهب الرومانسي، فنحن نستطيع أن نلحظه من خلال صياغته القوية التماسكة وأوزانه العربية الأصلية بالملهب الكلاسيكي. ثم نحن نستطيع أن نلحظه من خلال تعبيره الصادق عن قضايا أمته وتصويره لواقعها المؤلم بالملهب الواقعي، ولانعلم أن نجد في شعر عمر ما يمكن أن يفسر بأنه شيء من ملامح الرمزية إلى غير ذلك.

وصفوة القول أن عمر شاعر كبير لانستطيع أن ندرجه ضمن مذهب محدد ولا أن نحصره في مدرسة أو اتجاه. فهو يملك من الصفات والسمات والخصائص والمميزات ما يمكن أن يكون به شاعراً نسج وحله. إنه شاعر مجتهد وللتجديد في شعره مجالات ومجالي. فإين هي مظاهر التجديد في شعر عمر، بل كيف يمكننا أن نزعج أن عمر شاعر مجتهد إذا لم نستطع أن ننتبهن مظاهر هذا التجديد؟ والجواب هو أننا إذا نظرنا في شعر عمر، وتفحصنا أوزانه وقوافيه، تبين لنا أن تجديد عمر يكمن في المظاهر التالية:

أولاً: الموضوعات: على الرغم من أن الموضوع ليس له في ذاته فضيلة، وعلى الرغم من أن الموضوع الواحد قد يتناوله ألف شاعر فيجيد واحد منهم أو اثنان ويقصر الباقون، مما يدل على أن الموضوع ليس بله أهمية تقليدية، فإن عمر كان حريصاً منذ بدأ ينظم الشعر على أن يتعد عن معالجة الموضوعات التقليدية المعروفة للمذبح والهجاء والرثاء والغزل، وحين كان يعالج مثل هذه الموضوعات كان يعالجها بطريقة تختلف

طرائق الاقدمين والسابقين. وحسبي أن أمثل على قولي ببعض الوقائع. فقد يقال مثلاً انه كان يرثي. وقد رثي فعلاً طائفة من الملوك والزعماء الوطنيين كما فعل غيره وان كان ذلك يتم على نطاق ضيق جداً، لان قصائده في الرثاء معدودة على كل حال، فهي لا تتعدى العشر في عمره الطويل، بيد أن عمر يرثي حين يرثي بطريقة متميزة يؤكد فيها لمن يقرأه وينعم النظر في أقواله أنه لم ينسج على متوال أحد سابق، على كثرة من نظموا في هذا الموضوع. وحسبنا أن نحتج على قولنا برثائه للملك غازي. قال من قصيدة بهذه المناسبة بعنوان يا عوادي^(١):

غاز يا روعة التفاف قرش يوم بدر حول النبي الهادي
 وصدى صيحة القلاع المنيفات إلى ابن الوليد وابن زياد
 وسنى النصر في إياب بني العباس من رجح غضبة أو جلاذ

ففي هذه الايات القليلة كل جديد من المعاني والصور. وهي تحمل أنفاس الشعر الملحمي العميق الراقى. ولو كان المجال يتسع لأوردنا نماذج أخرى من هذه القصيدة الرائعة في رثاء المرحوم الملك غازي، مع أن الشعر الذي قيل في رثاء الملك غازي كثير، ومنه الجيد ومنه الوسط ومنه دون ذلك. ولكن قصيدة عمر تبقى شاخعة من بينها جميعاً بسمو معانيها وجمال صورها وخيالاتها وقوة صياغتها ونفسها الملحمي العجيب. وليست هذه هي القصيدة الوحيدة التي تتجلى فيها عبقرية عمر وقدرته على التجديد. ففي قصائده في رثاء المجاهد الفلسطيني سعيد العاص^(٢) وعدنان المالكي^(٣) وإميل البستاني^(٤) شواهد ساطعة على تفرد هذا الرجل في دنيا الشعر، إن شعر الرثاء في تاريخ الأدب العربي كثير، ولكن قل منه ما يضاهي هذه القصائد سموها وفخامة. ويصف الاستاذ حنا الفاخوري بعض هذه القصائد بأنها واسعة الأفق بعيدة مرامي التخيل والتصوير^(٥) ثم يؤكد بأن عمر يجعل من شعره ملاحم قومية ووطنية^(٦).

فعمر إذن مجدد في الموضوعات التي أكل الدهر عليها وشرب كالرثاء مثلاً، فكيف به في الموضوعات التي قلما نظم فيها أحد؟ ومن حق القارئ أن يتساءل عن هذه الموضوعات فنقول: إن عمر نظم في طائفة من الموضوعات الجديدة التي لا نستطيع أن نزعم أنه سبق إليها، لا بالكثير من التحمل والتكلف. وهذه نماذج من تلك الموضوعات مستخلصة من ديوان شعره الثاني الذي صدر عن دار مجلة الاديب في بيروت بعنوان (من عمر أبي ريشة شعر) سنة ١٩٤٧:

- ١ - لمن؟
- ٢ - طلل
- ٣ - سرّ السراب
- ٤ - امرأة وتمثال
- ٥ - البرعم الاخضر
- ٦ - في موسم الورد

- ٧- ليلة
٨- عشاق
٩- امرأة
١٠- زنبقة

هذه نماذج من عناوين موضوعات عمر أبي ريشة في ديوانه المشار إليه . وهي عناوين متميزة متفردة نستطيع أن نتبين فيها السمات التالية :

- ١- أنها مستوحاة من نفس الشاعر وبيئته لا عقله وذاكرته .
 - ٢- أنها تستعصي على أن تدرج تحت أي من موضوعات الشعر التقليدية اللهم إلا الوصف . والوصف موضوع ثر ليس له حدود ولا يمكن أن يعدّ تقليدياً .
 - ٣- إنها من الموضوعات التي تقوم على التصوير والتجسيم والتلون . ولذلك استعان بأحد الرسّامين ليضع إلى جانب الكثير منها صوراً مناسبة .
- ويبدو من هذا كله أن عمر مجدد في موضوعاته ، وأنه لا ينظر في اختيار هذه الموضوعات إلى أحد ، بل هو فيها نسيج وحده .

ثانياً - الصورة الشعرية : سبق أن أشرنا الى موهبة عمر الشعرية فيما يخص القدرة على التصوير والتجسيم . ومن حق عمر علينا أن نفيض في رسم ملامح هذه القدرة . فلاشك أنها إحدى قلاع مجده الشعري . والذين يكتبون عن عمر من النقاد يتوقفون عند هذه الظاهرة ويطيلون التوقف . فلقد توقف عندها من النقاد أحمد زكي ابو شادي^(٨) وشوقي ضيف^(٩) وإيليا الحاوي^(١٠) وعبد الله بوركي حلاق^(١١) . ومن أجاد وصف هذه الظاهرة في شعر عمر أبي ريشة الناقد حنا الفاخوري . ومما قاله في ذلك : والوصف عند هذا الشاعر تمثيل للمشاهد في إطار من التخيل المضخم الذي يبرز معالم القوة المادية أو المعنوية ابرازاً فذاً ، يقذفه الشاعر أمامك صورة عجيبة في إشعاعها ، عجيبة في امتداداتها ، عجيبة في مراميها . إنها صورة تصدّع بجباليتها المبتكرة المفاجئة ، وبحيويتها الناطقة ، وبجلالها الذي تنفس فيه روحية الشاعر وشخصيته الرفيعة المتعالية^(١٢) .

هذا بعض ماقاله النقاد في قدرة عمر التصويرية . ولن نكتفي بما قاله النقاد فلابد من أن نضيف إلى ذلك أن عمر كثير العناية بأن يرسم لاصورة خيالية قائمة على التشبيه والخيال ، بل صورة واقعية فيها من الأسوان والأصباغ والظلال والأفياء ما يجعل المعنى الذي أراد تصويره حقيقة واقعة قائمة في العيون والأذهان . وحسبنا أن نمثل على ذلك ببضعة أبيات صور فيها وثبة الإنسان العربي من باديته المقفرة الى آفاق الدنيا الواسعة وهو يحمل مشاعل الهداية والتنوير قال من قصيدة بعنوان هذه أمي^(١٣) :

ما انتهى إرثنا الرفيع ولاسلت طيوف النبي من قرآنه
بالذكرى تلفت المجد ما بين يديها الى ربيع زمانه
حين هز البدوي معوله الصلدا وأهوى به على أوثانه
والمروات وهج جبهته السمراء والامنيات فيض بنانه

فتهاوت على عباءته الدنيا ورفت على سهيل حصانه

هذه صورة طريفة رسمها أبو ريشة للعربي المنتصر على عرش كسرى وقيصر. ويوسع أي رسام قادر أن يرسم هذه الصورة على القتراس فيجعلها عجباً من العجب. ولكن أجمل ما في هذه الصورة هو تهاوي الدنيا على عباءة ذلك العربي ورفيفها على سهيل حصانه.

ليس هذا فحسب فإن ثمة شيئاً آخر يجعل هذه الصورة ذات قيمة أصيلة، بل يزيداها تميزاً وفضلاً. هذا الشيء هو أن هذه الصورة تمثل العربي الشجاع البطل وقد خرج من بيئته الضيقة ليحتل بما يشبه المعجزة قصور كسرى وقيصر وفي يديه كما ذكرنا آنفاً مشاعل الهداية والتنوير.

وكم شاعر يعطيك صورة لا تمثل رصيماً من الحقيقة أو الواقعية، بل هو يتخيل فيجيء خياله أعرج كسيحاً. ومن هذا القبيل مقاله بدوي الجبل - وهو من أنداد عمر ونظرائه - في وصف قدرة الشاعر على الخلق. قال من قصيدة بعنوان يادهشة الثأر^(١):

لو شاء أنزل بدر التّم فاحتفلت به السندامى سراجاً في زوايانا
يزعم بدوي الجبل أن الشاعر يملك قدرة عظيمة على الخلق فهو يستطيع أن ينزل البدر التّام من عليا عليائه ليحتفل به ندامى الشاعر سراجاً في زاوية من الزوايا التي يجلس فيها رفاقه ونداماه. ولا شك أن انزال القمر من عليائه ليحتفل به الندامى صورة من الصور الشعرية. فإذا بحثنا عن رصيّد هذه الصورة من الحقيقة والواقع، لم نجد شيئاً، لأن القمر لا يستطيع أن ينزله أحد، ولأنّ الندامى لهم سراج يلتزمون حوله ليس هو القمر على كل حال. فهذه صورة موهمة مزيفة. ومن خلال الموازنة بين الصورة التي رسمها عمر وتلك التي رسمها البدوي، يتبدى لنا أيّ الصورتين هي الحقيقية الصادقة وأياها هي المزيفة الكاذبة.

ومما يساعد عمر على بلوغ التوفيق في رسم هذه الصورة العوامل التالية:

١ - خياله الواسع المنجح.

٢ - امتلاكه لأدوات الرسم الشعري.

٣ - رهافة ذوقه ودقة ملاحظته.

٤ - لغته المتينة وموسيقاه.

ونستخلص من ذلك كله أن الصورة الشعرية هي أبرز مظاهر التجديد في شعر عمر. ولا بد أن يشير إليها كل من يتحدث عن عمر وعن شعره.

ثالثاً - موسيقاه الشعرية: يخطيء الكثير من النقاد فيظنّ أنّ الشاعر لا بد له أن يطور في أدواته وأوزانه الشعرية، إن كان له أن يحسب من المجددين. والتطور عند هؤلاء هو أن يهدم القديم ويأتي بجديد بديل عنه. ووجه الخطأ في ذلك أن الأذن تعتاد أنماطاً معينة من الأبنية والأوزان، وأن هدم هذه الأوزان لا بد أن يحدس الأذن المرهفة المدربة. فلا بد إذن من مراعاة الأوزان الموجودة وتجنب الطفر في موضوع التجديد وبخاصة في الأبنية والأوزان. فليس التجديد في الأوزان والموسيقى الشعرية محصوراً في نقض هذه الأوزان والإتيان بديل عنها. وقد أشار إلى ذلك الشاعر الكبير إيليا أبو ماضي بقوله: وليس الابتكار أن يعدل الشاعر عن الروي الواحد والعروض الواحد في القصيدة إلى أكثر من روي وأكثر من عروض، كما يتوهم

بعض المعاصرين خطأ، فإن هذه طريقة قديمة طرقها شعراء الأندلس وتوسعوا فيها، ولكنها لم تصنع من غير الشاعر شاعراً. وهذا مما يثبت أن السر في المعاني لا في المباني. فإذا كان المعنى مبتكراً وجميلاً ظهر جماله وجدته للعيون، إن صيغ شعراً أو صيغ نثراً. على أن المعنى الجميل يستلزم أن يكون مبناه جميلاً، فما افتتن الناس بالزهره إلا لأنها تجمع إلى الأريج الزكي جمال التكوين^(١).

وعمر أبو ريشة اذا قيس بمقياس هؤلاء النقاد الذين يشترطون في المجدد أن يغير في أوزان الشعر، لا يحسب مجدداً. ولكنه إذا قيس بمقياس إيليا أبي ماضي وغيره ممن يقدرّون للتجديد معناه ودلالته فهو من كبار المجددين. والواقع أن الاجماع قد انعقد على أن عمر من كبار المجددين. وقُل من خالف في ذلك على الرغم من أن عمر لم يغير كثيراً في أوزانه الشعرية. فلقد تمسك بالأوزان العربية المعروفة، دون أن يحاول التنوع فيها، فهو قليلاً ما يتّوع في قافيته؛ وهو يستعمل الأوزان العروضية كما هي. فإذا كان أحياناً يميل إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة فهذا شيء سبقه إليه الكثيرون من مطران إلى العقاد وزميله المازني وشكري إلى الشعراء المهجريين عامة. ولكنه على الرغم من ذلك كان مجدداً أصيلاً لا يختلف على تجديده إثنان. فما الذي صنعه عمر حتى شهد له القريب والبعيد بأنه مجدد؟ الجواب هو ما يلي:

١ - إن عمر - علاوة على أنه مجدد في معانيه وخيالاته وصوره - قد جدّد في أنغامه الداخلية من خلال العبارة الشعرية الرشيقة والأسلوب المروق المصقّى. فلقد حقق مقياس الفصاحة العربية التي تعني في الأصل مبدأ التنقية اللغوية، والتي تحقّق النزعة الجمالية في النصّ الشعري. فلقد حقق ذلك بمستوى رفيع قلّ أن يتحقق عند أحد. وهذا من شأنه أن يساعِد على توليد النغم العذب، والوزن المرقص المطرب. ونمثل على ذلك بقوله:

أطربتهم أصفادهم فتشهوًا لو يردّونه إلى أصفاده
والذي يقرأ هذا البيت قراءة فصيحة متأنية، يلمس الأنغام العذبة الرفيعة المنبعثة منه. وهذا مما تحيِّط به المعرفة، ولا تؤديه الصفة، كما قال النقاد العرب.

٢ - لقد كانت شخصيته وذوقه قويين في استخدام الأوزان العربية القديمة وتبدو هذه القوة في المظاهر التالية؛

أ - أنه أثر البحر الخفيف على غيره من البحور التامة، فقلما استخدم غيره في قصائده الطويلة. وإذا معنا النظر في ديوانه الثاني - من عمر أبي ريشة شعر - الذي صدر عن دار الاديب في بيروت سنة ١٩٤٧، نجده يستخدم الأوزان الشعرية حسب الجدول التالي:

البحر الخفيف	النسبة المئوية
مجزؤه الكامل	٢٦٪
المتقارب	١٥,٢٪
	١٣,٦٪
السرّيع	١٣,٦٪

٧, ٦

الكامل

٧, ٦

مجزوء الوافر

٦

الرمل

٤

البيسط

١, ٥

مجزوء الرجز

١, ٥

الوافر

١, ٥

الطويل

ويبدو من الجدول السابق أن الخفيف يستأثر بالنسبة الكبرى، في حين لا يستأثر الطويل مثلاً إلا بالنسبة الضغرى، أي بما لا يزيد، على ١, ٥٪. وهذا مما يدعو إلى التأمل، ذلك لأن هذا البحر، كان الوزن المحبب لشعراء العرب في مختلف عصور الشعر، ولا نستثني من ذلك عصر شوقي وحافظ ومطران. وهذا يعني أن عمر له شخصية قوية في التعامل مع الأوزان، يختار منها ما يختار، ويستبعد ما يستبعد، معتمداً على ذوق رفيف رفيع.

ب- أنه كثيراً ما يستخدم الأوزان القصيرة والمجزوءة مثل مجزوء الكامل ومجزوء الوافر. ولعمر ذوق خاص في استخدام هذه الأوزان، بحيث يحس المتمرس في هذا الفن، أن لعمر في هذه الأوزان شخصية تختلف شخصيات غيره من الشعراء. وقد يستغرب بعضهم هذا القول. ولا داعي للاستغراب، فإن شخصية الشاعر لها كبير الأثر في إعطاء البحر ملامح تختلف عن ملامح البحر نفسه عند شاعر آخر. واني أزعم إن البحر الخفيف عند عمر يختلف عنه عند شوقي أو الجواهري مثلاً، وذلك لأن البحر الخفيف عند عمر يسيل سحراً وعذوبة، قلما نجدهما عند غيره من الشعراء.

ج- يختار عمر قوافيه من الالفاظ الرقيقة الانيسة، ويتبعد عن كل جافٍ وخشنٍ منها، كما كان يفعل الرصافي مثلاً. وهو إلى ذلك يستخدم ماقل من المتحركات في القافية. وكان القدماء يميلون إلى استخدام المتحركات الكثيرة بخلاف الشعراء المعاصرين. ويطلق على مثل هذه القوافي ذات المتحركات الكثيرة اسم المتكاوس، أو غيره من الألقاب، حسب عدد المتحركات بين ساكني القافية على النهج التالي (١٦):

١- إذا توالى أربعة متحركات بين الساكنين فهو المتكاوس كقول الشاعر:

إذا فيه الذي لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمه

فالتحركات هي الصاد والقاف والبدال والميم في آخر الشطر الثاني

٢- إذا توالى ثلاثة متحركات فهو المترابك كقول الشاعر:

إذا تضايق أمر فانتظر فرجاً فأضيق الأمر أدناه من الفرج

والمتحركات هي الفاء والراء والجيم في لفظه (الفرج)

٣ - اذا توالى متحركان فهو المتدارك كقول الشاعر:

عن الفتى يجبرن عن فضل الفتى

والنار نخبة بفضل العنبر

والمتحركان هنا هما الباء والراء في لفظه العنبر

٤ - اذا وقع متحرك واحد فهو المتواتر كقول الشاعر

يجود بالنفس إن ضنَّ الجواد بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

والمتحرك الواحد هنا هو حرف الدال في لفظه (الجود).

٥ - اذا اجتمع ساكنان في القافية فهو المترادف كقول الشاعر:

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

والساكنان هنا هما سكون الالف وسكون الدال في لفظه (الجواد) وكذلك في لفظه (الطراد) لأنَّ

البيت مصرع.

ويميل الشعراء المعاصرون وعلى رأسهم عمر الى استخدام الانواع الاخيرة من القوافي. وهي ظاهرة

قلما يتنبه لها أحد من النقاد. وكنت قد تحدثت عنها في موضع آخر فلا ضرورة للتوسع والتفصيل.

٣ - وفوق ذلك كله كان عمر يضيق ذرعاً بما أدخله الشعراء المحدثون على القصيدة العربية من تغييرات

وتشوهات. فكان يرفض ان يستمع الى مايلقونه من شعر، بل كان يصب عليهم جام غضبه ونقمته، كلما

وجد مناسبة لذلك. وفي إحدى المقابلات الاخيرة التي أجريت له في إحدى المجلات، ذكر أنه شتم إحدى

الشاعرات المحدثات، وطردها بقسوة، لأنها قرأت عليه مالا يقبله أو يتذوقه مما يسمونه شعرا. ولا غرابة

في ذلك. فالذي يتذوق الشعر، كما يتذوقه عمر واضرايه، لا يمكن أن يقبل ذوقه ولا عقله، مايطلع به

الشعراء المحدثون على الناس من كلام يزعمون أنه شعر.

وصفوة القول بهذا الشأن أن التجديد يكمن عند عمر، لا في تطوير الاوزان الشعرية وتغييرها، بل

في اختيار مايناسب ذوقه وغرضه منها، مع الحرص على النغم العذب واللحن المرقص المنبثق من اللفظة

المتقاة والعبارة الرشيقة الانيقة.

رابعاً: معانيه: لا يكتسب عمر معانيه من الفلسفة أو العلم، كما كان يفعل العقاد مثلاً، بل هو يكتسبها

من حياته وتجاربه. وهي معان تتسم بالجدة والطرافة، لأن عمر لا يلوك معاني غيره، ولا يخشى وراء افكار

سواه. فهو يتغزل حقاً، ولكنه قوي الشخصية في غزله، بحيث لا يترك مجالاً لأن يتهمه أحد بأنه يتكئ

على معاني غيره من القدامى والمحدثين. وإذا أردنا أن نبحث لعمر على شبيهه في القديم أو الحديث لانجد

وحسبنا أن نمثل على تفرده في معانيه الغزلية بقوله في وصف مفاتن لبنان وذكرياته فيه^(١٧):

يامغاني لبنان هل هجع السهار وانفض عقدهم يامغاني؟

اين واد لنا سهرنا عليه والليالي مطروفة الاجفان

كل أرجائه من المتع البيض تغور تصيح يامن يراني
فهذه الحسرة على ما فات من ذكريات الشاعر الجميلة في ربوع لبنان، وهذه الصور البديعة لليلي
المطروفة الاجفان، ويقصد بذلك أنها كانت ساكنة غافلة عما هو فيه من سعادة وهناء، وهذه الثغور التي
تصيح بالآخرين لكي يروها، كل ذلك من المعاني الجميلة التي لاتنساق لغير عمر.
إن عمر أبا ريشة مجدد في كل هذه المواضيع والموضوعات. ومظاهر التجديد بارزة متجلية في هذا
كله، فلا مجال لتجاهلها أو إنكارها. ولقد عرف هذه المظاهر ولمسها كل من اتصل بشعر عمر من قريب
أو من بعيد، ولم يستطع أن ينكر ذلك أحد، فهو من الشعراء الذين انعقد الاجماع على تفوقهم واعلاء
شأنهم.
وخلاصة القول في موضوع عمر أبي ريشة أنه كان شاعراً عربياً كبيراً، يقف على رأس مذهب شعري
رفيع. ولو التمسنا سمة بارزة له ولشعره، لقلنا انها الطرافة. فهو شاعر طريف في صورته وخيالاته، طريف
في افكاره وموضوعاته، طريف في صياغته الشعرية التي لانجد لها مثيلاً لا في قديم ولا في حديث. وقد بلغ
في الشعر مرتبة راقية قل من يستطيع أن ينافسها فيها. ولو كان غزير الانتاج كشوقي أو كالجواهري، لما
فضلنا عليه أحداً من الشعراء رحمه الله وأجزل مثوبته.

حواشي البحث

- ١- من أعلام العرب، عبد الله حلاق، حلب ١٩٧٨ ص ٨٧ وما بعدها.
- ٢- ديوان من عمر أبي ريشة شعر ص ١٢٥.
- ٣- نفس المصدر ص ١٩٩.
- ٤- قصيدة نشرت في حينها ولم يثبتها عمر في ديوان.
- ٥- ديوان عمر أبي ريشة، دار العودة، بيروت / ١٩٧١، ص ٥٣
- ٦- الجامع في تاريخ الادب العربي، دار الجبل - بيروت ١٩٨٦، ج ٢ ص ٥٣٦
- ٧- نفس المصدر والمكان
- ٨- قضايا الشعر المعاصر، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٤٧ وما بعدها.
- ٩- دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩، ص ٢٢٩ وما بعدها.
- ١٠- عمر أبو ريشة، شاعر الجمال والقتال، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٣، ٤١ وغير ذلك.
- ١١- من أعلام العرب، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣.
- ١٢- الجامع في تاريخ الادب العربي، مصدر سبق ذكره، ج ٢ ص ٥٣٦.
- ١٣- ديوان (من عمر أبي ريشة شعر) ص ١٥٤.
- ١٤- ديوان بدوي الجبل، دار العودة - بيروت، ١٩٧٨ ص ١٢٨.
- ١٥- من مقدمة ديوان نعمة الحلاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢ ص ١٢، ١٣.
- ١٦- علم الادب، الاب شيخو اليسوعي، مطبعة الاباء اليسوعيين - بيروت (بلا تاريخ) ص ٤١١.
- ١٧- ديوان (من عمر أبي ريشة شعر) ص ١٨١.

ادب ونقد

الطاهر وطار ورواية عرس بغل

شمس الدين موسى

قليلة هي الأعمال الأدبية والفنية التي تصلنا من المغرب العربي ، بل قليلون هم الكتاب الذين تعرفنا عليهم بشكل واسع من ذلك القطاع الحميم ، من وطننا العربي الكبير - المغرب العربي - ففي فترة ما ، تعرفنا في المشرق على كتاب عظام ، حملت أعمالهم لنا الكثير من العبق ، والملاح الخاصة بواقع الحياة والإنسان ، ومختلف العلاقات هناك ، وكان هؤلاء هم مولود فرعون ، ومحمد ديب ، ومالك حداد وغيرهم ممن كتبوا أعمالهم الروائية والقصصية باللغة الفرنسية ، وكسرت حاجز المسافة والحصار ، الذي عاش داخله العربي في الجزائر على وجه الخصوص ، كسجين لثقافة ، وتعليم ، ولغة فرضها عليه المستعمر الفرنسي ، طوال ما يزيد على قرن وثلاث . . حتى برز جيل جديد آخر ، جاء عاشقاً للغة العربية والثقافة العربية ، بل إن وجدانه الفني ، تطور وتخلق مع انطلاقة شرارة الثورة وحرب التحرير الجزائرية . . ومن هؤلاء الشباب الذين عشقوا العروبة ، وحلموا بتغيير واقعهم الرائج تحت المفردات الاستعمارية - كلغة ، وثقافة ، وأسلوب حياة - الكاتب الجزائري « الطاهر وطار » الذي ولد عام ١٩٣٦ ، وعاش صباه وشبابه ، مع الإرهاص الكبرى لحرب التحرير الجزائرية ، فنبض بها وسارت مع أنفاسه

نقل من مصر.

ووجدانه ، مسرى الدم في العروق . وكان « للطاهر وطار » موقفه الجهادي الأعظم من معركة التعريب ، وصيغ ثقافة الجزائر التي شوهت ، بالصيغة العربية ، وساعده على ذلك عدة عوامل هي :

- ١ - نشأته بالبادية كفلاح ، لأسرة من الفلاحين .
 - ٢ - تلقيه التعليم التقليدي ، الذي بدأ بحفظ القرآن بالقرية .
 - ٣ - تحصيله الدراسي بعد ذلك بمدارس جمعية علماء المسلمين بالجزائر .
 - ٤ - التقاؤه بعيون الثقافة العربية شعراً ونثراً ، واتصاله بالأدب الحديثة مثل القصة والرواية .
- فتلك العوامل ، كانت بمثابة حجر الزاوية الأساسي ، في تكوينه العقلي والنفسي ، الذي وصل إلى حافة الإبداع الفني ، مع انطلاقة شرارة الثورة المسلحة بالجزائر عام ١٩٥٤ ، مما عمده ككاتب قصة باللغة العربية ، وفيما بعد ان إنتقل إلى التعامل مع الشكل الروائي والمسرح ، عندما كانت الكتابة القصصية في الجزائر ، لا تزال نادرة في ذلك الوقت ، وكانت الأدب التي نستطيع أن نعطيها التسمية الجزائرية في ذلك الوقت ، سجيبة لحاجز اللغة الفرنسية الذي ضرب على المبدعين الجزائريين منذ طفولتهم ، والذي أرقتهم أحوال مواطنيهم ، فكتبوا أعمالاً عظيمة مثل ثلاثية محمد ديب الشهيرة « الدار الكبيرة ، والنول ، والحريق » التي شاعت في كل أنحاء العالم ، وترجمت بعد ذلك إلى العربية وكما يقول « الطاهر وطار » في حديثه الصحفي مع « نبيل قاسم » عن تجربته القصصية :

« كتابة القصة في الجزائر كانت نادرة ، وجاءت أقرب إلى المقالة القصصية . وحين كتب « رضا حوحو » فصله ومسرحياته الرائدة في الحجاز ، كانت أقرب إلى الحكايات والحوادث ، بينما كانت القصة والرواية والمسرحية المكتوبة بالفرنسية مزدهرة عندنا ولها مكانتها وجمهورها . وحظي كتابها بشهرة عالمية في هذا الوقت ، وعبرو فيها عن روح الشعب الجزائري ، وعن مقاومته للمستعمر وحضارته . أما الأدب الجزائري المكتوب بالعربية ، فقد ازدهر فيه الشعر والمقال فقط . وكان علي أن أسير في الطريق من بدايته ، فبدأت بالقصة القصيرة في تونس ، وفي مناخ ثقافي مختلف ، ثم كتبت المسرحية ، ثم الرواية بعد الاستقلال في عام ١٩٦٥ . . . »

ومن أعمال « الطاهر وطار » التي شاعت ونالت حظها من الشهرة على مستوى العالم العربي ، رواية « اللازم » ، ورواية « الزلزال » ومجموعته القصصية بعنوان « الشهداء يعودون هذا الاسبوع » فضلاً عن الأعمال الأخرى التي لم تصل كل البلاد العربية .

والملاحظ ، أن رواية « عرس بغل » تعتمد على مجموعة من الاحداث العادية ، التي نجح الكاتب في توظيفها من أجل توصيل دلالات أعمق ، فالوعي الثقافي العميق للكاتب ، وبطله الحاج كيان جعل للرواية عدة أبعاد تجاوزت بها أحداثها الخارجية ، فنجد أنها تتغلغل في التاريخ من ظلال أحد أبطالها . ومفردات الرواية تحدث داخل أحد بيوت اللهو والحظ التي كانت تنتشر بالجزائر ، وأبطالها مجموعة من الرجال والنساء اللاتي يعملن داخل هذا البيت ، أولاهم « العنابية » التي تدير البيت لحسابها ، فهي صاحبة المعتملة ، ذات جمال قديم ، وان لم تصل إلى مرحلة التقاعد بعد ، يكن حسنها واضح . تمتلك « العنابية » البيت الذي توظف داخله مجموعة من النساء والفتيات . حياة النفوس يرتفع بها الكاتب لمستوى من البراءة والجمال

والفتنة رغم انغماسها وسط ذلك العالم المزري . والوهرانية وعلجية الخ وغيرهن من النساء والفتيات .
والرجال هم «الحاج كيان» ، و «خاتم» ، و «حمود الجيدوكا» والفلاح الثري القادم من البادية ، الذي
لا يعطيه الكاتب اسماً مما يجعله رمزاً . وهم جميعاً اما رواد للمكان ، أو يعملون داخله . والعناية تترأس
النساء والحسان اللاتي يعملن باسمها ، حيث يحضر زبائنها الذين يعرفونها منذ كانت صبيرة فاتنة ، والجميع
يعمل وفق شروطها . ووسط مختلف التناقضات من ذلك العالم المزري - التي قد تدفع برجل ما ، وبقوة
الذراع ، والبلطجة الى استنزاف واستغلال الفتيات والنساء ، فيخضعن له ، تحت تأثير قوته ، إلى أن يأتي
من هو أقوى فيستطيع إخضاع ذلك القواد ، وانتزاع نفوذه وسلطته على الفتيات ، فيطرد ، ويبارس دوره
الاستنزافي لهؤلاء المساكين العاملين في المكان من النساء والرجال ، بما فيهم صاحبة الدار نفسها . وذلك هو
ماحدث لحمود الجيدوكا الذي خضع «لخاتم» تحت تأثير قوته وبطشه ، والذي كان اكثر شبهاً بفتنة ،
فيطرده ، ويصفو له الجو بالاستئثار بالعناية صاحبة البيت ، ويبارس معها الاغواء بينها العلاقة بينها غير
عادية ، فهي علاقة غير متكافئة ومرضية ، فتبارس معه الامومة ، المحرومة منها ، كما هو يبادلها ذلك
الاحساس والشعور ، رغم تعقد مشاعرهما فهي تريد الزواج منه ، وهو يريد الزواج منها طمعاً فيما تملكه
من اموال ، ونفوذ ، على هؤلاء الفتيات ، خاصة «حياة النفوس» ، وهي اجمل الموجودات ، وأكثرهن جذباً
للآخرين . والتي تدور بسببها المعارك داخل المكان .

فحياة النفوس في الرواية - زهرة برية جميلة ، تشيع الكثير من الدفء والروائح الطيبة من حولها ، وكثيراً
ما تشغل الغيرة والحقد بين الأخريات بسببها . يرتفع بها الكاتبة لدرجة متميزة بين هؤلاء الساقطات .
يطمع فيها «حمود الجيدوكا» كما يطمع فيها خاتم رغم علاقته بصاحبة المكان . وهو اها الرجل الثري القادم
من البادية ، ويعرض عليها الزواج ، فحبه لها من نوع خاص . انه اكثر مودة لها ، وعواطفه تجاهها كاملة
لا يشوبها رغبة في استغلال ، وان كانت تشوبها رغبة الامتلاك خلال عقد الزواج . . . ويقول في نفسه . .
«أخذها الليلة بالذات نهي الاجراءات القانونية تنزوح ، ينتهي الامر ، تبقى الأولى التي زوجني بها أبى
قسراً في البادية ، وأعيش مع هذه الفاتنة حياة النفوس في المدينة ، ولن اغادر العاصمة حتى أعود بها .

- ماذا قلت يا حياة الحلوى ، هل نسافر الليلة؟

- إلى أي ياروح عيني؟

- إلى دارك يا عزيزتي .

- ولكن لم كل هذه العجلة . هل شبعت مني هكذا فأردت أن تمسخني الى زوجة .

- لا يا حلوة الحياة ، صلاة الفاهمين ماذا يبطنها؟

- أنا صغيرة ، لم أشبع من دنيائي بعد ، وهذا وعد الله المكتوب ، وان شئت الصراحة ، أرفض ان أخرج في
الوقت الحاضر . لم أجمع ما يكفي من النقود ، ولم أحصل على ما يرضيني من الحلي . من وصل الى الماء يجب
أن يرتوي ياروح روحي» .

فالفاتنة الفاتنة حياة النفوس في ذلك ، المكان الموبوء ، هي الواحة الظليلة التي يريد الجميع ان يأوي
اليها . فالكل يعشقها ويتمنى رضاها ، حتى الفتيات داخل ذلك المكان ، وخاتم ، والحاج كيان ، والجيدوكا

والمعلمة «العناية» ولا عجب أن يقع في عشقها ذلك الثري القادم من البادية فيريد أن يتزوجها.

«تعدد الصراعات داخل الرواية»

والقارئ المتأنى لرواية «عرس بغل» لابد أن يلاحظ دون جهد، أن الرواية تزخر بالصراعات والتفاصيل، وكلها صراعات مترابطة، وأبعادها متعددة ومادية في معظمها، وتدور حول الاستحواذ على المال، أو على الجنس، فتلك الحافة - العالم - أو هذا المكان الذي لن يتم فيه حفل الزواج أو العرس بين العناية التي أوشكت على انهاء سنوات الشباب، وذلك الشاب الصغير «خاتم»، وهو البلطجي الذي أطلق عليه المؤلف بغل، فالعرس عرس بغل، وتلك تسمية الحاج كيان في الرواية، فكل من العروس العناية، تلك المشوقة القديمة للحاج كيان، والفتى «خاتم» الذي يريد الاستحواذ على المكان وصاحبه، ومن به من أموال وفتيات، من أجل تحقيق مأربه النهائي، بالاستيلاء على «حياة النفوس» مطعم الجميع. . يدوران خلف بعضهم ومن حولها الآخرون في عملية سياحة تأخذ معنى أكبر من المعنى المباشر لفكرة العرس، فالحانة - ذلك المكان - هي الدنيا اللاهية والمثلهبة بالصراعات المترابطة فوق بعضها، والتي يدير الحاج كنان جزءاً منها، وتدير العناية جزءاً آخر، والآخرون هم أدوات الصراع التي تعمل العناية على تجميعها، ومنهم الفتيات الجميلات اللاتي يستحوذن على الاعجاب. بينما بقية الصراعات الصغيرة تدور بين الافراد الباقين والبنات اللاتي يعملن في المكان. كل بحسب قوة عقله، أو عضلاته أو كثرة أمواله، وعمق طموحه المعنوي، وارادته في تغيير ذلك العالم المزري إلى عالم فاضل مثلما يرغب الحاج كيان.

ولا يتم العرس، الذي كان بموجبه يستطيع «خاتم» ذلك البلطجي على المكان وصاحبه وأموالها، وذلك بتدبير الحاج كيان الذي لا يتخل عن العناية، فهو موضع ثقته وأسرارها. كما تقول انه بالنسبة للجميع بمثابة الأب كما يظهر من الحوار التالي :

« تسأل العناية خاتم عندما تقع في وله، ويكون هو السيد على المكان :

- لا بد أن أعرف مصير «حمود الجيدوكا»، وإلى أين يذهب الحاج كيان ؟
- لن يطول أمر ذلك .

ثم يلتفت إلى العناية، معلناً بابتهاج .

- وهكذا لا أحد ضروري في هذا المكان، كما ترين الضروري الوحيد هو هذا الذراع، القوة .
فتقول له :

- كما يروق لك يا ختومة - إلا أن الحاج كيان ضروري إنه أب وأخ جميع الصانعات هنا، أنهن يبكين في صدره حين تمتلئ عيونهن بالدموع يا ختومة . . . »

من هنا تتضح قيمة تلك الشخصيات معنوياً - الحاج كيان - الذي يكون له التدبير الناجح والنهائي، في انقاذ العناية من براثن تدمير خاتم والعصابة، التي جمعها في الجزء الأخير عند تمام العرس،

حيث كان يريد اثناء العرس ، أن ينتزع جميع مخزونها من أموال وجواهر ، بل وربما لن يتم الزواج منها ، بل الزواج من الفاتنة الجميلة حياة النفوس التي سال لعابه عليها أكثر من مرة .
 يستخدم الحاج كيان العقل والحيلة والقوة ، من خلال استخدام التناقضات الموجودة ، وإدارة الصراع وفق ما هو موجود حوله . فالبدوي الثري أحد مصادر القوة ، ويمثل القطب الهام ضد خاتم يستطيع الحاج كيان استخدامه بمهارة شديدة ، مع من احضره من رجال اخفاهم لاظهارهم عندما تظهر عصابة « خاتم » ، وكان له في النهاية السيطرة في المكان بين الذين دعاهم من كل ناحية .

« وقفة مع شخصية الحاج كيان »

جدير بالملاحظة ، أن الرواية احتوت على شخصية هامة للغاية - هي شخصية الحاج كيان ، التي حملها الكاتب بالكثير من الدلالات ، فهي شخصية مزولست شخصية عادية . الحاج كيان رجل طيب ، أصابته الحكمة والثقافة ، أحب العناية في شبابه ، عندما كان لا يزالها أحدى سوى الوهرانية ، أو حياة النفوس اللتين تحماكيان جماها صباها الذي اوشك على الانتهاء .

يأتي الحاج كيان الى الحانة طوال الأسبوع باستثناء يومي السبت والأحد ، كما يبغض الجنود . في يومية هذين « السبت ، والأحد » هب ليمارس وحدته ويمد نفسه بالكثير من الطاقات المعنوية حتى تعينه على الحياة ، فهو منكب على معرفة التاريخ والفلسفة والفكر في أنواعها . هو المثقف الذي يعيش داخل احلامه ، لتحقيق العدل المطلق ، بعد أن أصابته الحياة بالكثير من الجراح . عندما يحضر الى المكان يومياً يرتب نفسه على المبيت مع واحدة ، فكل يوم واحدة يبيت في غرفتها لا من أجل ممارسة الرزيلة ، بل من أجل تثبيت دعائم لانسانيتها التي تهدر في كل لحظة ، والحنو عليها كأب ودود . كما أنه يوزع عليهن الحلوى التي يشتريها ، كما يحب العسل والتدخين ، نال اساس تعليمه في جامع الزيتونة بتونس ، وهو أحد قلاع الثقافة التقليدية والدينية بالمغرب العربي ، وذلك مثلما يطرد منه لتعمقه في الفلسفة التي رفضها اساتذته ، بالاضافة الى أنه حالم دائماً ، وإن لم يجذبه ذلك الحلم بعيداً عن الواقع ، الذي احاط بالرواية ، فلقد تعلم أن يدعو الى الله حتى في المواخير ، كما نقل اليه فيما روى امامه عن الشيخ حسن البنا ، فصدقه . ويدور الحوار التالي بينه وبين زملائه :

« هل علمت شيئاً عن الباطنية والشيعية والخوارج وأسلوبه التقية . إننا هنا ، لأننا تحت حكم الكفار ، نتبع التقية .

- ولم ذلك ؟

- لقد ألقى القبض على بعض الإخوان المسلمين في مصر .

- اعتبروني منكم سأكرس حياتي للجهاد في سبيل الله .

- تعال الى غرفتي في الليل ، كي أعطيك بعض الكتب والوثائق .

- شكراً .. هل صحيح أن حسن الشيخ ؟

- قل الإمام حسن .
- الإمام الشيخ حسن .
- الإمام تكفي . ما به ؟
- هل صحيح انه يدعو حتى في المواخير .
- لقد هدى الله على يديه أكثر من بغى .
- ومن يدعو هنا في المواخير ؟
- لم نصل إلى تلك المرحلة بعد .
- سأفعل ذلك .
- ماذا تقول ؟
- منذ الليلة . . .

يذكر الكاتب تلك المواقف التي مرت بالحاج كيان على طريقة الاستدعاءات الماضية ، فيعمق شخصيته ويبرر الكثير من تصرفاته ، بل إنه يلقي الضوء على مكوناته الفكرية الأولى ، بالإضافة الى عزله الروحية الحالية والتي كانت تجعله يعيش وسط القبور . . . ولقد بدأت نقاط انطلاقته الاولى ، من جامع الزيتون بتونس ، وكان طرده بسبب أحلامه نحو تغيير العالم ، والتي تعارضت مع الكثير مما هو قائم وراسخ في نفوس اساتذته . وكانت شخصيته ذات ابعاد متعددة ، فعلى الرغم من عزله ، الا أنه كان محباً للحياة ومقدراً للجمال ، بل ان الكاتب يظهر في الرواية ، جوانب من نفسيته الشاردة ، مما يجعل لتلك الشخصية أهمية ، شديدة في الارتفاع بالرواية لمستوى اعلى من مجرد سرد الأحداث والتفاصيل الطريفة ، بل يصل بها الى مستوى الرمز الذي يشي بدلالات كثيرة ومختلفة . فالصراع الدائر في ذلك المكان صراع مستمر وبين فئات طفيلية ، « القواد ، والخدام ، والمعلمة » ويستخدم فيه - البدوي كأحد أقطاب القوة ، مما يشي بدلالته البعيدة . فالكاتب يقول أن الصراع الذي حسم بين البدوي والقواد خاتم حسمته القوة العضلية للبدوي وفتوته ، لكنه لن يحسم على مستوى الحانة ، الا بالذكاء والفهم الكامل بطبيعة القواد والمجموعة التي اعددها من البلطجية ، كي يستولي على أموال الحانة اثناء حفل الزواج أو العرس ، وهو ما استخدمه الحاج كيان . ووسط كل ذلك ، حياة النفوس ، رمز الحاضر الجميل ، بل رمز الحياة والمستقبل الذي يريد تملكه كل واحد ، مهما كان موقعه في ذلك البيت الزري ، وتظل مطمئناً للجميع ، حتى المعلمة التي تغار منها احياناً ، وتعطف عليها في احيان اخرى باعتبار أنها صورة منها في شبابها وصباحها . وذلك باستثناء الحاج كيان ، الذي لا يبدي مطمئناً خاصاً فيها ، رغم تقديره لحسنها ، وبهائنها .

وفي النهاية - فإننا نرى في رواية « عرس بغل » عملاً روائياً غنياً بالدلالات استخدم الكاتب في كتابته لغة خاصة ، تجاوزت اللغة المباشرة بل كانت فنية الى حد كبير ، ولا يعيبها الا كثرة التفاصيل في احيان كثيرة ، كما نلاحظ فيها الجذور الثقافية الاولى للكاتب ، كما نشاهد الرمز الذي استخدمه كثيراً « نجيب محفوظ » في القصص والروايات التي أظهر فيها عالم الفتوات والحانات ، وهو الرمز الغني بالدلالات التي تتجاوز بالرواية تفاصيلها واحداثها الخارجية .

أدب ونقد

دراسة

في نماذج من شعر الانتفاضة

عروبة حموي

تتوجه هذه الدراسة الى تسليط الضوء على جانب فعال من جوانب الانتفاضة، وهو الشعر المعبر الوجداني عن العمق الإنساني، وعن الأبعاد التي تشكل خريطة الوطن الجسد، الوطن المتألف مع النفس، والمتردد مع ترددات الروح.

ولا أدعي أنني سأستوفي كل ملامح شعر الانتفاضة، لأنها مهمة صعبة، وخاصة أن شعر الانتفاضة شكل كما كبيرا، أكبر من أي شعر كتب لمناسبة وطنية مهما كان حجمها. إلا أنني أرجو أن أخلق نوعا من التواصل بين النماذج المختارة، وأن أبرز بعض الملامح والصفات

التي غلبت على قصائد الانتفاضة، وهي نفس الملامح التي يتميز بها أي شعر وطني عاطفي كتب تعبيراً عن مناسبة وانفعل معها، وحاول ان يشرك وجدانه، أو أن له صوت في قصيدة ما.

والسؤال الذي يطرح الآن، هل ما يدعى بشعر الانتفاضة يعبر عن قوة الانتفاضة، وعن عمقها؟ وهل هو أدب فاعل، أم أدب منفعل؟ «لأننا تعودنا أن نسمع عبارتين ترافقان كل أدب يخرج الى مجال التحقق كمرافق للأصوات الكبرى، هاتان العبارتان، هما الأدب الفاعل، ويقصد به التعبير الفني الذي تغلب عليه صفة الانفعال الآني، والذي يكون في الغالب تعليقاً على الأحداث من الخارج، أو متسلقاً ومكتئباً عليها، وسرعان ما يمر ويتلاشى بمجرد مرور التوهج الذي يرافق الحدث»^(١).

وفي اعتقادي، أن أغلب قصائد الانتفاضة، تنتمي الى الأدب المنفعل، أو أدب المناسبة، وهذا الأمر ليس إنقاصاً من حجم وعمق الانتفاضة، لأن «كل أدب عظيم يدافع عن قضية عظيمة، لكن القضايا العظيمة لا تولد دائماً أدباً عظيماً»^(٢).

فالقوة التي اقتحمت بها الانتفاضة مخيلة الشعراء، والزخم المفاجيء، جعل معظم الشعراء، عاجزين عن الدخول في هذا الملكوت، الذي يسمو على آفاقهم الشعرية. «فلكي نكون جديرين حقاً بشرف الانتفاء، يجب أن نبذع كلاماً آخر جديداً كالمفاجأة، طازجاً كالبراعم، حنوناً كحليب الأم، عميقاً شطحات الصوفية. ومن دون ذلك، فإننا سوف نسيء الى الانتفاضة، التي لم تعد بحاجة اليها على الاطلاق». فأغلب من كتبوا عن الانتفاضة، يجثرون ما قاله شوقي في عمر المختار، أو خليل مردم في يوسف العظمة، أو عمود درويش في أحمد الزعتر.^(٣) فالكتابة عن الانتفاضة أمر صعب جداً. وقبل أن نكتب عن الانتفاضة يجب أن نتنفس هواءها، ونتجرع ماءها، ونحترق بنارها، وإلا فإننا في أغلب الظن لن نارس سوى الاجترار. ومع ذلك فنحن مطالبون بمشاركة، ولأننا لا نملك من أسباب المشاركة سوى الكلام فما أشقانا إذن بين بني البشر، وذلك لأننا وحدنا نعرف أية تفاعله في اللعبة التي لا بد لنا من أن نلعبها»^(٤).

والانتفاضة كحدث قومي هزّ مشاعر إنسان العربي من المحيط الى الخليج، وهز مشاعر العالم، وأعاد تشكيل وجوهنا وملامحنا العربية، وجعلنا نحس بإنسانيتنا ووجودنا. هذه الانتفاضة أعادت تشكيل حياتنا الثقافية بكافة أبعادها. «لأن الانتفاضة بقدر ما هي بعد سياسي واقتصادي، وهي أيضاً بعد ثقافي، على أساس أنه، اذا اعتبرنا أن دور الثقافة، هو تطوير الشخصية الانسانية، ونقلها من مجال الخضوع والامتثال الى مستوى الحرية والفعل الطليق، فإن رامي الحجارة في شوارع فلسطين، يعبر في حجره أيضاً، عن مستوى جديد من الفعل الثقافي، والوعي الأنساني، والنزوع الى الحرية»^(٥).

وحتى لا نخرج عن الموضوع الأساسي، نعيد السؤال من خلال ما تقدم - باعتبار الانتفاضة بعداً ثقافياً له دوره في تحرير العقل العربي من التعفن والترسبات القديمة المتراكمة عليه منذ سنين - لماذا هذا البعد بين تشكيل القصيدة وبين الانتفاضة، بينها وبين لحظة من لحظات الانتفاضة؟ لماذا هذا التصاغر أمام حجم الانتفاضة؟ عندما وقف الشعراء أمام الطفل اكتشفوا كم كانوا صغاراً، وكم كان شعرهم وخيالهم ضحلاً. واكتشفنا جميعاً كم كنا ضعفاء أمام صمود الطفل في أرضه، وكم نحن فارغون وتافهون

بها نكتب، لأننا نكتب بأقلام من الحجر، والطفل يكتب بالدم، ولا يمكن أن نبدع إلا عندما يمتزج الحجر بالدم. عند ذلك تضح القصيدة بالحياة، «فإذا كان ما يكتب بالدم غير الذي يكتب بالحجر صحيحا، فإنه لصحيح أيضا، أن الدم والحجر قد امتزجا في تاريخ الكفاح البشري امتزاجا عجيبا، هو الشعلة المقدسة التي أطلعتها عالية الثورة والانتفاضة معا. (٦)» لكن هذا التآلف وهذا الامتزاج كان قليلا جدا في قصائد الانتفاضة، وإن شكل ظاهرة جديدة وشكل منعظا في أدبنا العربي، إلا أنه لم يدخلنا إلى الأعماق التي توصلنا إلى الجوهر الحقيقي للانتفاضة، حتى أننا فوجئنا بأن أغلب الشعراء استخدموا بقصائدهم حجارة مزورة، وحشروها في قصائدهم، ظنا منهم أن كمية الحجارة في القصيدة ترفع من شأنها، ناسين ما سبوه من تحطيم لجوهر الشعر المقدس، حتى أن «كمية الحجارة التي استخدمها الشعراء العرب في قصائدهم تفوق كمية الحجارة التي أطلقها أطفال فلسطين باتجاه العدو، لكن الفرق بأن تلك الحجارة استطاعت أن تحدث خدوشا على الأقل في جبين الجنود الاسرائيليين، ولكن الحجارة الشعرية لم تستطع أن تحدث خدشا واحدا في جسد الوجدان العربي» (٧).

ومن هذا القبيل أمثلة كثيرة امتلأت بها الصحف والمجلات. وقد اخترت قصيدة تمثل هذا الأمر أكثر من غيرها. وهي قصيدة ل «كاظم السهوي» وقد عنونها بحجرين «حجر حجر» (٨) واختتمها بكومة من الحجارة، فجاءت الخاتمة على الشكل التالي

حجر . . . حجر

حجر . . . حجر

حجر / حجر / حجر /

هذا بالإضافة إلى الحجارة التي حشاها في داخل القصيدة، وقد أحصيت الحجارة المستخدمة، فبلغت / ٨٥ / حجرا، جاءت بلفظة حجر، بغض النظر عن كلمة «حجارة» التي استخدمها أيضا. كلام فارغ لا يمت إلى الشعر بأية صلة. ومن يقرأ القصيدة لا يجد سوى الحجارة يرمينا بها الشاعر، ولو صمت هذا الشاعر لكان أفضل له من أن يتحف أسباعنا بحجارة يمكن أن نجد الكثير منها على الأرصفة، وتحمل أبعادا أعمق من هذه المقاطع المتحجرة. ولو حذفنا كلمة «حجر» من القصيدة لما تبقى شيء يذكر. فلا صورة شعرية جميلة، ولا لغة شعرية جديدة. فما معنى أن يقول: حجر على حجر . . . حجر

هو ما تبقى / ما تبقى يا حجر

عين حجر / ويد حجر / وفم حجر / قدر حجر

ياجل شأنك يا حجر / ارجم حجر / واهدم حجر وأقم حجر / حجر حجر

ماذا أضاف هذا الشاعر إلى الانتفاضة؟ ماذا أضاف إلى الشعر؟ لم يضيف شيئا سوى كومة من الحجارة السيئة، وهذه القصيدة ليست أقل من الشعر فحسب، بل هي أقل مستوى من الكلام العادي الذي يمكن أن يكون أجمل بكثير، لأنه بعيد عن التكلف، وليست هذه القصيدة وحدها، بل الكثير الكثير مثلها مما نشر وينشر في الصحف والمجلات. وقد وجدت القصيدة لشاب نشرت في بريد القراء في العدد

نفسه الذي نشرت فيه قصيدة «كاظم»، فوجدت فيها العمق الذي يؤهلها لتنتشر مكان قصيدة كاظم،
وتحذف قصيدته. فقصيدته الشاب جاءت بلغة جميلة تناسب بصدق واضح، بعيد عن التكلف والغنائية
المفرطة. يقول حسين الشويخ في قصيدته «انتهاء الزيف والميلاد»^(٩)

يا واحة الفقراء

إن العمر إله البنفسج

وإن الإله مظلة العشاق / ولون العوسج

مقدمة رقيقة، شفافة، ناضجة بما تحمله من بعد شعوري عميق، ويتابع الصورة بعمق أقوى،
وتفهم للواقع منطلقاً من معاناته، راسماً لنا خطى المستقبل القادم على أيدي الأطفال:

حاملاً رغيف الأنهار / والملاجئ وغبارك

هويتي في منقأ / غليانك

والجدول / و فراش البحر / والغمام

وزحام المنفى واقتدارك

وكثيرة هي الأمثلة على هذا النوع من الشعر، وكثيرة الموازات بين الانفعال الصادق وبين الانفعال
التكلف، . ويقول الشاعر شوقي بزيع في لقاء معه في مجلة المنابر البيروتية:

«إن ما قرأته من قصائد ومقالات حول الانتفاضة التي تجري في الأراضي المحتلة هو قليل الأهمية جداً، اذا
ما قيس بعظمة الانتفاضة وقوتها المعنوية والمادية، وللأسف رأيت الكثير من الشعراء كتبوا قصائدهم تحت
إلحاح المناسبة، أو الظرف، وكأنهم يريدون أن يبرثوا ذمتهم من الانتفاضة، ويقولوا للناس، إننا فعلنا ما
يتوجب علينا، معظم القصائد كانت تخلو من العقل التغيري الحقيقي، من النبض الذي يجب أن يوازي
نبض الانتفاضة، ونبض الدم في عروق أطفال الحجارة...»^(١٠)

فقصائد الانتفاضة لم تنضج بعد لتصل الى المستوى المطلوب. أولنقل إن قصيدة الانتفاضة لم تكتب
بعد إلا بإقلام قليلة، وبمستويات متفاوتة، ومعظم القصائد كانت تقترب من صيغة النشيد البسيط الذي
يتغنى بهذا الحدث الكبير، دون أن يرسم رؤى عميقة تمتد جذورها في عمق الحدث.

وقد ظل الشعراء يدورون في دائرة مفرغة، وسيطرت عليهم الخطابية في أماكن متعددة، والبساطة في
أماكن أخرى إلى جانب المباشرة في الطرح و السطحية في التعبير. يقول حسان حويش^(١١) (وكما سنلاحظ
منذ البداية يقع بين برائن الغنائية المفرطة والتكرار اللفظي غير الضروري لإطفاء الغنائية على القصيدة،
فهو لم يقدم أية صورة عميقة أو جمالية تزيدنا متعة ومعرفة بالحياة والواقع المحيط، وإنما اكتفى بإطلاق
تأوهات باردة معتمداً على موسيقى القصيدة الخارجية):

أواه يا وطني الحبيب

من موتنا العربي تبتدىء

الولادة والبشارة والأصالة.

فلتصمتي يا كل أصوات التخاذل

والتهاون والنذالة .

فلتسقطي ياكل اشكال الوضاعة

والخيانة والعرالة

ومن القصائد التي أخذت سمة النشيد الخطابي الحماسي البسيط الواضح قصيدة الشاعر الفلسطيني «سميح القاسم» (١٢)

فهو يعبر عن فرحه واعتزازه بهذه الانتفاضة ، ويعتبر سميح ان هذه المعاناة لا تصل الى الآخر إلا بهذا الشكل المبسط أو ذلك ، فكان صادقا الى درجة العفوية في التعبير، إلا أن هذه العفوية تتابعت معها الايقاعات الصاخبة التي تحملت بروح المناضل الذي يصيح في وجه الطغيان :

تقدموا

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم

تقدموا

فالقصيدا تعد جرعة من حركات الانتفاضة ونبضة من نبضاتها الصادقة التي يمكن أن تحمس الشاعر وتلهبها، كانت قوية كقوة أولئك الأطفال، إلا أنه لم يستطع أن يخلق لنا لغة جديدة، أو أن يبدع لنا صورة مبتكرة تخرج القصيدة من دائرة الغنائية، غنائية النشيد الحماسي، ولم تستطع القصيدة أن تتخل عن الألفاظ الخطابية المباشرة الأعلانية، ولم تستطع أن ترسم لنا خطا للمستقبل وللطريق القادم . فهي لم تقدم سوى صرخة حارة، صرخة قوية، صادقة منفعة مع الأحداث، وبمتزجة بواقع الانتفاضة في الأرض المحتلة . نقلت لنا دراما واقعية، ولم تنقل لنا صورة جمالية نستشرف من خلالها أبعاد الانتفاضة «أي لم يحقق اللذة الجمالية التي لا تسلبنا من هذا العالم، إلا لتكشف لنا عن عالم آخر» (١٣) .

فسميح القاسم لم يبحث عن هذه الجمالية بقدر ما كان يبحث عن فكرة الصمود التي يريد أن يعبر من خلالها على قوة الحق الفلسطيني . إنه يقدم الفكرة التي يريد بطريقة قوية حماسية، كما عهدناه في أغلب قصائده المقاومة، كما في قصيدة «لن أساوم» التي يقول في بعض مقاطعها :

قد تبقى على قريني كابوسا مرعبا

لكني ياعدو الشمس لن أساوم

والى آخر قطرة سوف أقاوم

فهو دائما يحاول البحث عن الهوية الفلسطينية وإثبات الوجود الفلسطيني بكل ما يملك من أدواته الشعرية، وفي هذا النشيد الذي آثرت أن أسميه نشيد الانتفاضة، لأنه متشبث بقوته ومقاومته، كتشبت الطفل الفلسطيني بحقه وأرضه، فلننظر إليه وهو يقدم لوحة جميلة في الختام تنبض بالحياة التي استمدتها من روح الانتفاضة :

تقدموا

هاهو ذا تقدم المخيم

تقدم الجريحُ والذبيحُ والناكلُ المتيمُّ
تقدمت حجارةُ المنازلِ
تقدمت بكارَةُ السنابلِ
تقدم الرُّضْعُ والعَجْزُ والأراملُ
تقدمت أبوابُ جنينٍ ونابلسَ
أثت نوافذُ القدس صلاةَ الشمسِ
والبخورُ والتوابلُ
تقدمت تقاتلُ

ومن الشعراء الذين بهرتهم الانتفاضة فكتبوا بسرعة، ليكونوا أسبق من غيرهم في الكتابة، الشاعر نزار قباني في قصيدته الأولى التي كتبها عن الانتفاضة بعنوان «أطفال الحجارة»^(١٤)

بهروا الدنيا

وما في يدهم إلا الحجارة

وأصاؤوا كالقناديل وجاؤوا كالبشارة

لم ينجح كغيره من الشعراء من الانفعالية والحجاسة والمباشرة، إلا أنه في قصيدة «الغاضبون» عاد صوته المميز في طرح الواقع العربي المؤلم، وفي إدانته كلَّ العرب، وينذرهم بالنهاية المحتومة، وذلك من منطقية، الأمور وحتمية الحياة، والتغير. وقصيدة «الغاضبون»^(١٥) بقوتها تبرز ضعف القصيدة الأولى، فالغاضبون ترسم بروح شفافة معالجة عميقة للأمور بصور جميلة متميزة، اختص بها نزار في تشريح الواقع العربي. تبدأ القصيدة بصورة لأولئك التلاميذ الأساتذة الذين يعلموننا ما قد نسيناه، فقد نسينا رجولتنا وأصبحنا عجيناً لم نعد نعرف ماهية النضال، ولا كيف نحرر أنفسنا من عقدة الخوف، حتى جاء الأطفال، فاكشفنا رجولتنا من طفولتهم، وعقولنا الفارغة من بعد تفكيرهم.

ياتلاميذُ غزوة علمونا بعض ما عندكم فنحن نسينا
علمونا بأن نكون رجالاً فلدينا الرجال صاروا عجينا
وتابع القصيدة إدانتها للعرب المتخاذلين بما يفعلون ويقدمون من أجل القضية، فهم أصحاب الإذاعات الكاذبة، وأصحاب الحساب والجمع والطرح، والهاربون من خدمة الوطن، الموتى، اليتامى، الخائفون، الصغار، الأصنام، المستبدون، أصحاب السجون، والمقابر، لانعرف كيف نتشبث بالأرض، ضائعون.

كل هذه الصفات والاتهامات يقدمها نزار، ويقدم البديل عنها أطفال فلسطين.

ياتلاميذُ غزوة لا تبالوا بإذاعاتنا ولا تسمعونا
إننا الهاربون من خدمة الجيش فهاتوا جبالكم واشنقونا
نحن موتى لا يملكون ضريحا ويتامى لا يملكون
قد صَغُرْنَا أمامكم ألف قرن وكبرتم خلال شهر قرونا

ولكن هذا الربط بين التراجع العربي، بين العربي المهزوم والطفل المتصر، يبقى في مجال الرومانسية، اذا انتظرنا من هذا الطفل تغيير الواقع العربي، دون أن نتحرك، أو نحرك ساكنا. لابد من أجل التغيير من أن نبدأ، كما بدأ الأطفال، أن نفهم واقعنا، كما فهمه الأطفال.

فقصائدنا مجرد أناشيد تشيد بالبطولة والفداء وبشجاعة أولئك الأطفال، وتندد بتخاذل الحكام العرب. فالفرحة الغامرة، والعاطفة المفرطة، شغلتنا عن التفكير، فبقينا ضمن إطار الرومانسية الشعرية مفتقدين للعقل التغييرى في قصائدنا، نحن لانكر عظمة الانتفاضة وعظمة الأطفال الذين صنعوه، ففعلوا ما عجز عن فعله / ١٣٠ / مليوناً منذ أربعين عاما، ولكن أن نحملهم أيضا مهمة التغيير في داخلنا، هذه مهمة تقع على كاهلنا نحن، فهم، حسبهم بدأوا وغيروا في واقعهم، ونباها الى ما نحن فيه من تخاذل، وضعف، ووهن، فدورنا أن نتابع الطريق، لا أن نتنظر التغيير بفعل قادر، أن نتكاتف، ونجعل من نضالنا جزءاً من نضالهم، ولا فرق بين حرب المستعمر وبين حرب المستغل للقمعة العيش، فالكل في ساحة النضال والقتال والمجاهة سواء.

ويحتم نزار القصيدة بما يتهم به المناضلون، وهو الجنون كما سبق وانهموا سليمان الخاطر بالجنون، لانه دافع عن كرامته، وعن شخصيته العربية، وكذلك قد يتهمون هؤلاء الأطفال بالجنون، ولكن كم نحن بحاجة ماسة الى المزيد من هذا الجنون، الجنون الجميل الذي ألغى عصر العقل الواهي، العقل المنهزم. يا بجانين غزوة ألف أهلا بالمجانين إن هم حرورنا إن عصر العقل السياسي ولى من زمان فعلمونا الجنونا وتتابع سعاد الصباح،^(١٦) بنفس النفس الذي تغنى به نزار، وهو الشد على تلك الأيدي، والتغني ببطولتهم، والتنديد بتخاذلنا، وأكاذيب دكاكين السياسة.

تلك هي سمفونية الأرض التي تحمل موسيقاها الجميلة في داخلها، تفجرت من عمق الأرض، ومن عمق الألم، ومن قلب المعاناة، فأثبتت عجزنا، وترهل فكرنا، وتبجحنا بالخطب، ولعبنا بالسياسة، تلك سمفونية الأطفال التي كشفت كل ذلك بصدقها بتجزدها، بترابها وحققها المشروع.

كُنَّسْتُ فِي لِحْظَةٍ أَسْمَاءَ كُلِّ الزَّعْمَاءِ
أَغْلَقْتُ بِالشَّمْعِ أَوْكَارَ السِّيَاسَةِ
وَدَكَائِنَ الحَدَرِ
ذُبِحَتْ كُلُّ البَقْرِ
فاسْتَقِيلُوا يَا كِبَارَ الشُّعْرَاءِ

.....

أحرقَتْ أَوْرَاقَ كُلِّ الأَدْبَاءِ
خَلَعَتْ أَضْرَاسَ كُلِّ الخَطْبَاءِ
هَضَبَتْ النَفْطَ عَلَى لِحْيَةِ كُلِّ الخَلْفَاءِ
ويتفاقم شعورها بالفرح، فترى أولئك الأطفال وهم يرسمون مستقبلهم بخطى واثقة أكثر من أي

وقت مضى ، وضعوا الشمس في أكياسهم ، أبدعوا زمنهم الآتي ، نفونا من ذاكرتهم ، ومضوا بثورتهم أقوى
من الرعود ، لا يملكون من أسباب الحياة سوى حقهم وتشبثهم بأرضهم وصمودهم بحجارتهم
هاهم أولادنا

يضعون الشمس في أكياسهم

يبدعون الزمن الآتي يصيدون الرعود

ويثرون على ميراث عادٍ وثمود

وفي النهاية لا تملك إلا أن تشد على أيديهم بموقف عاطفي بسيط ، وكما وجدنا عند معظم الشعراء ،
لم يقدموا أكثر من هذا المستوى الفكري ، فلانتملك الشاعرة إلا أن تقول لهم : قاوموا ، فنحن عاجزون عن
المقاومة ، إنهم بطبيعة الحال يقاومون ، دون هذا الشد على أيديهم ، إنهم ليسوا بحاجة إلينا ، فهم منذ زمن
بعيد الغونا من خارطة تفكيرهم ، ولو لم يفعلوا ذلك ، لما أبدعوا هذه الانتفاضة .

قاومي أيتها الأيدي الجميلة

.....

لم نحرر نحن شبرا من فلسطين ولكن

حررتنا هذه الأيدي الرسولة

ومن القصائد الجميلة التي كتبت في بدايات الانتفاضة ، وقد أجلتها الى الأخير هي قصيدة الشاعر
مدوح عدوان ، وكل ما كتب بعدها من قصائد لم يتجاوزها ، ظل يدور في فلكها ومعانيها وصورها ، دون
أن تبدع تلك القصائد صوتها المميز ، الا للأصوات التي تكلمنا عليها ، والتي تحمل بعض التميز في صوتها .
حاول مدوح عدوان في قصيدة «الحجر»^(١٧) أن يحول كل شيء الى حجر ، حتى الزمان الذي يعيش
فيه ، فهو زمان من حجر ، لجموده وعدم تحركه وصمته في زمن الكلام ، فهو يحمل كل ما يحمل الحجر من
صمت وجمود وموت ، لكن الحجر يأخذ رمزا آخر ، رمزا إيجابيا ، رمزا للحياة ، للعة ، للنضال ، ولم يعد رمزا
للمصمت والانكسار .

يعد رمزا للمصمت والانكسار

ان شئت ان تحيا عزيزا

كن حجر

واحمل حجر

واضرب حجر

ويستنبط أبعاد الحجر ، فيجد في داخله النار التي لم يبيع بها إلا لزند فتى تعباً بالمرارة ، اذا هي
المعاناة ، ولا يمكن أن يوجد نضال دون معاناة ، وألم عميق وجهود وتعب .
حجر من الصوان يحمل نارة سراً
يبوح بها لزند فتى تعباً بالمرارة .

ويتساءل عن سر هذه الحجارة التي يحملها الطفل ، هل هي مجرد لعبة يلهاها بها . أم إن شيئاً قد

حدث فغير الأمور؟ .

لم يعد الطفل طفلاً إذا أصبح أكبر من الجميع، وأدرك معاناته، فحمل الحجر دفاعاً عن حقه .

هل كان يلعب ذلك الولد

الذي رشق الحجارة

أم تلك آيته

هنا خصم / هنا حجر

وجود الحجر في يد الطفل إذا منوط بوجود الخصم، ويحاول ممدوح عدوان أن يرسم لنا صورة الوعي الفلسطيني المتمثل بالطفل، متمسكاً في ذلك الأسباب الحقيقية للانتفاضة، فهي لم تكن انتفاضة عفوية، بل كانت نتيجة معاناة تمتد على مدى أربعين عاماً من المعاناة تحت الظلم والاستغلال والبطش العدواني. هذا الطفل لم يتلصقاً، ولم يتوان عندما رأى وطنه يقاد إلى المسالخ .

ولّد رأى وطننا يقاد إلى المسالخ

ما تلصقاً وانتظر

ولد رأى وجه الضحية في القضاة

رأى الخناجر تختفي

تحت المعاطف بين من كانوا الشهود

إذا هنا الرؤية الحقيقية هي مبعث الوعي الذي يجعله الطفل، وهذا الوعي هو المولد الأساسي للانتفاضة، والمحرك القوي الذي حمله الطفل في الدفاع عن حقه في الوجود وحقه في الحياة لأنه حق إنساني وموجود بوجود إنساني ولا ينتهي إلا بنهايته .

ويكشف ممدوح عدوان الأسباب سبباً سبباً من معاناة الفلسطينيين من أعدائهم إلى معاناتهم من إخوانهم الذي يأثمون فما يفتسون في مؤامراتهم سوى القرارات المتعنتة على الورق فيضيفون هزيمة أخرى إلى هزائمنا، كل هذا كان كفيلاً بتفجير هذا الطفل على واقعه بهذه القوة .

هذي بلادي حوّلت سوقاً يباعُ به البشر

.....

ومؤامراتُ أصحاب المرؤة يعترها الضوء

يكشف ما بها من بورصات

فما ملك هذا الطفل إلا أن حوّل الحجارة التي يلعب بها إلى سلاح أبدعته المعاناة وأبدعه الطفل المعجون بالألم والممزوج بالجراح .

لم يبقى شيء لم يُبع فاحمل حجر

هذا خسيس كان يسرق قوتنا فاضرب حجر

هذا عدو قادم فاضرب حجر

هذا عدو حاكم فاضرب حجر

وفي الختام يمكن أن نقول: إن الانتفاضة كانت بمثابة الصفحة للفكر العربي الجامد، الصفحة التي كنا نحتاجها منذ زمان بعيد لتصحو على أمورنا وعلى ما يجري حولنا، الصفحة التي، يحتاجها السكران ليصحو من سكرته ويستعيد توازنه في زمن اختلت فيه الموازين والمقاييس.

الهوامش:

- ١- الغناء الأبدى/ خالد محي الدين البرادعي/ ص ٨.
- ٢- مجلة الهدف/ العدد ٨٩٦/ الأدب والواقع والمرأة الكبيرة.
- د. فيصل دراج
- ٣- مجلة الهدف/ العدد ٩٤٠/ أبعد من الشعر/ شوقي بغدادي.
- ٤- المقالة السابقة.
- ٥- مجلة الحرية/ العدد ٢٤٨/ فيصل دراج في حوار مشترك.
- ٦- مجلة الهدف/ العدد ٨٩٥/ انتفاضتنا برهاننا/ حنا مينة.
- ٧- مجلة المنابر/ العدد ٢٨/ لقاء مع شوقي بزيغ.
- ٨- مجلة الحرية/ العدد ٢٤٦/ .
- ٩- مجلة الحرية/ العدد ٢٤٦.
- ١٠- مجلة المنابر/ العدد ٢٨ لقاء مع شوقي بزيغ.
- ١١- مجلة الوحدة/ العدد ٤٨.
- ١٢- مجلة الهدف/ العدد ٨٩٨.
- ١٣- بحث في عالم الجمال/ جان برتليجي/ ترجمة د أنور عبد العزيز/ ص ٣٨٤.
- ١٤- مجلة الهدف/ العدد ٨٩٣/
- ١٥- مجلة الشراع/ العدد ٣٠٩/
- ١٦- مجلة الشراع/ العدد ٣٠٨/
- ١٧- مجلة الحرية/ العدد ٢٤٤/

الشاشة الوثائقية - افاق انسانية

د. علاء الدين الشعار

أنظر الى السينما باعتبارها منبراً وأسخدامها كداعية ، وإنني لأقرر ذلك دون خجل ، لأنه في هذه الفترة التي لم تتحدد فيها بعد فلسفات السينما ، لا بد من وضع قواعد ثابتة مميزة للاتجاهات المختلفة .
والفن عنصر واحد من عناصر العمل السينمائي ، وإنني لأنصح المهتمين بالفن أن يبحثوا عنه حيث يوجد مجال لخلقهم ، والتسلية أيضاً ميدان للعمل السينمائي ، وكذلك التعليم بالسينما ميدان تحدده حاجة المدرس في قاعات الدرس ، أما استخدام الأفلام للدعاية ، فهو ميدان آخر للعمل السينمائي ، ولا بد من أن ننظر الى السينما باعتبارها وسيلة كالكتابة تماماً ، يمكن أن تتخذ أشكالاً مختلفة وتؤدي وظائف ، ويجدر بالمشغلين بالدعاية أن يهتموا اهتماماً خاصاً بالسينما ، فإنها تتيح لهم وسيلة هامة للوصول الى الجماهير .
وتستطيع السينما أن تقدم وصفاً مباشراً ، كما تستطيع أن تقدم تحليلاً بسيطاً ونتائج محددة ، وفي وسعها أيضاً استخدام إيقاعها الخاص وقواها التصويرية المعتمدة لإقناع الناس بيسر .
وتستطيع السينما أن تعبر تعبيراً خطائياً ، فليس في وسع أي أسلوب في الوصف أن يضيء على الشيء البسيط طابعاً من النبيل مثلما تفعل الكاميرا ، حينما ننظر الى هذا الشيء من مكان منخفض ، وليس هناك ما هو أبلغ في التعبير من مشهد تم تقطيعه حسب إيقاع زمني محدد ، ولعل أهم شيء فيما يتعلق بالسينما أن العبارة الواحدة او المشهد الواحد يمكن عرضه كل ليلة آلاف المرات على ملايين العيون ، كما يمكن أن يتكرر العرض على ملايين الناس بعدة أعوام ، اذا كان الفيلم جيداً ، وهذه الحقيقة الهامة تتيح مجالاً جديداً للاتصال بالجماهير وأمثلاً كبيراً في إقناعها .
هذه الفقرة تلخص تلخيصاً دقيقاً الآراء التي كان جريسون يعتقدونها ، والتي توضح أيضاً موقفه من السينما ، الذي تحدد خلال تلك الأعوام من البحث العميق ، الذي قام به في الولايات المتحدة ، ولم تكن

نقلد من مصر

السينما قبل ذلك في نظره عندما غادر بريطانيا سوى جانب واحد من موضوع كبير يثير اهتمامه .
ولكن حينما عاد الى بريطانيا من جديد عام ١٩٢٧ ، انحصر اهتمامه كله في بحث إمكانيات
استخدام السينما كوسيلة للتعليم والتوجيه .

وقد وجد جريسون فعلاً صدى لافكاره ، وكان لنجاح فيلمه « صائدو الاسماك » أثر بالغ حظي
على تقدير كبير عن عرضه لأول مرة في خريف عام ١٩٢٩ ، وأثار اهتماماً مباشراً نتيجة لموضوعه ، ولما برز
في معالجته من فن سينمائي رفيع ، خاصة لأن الفيلم استمد مادته الدرامية من الحياة الواقعية مباشرة ،
لذلك يعتبر الفيلم بمثابة ثورة في الحقل السينمائي ، لأن قصة جريسون البسيطة عن صيد الاسماك في بحر
الشمال استطاعت أن تعرض لنا على الشاشة مناظر جديدة رائعة لم تعهدها السينما من قبل ، منظر صائدي
الاسماك وهم يخرجون من الموانئ الصغيرة فتأرجح بهم السفن في البحر ، ومناظر شبك الصيد وهم يلقونها
بعيداً من سفنهم المتأرجحة ، ومناظر الصيادين وهم يؤدون أعمالهم اليومية .

وكانت هذه أول مرة يظهر فيها على الشاشة رجال من بريطانيا في حياتهم العادية ، لأنه في تلك الايام
كان ظهور هذه المناظر على الشاشة اكتشافاً مذهلاً .

تقد أدى نجاح فيلم « صائدو الاسماك » الى إتاحة الفرصة لـ جريسون لنشر أفكاره ، وبدلاً من
أن يخرج أفلاماً جديدة ، وجه كل نشاطه نحو خلق وحدة سينمائية وتدريب أفرادها ، وكان الشبان الذين
جمعهم حوله يشاركونه في وجهة نظره ، ومن هؤلاء : بازل رايت ، وارثر التون ، وبول روثا ، وجون تايلور
وغيرهم . . . وكان هؤلاء أيضاً رجالاً من أولئك الذين يفضلون لقمة العيش المتواضعة ، التي يتيحها لهم
العمل في الأفلام الوثائقية على الإيراد الكبير ، الذي كان من الممكن أن يحصلوا عليه من العمل في
استوديوهات السينما ، وكان يجمعهم حماس واحد مشترك وهدف واحد .

وكان جريسون بطاقته المنقطعة النظير مدرساً ممتازاً ، ولم يؤثر العمل الشاق المتواصل في حماس
واقبال السينمائيين الشباب الذين تولى تدريبهم . . وكان الشعور الذي يحسه الجميع شعوراً بالتفاني وإنكار
الذات من اجل فكرة معينة ، وشعوراً بأهمية بذل الجهد في حيوية من أجل تحقيق هذه الفكرة .

إن قيادة جريسون المتفانية لحركة السينما الوثائقية في بريطانيا مكنته من أن يكسب السينما الوثائقية
طابعاً محلياً بريطانياً ، وكان أهم ما يميزها هو فكرة استخدامها لهدف اجتماعي يلتصق بالبيئة البريطانية
الصادقة . . هذا الأمر ممكن جيداً مسيرة السينما الوثائقية البريطانية من شق طريق واضح ، ومع كل خطوة
كانت تنمو أفكارها ومعالجتها الصادقة بتصوير حياة الناس ، لذلك اكتسبت احترام الناس باعتبارها وجهة
إنسانية يقدم خدمات اجتماعية كبيرة .

ولقد بلغت معركة جريسون من أجل الحقيقة أوجها في العام السابق لاندلاع الحرب العالمية
الثانية ، ولم تتمكن حركة السينما الوثائقية في بريطانيا من أن تحصل على ذلك القدر النسبي من حرية التعبير
والتعليق الاجتماعي ، دون أن تواجه في سبيل ذلك معارضة كبيرة ، ولم تصل أخبار هذا الصراع الى
الجمهور . فقد استطاع جريسون أن يتغلب على جانب كبير من هذه المعارضة بفضل صلابته وإيمانه
الكامل بالهدف الذي يسعى لتحقيقه ، خاصة عندما استبعدت أفلامه الوثائقية التي تعرض بأسلوب



درامي كفاح بريطانيا لحل مشاكلها الاجتماعية والصناعية عن المشاركة في معرض نيويورك الدولي ، والذي اختير للمشاركة في افلام احتفالات ومظاهر تقليدية لتمثل بريطانيا في هذا المعرض الدولي الهام .
ولكن نجح جريسون بفضل تأييد الصحافة في بريطانيا والولايات المتحدة في عرض أفلامه في المعرض المذكور .

وعبر نشاطه الفكري والنقدي والإنتاجي في مجال السينما الوثائقية استطاع جريسون عبر إيمانه بعمله توسيع ميدان إنتاج الأفلام الوثائقية ، لأن العمل برأيه لا يمكن أن يعتمد على رعاية دولة واحدة له ، مهما بلغت هذه الدولة من القوة . . . وإنه لا بد لحركة السينما التسجيلية من أن تستند الى إيمان العالم بالمصالح المشتركة لعامة الناس في كل مكان .

وقد بدأ هذا الإيوان عند جريسون يتدعم تدريجياً مع ظهور حركة الأفلام التسجيلية في مختلف بلدان العالم .

لقد كان جريسون دائم التفكير في هذه النظرة الى حركة السينما الوثائقية ، باعتبارها قوة من أجل تدعيم العلاقات العالمية . .

من خلال ما تقدم رغبت أن أقدم لمحة موجزة جداً عن شخصية السينمائي الوثائقي العظيم جريسون الذي كان له الفضل في بناء حركة الأفلام الواقعية . ومن قرأ كتابات جريسون يستطيع أن يدرك مدى السلاسة والعرض المتقن للأخطار حول السينما الوثائقية ، لأن كتاباته وأفكاره تنسم بالعمق والنفاذ الى الحقائق ودقة التحليل ؛ فالأفكار الواضحة التي تنسم بالإنسانية والتي تنبع من الواقع الذي يعيشه الإنسان تبقى على مدى العصور حية . تعيش مع الأجيال المتابعة تؤمن بها كما كان يؤمن بها روادها .

لأننا إذا تناولنا حركة السينما الوثائقية العالمية في واقعنا المعاصر لوجدنا الكثير من الأفكار والموضوعات التي آمن بها جريسون وغيره من أمثاله من الشباب ، الذين كرسوا حياتهم في سبيل هذا الفن الواقعي ، مستمرة واضحة مع الأجيال .

فالفن عموماً يدخل إطار التفكير والإدراك الإنساني ، آخذاً دور التربية الفكرية والثقافية والاجتماعية للناس ، كما إنه يأخذ أشكالاً مختلفة ومتنوعة من حيث تناول النقل والتواصل مع الوجدان عبر أقتية غاية في الدقة والوضوح ، مستمدة موضوعاتها من الواقع والإنسان .

وفي ظل ما تقدم ، يحتل الفن الوثائقي دوراً هاماً على الصعيد الإنساني ، مجسداً أهمية ومعالجة المصادر المكونة للحياة في أشرطة سينمائية وثائقية تعكس في مضامينها وجه الحياة ، بما فيه من ألوان مختلفة المصادر والاتجاهات .

فاذا تناولنا الجانب الحياتي ، فإن النماذج التي تنطرق لها الشاشة الوثائقية تعني بالآلاف الدقائق المتنوعة لهذا الواقع ، والفيلم الوثائقي ينفرد هنا بخاصية مميزة ، لأنه لا ينصب في بوتقة واحدة مع أشكال الفن الأخرى التي تسعى لأن تضيء على الواقع ألواناً خاصة بها .
بينما يعبر الفيلم الوثائقي عن هذا الواقع تعبيراً يتصف بالحرية والانعقاد ، فاللقطة الوثائقية هي

تلك التي تستبعد أدنى شك يؤدي الى الابتعاد عن الفكرة المراد التوجه إليها .
إن المحتوى في هذه الحالة لا يخضع لأي نقاش ، بينما طريقة العرض يمكن أن تكون موضوع نقاشات عريضة وواسعة .

لقد أظهرت عملياً أن العمل الوثائقي ، سواء كان في السينما أو في التلفزيون ، يعتبر حجة يعقدها في نظم فنية مختلفة أيضاً ، هذه النظم تبرز مصداقية العمل الوثائقي . في ظل هذا يعبر الفيلم الوثائقي عن فكرة حية تستند أساساً الى إبراز ناحية معينة من الحياة .

ونحن نجد في أعمال المخرج ايزنشتين محاكمات غاية في الأهمية حول هذا الموضوع ، مثل العلاقات المتبادلة بين الواحدة والمتكررة المتعلقة بعمليات إعداد الصورة الفنية ، وتركيب اللقطة ، بما يتخدم الخط الفني العام للفيلم . في معرض حديثه عن طبيعة السينما وخصائصها المميزة كتب س . أيزنشتين عن طريقة التصوير السينمائي تعكس عناصر حية عن الواقع .

إن هذه الانعكاسات من خلال التصوير السينمائي للظاهرة الحياتية تنصب في بوتقة واحدة . إن هذه المسحات وتلك الانصهارات التي عبر عنها ايزنشتين يمكن أن تتعرض للتشويه والانحراف ، مما يؤدي إلى خلق تربة تنمو عليها مختلف النتائج ، بدءاً من التصوير الجامد ، وانتهاء بما لا يخاطر على حدس المرء ، ومعطيات الطبيعة من امور ، أي اللقطات الشكلية التي نشاهدها في أغلبية أفلامنا الوثائقية المحلية ، التي تناولت المادة الحياتية ، بمعزل عن معالجتها بعلمية ومنهجية .

إن لغة السينما ولغة الأدب ، وتصرف المخرج حيال المعطيات الطبيعية ، والتي تبدو للعيان أكبر بكثير مما عليه في الواقع ، وهذا يؤدي بالنتيجة الى استنتاجات خاطئة ، إن اللقطة السينمائية تعتبر أكثر رسوخاً وتحديداً للواقع من نظيراتها في ألوان الفنون الأخرى ، وبالتالي يمكن ان نضيف الى أن التركيز على العناصر الأولية للفيلم الوثائقي ، تتعاظم ليس فقط استناداً الى الفكرة الداخلية ، ولكن من خلال العلاقات المشتركة للعناصر مع الواقع ، هذا الواقع الذي يقبل بصورة متناهية حرية التغيير والتكوين الشكلي الجمالي ، ورغم ذلك فإن الفيلم والمونتاج تتوافق فيها المشاهد وتؤثر في بعضها .

إن لغة الشاشة الوثائقية ليست نظاماً هيروغليفيّاً للرموز ، بل لغة محددة مشبعة بالوقائع الحياتية . إن كل لقطة لا تخلو من رصد واقع الحياة . وإذا قارنا لغة السينما بلغة الأدب يمكن ان نعتبر أن لغة السينما كآية كلمة تدخل في تركيب هذه الجملة او تلك ، ولكن اذا تابعنا المقارنة يصبح واضحاً أن النسيج السينمائي والمونتاج يفتقران الى تلك البنى الثابتة التي تحتل مكاناً بارزاً في اللغة الأدبية ، وتسمى بالتعبير الثابتة كتعبير - رجل كلمة - ولا يشك احد في أن معاناتنا الذاتية التي نعرفها هي التي تحتلج في نفوسنا ، وهي في الواقع ترتبط الى حد كبير بنشاط الدماغ ، لذا فإنه لو تعرض هذا النشاط لخلل ، فإن تلك المعاناة تختفي .

إذن فإن عملية التفكير بشكل عام وواسع في النمط السلوكي الإنساني يمكنها أن تكون موضوع دراسة وتحليل ليس في إطار رصد الواقع فحسب ، وإنما في إبراز الميزات والخلفيات الحياتية الكامنة في الكاد الوثائقي او ذلك ، من خلال معالجته وتقديمه بأسلوب علمي بعيد عن السطحية والعرض الضيق

المحدود ، وهذا يرتبط بالشعور الصادق نحو الحقيقة المرتبطة بالواقع .
فمهما كانت الحقيقة قاسية يبقى تناولها سينائياً أفضل بكثير من تناول الأشكال الحياتية في تبريحها بصورة فنية جمالية رائعة ، مما يسهم في خلق أوهام وأحلام يكون الإنسان في نهاية المطاف ضحية لها .
الحياة تحتاج ان تقترب منها بشجاعة وبحقيقة لأنها - الحياة - ليست بحاجة لأن نقلها بثواب وصور ملونة جميلة تخدع البصر ، وتؤدي بالتالي التفكير الإنساني الى إدراك عالمه الخاص ، والعام في إطار الوهم ، والابتعاد عن الإحساس الواقعي بغية تدارك مشاكله وحلها بأسلوب علمي منطقي متجاوزاً بذلك - عقدة الأوهام - مستوعباً أن بناء الشخصية الواعية بنتيجة سلوك واع وتفاعل حقيقي مع مختلف أشكال الحياة ، التي تسهم في ذلك بمختلف أشكال الفنون والأدب ومنايع الثقافة بأشكالها الإنسانية . وفي سورية ، ومن خلال سياستها الواضحة التي تجسد مصالح الجماهير الكادحة ، تعمل لتأمين الظروف الاجتماعية والسياسية الضرورية لنمو القاعدة الاقتصادية والثقافية الاشتراكية في البلاد .

وفي سياق الممارسة التاريخية - الاجتماعية لتطور البلاد على طريق التحويل الاشتراكي ، يتم تحسين تدريجي لعمل الأجهزة الايديولوجية ، كما يجري وعلى أفضل الوجوه استخدام جميع وسائل الإنتاج الروحي المتوافرة تحت تصرف الدولة ، وذلك من أجل ترسيخ وتأكيد السيطرة الايديولوجية لجماهير الكادحين .
إضافة الى أهدافها الشاملة في تربية جماهير الشعب بروح المثل الاشتراكية وغرس النظرة الاشتراكية ، الى العالم في نفوسهم ، فان التأثير والتوجيه الايديولوجي يستهدفان كذلك أموراً وغيابات ملموسة تبعاً لمرحلة التطور الاجتماعي ، ونجد من هذا القبيل اليوم الموقف السياسي الراهن في منطقة الشرق الأوسط ، والذي يقتضي تحديد أهداف ملحة مرحلية يجري التشديد عليها ، من خلال التأثير الايديولوجي ، وهي بتعبير أدق التربية الوطنية لجماهير الشعب وتعزيز وحدة الأمة .

وفي ضوء الصراع العسكري والايديولوجي في الشرق الأوسط ، وفي ظروف العدوان الاسرائيلي المتكرر على الأقطار العربية . فقد ولدت في هذه الأقطار اتجاهات متنوعة في الفن وضعت هدفاً لها التدخل الايديولوجي المباشر لتسليط الأضواء على المسار الفعلي لتطور الأحداث في الشرق الأوسط ، وكان من أسباب تألق السينما الوثائقية في سورية وظهور عدد من الافلام السينائية والتلفزيونية التي تعالج مواضيع ثقافية وسياسية متنوعة الرغبة والتصميم على التمشي مع حاجات المرحلة . وكذلك الضرورة الوطنية والقومية المتمثلة في تعرية وكشف أساليب وخفايا الدعاية الصهيونية المعادية للعرب وللشريعة جمعاء . لقد وضع أدب الشاشة في هذه المرحلة امامه مهاماً دعائية وتحريضية ملموسة وواضحة .

أولاً - كان من الواجب قبل كل شيء عكس الواقع الفعلي للأحداث السياسية والعسكرية ، ومن ثم فتح عيني العالم على حقيقة النوايا الاسرائيلية ، وفضح سياسة اسرائيل التي شأنها شأن الفاشية ، تني وجودها واستمرارها على أساس إبادة الآخرين ، وتشريد الشعب العربي الفلسطيني وأشقائهم العرب الآخرين الذين يؤيدون اللاجئين .

ثانياً - في ظروف تحالف اسرائيل مع الدول الامبريالية وخاصة مع الولايات المتحدة الامريكية اصبح من الضروري اكثر من أي وقت مضى ، دون تسوية ، توحيد كل العرب في معركة المصير المشترك ضد

أعدائهم من الصهاينة والامبرياليين .

ثالثاً - كان من الواجب على أدب الشاشة الذي يعكس الأحداث والتطورات السياسية في منطقتنا العربية ان يفتح الجماهير العربية بضرورة الاستعداد مادياً ومعنوياً للدفاع عن حق العرب وارض العرب ، والتصدي لأطباع العدو الصهيوني ، والحيلولة دون تمرير أية صفقات توفيقية تصالحية مع العدو على حساب الحقوق القومية المشروعة للعرب .

وكان لا بد من ان ينصب اهتمام أدب الشاشة في أحد أهم اتجاهاته على التعريف بتاريخ سكان المنطقة . . وفضح زيف الدعاية الصهيونية التي تواصل تضليل الرأي العام العالمي بزعمها المتكرر حول « اولوية » الثقافة اليهودية على الثقافة والحضارة العربية وعلى التراث الروحي للشعب العربي في جميع أقطاره (الفلسطيني ، السوري ، المصري . . الخ) ويحاول دعاة الصهيونية أن يطمسوا ويشوهوا دورة الحضارة العربية في مسيرة التطور العالمي .

ويمكن القول : إن هذه المهام المحددة التي وضعها أمامه أدب الشاشة السوري باتجاه التربية الوطنية والقومية لجماهير الشعب كانت مشتركة نوعاً بالنسبة للفن في عموم الأقطار العربية في هذه المرحلة ، ولكن الممارسة العملية في حل هذه المهام قد اثبتت تفوق الفيلم الوثائقي بشكل مطلق ، وذلك بسبب اختلاف اللهجات التي كانت تستخدم في الافلام الروائية (جزائرية ، سورية ، مصرية ، عراقية . .) ورغم أن هذا الاختلاف هو محدود نوعاً، الا أنه كان يحد من التأثير العاطفي للفيلم العربي الناطق بلهجة محلية على الجمهور العربي في كل مكان . اما في الفيلم الوثائقي فان اللغة التي يستخدمها الفنان هي الوثيقة السينائية قبل كل شيء . ولذلك كان تأثير الفيلم الايديولوجي والجمالي يحقق اكبر قدر من النجاح من خلال مخاطبة الجمهور العربي بأوسع قطاعاته ، وفضلاً عن ذلك فالوثيقة السينائية بحد ذاتها تمتلك صفة الحقيقة والصدق في عيون المتفرجين . وبالتالي فإن قدرتها على الإقناع لا يستهان بها في نطاق الدعاية والتربية الوطنية والقومية لجماهير أمتنا العربية . إن كل هذه المهام النظرية والعلمية الملقاة على عاتق الفن السينائي الثوري في الأقطار العربية ما تزال ملحة وعلى قدر كبير من الأهمية في الوقت الحاضر ايضاً .

ففي مؤتمر وزراء الثقافة العرب الذي عقد في دمشق خلال الفترة من ٢٨ - ٣٠ حزيران عام ١٩٨٠ ، أعد إعلان يبين كيفية تطوير الفن ، ويدعو الى توحيد العرب وحشد طاقاتهم الفنية ، كي يؤديوا واجبهم أمام الوطن على أفضل وجه . . وقد ورد في الوثيقة الختامية الصادرة عن هذا المؤتمر تأكيد خاص على الخطر الصهيوني والحملة الثقافية المنظمة والخبيثة ، التي تنظم ضد الفكر العربي والتراث الروحي العربي ، وهذا الخطر كان وما يزال ماثلاً منذ إقامة الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي ، وتستهدف هذه الحملة الصهيونية المنكرة تشويه التاريخ العربي والتشكيك به . . وتخريب التراث الثقافي العربي وتشويه المضمون السياسي التقدمي لحركة التحرر الوطني العربية ، وتسفيه القيم القومية والروحية والايديولوجية التي يعتز بها العرب . إن اسرائيل اليوم في نطاق كامب ديفيد تطمح ، خاصة ، في تغيير قسري للمخطط والبرامج التعليمية المتبعة في مدارس - وجامعات كل من مصر والكيان الصهيوني . وعلى هذا النحو تحاول الصهيونية عزل ومحاصرة الثقافة العربية والقضاء على كل انحاء مصري للثقافة العربية ، واستبدال فترة

التحرر القومي بدوغمايات صهيونية عن الاشتراك والاختلاط في منطقة الشرق الاوسط . وتعتبر هذه الحملة « الثقافية » الصهيونية جزءاً من الخطة الامبريالية الصهيونية الموجهة ضد العرب وحركة الثورة العربية ، وقد أشار الإعلان المذكور الصادر عن وزراء الثقافة العرب الى أنه من الضروري أن يضع العرب خطة حاسمة للتصدي للصهيونية والامبريالية، وذلك من أجل حماية الثقافة العربية .

إن تحقيق أهداف التربية الوطنية - الفكرية التي يقوم بها أدب الشاشة، يعني في الوقت نفسه، تطوراً في نظرية السينما الوثائقية، ومبادئ الالتزام والطبقية في الفن السينمائي الحديث . ومن هنا كانت ايدولوجيا الجماهير العربية الكادحة والوعي القومي العربي في صلب أدب الشاشة الذي عالج هذه المواضيع ، ولقد تميزت الافلام الوثائقية السينمائية والتلفزيونية السورية بتوجهها النضالي وانصرافها الى طرح المواضيع السياسية والاجتماعية والثقافية المأخوذة من حياة المجتمع السوري . وتنفيذاً لتوصيات الحكومة الوطنية انخرط أدب الشاشة السوري في عملية التربية السياسية - الفكرية والأخلاقية للشبيبة وجماهير الشعب الكادحة . وفي الوقت نفسه تمكنت السينما الوثائقية السورية من أن تجد طريقها أحياناً الى الساحة العالمية . إن أدب الشاشة السوري إذ يفضح نفاق ورياء الدعاية المعادية، إنما يسهم في تأكيد المثل التقدمية لحركات التحرر الوطني والثورات المعادية للاستعمار في جميع أنحاء العالم . وفي محاولة لاستخدام التأثير الايدولوجي لأعمال أدب الشاشة استخداماً ناجحاً بغرض توجيه الرأي الاجتماعي فقط، اتخذ وزراء الإعلام العرب توصيات ومقترحات تتعلق بالإعلام والدعاية والتحريض في الميدان الدولي ، ويدخل في هذه المقترحات التبادل ببرامج الإذاعة والتلفزيون بين الأقطار العربية والدول الافريقية وتنظيم النشاط الإعلامي العربي بواسطة (اتحاد الوكالات الإعلامية العربية - في امريكا اللاتينية وتنسيق نشاط « اتحاد المؤرخين العرب » والمنظمة العربية الدولية للثقافة والتربية والعلوم التي تقوم بعرض سلسلة من الافلام الوثائقية عن الحضارة العربية) في جامعة السوربون في باريس . تظل المهمة الأساسية لأدب الشاشة السوري في مجال السياسة الداخلية تطوير وتأكيذ فكرة الوحدة العربية كضرورة قومية وهدف استراتيجي لسياسة القطر التي يتجسد مضمونها الثوري في ترويج مثل التحرر القومي والحرية ، والدعوة الى خوض غمار حرب لا هوادة فيها ضد أعداء أمتنا العربية .

وفي مرحلة ميلاد الفن السينمائي السوري لم يتمكن السينمائيون السوريون من تحقيق مهام الدعاية والتأثير على العالم الروحي للانسان . وبدوا عاجزين عن منافسة آلة الدعاية المعادية، والتي تستخدم أحدث منجزات العلم والتكنولوجيا . ولكن الوضع تغير اليوم حيث تعاطف دور أدب الشاشة السوري في فضح النازية والفاشية الجديدة التي تتمثل في المحتلين الاسرائيليين .

منذ الخمسينيات أصبحت قضية اللاجئين الفلسطينيين الشغل الشاغل للرأي العام العربي ، ولكن السينما العربية لم تصبح على مستوى المسؤولية الفنية الا في السبعينات . وبالنسبة للسينما السورية بشكل خاص لم تقتصر المهمة على تصوير المصير المأساوي الذي تعرض وما يزال يتعرض له الشعب العربي الفلسطيني الشقيق ، بل إن السينمائيين السوريين نظروا الى القضية من منظور قومي شامل ، على اعتبار أن ما حل بالأشقاء الفلسطينيين يهدد كل العرب في جميع أقطارهم ، ولذلك على العرب ان يوحدوا

صفوفهم ويعزموا على التصدي لخطر الصهيونية الذي يهدد وجودهم وحضارتهم وكيانهم القومي . ومن هنا أصبح موضوع الوحدة العربية حجر الزاوية في أدب الشاشة السوري الذي راح يلتفت الى التراث العربي العريق لينهل منه مواضيع تصلح لتربية الجماهير العربية بروح الوحدة والمصير المشترك ، ومن تأثير السينما الوثائقية السورية الأخرى . أنها فتحت أعين كل العرب على حقيقة أن اسرائيل لا تقاوم العرب وحدها ، فهي تتمتع بالدعم الكامل والشامل من الدوائر والاطراف الامبريالية . والعبرة المستخلصة من هذا الواقع هي : أمل العرب الوحيد في وحدتهم ضد العدوان لإزاحة الخطر الذي يهددهم أمة وأفراداً .

إن فكرة النضال حتى النصر تشكل روح افلام « سينما المقاومة » .

ومن هنا يصبح الهدف الأهم للسينما الوثائقية ، ليس فقط تصوير مراحل الصراع العربي ضد العدوان الصهيوني وفضح جرائم المعتدين البربرية ، بل وتأكيد صمود وبسالة المقاتل العربي الذي يتصدى للعدو المجهز على أرفع المستويات ، والمدعم من أقوى الدول على أرضنا . لقد أكدت تجربة تطور السينما والتلفزيون ، أن على أدب الشاشة اذا أراد تحقيق أهدافه الدعائية والتحريرية ، ان يكون في قلب أحداث الساعة التي تقلق المجتمع وتقف على مزاج الجماهير والتغيرات التي تطرأ على متطلباتهم الاجتماعية ؛ لأن على أي نشاط يتعلق بتربية او إعادة تربية الإنسان ان يبدأ من معرفة هذا الإنسان ، او كما قال المربي الروسي اوشينسكي عن القاعدة الحتمية في علم التربية « إنه اذا كان هذا العلم (يريد تربية الإنسان من جميع النواحي) فإن (عليه قبل كل شيء ان يعرفه من جميع النواحي) .

هامش

بحث للندوة العالمية لفضايا السينما الوثائقية في إطار المهرجان الدولي الاول للافلام الوثائقية والقصيرة بوميبي ١ - ٨ آذار ١٩٩٠ . وهي الندوة التي خصصت لذكرى د . جون جريسون السينمائي الوثائقي العالمي الذي ولد عام ١٨٩٨ في قرية دينستون بالقرب من مدينة سترابج باسكتلندا الأب مدرس كان يؤمن بأن التعليم قوة ، لذلك استمد جريسون من مبادئ والده تعطشه للعلم والفن في فلسفة الحياة . وبدأت مسيرة حياته الشاقة التي أكسبته قوة الحجج وحضور البديهة ، كما وأكسبته خدمته في الوحدات الاحتياطية في كاسحات الألغام صلابة كبيرة لم يندم جريسون ابداً على قضائه هذه الفترة في حياته في الخدمة العسكرية .

ومنحته دراسة الفلسفة بعداً جديداً في نزوعه نحو دراسة الصحافة والسينما وبقية الوسائل التي تؤثر في تكوين الرأي العام . ومن المهم أن نتذكر دائماً أن جريسون لم ينتم بالسينما اول الأمر ، باعتبارها شكلاً فنياً وإنما باعتبارها وسيلة للوصول الى الرأي العام ، ولم يحاول جريسون أبداً أن يخفي ذلك بل إنه كثيراً ما أكدته .

ففي شتاء ١٩٣٣ كتب في مجلة الصوت والصورة ما يلي :

إنني لا أهتم كثيراً بالافلام في حد ذاتها ، وقد أجد أحياناً في الأشكال والجواهر والحركات التي أراها على الشاشة شيئاً يبعث في نفسي الأمل فترة قصيرة في أن نكتسب السينما يوماً ما فضائل فن الرسم العظيم ، لكن ما إن أفكر في القواعد الاقتصادية للإنتاج حتى أطرح هذا الأمل جانباً نهائياً ، وإذا أراد الإنسان أن يحس بالنعمة المطلقة للأشكال فمن الأفضل له أن يتجه الى اللوحات الفنية ليتأملها ويكتفي بها .

ففي هذا الميدان قلما تتدخل العوامل التجارية الخارجية لتسد العلاقات الفنية ، والمهارة الفنية في الرسم أعمق لأنها أكثر تحديداً ، كما ان الفنان الذي يرسم لوحاته على قطع رخيصة من القماش يستطيع أن يتحكم بيسر أكثر في التناسق الكامل الذي يحتاج تحقيقه الى جهد كبير .

قصة أعلام صغيرة

د . احمد زياد محبك (*)

شمس الخريف المائلة الى الزوال تداعب خصلات شعرها الخرنوبي، وهي على مصطبة في فناء الدار، تنعم بدفء الشمس، وبين يديها الصغيرتين غطاء الوسادة الرقيق، تطرز فيه رسما واحدا متكررا، والى جانبها كرات الخيطان الملونة بالأسود والأحمر والأخضر.

وأمامها تتقافز العصافير، تحط على سوار الدار الترابي، ثم تنط الى الفناء، تلتقط فتات الخبز من هنا، وتنقر التراب هناك.

«لم تسبقني بنت الى هذه الفكرة، انا التي ابتكرتها، غدا ستصبح زيا شائعا في الوطن كله، غدا ننام على هذا الغطاء معا، ستكون الوسادة تحت رأسي، وحين انتهي منه، سأطرز منديلا لعماد، منديلا من الحرير الأبيض.»

ناقد من سورية

ويأيتها صوت أمها، وهي تناديا من المطبخ :

«هيا يارجاء، تعالي ساعديني، الآن يصل والدك من الحقل، وهو جائع ومتعب» وتنهض كالفراشة، والغطاء بين يديها، تعدو عبر الفناء، فتتقاذف العصافير، ونهداها يتواثبان، تحس بارتجاجها، فتزهو، وتضع أصابعها في شعرها، ترد خصلاته الى الوراء، وهي تحس بالخاتم الذهبي، حول بنصر يدها اليمنى.

«لم أم، كنت كالعائمة فوق البحر، الخاتم في إصبعي، أحس بوجوده، مايزال في يدي عقب يديه، وهو يضع الخاتم في إصبعي، ثم يشد بيديه على يدي، طوال الليل، وأنا أتنسم ذلك العبق، كانت انامله حارة، لم ترتعش، رفعت وجهي اليه، غمرني وجهه الأسمر، غطاني كلي، رجل، لاشك هكذا تكون يديه على الرشاش، أو على الحجر وهو يقذفه، قوية ثابتة، هل هو عقب التبغ الذي يدخنه؟ أو عقب الأرض التي يحفر بيديه في ترابها، يحتمي به، يدافع عنه، كما أشتهي أن أكون معه، مغروسة في الأرض، مثله، مختبئة في حفرة طوال الليل معه».

«مرحبا يارجاء»

ويظهر وجه أم عويد من وراء باب الدار الخشبي، وترد رجاء بمرح عفوي :

«مرحبا ياخالتي، نفضلي»

«طارت العصافير يارجاء، طارت»

وتدهش، وتلتفت حولها، ثم تسأل :

«أي عصافير ياخالتي؟!»

وتدفع أم عويد الباب الخشبي وتدخل، وهي تركز عينيها الكابيتين على صدرها الناهد:

«العصافير هنا، في صدرك»

وتطرق رأسها خجلا، ترد أنظارها عن وجه أم عويد المتغضن، وهي تدب داخلة الى الدار، بقامتها القصيرة المتهدمة.

وتطل أم رجاء من باب المطبخ، لترحب بها، فتقف أم عويد قبالتها، ترفع جذعها المحدودب، تلتقط أنفاسها، ثم تصيح بصوت متهدج :

«أنا عاتبة عليك يأم رجاء»

وترد أم رجاء :

«صدقتني، مادعوننا أي أحد، ولم نحتفل»

«وهل يجوز هذا؟!»

«أنت عارفة بالحال، حالنا وحال القرية والوطن كله»

«والحلوى؟!»

«قلت لك الحال ظاهر، وأنت أدري، والآن ماهو وقت الحلوى، كل يوم يقع شهيد أو أكثر» وتدب بخطواتها نحو المطبخ، تدخل في إصرار، ثم تغلق وراءها الباب.

رجاء تقف ذاهلة، ثم تعدو الى المصطبة، تقعد على حافتها، وغطاء الوسادة بين يديها، تحاول متابعة التطريز فيه.

وأعرف، علاء هو الذي أرسل أم عويد، أرسلها من قبل مرتين، لكن أبي لم يوافق، أبي يعرف أنني لأحب غير عماد، وأمي تعرف، أمني وأبي كل منهما يحب عماد، فور تقدمه الى خطبتي تمت الموافقة، لاشك أن أم عويد تحاول الآن إقناع أمني، ولكن من غير جدوى، أنا أعرف، ولكن لماذا يصبر علاء على خطبتي، عماد هو خطيبي، وأمس لبست الخاتم، كيف يرسل اليوم أم عويد؟! ألم يسمع نبا الخطبة؟! قبل يومين حاول استيقاني وأنا عائدة من المدرسة، ولكنني مباليت به، وتركته ومشيت، كان يجب أن يعرف»

وتنهض، تلوب بين المصطبة، وباب الدار، تقرب من باب المطبخ المغلق، تدنو منه، تتردد، تدنو أكثر.

عماد يعيش مع أبيه في دار عمه، دُمر الجنود الصهاينة دار أبيه، أعلني تسرعت في حبه، كيف سأعيش معه في دار عمه، مع علاء أستطيع العيش في سعادة، علاء يستطيع شراء كل شيء، الأساور والعقود الذهبية، دار والده قصر، ولكنه»

ويفتح باب المطبخ، تخرج أم عويد، محنية الظهر، ترفع وجهها الى رجاء، وتقول لها: «أسفي على شبابك يارجاء، لاحلوى لاضيوف ولادعوات»
وتدب نحو باب الدار بخطى بطيئة، وهي تغمغم:
«إيه، عماد يتزوجها اليوم، وبعده يروح الى المعتقل»
غطاء الوسادة يسقط من بين يدي رجاء، تتابعها بانظارها، ذاهلة. وتتفجر الدموع في عينها.

وعند الباب يظهر أبو رجاء، فتسرع اليه ابنته، وهي تكفكف دموعها. يضمها اليه، يمسح دموعها، يقبلها في جبينها، وهو يسألها: «لماذا الدموع يارجاء؟!»
وتظهر أم رجاء في باب المطبخ، ترحب بزوجها، فيسألها: «التقيت بأم عويد في الزقاق، عرفت أنها كانت عندنا، لماذا جاءت إلينا؟! وترد أم رجاء مطمئنة: «لم تقعد، جاءت لتعيب علي، لأنني مادعوتها» «لاتبالي بها، عقلها ضعيف» ثم يلتفت الى رجاء ويسألها: «ماذا قالت لك أم عويد، حتى بكيت؟!» «لم تقل أي شيء، ولكنها ذكرت المعتقل» يمسح بيده على رأسها، ثم يهمس:
«لا، لا يابنتي، لاتحافي، عماد نفذ الآن عشرين عملية، وكل يوم يرجمهم بالحجارة، وما أصيب بخدش، عماد مثل والدك ولكن إياك، لا تقولي لأحد» ترفع وجهها اليه تتسمم. تملأ عينها من عينيه.

«الآن عرفت، أبي مثلي، لا يجب غير عماد، والد علاء عنده ألف هكتار، ولكنه ليس مثل أبي، هو يزور مقر الحاكم العسكري، يتعامل مع الجنود الصهاينة، وابنه مثله، مارأيت أبدا يحمل حجرا يرجم به العدو، ولا سمعت أبدا أنه شارك في أية عملية، والعجوز الخرفة تأتي لتعرض أمني، لا،

لا، عماد سيدمر المعتقل، أنا وعماد سندمر المعتقل.

ويأتيها صوت أمها من المطبخ: «يارجاء، تعالي احلمي هذا الصحن الى المصطبة، هبي المائدة» وتسرع الى المطبخ، تحمل صحنا وملاءة، تمضي بهما، تعبر الفناء، نهذاها يتواثبان، تنظر الى والدها، وتبتسم. أبو رجاء يتجه الى المطبخ، ويقول لزوجته: «سأحمل بعض الصحنون وتمس له زوجته: «نحن تسرعنا في الموافقة على خطبة رجاء، البنت ماتزال صغيرة» ينظر اليها بحدّة، ثم يقول بحزم: «ماهذا الكلام، تكلمنا من قبل على هذا الموضوع، وانتهينا» ولكن النفس تتمنى، وأنا نفسي أشتهي لابنتي...» ويقاطعها: «أم عويد أفسدتك، حدثتك بلاشك عن علاء» وهم يقول شيء، ولكن رجاء تصل، فتناولها الخبز، وهي تقول لها: «خذني الخبز يارجاء» ثم تلتفت الى زوجها، وتمس: «بصراحة، علاء كان يقدر على» ويقاطعها مرة أخرى: «ماهذا الكلام؟! نحن لابنتي بيتي ولا بيت عماد، نحن نبي الوطن؟؟ ونخرج من المطبخ محتجا، من غير أن يحمل أي شيء.

وإذا عماد في باب الدار، فيتلقاه بحماسة، ناسينا غضبه «أهلا عماد، أهلا، تفضل» وتهض رجاء، تقفز، تركض عبر الفناء، تطير الى عماد، وهي تحمل بين يديها غطاء الوسادة، تسأله بلهفة: «أنظر ياعماد، هل تعرف ما هذا؟!» وقبل أن يفوه بشيء، تضيف: «غطاء لوسادتنا، طرزته بأعلام فلسطينية صغيرة» ويحييها عماد، وهو يحاول الابتسام: «جميل، جميل جدا يارجاء، ولكن يجب أن تطرزي واحدا آخر، لوالدك» ثم يلتفت الى عمه، يمس له، وعلى الفور يلتفت أبو رجاء الى ابنته، ويقول لها: «لابأس يارجاء، خبي غطاء الوسادة الآن، وتناولي الغداء مع أمك، أنا وعماد سنذهب» وتخرج الام من المطبخ مدهوشة، لتسأل بقلق: «ماذا حصل ياعماد؟!» «لا تقلقي لاشيء» وتسرع الى الباب، تقف فيه، تسده بجسمها، وتقول بعناد: «سنذهب كلنا، أو لن يذهب أحد» في مدخل القرية رجال ونساء وشيوخ وأطفال يرجون الجنود بالحجارة. وبينهم رجاء والى جانبها عماد. رجاء ترجم الجنود بيد، ويبيدها الأخرى تلوح بغطاء الوسادة. عماد يسألها: «لماذا التلوح بغطاء الوسادة؟!» وتجيّب: «الأعلام الفلسطينية التي عليه، ستفقد عيون الجند» وعلى مقربة منها أبو رجاء، يلتفت حواليه، ينظر الى زوجته، ثم يقول: «انظري حولك، هناك كثير من العجايز، ولكن أين أم عويد، بل أين علاء؟؟» وتجيّب «لا تقلق، أنا معك دائما، لحظة ضعف، وموت» ثم تقذف بقوة حجرا.

وعلى المصطبة، في فناء الدار، تحط العصافير، تتفافز حول المائدة التي أعدتها رجاء، ثم تنفر في الصحن والخبز.

تمة

زقزقة العصافير الطليقة

حسن سعد الدين

من شجرة السهاء الزرقاء . تتدلى الشمس برتقالة من الضوء . أقبيل عصافير الكناري ، حط فوق فرع رقيق وراح يغرد في أسمى ، أقبيل طائر البشاروش ، يتبعه السمان ، يتبعه الوروار ، اصطفوا جنب الكناري ، بعد برهة قصيرة ، أقبيل طائر الزقزاق العنيف الدوران ، حط بجوار البرتقالة المتألقة ، وأنتفض يدور ، يدور وكان عنيقا في دورانه ، فجأة أقبيل عصافير الشوك ، وراح يتقافز في خبث ما بين البرتقالة والعصافير فتوقف الزقزاق ، عن الدوران ورشق ريشة الرؤيا في البرتقالة ، فانتبهت العصافير وانتظرت بدء الاشارة لتبارك عشب الربيع المتظر .

غرد البشاروش وتقافز الوروار، بينما انطلق الزقزاق قاصدا زهرته الحزينة بين العشب المتمايل
يتبعه عصفور الشوك ظلا بظل . . قال الزقزاق لزهرة البكارة التي توشوشها الرياح :
- هاأنذا يا حبيبي الندية شكلت جموحى وأجنحتي من عجين العذاب ، فامنحني شذاك الحزين .
وأعطيني قطرة من عسلك البري . . قبلما أرحل للربيع المنتظر
- قالت الزهرة وهي تذوب حزنا وعذوبة :

ترحل ؟!

وتساقطت دموعها قطرات من الندى ثم قالت :

- ويأتي موسم الهجرة الطويل وأبقى وحيدة؟

- قال الزقزاق في قلق :

كفي عن البكاء يا عينا، عاشرت أدمعها قرونا، لن تبقي وحيدة بعد الآن يا حبيبي . . كيف
تكون هناك هجرة والربيع سيحل جيشا من النخيل يصلى، يبارق من العشب تقاتل الصهد،
خيولا من الماء ترقص، شجيرات من الضوء تعانق النسيم، أوتارا من الألوان تعزف، وفاكهة من
الصهيل لنا، ولنا طوابير من الغناء عطر من الأنفاس، فراشات من العطر تهيم . . ابتسمت زهرة
البكارة، وقبلت الزقزاق في حنان رقيق، رقيق، فراح يدور من النشوة . . يدور، يدور . . وكان عينا
في دورانه . . بينما انطلق عصفور الشوك . . انطلاقة مربية . .

حط عصفور الشوك أمام الصياد الفارع الذي أمسك بندقية الفارعة يشحنها بطلقات
(الرش) السمراء المدبية بحجم حبات القرنفل، وشبكة صيد العصافير استقرت على كتفه بشكل
ملفت، بينما زوجته استغرقت تصطاد السمك . .

زقزق عصفور الشوك وراح يتقافز أمام الصياد الذي ابتسم ابتسامة مربية ثم قال لزوجته
التي اصطادت سمكة حمراء صغيرة فانتفضت فانتفضت تهلل في ابتهاج وترقص . .
- سيكون صيدنا اليوم وفيرا ورائعا . . انظري هاهي البشارة، وأمسك عصفور الشوك يقبله ثم
وشوشه العصفور في فمه فضحك طويلا وقال لزوجته :

- هيا بنا للمي حاجياتنا . . وأسرعى . .

كانت زهرة البكارة تمشط شعرها في مرايا الندى وتغني للزقزاق الذي طار لتوه ليرحل مع
العصافير في بردة الرؤيا للربيع المنتظر :

(أنا لحبيبي . . وحبيبي الي

يا عصفورة بايضة لا بتسالي

لا يعتب حدا . . ولا يزعل حدا

أنا لحبيبي . . وحبيبي الي)

قال الزقزاق وهو ينفض أجنحته وقد أصغت له العصافير جيدا :

- في ساعة الحمحة تأملوا القمة بعين بهيجة وانظروا الى الهاوية بعين النار.. أرقصوا وغنوا وكونوا
انتم أول من يرفع بيارق العشب والغناء . . فسهلت العصافير فرحة وانتظرت بدء الاشارة . .
جفف الصياد عرقه بمندبله الأبيض المشغول بنجوم كثيرة زرقاء، بينما زوجته تنتها تعبا . .
أسرع هو ورفع بندقيته، طلقات سريعة متوالية مصوبة ببراعة واتقان . . سقطت بعدها العصافير
كومة من الدم .

ركضت الزوجة لتأتي بالعصافير، وراح هو يغني ويصفر فرحا، بينما زهرة البكارة تنتحب،
تنتحب، تنتحب .

قال الصياد لزوجته في غبطة شديدة:

- ألم أقل لك أن صيد اليوم سيكون رائعا، وأن أبي سيكون في غاية السعادة عندما يرى حصيلة
اليوم . . قبلها في حرارة، وطوق خصرها بذراعه، ورحلا بينما دم العصافير يتقاطر، يرسم على
الأرض طريقا ثانيا . .

راحت زهرة البكارة توشوش الرياح ثم تغني - الحزن والانتظار - بينما النسيم يعانق العشب
فيتمايل في انكسار . . فجأة أقبل كناري يغرد في أسى يتبعه بشاروش، يتبعه وروار، يتبعه سبان،
واصطفوا جنب الكناري، بعد برهة قصيرة أقبل زقزاق، وحط بجوار البرتقالة المثالفة، وراح يغرد
ويدور، يدور وكان عنيفا في دورانه . .

قصة

الخضة

حسيب كياي

في أواسط الثمانينات تعرفت بالدكتور «عبد الكريم». كان أيامئذ أستاذاً زائراً في جامعة «العين». وكنت أعرفه منذ أن كنت في الشام من خلال كتاباته في الصحف. لفت نظري أسلوبه الجميل جمع بين الجزالة والبساطة والتعليم مع المتعة الجمالية. زارني في بيتي بدياً لما انتهت فترة إعارته. أمضينا سهرة لطيفة. أهدى إلي بعض كتبه. أقرأته بعض قصصي. اتصلت بيننا رسائل كان أكثر ما يميزها القلب المفتوح الذي كُتِبَتْ به.

هاهي إحدى رسائلي إليه:

أخي أبا محمد:

قد نظنتها خضة اختص بها آل كياي إذا قلت لك إني، مذ تلقيت رسالتك الكريمة أحاول أن اغتمم - على طريقة أجدادي المشايخ - حالاً من الانجذاب (اقرأ: الصفاء) تؤهلني للإجابة التي تروقك وتحليني في عينيك أكثر مما أنا حتى الآن. أسارع إلى تنبيهك إلى أن الخضة الكيالية التي قصدت حكرة فرع أسرتنا في حلب الذي خرَّج عدداً لا بأس به من المجاذيب والبُله - أكثر أهل الجنة من حسن الحظ - الرسميين، أي ممن لا يحملون هذه الصفة كلمة تقال أو مزحة تطلق من صاحب يمون. . وأما نحن في البلد فجبل عقل بإذن الله، وإن كان المرحوم أخي، سامحه الله، يماريني في هذا اليقين من قبلي، بل ظل طوال حياته يماري كل من يرى رأيي سواء أكان من الأسرة أو غريباً عنها. . ولكن شططه في ذلك بلغ الذروة ذات يوم ما زال أذكره:

غازي، الشاب المراهق، وهو ابن عمنا زين العابدين، سأل أباه ذات يوم أن يزوجه ابنة

قلص من سورية.



عنه فطوم، وهي أكبر منه بسبع سنوات وفقيرة مثله، فاندفق عليه ابن عمنا زين العابدين كأنه السيل العرم الذي أودى بسد مأرب، يقرعه فلا يترك عليه سترًا مغطى. تزوج أنت يازربول يا جرو والبيضة ما فقتست عنك بعد! ولك خل يكون عندك في وجهك دم. أنت بابئ في الصف الأول الاعدادي منذ ثلاث سنين. في الفرصة الصيفية قلبت لك مئة مهنة: شغلتك أجير نجار، مانفعت. قلت إنك تخاف من المنشار. في الكهرباء، ما أفلحت. في الطورنو خفت على بدلتك من الزيت. ثم تزف لي آخر النهار هذه البشارة: «ودي أتزوج بنت عمي فطوم!، فطمك إن شا الله عزرائيل يقطع خبرك أنت واخوتك الخائبين كلهم وأختك المجنونة سعاد، حتى لاتزعلوا!.. فما كان من ابن عمنا غازي إلا أن طق عقله. ابن عمنا زين العابدين، في البداية، لم يابه له. ولما رأى دموع كنة عمنا، زوجته، صرخ بها غاضباً: «كذاب! هذه تلبسة حتى نحقق له أربه!» ولكنه لم يلبث حتى بدأ يروغ: عوارض تأجير الطابق فوقاني بدأت تظهر واضحة: الهيمان في الشوارع والأزقة، الصمت، الظهور شبه عارٍ أمام أهل البيت أو الضيوف، إحداد النظر في البئر بصحن الدار كلما كان أحد إخوته يخرج دلو ماء. لم يبق أمامه إلا عرضه على الطبيب. ولكن أين؟ في البلد لا يوجد إلا ممارس عام واحد وطبيب أسنان قد أقام دعوى على الحلاق عبد العزيز لأنه يلهف منه مرضاه كلهم. تذكرنا، نحن الجالية الكمالية في دمشق، فحمل ابنه وجاء الى بيتنا يث شكاته. وقد اختارنا لأن أخى المرحوم عبد الرحمن كان، مثلما تقول، عميد الأسرة في العاصمة.

- يدي في زنارك يا ابن عمي. صحيح أن عندي غيره نصف دستة، ولكن الولد غال.

قال أخى، خلياً:

- سبحان الله في طبعك، اي زوجة!

- ولك ما عندي مانع. تدبر لي أمر شفائه من هذا الجني الذي يتلبسه، فضائل الألف بسم الله الرحمن الرحيم وأنا أزوجه أربع نسوان مرة واحدة.

- لا. واحدة تكفي وتزيد. اسأل أخى هذا (يشير إلى) تزوج حتى الآن أربعاً وهو الآن مطلق منهم جميعاً.

قلت أنا: «أنا مطلق بكسر الميم المشددة، ولكنني ما زال عازب الروح!»

حضر تلك الجلسة الطارئة، فوق العادة، ما خلا إيانا، أخى وأنا، أنشط أفراد الجالية: «عبد الغفار» ابن عم زين العابدين لحاً، وهو، في الظاهر، سليم، ما فيه جنس «الحضة» ولكنه - في المدة الأخيرة - فاجأنا بأنه «يقرض» الشعر خلصة! وقد ظل يفعل هذه الأفاعيل حتى اشتد - فيما يزعم - عوده الشعري، فانفك الرصد وأن أوان تبليغ رسالته الشعرية إلى العالمين. منذ تلك اللحظة أيقنا أن «إصابته» غير قابلة للشفاء، لما أظهره من صمود وإصرار كان يمكن أن يكونا محتملين لولا هذه العادة القاتلة التي رافقت إصابته: أن يجبرنا، كلما التقينا، على سماع «أشعاره»..

الكواسر!.. فإذا تكاثرتنا عليه ومنعناه من «إنشاده» الشعر وثب علينا بحكايات لا آخر لها عن مغامراته الغرامية واستحالة صمود أي امرأة أمام فحولته العارمة، الأسطورية.. ولا سيما إذا ذاقت

أولى صدماتها التي يستطيع أن يطيل الواحدة منها من بعد صلاة العشاء حتى آذان الفجر، وفي ليالي الشتاء لأجل خاطرِك. . حتى تصرخ المرأة - مهما يكن ماضيها حافلاً ورغبتها لا تروى - قائلة: «دخيلك، عدت لا أطيق. أجل لي الوصلة الثانية أسبوعاً أسبوعين حتى أشفى من الرضوض!». .

ويذكر بين الحاضرِين ابن عمي عاطف وهو ضابط متقاعد معه شيء من الوسواس في ملبسه وماكله وتربية أولاده وحتى في سُكره: إذا دعا بعض أصدقائه إلى سُكره في البيت، وهذا لا يكون إلا واحدة بواحدة، حرص على أن تكون السفرة أصولية، ومافيها اللوّ، كُتاً وكيفاً. فإذا انصرفوا وصادف أن أحدهم أو جميعهم تركوا كؤوسهم نصف مملوءة لم يتم حتى يفرغها كلها في بطنه مهما تكن درجة سُكره عند انتهاء المأدبة. . وفلسفته في ذلك تقوم على نفوره من الهدر والتبذير: كل شيء يجب أن يُتفع به، حتى السيكرة يجب ألا ترميها قبل أن يحرق عقبها إصبعك. .

ولا ننس عنترَةَ الفرع الشامي ابن عمنا بهاء وقد كان شرطياً فُرح لكثرة مشكلاته. وقد سئل أيام كان في الخدمة: «كيف تقبل على نفسك وأنت من بيت الكيالي المنسوب أن تلبس شرطياً عند الفرنسيين؟ فتأوه وقال: «الله يلعن هذه السوسة التي لم استطع التخلص منها: أن لا أستطيع المشي خطوتين خارج البيت إلا إذا كان معي مسدس. وقد حفيت رجلاي في طلب رخصة فلم أوفق. ما عساي أن أفعل؟ قلت في نفسي: مالك يا ولد إلا أن تلبس في السلك!». .

هؤلاء الثلاثة كانوا أقرب نسباً منا وأنا وأخي إلى زين العابدين وابنه، ولكننا كنا أقدم منهم في سكنى دمشق. واقترح عبد الرحمن أن نقصد الدكتور زهدي المنجد، من أشهر المختصين في الأمراض العصبية والعقلية، وكبير أطباء مستشفى ابن سينا قرب دوما. كان الدكتور شديد التهذيب، أحسن استقبالنا وزلق بضع كلمات ثناء على مقالات أخي الصحافية، ثم أخذ يلف ويدور حتى لا يطرح سؤاله الأساسي في فجاجة فيجرح شعورنا، ولكننا سرعان ما فهمنا أنه يريد أن يستفهم إذا كان في الأسرة «سوابق»!

نظرنا بعضنا في بعض. أو قل ان عبد الرحمن هو الذي استعرضنا بنظرات من عينيه السوداوين الذكيتين اللتين كانت تلوح فيهما ابتسامة معابثة. . لم يلبث حتى كبجها لما توجه بالكلام الى الدكتور. قال جاداً:

- حد علمي أنه لا يوجد. في الأقل عند أسرتنا في البلد. في حلب يوجد سوابق كثيرة. .
- وعاد يتخايب في النظر لينا، ثم كرة أخرى على الدكتور:
- في تاريخنا المنظور بعض الحوادث التي لا نستطيع أن ندخلها في باب الجنون تماماً. آباؤنا، أجدادنا أهل البلد كلهم يروونها على أنها كرامات.
- قال الدكتور في حياء:
- هل اجرؤ على رجائكم ضرب مثل، نموذج. . .
- قال أخي:
- جداً.

- إذا تفضلتم

- إحدى جداتي، واسمها حنيفة، أرادت أن تحضر أحد الأذكار التي تقام كل شهر في زاويتنا على الطريقة الرفاعية، فانتهرها أحد مريدي الشيخ، جدي، وقال لها: «انصر في يا حرمة، ممنوع دخول النساء!». .. وابتعدت الجدة مكسورة الخاطر واتجهت إلى البيت لتطلق أعنة دموعها في حيث لا يراها أحد. وفيما هي في الطريق الذي يمر بالمضياة خطر لها أن تغسل وجهها. ولكن منظر المضياة والأباريق المصطفة جعلها «تعمل المدينة من فرد باب «فتروضاً وهي تذكر الله: «الله، الله!، وإذا هي بالأباريق على بكرة أبيها يأخذها الحال «وتروح تهوج وتموج» حج، حج بيت الله، محمد رسول الله... الله حي، الله حي. يارفاعي المدد!، ذكر أشد من ذكر حرم الزاوية استمر حتى ساعة متأخرة من الليل حين فرغ أهل الذكر الذين في الحرم من ذكروهم وكانوا شهداء على كرامة السيدة حنيفة التي جبر الله خاطرها...
اعترض عبد الغفار:

- حنيفة كانت جدتي أنا.

لم يعره أخي عبد الرحمن أي التفات. تابع متوجها إلى الدكتور المنجد:

- ولماذا نذهب بعيداً؟ أبو جدي، أي جد أبي الشيخ طاهر. هذا ما يزال بعض المعمرين يذكرونه حتى الآن: في أثناء حجه إلى الديار المقدسة زار قبر جده المصطفى عليه الصلاة والسلام، وروحي فداه. فلما وقف أمام القبر الشريف أخذته الخشوع فأنشد في صوت باك:
«امدد يمينك لكي تحملي بها شفتي»

وتمتد يد الحبيب من القبر، لا ليقبلها جدي، ولكن ليصافح بها يده التي تصبح، منذ تلك اللحظة المهيبة، بيضاء كالخليب الطازج. ولا أدل على ذلك من أنه حتى آخر حياته ظل يلبس فردة قفاز واحدة لا يخلعها إلا عندما يتوضأ بعيداً عن الأنظار. بعض السنة السوء، حتى في تلك الأيام، زعموا إنه كان مصاباً بالبهق! فرية مفضوحة مصدرها الحساد أجازنا الله من كيدهم...
مرة أخرى تدخل عبد الغفار. فقال كأنه يكلم نفسه:

- أوجعت رأس الدكتور... .

عبد الرحمن لم يعره لتفاتاً: الدكتور هو الذي سأله وما هوذا يبذل جهده لكي تكون إجابته كاملة. قال:

- أم أننا ننسى - وهؤلاء السادة شهود - الحبة الرقطاء التي دهمت جدي عبد الحميد فيها هو يقطف الأراضي شوكي من حاكورة الزاوية، فصرخ بها صرخة واحدة وإذا هي تنقلب إلى حبة من حديد متنازل في حديقة بيتنا في البلد حتى يومنا هذا... .

سأله الدكتور في شبه همس:

- في الحديقة!

- أي نعم، يا حشرات قلبي! ذلك أن السلف الصالح جاء من بعده خلف أضاعوا الصلاة وجعلوا

من الحية الحديدية المعجزة منكاشاً لنكش شجيرات المشمش والرمان والتفاح!

تظاهر الدكتور زهدي بأن أنفه يحكه فرفع كفه إليه ليسترفمه! ولكن عبد الرحمن لم ينضب:

- أم أروي لك قصة عم أبي أخي جدي، الشيخ نجيب، الذي كسر خاطره أبو عبده الفران حين رفض قبول صينية كبة بالصينية في فرنه محتجاً بزحمة يوم الجمعة وامتلاء بيت النار بالصواني واللحم بالعجين وعش البلبل... فما كان من جدي الشيخ نجيب إلا أن غضب وقال لأبي عبده الفران: «هكذا إذن! طيب أنا داخل أشويها بنفسي» ودخل بيت النار وشواها وخرج ما في بدنه لذعة واحدة ليقدم الكبة محرقة إلى الضيوف الذين كانوا في انتظاره...

اغتم عبد الغفار وقفة وقفها عبد الرحمن، وقال:

- دكتور، ابن عمي هذا، مع احترامي له منحاذا!

استفهم الدكتور حياءً: «عفواً؟!»

- نعم منحاذا ومتعصب. حسبك ان تعلم أنه طوال حديثه لم يتكلم إلا على كرامات فخذهم من الأسرة أي بيت محمد أفندي. أنا لا أنكر أنهم فرع دين وعلم... ولكننا، نحن بيت النائب، من الأسرة أيضاً، ولنا كرامات، ومثلما يقول الناس أوقات الشدة: «شي لله يا بيت محمد أفندي» يقولون: «شي لله يا حاج كامل النائب!»

قال بهاء وقد نفخ صدره مثل الديك:

- وفخذنا نحن إذن!

قال عبد الرحمن ضاحكاً:

- أنتم فخذكم رخوا

والتفت إلى عبد الغفار:

- وأما أنتم فليستم من الكمالية مئة بالمئة، أنتم من بيت دودحاني.

فار عبد الغفار وراح يفحص الأرض بقدمه:

- نحن بيت دودحاني؟ لا تصدقه يا دكتور!

- لماذا يسميكم الناس بيت دودحاني إذن؟

قال عبد الغفار مخاطباً الدكتور:

- المسألة وما فيها أن أحد أزواج أمي...

- السبعة...

- الأربعة قبل أبي، وكان كمالياً شق المنشار، كان يكنى «دودحان» لأنه كان أحمر مثل الأبقوان الذي يقال له عندنا في البلد «دودحان» وأما فخذ أسرة أبي فهو «النائب».

- ظني أنك ستقول للدكتور إن جدكم كان يقال له «النائب» لأنه كان نائباً في مجلس المبعوثان في الأستانة! كله شفقة نائب باشكاتب في المحكمة الشرعية.

- ولكنه كان خطه مثل خط المولوي في حلب وينظم الشعر. على كل حال هو أحسن من جدك أبو طيلة.

- مزهر وأنت الصادق... لأنه كان شيخ تكية بفرمان من السلطان عبد الحميد. قل لي، من جهة أخرى، يا ابن عمي عبد الستار، هل عندكم أنتم زاوية؟ مدفن في نفس البيت لجدك الأعلى الذي جاء من المدينة المنورة على ظهر الجمل فلما حط رحاله في البلد رأى أن بيرقه الأخضر قد سبقه إليها بأكثر من ثلاثة أشهر لأنه جاء طائراً قبل إختراع الطائرات بخمسمائة سنة في القليل!

وقبل أن يتحفز عبد الغفار للرد، أو الدكتور لإعلان اكتشافه بما سمع من «بيانات»، أضيف عبد الرحمن وهو يلتفت بجذعه نحو بهاء:

- وأما أنت يا ابن العم فيحسب بك أن تظل ساكناً لأن فخذكم اشتهر، على نطاق المنطقة أنا لا أنكر، ولكن بسرقة الزيتون! ونقر بهاء في مجلسه وهو يقول: «نحن!»

وتدخل ابن عمي عاطف للمرة الأولى منذ افتتاح الجلسة. قال من غير أن ينظر إلى أحد، وإن كان واضحاً أنه يعني عبد الغفار وبهاء:

- لا يوجد في الحياة المدنية رتب كما في العسكرية: صف ضباط، ملازم، ملازم أول، نقيب... لكل عدد من النجوم المعدنية على الساعد أو الكتف تعرفه حدوده وحدود غيره. ولكن ليس معنى هذا أن تكون الحياة المدنية فوضى. إنها هي أيضاً فيها نظام، رتب تتدرج حسب السن: الأكبر هو الذي لا يناقش قبل أن يطاع. «نفذ ثم ناقش» يجب أن تكون الشعار حتى في الحياة المدنية، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة. نحن لما كنا في الخدمة كان يأتينا أحياناً أمراً لايلي، يعني أن أصله ضابط صف أي ليس خريج الكلية الحربية. وقد يكون عقله يأخذ ويعطي، مثلما نقول، فيه بعض الخضة... ومع ذلك كنا نطيعه. أكثر من هذا، كنا ننفذ من غير أن نناقش. ما عسك أن تناقش انساناً ركب في رأسه قرمة سنديان!

وقفه قصيرة ثم، حاسماً:

- انتهى كلامي. والفهم يفهم.

قال بهاء:

- نحن في سلك الشرطة...

عاد عاطف يقول باتراً:

- عندما يذكر الجيش...

أكمل عبد الرحمن:

- تسبكت والقيقي!

هاج عبد الغفار:

- أنتم تحكون بالألغاز؟؟ ما هذه «القيقي»!

قال بهاء:

.. هذه كانوا يقولونها للدرك (الجندرية) وأما الشرطة ..

قال عاطف:

- الشرطة وَرَثْتَهُمْ، حتى في الهيمان بافتراس «قيمي» الفلاحين!

قال عبد الرحمن يشرح لعبد الستار:

- كأنك آت لتوك من باريس. ألا تعلم أن الدرك كانوا لا يحبون شيئاً مثلما يحبون الدجاج حتى ولو

لم يكن معه رزب... أم تظن نفسك ما تزال حليب أمك على فمك... كغ!

قال عبد الغفار مشهداً الدكتور:

- رأيت كم هو عدواني!

قال عبد الرحمن:

- أنا أم بيت دودحاني؟ ولك أنت أختك نفوس ذبحت دجاجة مُسْرُوكَة بيدها ولم تحف! هل سمع

أحد أن بنتاً ما تجاوزت العاشرة تذبح دجاجة؟ وأما أنت فهل أقرأ للدكتور مكتوبك لحميدة

صرصور؟ أنا محتفظ بصورة عنه من عشرين سنة هاه!

تحركت شفنا الدكتور لحظة قبل أن يقدم. قال لأخي:

- أظن أن في الإمكان الآن رؤية المريض إذا أمرتم.

كان المريض صاحب العلاقة الرئيسي، في حراسة أبيه، وبعض المرضين الأشداء من قبيل

الاحتياط، في الغرفة المجاورة، بناء على طلب الدكتور منذ البداية. ونهض أخي وهو يقول:

- أنا رايح أنده لك إياه. ولكن قل لي يادكتور إذا أمرت.

- تفضل أستاذ

- ما عساي أن أقول؟ أنا خائف!

- خائف! مم؟

- أن ينتهي فحسك له بإطلاق سراحه هو، والأمر بالتحفظ على هؤلاء السادة الأكارم، وأولهم

محسوبك!

قال الدكتور وهو أشد ما يكون استحياء:

- أستغفر الله العظيم...

- لأن المسألة وما فيها أن ابن عمنا، السيد غازي، جبل عقل، ما فيه قلبه من القلبات، حالته لا

تعدو أن تكون نوية استزواج لم ينج منها كما لي في مثل هذه السن قط. وأما نحن...

وأخذ يحرك يديه وعضلات وجهه مقدماً مشهداً إيمائياً يحسده عليه مارسيل مارسو، يفهم منه

أن على الدكتور المنجد أن يلقي علينا القبض من تلابيبنا ويدكنا في إحدى غرف المستشفى، ثم:

- لَيْسَ بالمسطين على الكل!

هذه الجملة قالها استكبالاً للمشهد الإيمائي وخرج من مكتب الدكتور وهو يطيف بنا نظرات

شقاوة شامته!

قصة

حكاية غيمة

(١) احاب

صبحي كردي

هذه حكاية حاولت ان تكون رواية للفتيان وقصة للكبار.

ينثر القدر على ضفاف الانهار حكمته، كما ينثر الفلاح البذار في الارض!

من أغاني قم الجبال، في موسم الفرح ..

وتترعرع هذه الحكمة، وتشب لتصبح غابة من قصب. فإذا هاجت أشجان النهر، وهفت روحه إلى الغناء، أخذ قصبة، من تلك الغابة، وصنع منها نايًا، ليعزف عليه ويغني ألحانه الأسطورية الرائعة، يحكي بها حكاية نادرة، لرياضه، وحدائقه، ومافيها من أشجار وورود وفراشات وعصافير ..

وفي فصل هذه اللحظات الساحرة، تعيش موجبات النهر أسعد لحظاتها وأبهاها، وهي تقوم بترديد تلك الاغنية بخشوع ونشوة، تفيض من قلوبها، إلى الكون، لتتوجه بأكاليل البهجة وأعراس الفرح ..

وذات يوم، فاضت أشجان النهر وتوقدت روحه تتلهف للغناء .. أخذ قصبة، وصنع منها نايًا .. ثم تربع على عرشه، ليتغنى بحكم الزمان، ويحكي أقواله ..

كُتِبَ من سورية.

إلا أن النهر، في الوقت نفسه، أراد أن يداعب ربوعه، قبل أن يبدأ حكايته المتظرة، من خلال لعبة طريفة، حبك خيوطها، مع شقيقته الغيمة، لأمر له معنى كبير في نفسها.
واكتسى الكون حلة من البهاء الجليل . . . وبدا في هذه اللحظات، نسيجاً بديعاً من الألوان
القزحية الرائعة، يتوج النهر، المتربع على عرشه الخالد.
وكما هي الحال، في الحكايات كلها، استهل النهر الحكاية بصوته الشعبي، بما تُفتَحُّ به
الحكايات عادة، من كلمات معروفة للجميع .
- . . كان . . . ياماكان . . . في قديم الزمان . . . نحكي . . .

وقبل أن يتم النهر جلته، هدرت غيمة متجهمة في السماء، محتجة مقاطعة النهر:
- لماذا نبدأ حكاياتنا دائماً بـ كان ياماكان في قديم الزمان . . . ؟ ترى، من هو الـ «كان» ومن هو الـ
«ياما»؟ . . . أما أن لهذا «الكان» و «ياما» أن يشيخا؟ . . . أن ننساها . . . ؟ أن نتركها ليستريح
قليلاً . . . ؟

قفزت الأنظار إلى السماء على أجنحة الدهشة الغاضبة، تبحث عن مصدر ذلك الصوت
المزعج، الذي عكّر على النهر أجواءه القدسية . . .
لم يكن في السماء، إلا سواد متجهم، يغلي ويموج، كأنه البراكين قبيل اندفاعها.
تساءل الجميع:

- ما الذي جرى؟ كانت السماء صافية هادئة! من أين جاء هذا السواد المرعب؟؟
بقي النهر مجللاً بوقار ابتسامته المشرقة.

لم يحتج . . . لم يمتعض، في الوقت، الذي ثار فيه الكون ثورة غضب جامح، اهتزت الأشياء
كلها حول النهر، وكان عاصفة جنونية، تحاول اقتلاعها من جذورها . . .
تكورت الغيمة على نفسها . . . ثم للمت من امتداداتها، فبدت وحشاً أسطورياً، له عشرات
الرؤوس، المكشرة عن أنياب أخطبوطية، تطلق أصواتاً مزججة راعدة، جعلت ربوع النهر كلها،
تنحي، باحثة عن مخبأ تلوذ به من شدة الرعب .

النهر مازال مجللاً بوقاره، تفيض من محياه ابتسامة رقيقة شفافة، تضفي على الكون شتاء
بهياً، يطرد الرعب من ربوع النهر ويهدىء من روعه . . .

رفرفرت ضفتا النهر، وتقافزت موجياته، تناجي الغيمة بود وحنان:

- أهلاً . . . أهلاً بشقيقتي الحبيبة . . . أهلاً بك في ربوعك الرحبية . تعالي إلينا لنستقبلك بصدور
تفيض بالشوق والمحبة . فنحن أحباؤك ما الذي أثار غضبك هذا؟
وما أن سمعت الغيمة هذه الهمسات الدافئة، حتى كادت تدوب طرباً وحنيناً إلى لقاء النهر

وربوعه، وهي تقول:

- . . . لست غاضبة . . . ولا أعرف الغضب . خشيت أن تفوتني الحكاية، فرجوت الريح أن تسرع
بي إليكم . فإذا فهمتم كلامي أنه نابع من ثورة غضب، فأرجو المذرة والسماح . فإذا قبلتم

اعتذارى وسمحتم لي بالاستماع إلى الحكاية، فسأكون لكم شاكراً ممتناً، وإن لم تقبلوا اعتذارى، ابتعدت عنكم، يعذبني الشعور بالذنب وتثقل كاهلي الموموم . .
نظر النهر إلى ربوعه نظرة ذات معنى وقال:

- أيتها الربوع الحبيبة! هذه الغيمة جزء مني. إنها أكبادنا وقلوبنا. فهل تركها تمضي بعيداً، دون أن نسمحها؟. انظروا إليها بعينونكم وقلوبكم، فسترون أنها تفيض بالحكايات الطريفة. هيا بنا نستمع إليها اليوم، ونستمع بصوتها الساحر، ونغتنى بمعانيها وحكمها القيّمة. فإذا انتشت هذه الغيمة، ذابت طرباً وحنيناً، وهطلت علينا غيثاً، ينعشنا بكل ماتمناه من خيرات.

هللت الربوع وزغرودت، وشذت البلابل شوقاً لسماح حكاية من حكايات الغيوم.
انتعشت الغيمة وترقشت مرتدية أجمل الألوان وأبهائها، وأصبحت تضاهي الطبيعة في قمة
تفتحها، ثم قالت:

- إخواني . . أخواتي الأعزاء! اليوم، سأحكي لكم عما يكون، قبل أن أحكي لكم عما كان . .
وأحكي لكم عما سيكون، قبل أن أحكي لكم عما كان. وإذا أردتم الصدق والحقيقة، فإن الـ
«كان»، أي الماضي صديق حميم لما هو «كائن» أي الحاضر . . وما هو كائن . . أي «الحاضر» - معلم
وأستاذ - لما «سيكون» أي المستقبل.

وقد حكى لي أحد البحارة حكاية تقول: «إن هذا» «الكان» أي الماضي اسم لرجل، أحب
أميرة اسمها «يكون» - أي الحاضر، تزوجها فولدت ولدًا جميلاً سماه «المستقبل». وصراحة،
لا أصدق هذه الحكاية. فأنا على سبيل المثال، كنت في البحر، غير مرة . . وكنت في الفضاء غير
مرة . . وفي ربوع الرياض، وفي الحدائق، وفي السهول، وعلى قمم الجبال، وفي الأنهار
والبحيرات. وما أنذا كما تروني . . في الفضاء، وسأكون في أماكن عديدة، كنت فيها، ثم أعود،
وأكون ثانية في البحر. فأنا دائماً، أعيش ما كان، وما هو كائن، وما سيكون في اللحظة ذاتها. وأنا،
سأحكي لكم حكاية، عما هو كائن، وما كان وما سيكون . . وأرجو أن تنال إعجابكم.

استمعت ربوع النهر إلى الغيمة بخشوع ونشوة، تصغي بكل جوارحها، إلى كل كلمة،
واللهفة تتأجج في قلوبها، سماع ماستحكيه لهم الغيمة اليوم.

قالت الغيمة وقد تحولت إلى شاشة بيضاء، تصور ماتحكيه:
- انظروا: ها هي منى، تعيش مع أمها في بيت فقير، يكاد يتداعى تحت وطأة الزمان، في إحدى
القرى المنتشرة في أرض تسمى منذ القديم بالأرض المقدسة.
والدها مات منذ أن كانت في المهد . . وشقيقها الوحيد غائب عنها، منذ مدة طويلة، لم
يسمعه عنه خيراً.

تخرج منى عصراً من بيتها الواقع على أطراف القرية، وتركض بخفة ورشاقة لتمر في طريقها
بصديقها نضال، تمضيان معاً إلى رابية قريبة عليها بيت أثري مهجور، بني في قديم الزمان، تحيطه
البيارات والحقول من كل حذب وصوب.

تصل الطفلتان إلى ذلك «القصر المهجور» تلعبان معاً بعض الألعاب الطفولية . فإذا شعرنا بالتعب، جلسنا تتجاذبان الحديث، تقص واحدة للأخرى، ما يخطر على بالها من قصص وحكايات، وخواطر وأحلام .

وأحياناً، ينضم إليهما بعض الفتيان والفتيات، ليرقصوا ويغنون ويشدوا بأغانيم الشعبية، من تراث هذه الأرض المقدسة .

ها هما جالستان، بعد أن قضيتا بعض الوقت في اللعب، تعانق الواحدة منها الأخرى، كبرعمين تفتحا لتوهما، يغمران الكون بشذاهما العطر الآخاذ . تهمس منى لنضال :

- آه . . يانضال . . كم أنا مشتاقة لشقيقتي جهاد . . في كل ليلة، أراه في الحلم، حاملاً راية بيضاء يعطيني إياها، وهو يتسم، ثم يُلَوِّح لي بإشارة النصر، ويطير، ليختفي في الأفق . . وأصبح : جهاد! جهاد!! فيخرج لي ثانية من الأفق، ويتسم لي مُلَوِّحاً بإشارة النصر ويقول : سأعود . . وترسح منى بروحها مع الأفق، فتشدها نضال إلى صدرها وهي تقول بكلمات مفعمة بالثقة

والإيمان :

- سيعود . . يامنى . . والله سيعود . . وسأذكرك . آه، يامنى، لو كنتِ معي في القدس، وشاهدتِ ما فعلته بالمتحليين . . ليس فقط في القدس، . . وفي طولكرم، عندما ذهبنا لزيارة خالتي . . لو شاهدتِ ما شاهدته أنا، لما بقي لديك شك بأن أخاك سيعود . . وأراضينا ستعود . . وسنتنصر على المتحليين .

وكثيراً ما كانت تحكي نضال لصديقتها منى ما شاهدته في زيارتها الأخيرة للقدس وطولكرم - في صيغة حكايات يختلط فيها الواقع بالحلم :

- في القدس، خرجنا مع الفجر . . أيقظني ابن أخي سامر . وانطلقنا إلى الشوارع، ورحنا نجمع ونجمع الأحجار . وكلما رأينا جنود الصهاينة أمطرناهم بالحجارة . .

صعدت مع ابن أخي إلى أحد الأسطح بعد أن جمعنا كومة من الحجارة . . وكمننا هناك ساعة . ومر الجنود، فأفرغنا حجارتنا على رؤوسهم . أحدهم وقع على الأرض . . وراح يصرخ ويصيح : يا أولاد . . الكلب . . وطرنا . . يا الله !!

- إيه، و «بعدين» - سألت منى والمهفة تموج في قلبها لسماع المزيد . .

صممت نضال برهة، تستذكر مآثره من أحداث، ثم تابعت :

- . . وضعتُ . . لم أعد أرى ابن أخي . . وفجأة شعرتُ بيد تجرني من بين الناس . التفت فإذا هو سامر . نظرت إليه . كان فمه مصبوغاً بالدماء . قال لي قبل أن أبادره بالسؤال : «هجم علي جندي وحاول جري إلى السيارة . . فقفزت إلى وجهه وأخذت جنفه بين أسناني . . هوى الجندي على الأرض، يولول ويش . .

واغرورت عينها بالدموع، وكادت العبرات تنحلقها . ألقَت برأسها على كتف منى، وراحت تجهش بالبكاء . . إلا أنها سرعان ما عادت إلى رباطة جأشها، لتتابع حكايتها :

- مسكين . . سامر . لم يعد في ذلك اليوم إلى بيته . جاءت رصاصة في رأسه . . تصوري . . لم يقل حتى «آخ» لم يظهر على وجهه تعبير عن ألم . فاض وجهه بابتسامة وهو يقول لي : «لا تخزي يامني . . لا تبكي . . لن أموت . . سلتي . . فلسطين . . فلسطين . . لنا .
لم تبك مني ، ولم تشعر بالأسى . . فقد طغت عليها مشاعر الفخر والاعتزاز . قالت بحماسة واندفاع :

- لماذا ، لانهب إلى هناك ونشترك كلنا في القتال؟ لماذا نحن جالسون هنا ، في هذه القرية ، تحيطنا المستوطنات من الجهات كلها ، وكأننا في سجن؟ . .
قالت نضال ، محاولة القفز فوق سنيها العشر إدراكاً وإحساساً :

- لا يامني . . يجب أن نكون في كل مكان . شبان القرية كلهم ، يقاتلون في أماكن عديدة عن أرضنا المحتلة . . يجب أن يبقى بعضنا في القرية . أخي طيب في القدس ، يداوي الناس . . وابن خالي مهندس في طولكرم . وعندما نكبر ، سنخرج ، إذا دعت الحاجة .
طلب أخي من أبي وأمي أن يبقيا في القدس ، لأنه لا يجد لحظة فراغ واحدة يزورونا فيها . . لكن أبي قال له : لا يابني . لن أترك أرضي ، التي رأت عيناها النور فيها ، للمرة الأولى . سأعيش وأموت فيها .

وتسأل مني باحتجاج :

- أليست كلها أراضيها ، والصهاينة محتلون؟؟

- نعم . . لكن علينا أن نكون في كل مكان . . وهاجت في صدر مني حسرة حري :

- لكنني أريد أن أضرب هؤلاء . .

وتطمئن نضال صديقتها :

- سيأتي الوقت المناسب .

ولمعت في ذهن مني فكرة :

- . . لماذا لانجمع الحجارة ، ونمضي إلى إحدى المستوطنات ، ونقع في مكان خفي . . فإذا مر واحد منهم . .

وتستدرك مني :

- الحجارة لاتنفع . . أريد سيفاً . . بندقية . . أريد مدفعاً . .

وابتسمت نضال وأمسكت بيد صديقتها وهي تقول :

- لكل أوانه . . والآن هيا بنا . . فقد أشرفت الشمس على المغرب . .

نهضت الطفلتان ، وطمنا ، ثم انحدرتا من على الرابية ، نفيض كل واحدة منها بسيل من

الأحلام المتدفقة . من بعيد ، أطل عليهما البحر ، وقد انعكست أشعة الغروب على صدره الفضي .

لوحتا للبحر بكلتا يديهما ، تحية لإطلائته الساحرة . قالت نضال :

- هيا بنا تتسابق . فلن تسبقيني هذه المرة . .

- لا .. لا أريد اليوم أن أركض .. أريد أن أمشي كي تكلمي لي الحديث عما رأيت ..
- آه! .. ما الذي تريد أن أحدثك عنه . فانا منذ شهر . أقص عليك ما رأيته . لكن ، رغم ذلك ، لم أحك لك شيئاً . قبل أن أخلد إلى النوم . أغمض عيني ، فأعيش ثانية ماشاهدته ، في القدس وطولكرم . في طولكرم ، الجنود المحتلون مثل الذباب ..
- آه! .. كم أتمنى لو كنت معك ..
قالت نضال مطمئنة :

- لن أذهب مرة أخرى ، إلا إذا كنت معي فردت مني والمرارة تحرق قلبها :
لكن ، كما تعلمين ، لا أستطيع ترك أُمي وحدها ، وأخي غائب ..
كيف يمكن لنضال أن تخرج صديقتها من موجة الحزن والكآبة ، التي بدأت تغمرها بعنف . كانت نضال ، في كثير من الأحيان ، قادرة على إنقاذ صديقتها ، بخفة دمها وروحها المرحة ، وخيالها الخصب .

وبينهما في حالة الرجوع تلك ، قفز أرنب من مكان قريب وراح يعدو . توقف الأرنب وأقعى على خلفيته ، محرماً قائمته الأماميتين ، ناظراً إليها بعينين براقتين .
قالت منى :

- يا إلهي .. ما أجمله! ..
قالت نضال مداعبة :

- ربما كان يتنصت إلينا .. يمكن أن يكون جاسوساً .. ؟
فردت منى بتحد :

- .. فليكن ما يكون ..
وحاولت نضال جذب خيال صديقتها إلى البعيد ، إغراقاً في المزاح :
- ومن قال لك إنه ليس روح نبوخذ نصر* ، جاء ليزور إحدى أماكنه ، التي توقف فيها عندما سبى اليهود . يحكى أن روحه تزور هذا المكان ، في كل سنة مرة .
اعترضت منى :

- لكن روح نبوخذ نصر لاناتي في جسم أرنب . ربما جاءت في جسم صقر .. أو نمر .. أو فهد ..
وتنطلق منى ونضال إلى القرية كغزالتين ، تتفافزان بدعة وانسياب وشعرهما يطير خلفهما ، كطائر ، يداعب صدر الريح .

منذ أربعين سنة وأكثر ، لم يتغير شكل هذه القرية التي أحاطتها المستوطنات من كل حذب وصوب ، مستولية على أراضيها ، يوماً بعد يوم .
تعيش هذه القرية ، منذ أن أحاطتها تلك المستوطنات ، على فوهة بركان من الحذر والترقب

والانتظار المرير. ورغم ذلك، فقد خرج من هذه القرية، العديد من الشبان والشابات، ليصلوا إلى مراتب علمية عالية، ويعملوا في أنحاء متفرقة من فلسطين.

أما الكبار - الآباء والأمهات، فلم يغادروا قريتهم هذه، إلا في زيارات خاطفة، يعودون بعدها إلى «عريتهم» فإذا غاب أحدهم عن قريته هذه، تفاقم الحزن في نفسه واشتد. فإذا سئل عن سبب حزنه، قال «والله، يا جماعة، اشتقت إلى عريتي». وإذا بحثنا عن جذور هذه الإجابة، أجابنا أهل القرية، نقلاً عن الآباء-والجدود: «كانت هذه المنطقة، مشهورة بأسودها، ونمورها، وصقورها الجبارة..»

وإذا سألنا أهل القرية:

- كيف سمحتم لأولادكم بالابتعاد عن عريتهم؟

صاغوا إجابتهم بحكمة أو قول مأثور:

- إذا كان نبع النهر ثابتاً، فلتذهب مياهه حيث تشاء..

لم تنس هذه القرية المحن التي مرت بها. وربما كانت المذابح التي تعرض أبناؤها، اشد وحشية وأقسى من مذابح دير ياسين، وغيرها من مدن وقرى فلسطين السليبة..

أم منى ولدت تسعة أولاد، لم يعيش منهم إلا منى وجهاد الذي انضم للثوار، بعد أن شب وكبر، تاركاً أمه العجوز مع أخته الصغيرة، ذات السنوات العشر، تعيش في ظروف قاسية.. وكذلك أم نضال، وأمهاها الكثيرات من نساء القرية، التي فقدت العديد من الرجال والأطفال، نتيجة الأعمال الوحشية التي كان المستوطنون يقومون بها، تحت إمرة راحب القاتلة، لإشاعة الرعب والرهبة في صدور أهل القرية، وإجبارهم على الهجرة.

قامت راحب بحرق القرية أكثر من خمس مرات.. وبقيت القرية طوراً شامخاً، يعذب راحب ويقلق راحتها بصموده وثباته.

وربما كان «راحب» ليس اسمها الحقيقي.. فهي امرأة أوروبية، جاءت مع المحتلين إلى هذه الأرض المقدسة. إلا أن القرية، لاتعرفها إلا بهذا الاسم، الذي أطلقه عليها والد منى، بعد أول «زيارة» تأتي بها إلى هذه القرية:

- «وصلت راحب إلى القرية، مرتدية بزة جلدية سوداء، وحذاءً جلدياً طويلاً، وعلى رأسها خوذة حربية، ويدها سوط طويل، وعلى أحد جنبيها مسدس طويل، وعلى الجنب الآخر هراوة كبيرة، يرافقها عشرون جندياً مسلحون بالبنادق والهراوات..»

أجبرت راحب سكان القرية على الخروج وجمعهم في باحة القرية، وفي هجير يوم قانظ - أطفالاً وشيوخاً، رجالاً ونساءً - لتتنقض عليهم بسوطها وهراوات جنودها، بوحشية وحقد، وفي تلك الباحة، وتحت ضربات راحب وجنودها، أسقطت أم منى طفلاً في الشهر التاسع، وأصيبت بنزف كاد يؤدي بحياتها. وفي هذه الباحة، فارق شقيق نضال الرضيع،

الحياة . . وكذلك جدتها الطاعنة في السن .

كان ذلك في الزمن الماضي ، قبل أن تولد منى ونضال ، وأمام مثل هذه المشاهد المؤلمة ، تقف راحاب ، لترطن «بخطبة» شعشاء ، ممزقة ، بالكاد يفهمها ناطق العربية ، تحذر وتتوعد ، تهدد وتتحدى ، بلهجة تقطر سماً زعافاً . وفي كل مرة تختم خطبتها بمثل هذه الكلمات أو ماشابهها :
- «انتوآرب . . لازم . . تروخ من هون . . أنا أكتل . . عكل مافي راسي . . روخ من هون . . »
ومن هو قادر ، في مثل هذه الأحوال ، على أن يفهم كلمات راحاب . . ومن يريد أن يفهمها . . وأهل القرية في حاله يرثى لها .

وكثيراً ماكانت تتكرر هذه المشاهد . . إلا أن القرية ، لاتعرف أحداً من سكانها ، هرب خوفاً من جحيم راحاب القتالة وجنودها .

وذات يوم ، سافت الأقدار ، رجلاً من سكان القرية للدخول الى بيت راحاب ، لعمل أجرته على القيام به ، فوجد بيتها والحديقة مزروعة بالجهاجم والهياكل العظمية البشرية . ومنذ ذلك الحين ، جرى اعتقاد في القرية ، أن راحاب ، تأخذ جثث الموتى ، لتستخلص منها الهياكل والجهاجم ، تضعها في بيتها للزينة .

ومنذ تلك اللحظة ، أخذ أهل القرية يدفنون موتاهم وقتلاهم ، في أماكن قريبة ، يقومون بحراستها ليلاً ونهاراً . إلا أن هذا ، لم ينقذ سكان القرية من شبح راحاب ومن بطشها ، فقد بدأت القرية تفقد يوماً إثر يوم ، عدداً من سكانها ، وبخاصة الأطفال ، ممن لم تتجاوز أعمارهم السنوات العشر . وأيقن أهل القرية ، بعد تكرر حوادث الاختفاء تلك ، أن راحاب ، هي التي تقوم بختطف الناس ، فإما أن تكون آكلة لحوم البشر ، وإما أنها تتاجر بأعضائهم .

لقد ماتت راحاب منذ زمن بعيد . . واستراحت القرية من بطشها . . فقد قتلها شيخ طاعن في السن ، بعد أن اختفى ابنه فجأة ، حين كان يعمل في حقلمهم الصغير ، الذي تبقى لديهم ، بعد أن استولى المستوطنون على أراضي القرية . .

لكن ، كيف تسلل هذا الشيخ الطاعن في السن ، إلى بيت راحاب ، وكيف تمكن من الوصول إلى مضجعها؟؟ - هذه مسألة تعجز الكلمات عن وصفها ، ومن الصعب تصور أحداثها . . في الصباح ، اكتشفت جثة الشيخ ، مرمية على قارعة الطريق ، بالقرب من القرية . كانت الجثة مهشمة مهروسة ، كتلة ، يختلط فيها العظم مع اللحم ، مجبولة بدمائها .

ومنذ ذلك الحين ، لم تظهر راحاب ، في أي مكان . ماتت راحاب ، إلا ان شبحها المرعب المقيت لم يمت : ففي الليالي المظلمة ، وفي الليالي القمرية ، يظهر شبح راحاب أيضاً ، حيث يسمع السكان ، في مثل هذه اللحظات ، عواء كلاب مسعورة ، وتلوح في الأفق أسراب من الغربان ، يتعالى نعيها بجنون أهرج ، يتداخل مع عواء الكلاب المسعورة ذلك .

يحدث هذا ، غير مرة في السنة . . وأحياناً مرتين في الشهر ، عندها يكون القمر بدرأ ، وحين يجتجب عن سماء القرية .

في الليالي المقمرة، تحيط أسراب الغربان، تلك القمر كغبار أسود، وتغطيه من الجهات كلها، وكأنها وحش كاسر، هذه الجوع، فانقض على فريسته بجنون أرعن.
عندئذ يتحول المكان إلى ألوان صفراء كالحمة، يمزقها عواء مسعور يخلط بنعيب الغربان.
وفي الليالي المظلمة، يكون لهذه المشاهد المرعبة، رهبة أشد وأقسى، حيث تتحول أسراب الغربان إلى كتل نارية، تطلق نعيماً كهدير الانفجارات، يهز المكان هزاً عنيفاً، نقشعر من هول الأبدان.

أما، كيف قتل الشيخ أبو سامي، راحب القاتلة، فهذا ماحكته أم سامي، لأهل القرية، غير مرة:

«والله يا جماعة، لم أكن نائمة. الليلة الأولى، بعد خمس وثلاثين سنة، لاينام فيها أبو سامي في بيته! فهل يمكن أن أعرف النوم، وفي مثل هذه الليلة؟ الأولاد ناموا. . ابني نور- جزاها الله خيراً، نامت، وقد هدّها البكاء حزناً وأماً على أبيها.
جلستُ وحيدة. . أسرح في هذه الدنيا. . لأدري إذا كنت حزينة. . أم فرحة. لم يخطر النوم على بالي. . كأن رأسي ليس معي. . كأنه طائر في الفضاء. . يحوم في هذه الدنيا الواسعة. قلت لنفسي قومي يا امرأة، صلي ركعتين لوجه الله تعالى. . نهضت. توضأت، وصلت. . سلمت، ودعوت ربي، أن يتغمد أبا سامي برحمته، ويحمينا من أولاد الحرام. وأنا أختمت دعائي، سمعت صوت أبي سامي يقول لي، كما كان يفعل دائماً: «يتقبل الله، يأم سامي. . تلفت حولي، فإذا هو جالس في الزاوية، متكئ على الوسادة. . صحت: «بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بك يا رحمن يا رحيم، من الشيطان الرجيم. أبو سامي! هذا أنت؟!». فأشار لي بيده، طالباً مني الهدوء والسكينة. ثم أوما لي برأسه لأجلس قربه. نظرت في عينيه، فشعرت بالفخر والاعتزاز بفيضان منهما، شعاعاً من نور، صممت برهة، ثم رفع رأسه إلي، قائلاً: «أرايت يا بهية، لقد قتلتها. اللعينة. أرايت، يأم سامي، ما الذي يفعله أبو سامي، إذا عزم وصمم؟!»، قلت له وأنا أتمسك بيديه ووجنتيه، لأطمئن قلبي: «لكننا اليوم» دفناك. . يا أبو سامي. . وكنت ميتاً. . فرمقتي بنظرة تحد. . وهو ينظر في عيني، وكأنه كان يحاول الأبحار فيهما.
اغرورقت عيناه بالدموع، تقطر شوقاً وحناناً، وهو يقول لي: «كم أنا مشتاق إليك يا بهية. . مشتاق للأولاد. . لأهل القرية!!». سألته: «هل أوقظهم لك، فهم أيضاً مشتاقون إليك. .؟»، فوضع راحة يده على شفتي، وهمس بكلمات مفعمة بالحسرات: «لا، يا بهية. . دعهم. . إثم في قلبي. . المهم أنني قتلتها. . تلك اللعينة. . الخنزيرة المسعورة. .». فسألته: «ولكن. . كيف تمكنت من قتلها يا أبا سامي. . وأنت رجل كبير. . مريض. .؟»
نهض. انتصبت قامته، وكأنه في قمة شبابه. نهضت، تبعته. التفت إلي وأخذ يدي بين راحتي يديه. . وعاد ينظر في عيني. . ويمسح العرق عن جبيني، ويتأملني بعمق، وجفونه

مغضلة .. ورائحة النعناع والزعتر تفوح من شاربيه .. ثم أخذني وأجلسني على هذه «الصوفة» ..
وراح يقص لي الحكاية .. وكأنه يغني موالاً من مواويله الرائعة، التي كان يغنيها لنا دائماً: «إيه ..
يه .. ه .. إيه يا بهية ..

نامت الناس .. لاحس ولا همس ..

قلبي اشتعل نيران، وراح يهب.

شفت حالي أصبح مثل الهوا

كأني نسمة ولي جناحات ..

الأرض تحتي، قطن أبيض .. تحملني على الراحات . شفت حالي أمام بيوت .. وأنا فهد
جريح صحت: ياربي ياستار .. يامقدر الأعمار .. انشقت السماء .. ونزل منها نور أخضر، على
أكتافي، مثل المطر في الصيف ..

شدني إلى صدره وقال: وين وين الزلم يا حيف؟! مالك يابو سامي محتار وقلبك مشتعل
نيران؟! قلت: ياربي، هذا الخضر، أخضر بأخضر .. لحيته بيضا تلج - يفوح منها المسك والريحان!
قبلت يديه .. وأنا أنظر إلى عينيه -

كانت مثل البحر وأكبر!

قطر الندى وأصفر

طبطن على أكتافي وقال: أملك محقق بإذن الله بقدرة واحد أحد، بركته ترعاك .

ومشى معي، كأنه الشمس تضوي ..

وسرنا، يأم سامي .. حتى أوصلني إلى بيت كبير .. ونفخ على الباب وقال: إفتح باباب
الشر .. افتح باباب القتالة!، وانفتح الباب، فدفعني إليح بعنف، وقال:
«حماك الله من غدرها .. حماك الله من الشيطان الرجيم . لاتنخدع يابو سامي .. واحذر
فتنة بتفتيك - راحب اللعوب .. القتالة، في زها المسحور .. سم باسم الله، قلبك بإذنه يمتلئ
بالتور ..»

ودخلت بيتاً - قولي قصرأ، من قصور الفرس والرومان - الجهاجم مزروعة في كل مكان ..
تصرخ .. تنن .. تتأوه .. ورحت أفتش .. وأدخل من بهو إلى آخر .. ومن غرفة إلى أخرى، حتى
دخلت غرفة كبيرة، في وسطها سرير ملون مزركش بأبدع أنواع الحرير، وعليه امرأة، كأنها البدر
التمام - «عيونها مفتحة، تلمع مثل الجمر في ظلام الليل نادتن بصوت حنون ..» وقالت:
- تعال يا (أبو سامي) .. أنا في انتظارك من زمان .. بصراحة، يأم سامي، خارت قواي .. وصار
قلبي يندق دقات سريعة وقوية، كأنها الطبول: «يا إلهي! ماهذا الجمال الساحر الفتان؟» ويتابع أبو
سامي الحكاية:

ولولا الخضر عليه السلام .. يأم سامي .. لولا الخضر عليه السلام! .. لمسختني ..
وصرت جمجمة .. وهيكلاً بين الجهاجم والهياكل، في بيتها الملعون .

.. وصاح الخضر عليه السلام ، لما رأني رحت أهوي في غياهب سحرها وأنها:
وينك يا (أبو سامي) .. وين الوفا للأهل والدار؟ وشدني إلى الورا .. وقف .. رفع ايده
ويصق عليها وقال :

انكشف ياشيطان .. اظهر على حقيقتك ياغدار ياذن رب العالمين الواحد القهار ..
وهكذا ، يأم سامي .. رأيت أمامي وحشاً ، شعر رأسه ، أفاع ، تتلوى .. ورأيت لسانه ،
يخرج من فمه ويدخل ، كما تدخل وتخرج العقارب من جحورها ..

.. وصرت كأني أسد ، يزار زئير رعود .. إما يحقق غايته أو في وغاه يموت .. وماتركتها إلا
كومة من لحم تقطر منها الدما .. تحتلج من حلاوة وروحها وتجود .. حتى سالت الدما منها أنهاراً ..
ماتوقف في وجهها سدود وهيكت قضيت على الوحش ، يابهية .. حتى يعم السلام بأرضنا ويسود ..
وتمسح أم سامي وجهها براحتي يديها ، لتكمل الحكاية :

- ثم حملني .. ووضعني على السرير .. وهو يقول لي : «نامي يابهية .. نامي .. أغمضي عينيك
لنستريح قليلاً» وأغمض عيني وأنا متمسكة بذراعه .. تلفحتي أنفاسه ..
وتفيض عيناها بالدموع ، وتندفع الزفرات من صدرها ، لتقف في حلقها غصة ، تمنعها من
متابعة الحديث .

عندئذ ، تبتسم أم سامي ، ابتسامة تعبر فيها عن فخرها واعتزازها بزوجها ، الذي اقترن
موته ، باختفاء ، وحش أربع المنطقة ، ونكل فيها ، ليطرد أهلها من ديارهم .. وحش لم ير أهل
القرية ، ولم يسمعوا عن مثل له ، إلا في الحكايات والأساطير .

في هذه القرية ، ولدت وتعيش منى ونضال ، في بيتين قريبين من بيت هبة ، التي قصت
عليها هذه الحكاية عشرات المرات ، إلى أن حفظتها عن ظهر قلب . وقصتها بدورها على
أصدقائها ومعارفها .

وقد حكيت نضال هذه الحكاية لابن أخيها سامر ، في أول يوم وصلت فيه إلى القدس ، قبل
أن يختطفه رصاص المحتلين . وحكيتها أيضاً .. لخالتها . أكثر من مرة ، ولأولاد خالتها ، في كل
زيارة ، تكون فيها عندهم .

وتعيش هذه الحكاية ، في قلبي منى ونضال ، كغابة لا حدود لها . غابة تعانق الأفق ، وتلتحم
بالفضاء ، تتجدد كل لحظة ، في رويحها ، وتنمو ، لتقفز فوق كل ما يمكن أن نسميه مستحيلاً ..
قبيل النوم ، وفي الأحلام ، تمتد هذه الحكاية في قلبيها لتتصافر وتتشابك مع حكايات
أخرى ، سمعتها عن الكبار . ومع تصافر وتتشابك هذه الحكايات ، تدخل منى ونضال ، في عالمين
توأمنين ، متشابهين ، تعيش كل واحدة منها ، بتفاصيل غريبة عجيبة ، لا يعرفها ولا يعيشها إلا
الأطفال ، ومن يبقى من الكبار على مستوى عظمتهم المدهشة بسحرها الأخاذ .

وتتابع الغيمة حكاياتها :
ها هي منى ونضال ، كل في فراشها ، مغمضة العينين على شيطان بحر الكرى ، تودع

الواحدة منها الأخرى من بعيد، وتتمنى لرفيقتها أحلاماً سعيدة. ففي القرية تُعرَفُ منى ونضال
بالأختين الحبيبتين. وهما فعلاً أختان، ولدتا في يوم، وفي ساعة واحدة. وبعد أيام قليلة توفي والد
منى، فجف حليب والدتها. وكانت والدة نضال، تأخذ الطفلتين لتعطي كل واحدة منهما نهداً من
صدرها. وشبت الطفلتان وترعرعتا معاً:

- في المدرسة تحصلان على علامة واحدة، في المواد كلها.

- تعشقان التاريخ ومولعتان بالرسم ..

- دأمتها الحمى ذات يوم، معاً. وكادت تودي بحياتها ..

- إنهما زهرتان، من أجل وأبى الزهور، التي جادت بها الطبيعة في هذه الحياة. لإنهما شراعان حاملان
تغنى بها أمواج البحار، وتهميم بهما النجوم .. وتحلم بهما كل أرض ..
ها هو الكرى يحملها على أمواجه الشفافة إلى جزر الأحلام ..

.. وتمطت الغيمة وتهدت، وفاضت دموع الفرح والبهجة من عيونها، وهي ترنو إليهما بروح
تقطر عشقاً و إعجاباً. دمدمت الغيمة، وكأنها تناجي نفسها:

- ليتني أكون موجة في بحر نومكما، أيتها الزهرتين الحبيبتين، أسافر معكما إلى جزر أحلامكما ..
ارتوت ربوع النهر وانتشت مهللة شاكرة الغيمة، بأغانٍ ورقصات بديعة، فُتنت الغيمة بها،
فجاشت عواطفها غيثاً كريماً، يروي النهر وربوعه. هبت رياح الصخرة تستحث الغيمة
وتستعجلها.

هفت الغيمة، قبل أن تودع أصدقاءها وصديقاتها في ربوع النهر وتكمل طريقها، إلى ربوع
وديار أخرى، تحكي لهم ماتحفظه من حكايات:

.. لم تنته الحكاية .. سأعود ثانية ..

.. إلى اللقاء! إلى اللقاء!! يا أحبائي!

المواش

• نبوخذ نصر - ملك بابل 605 - 562 ق.م. ورد ذكره في الكتاب المقدس. احتل فلسطين وخرب اورشليم القدس وسمى
اليهود عام 586. يحكى في هذه القرية أنه توقف عمر بها وبني فيها هذا القصر.

• تحاول أم سامي اضافة ايقاع موسيقى على ماتقصه عن زوجها، ليساعدها على الغناء، فنفضل أحياناً وتنجح أحياناً. والمقاطع
التي تقع بين الأقواس، تشوبها بعض الكلمات والتعابير العامية.

قصة الخوف

عامر الديك

تمدد سلوم الحيران على فراشه، منهك القوى، فاتحاً ذراعيه ومسترخياً تماماً، فهذا اليوم بذل جهداً اضافياً، لكنه أدى المهمة كما رسمت له، وقد أثنى الجميع على ذكائه وحسن تصرفه، عندما استوقفه أحد الحراس.

انه الآن في بيته، يحس بالأمان، يتسلل الى مفاصله بارداً، فقد انتهى من أداء المهمة الصعبة، ولم يعد هناك ما يخاف منه.

وفجأة سمع أصواتاً في الخارج، ارتعدت أطرافه، أحس بالأمان يهرب كالماء من بين الأصابع، اجتذب اللحاف بحركة غريبة وغطى كامل جسده، الوسواس بدأت تساوره، الأفكار المخيفة تكومت في مقدمة رأسه كالكابوس المخيف:

- انهم يتبعونك ياسلوم .. نعم .. ليسوا أغبياء الى هذا الحد، لقد رأوك وأنت مرتبك، عندما دخلت الى مدخل البناية.

أحدث ثقباً صغيراً ليستطيع من خلاله أن يرى جزءاً من الغرفة أجال بنظره من خلال الثقب .. الغرفة فارغة .. لا يوجد أحد .. لماذا أنت خائف ياسلوم

- أنا لست خائفاً
- أنك ترتعد من الخوف، انك حتى الموت، ولكن لا مبرر لكل هذا الخوف اختفت الأصوات ..

قاص من سورية.

نعم اختفت . . ليست الا اصوات سكارى آخر الليل ارفع اللحاف عن جسدك ايها الجبان . .
ازداد تمسكا باللحاف .

- هل عدت صغيرا ياسلوم؟ ممن تخاف؟ أتخاف أن يخرج لك الجان من زوايا الغرفة؟ انك تتوهم . .
اطفىء النور ونم بأمان، لا أستاذ هنا . . ولا أحد في الخارج .
حاول أن يتشجع، تسلل برأسه من تحت الغطاء، داهمه نور المصباح المتدلى فوقه، أغمض
عينيه قليلا ثم تفحص الغرفة . .

- كم عقلك صغير ياسلوم . . تعيب على أولادك اذا خافوا من الظلمة وأنت ترتعد في النور . .
ياخسارة هذا الجسد الضخم . . وهذه الشنبات التي تملأ وجهك . . أتخاف من الموت؟ اذا أنت
تستحق أن تموت . . من هو مثلك يجب ألا يخاف أبدا . الخوف يفسد كل شيء . .
- أحسن من قال أي خائف

اقتحم أذنيه نباح غريب، أعاده الى حالة الذعر، نسي ماكان يقوله، سحب الغطاء على
رأسه بقوة . . صمت النباح، وراحت تدور في أجواء الغرفة ذبابة تحدث طنينا متواصلا، ارتجف
أكثر وطمر نفسه تحت اللحاف، وبقى لو يغوص في الفراش . . ازداد تكوما على نفسه :

- انهم قادمون . . نعم قادمون . . هذه كلابهم وما هذه الذبابة الا أداة من أدواتهم الغريبة . . فهم
يملكون أحدث أدوات التفتيش والمراقبة، ربما تحمل بين رجليها آلة تسجيل أو حتى آلة تصوير . .
لا شيء بعيد في هذا الزمن . . يجب أن أنغطي جيدا، وأن أصمت تماما . . وأن لا أفكر بشيء حتى
يدركوا حسن نيتي . . فانا أذكى منهم . . أولم يشن الجميع على ذكائي توقفت الذبابة عن الطنين،
وارتفع صوت صرصور في الخارج :

- لا بد أنهم قادمون انني أعرفهم جيدا وأعرف حيلهم . . انهم خلف الباب ارتعد سلوم أكثر وهو
يتصور الباب يفتح، ويدلف الرجال القساء من خلاله تجمدت تحت الغطاء . . انهم هم يحاولون فتح
الباب . . انهم يمسكون بالباب سيفتحونه . . نعم . . لا يعرف كيف ارتفع صوته ببحة مزوجة
بالخوف والذعر

- أنا لم أفعل شيئا . . انهم هم يخططون . . ولادخل لي . . دعوني أرجوكم . . أنا لست مسؤولا عن
شيء . . أنا كنت أداة فقط . . صدقوني مجرد أداة فقط . . دعوني أرجوكم . . لا أريد أن أموت . لي
زوجة وأولاد سيموتون من الجوع اذا أنا مت . . سأقول لكم كل شيء . .
أحس بشيء يقترب منه . . اختفى صوته وازدرد ريقه . .

ينكشف عنه اللحاف . . يفتح عينيه يصرخ بقوة لا . .
- ماذا بك يارجال . . لقد أصبحنا أما زلت نائما . قالت ذلك زوجة ومضت .

نهض، الذعر مسيطر عليه تماما . . وهو لا يدري هل كان نائما فعلا، أم أنه لم ينم أبدا طوال
الليل، وهل كان ذلك كابوسا . . أم حقيقة . . حاول أن يتذكر تفاصيل ماجرى . . خابت
ذاكرته . . لكنه شعر بخوف حقيقي هذا الصباح، ورعشة هزت عظامه من الداخل .

حكاية

وقائع يوم حافل

محمود مفلح البكر

قال الراوي يا سادة يا كرام:
حدث هذا في عام الفيران، ساعة التفُّ عزَّت بيك بعباته الحربية وتمشى خارجاً ليستقبل
الصباح على أريكته الخاصة، كعادته منذ ربع قرن. «بعضهم يُسمي هذه السنة بـ (سنة البيك)».
والسبب فيها حدث كما رأى بعض المهتمين يكمن في الأوامر الصارمة. ورأى بعضهم أن أول
من أشعل النار في القرية، تلك الليلة، هو المرؤس، وأكد آخرون أن عازف البرغول هو الذي
أعطى ذلك الشغب المجنون أبعاده، بينما قال المتعلقون باستحياء: إن الجرذان وحدها تتحمل
المسؤولية.

على أية حال، نَقَدَ الأمر، والمشكلة الآن أخطر بكثير.

باحث في الفولكلور من فلسطين.

قال الراوي :

منذ أيام استنفر الناس أمام هجوم الفيران الكاسح ، فترى الرجال يضربون الكف بأختها ، والنساء تشهقن ، ويولولن ، والأطفال يمتنعون رعباً ، وربما من الجوع أكثر . فالأخبار المرعبة التي مازالت ترد من القرى المجاورة دفعت رجال القرية إلى عقد اجتماعات طارئة لمواجهة زحف الفيران والجرذان . حينذاك تملأ أنصار عزت بيك ، وأشاروا على المجتمعين بقولهم :

- ليس أمامنا إلا عزت بيك ليقود حملة المكافحة ، و . . .

انفجر أحد المشاكسين : وماذا يفعل البيك؟ يخصي شيخ الفيران؟! هب رجال البيك في وجهه: يا أخانا . هذا رجل مدعوم ، ومُنعمُ الله عليه ، يفرغ له الكبار حتى من وراء البحار . إن يده في حلقهم إلى هنا وأشار إلى مفرق إبطه .

قال مشاكس آخر لكن بهدوء : أموال البيك لا تأكلها النيران ، والذي عند الأغارب أكثر من الذي عند الأقارب ، وإلى أن يخطط ويفكر ، ويقرر . تكون الفيران خربت بيتنا ، وأكلت أطفالنا . ولم ينتظر أنصار البيك إجماعية القرار ، ومضوا أسرع من النمر إلى وكيل البيك ، فهم يدركون أن الحديث مع البيك يتم عن طريق التسلسل .

كان وكيل البيك ، عندما وصلوا ، مترعباً وراء نرجيلته ، وأمامه إبريق شاي وكأس واحدة ، وشتت باللون الأحمر الرائق ، فأقعوا أمامه يشرحون ، ويؤكدون ، ويعيدون ، ثم يصفنون ، ثم يعيدون ، والنرجيلة تفرقرق والكأس ترتفع وتترل . ثملاً ، وتفرغ . . . وحين لوى الوكيل خرطوم نرجيلته كانت حلقوهم قد جفت ، وعيونهم كادت تنط من مجارها ، وهي تلاحق الكأس ، وتتملى من الشراب الأحمر الذي يخفي في بلعوم الوكيل برواق يقهر . وأخيراً قال الوكيل بصوت بارد :

- البيك لا يستقبل أحداً من البشر منذ خمسة أيام بناء على نصيحة الطبيب النفساني ، ولن يستقبل أحداً قبل عشرين يوماً .

- والحل يا حضرة الوكيل!؟

- مالكم إلا بنت البيك .

- تقابلها بمعيتك يا سيدي .

ورف ذبل ابتسامة على شفة الوكيل ، لم يستطيعوا تفسيرها ، وبعدها صفن قليلاً قال :

- حتى تستجيب عليكم أن تشوفوا خاطرها .

وفهموا الإشارة المحيرة جيداً :

- وماذا يمكن أن تقدم لها ، وهي - البركة - لا ينقصها لبن العصفور؟

- بنت البيك لا تحركها إلا الهدايا . قدم لها هدية واطلب رأس أبيها .

بغثة أشرق وجه حمدان ، دق على صدره وقال : الهدية عندي . انتظروني .

وانطلق مثل عجل أعجف لسعته ذبابة ، والقوم يفكرون بهديته المفاجئة ، وليس بيدهم أكثر من التفكير والانتظار ، واللحظات المتلاحقة تفعل بأعصابهم ما يفعله القرئص ، ولم تكن عودته

- بجرّة صغيرة أقلّ إدهاشاً لهم من ذهابه، فهاجمته العيون:
 - ماهذا يا حمدان؟ سَمْنٌ؟ زبدة؟ زيت؟ تحفه أثرية؟
 - لن أكشف السرّ إلا في حضرة بنت البيك.
 - لا تُسوّد وجهنا يا حمدان.
 - سترون. وماذا تنتظر.

وسار الوفد؛ الوكيل في المقدمة، وصاحب الجرّة عن يمينه، والمختار عن يساره، حين ولجوا البوابة الخارجية تقاطروا وراء الوكيل كأنهم مُتهمون بقضية مخجلة، يرفعون أقداماً تَصَاعَفَتْ وزنها كأنها التصق بها كتلٌ من الجلمود، ويخطونها بحذر كأنهم يعبرون حقل الغمام، وكل منهم ينظر إلى هندامه، وهندام أصحابه، بين الانتقاد وبين شبه الرضى. ومن نار السعال في صدره أحرسه بالتي تعرف.

عند بوابة القصر التفت الوكيل إليهم مشيراً: ابقوا هنا.
 وعرج في الممرات مثل كلبٍ معوّد، وهم يتطلعون حولهم ويتمظون على خيالات خائبة، وأحلام هاربة.

أطلّ الوكيل بخطواته الواثقة، وأشار لهم بإصبعه فلحقوه متعتعين إلى غرفة الاستقبال.
 ونجروا هنا على الهمس:

- بشر يا حضرة الوكيل. قَمَحَة أم شعيرة؟
 قَمَحَة.

لم يجدوا بعد ذلك ما يقولون تحسسوا الكراسي، ثم تاهوا في الأبهة والأفواس، والصور المطّلة من الإطارات الذهبية المزركشة، لكن الانتظار ما لبث أن أشعل فتيل القلق.

أبورباح: «لويطلب البيك سيارات تظل تزمر في الحقول، والحارات لتهرب الفيران إلى بلاد غير هذه البلاد».

أبوراشد: «آه لوتأتي طائرات ترش مادة على الفيران تحمد أنفاسها وتخلصنا».

أبوراعب الذي يهجس دائماً بأخبار الأقمار الصناعية، شطح بخياله:

- «لوان قمراً يرسل شعاعاً فتكاكاً، ويشفط الفيران للسما ويركها تدور في الفضاء إلى يوم القيامة».

أما المختار فكان أكثرهم توتراً، فارتقصت شفاته وكادت أفكاره تُسمع:

- «إن لم يقف البيك معنا في هذه المحنة فإننا سنغدو محط سخرية لأولاد الملعونات في القرية. يا الهي، وأنت قادر، تُلهم البيك، وبنيت البيك على فعل الخير، ولا تشمت بي القُطْع أولاد القُطْع...».

وأفاقوا من شرودهم على نقرات حذاء رشيقة تقرب بدلع. استنفرت الأذان. وثبت القلوب. نطت الأعين. فَعَرَّتْ الأفواه. جَمَدَتِ الألسن،.. وأطلت بنت البيك، الوجه مدَّهن، وناعم مثل الحليب، أزهار الثوب تتراقص في زوبعة عاصفة من العطور المتدفقة. وكان للاتبسامة التي انتشرت

في المكان وقع السحر، فانتشلت الأرواح من هاويتها، ونفخت الأنفاس في البرعم المقصوع
قعدت على كرسيها راضية مرضية، وقالت: تفضلوا.

التفتوا يستجدون بتوجيهات الوكيل. صاحب الجرة لم يصمد. كان مثل من يخبيء قبلة
أقلت مسأرها، ربما خاف أن يسبقه أحد بكلمة يضعب إصلاح، خرابها ونَبَّ تسبقه جرتُه، وجئا
أمام بنت البيك.

قال:

- «أمضيتُ في البراري أياماً بطولها، أبحث من المورد إلى الجبال، ومن الجبال إلى المورد أتابع كل
نخلة واردة أو صادرة، إلى ان قادي القص إلى شجرة على كتف واد، ورأيت بعيني النحل يدخل
ويخرج من ثقب صغير في الجذع المتفخ. رقص قلبي من الفرح. دخنت سيكارة وأنا أفكر بطريقة.
لأن فتلة كعب تجعلني أغني في قاع الوادي. أحضرتُ العدة، دَخَنْتُ لأبعد النحل عني، وحفرتُ
موضعاً لقدمي. ثم وجهت ضربات بالفأس لفتح ثغرة في الجذع. ومنذ الضربة الأولى اندفع
النحل البري المتوحش لم تمنعه النار ولا الدخان المتصاعد مثل غيمة تلفني. لقد نهشني بضراوة،
لكن الأقراص الشقراء المترعة جعلتني أستमित.

أترين كل قطرة بلسعة. تذوقي يا بنت... البيك. شهد صاف. تذوقي» طربت بنت
البيك للقصة، وبدون تحفظ غطست أنملتها الناعمة، ولحست:
- أوه. شهد!

- شهد ابن سنته يا. بنت البيك. «قال صاحب الجرة».

- أول مرة أذوق الشهد البري. أوه. رائع.

التفت نحو الوكيل فتناول الجرة، وأدخلها في الأملاك البيكوية، تمطقت على إصبعها
المعسول، وهمت بالتحدث عن فوائد العسل، لكنها لاحظت العيون الطائشة، والحركات المتوترة،
والقلق يمور في الوجوه مثل سعادين حبيسة، فأدركت أن أمراً أكبر من جرة الشهد دفعهم إليها.
- يبدو أنكم جتم لأمر.

فاجأهم السؤال الجريء وهم حائرون في كيفية فتح الحديث. تمللموا. تشابكت عيونهم.
تنحنحوا. خطفوا نظرات مستجدة إلى الوكيل. إلى صاحب الجرة. لا بد من تفجير القبلة
والا...

قال الوكيل فاتحاً الموضوع: الحقيقة هناك مشكلة محيرة، وهم يستجدون بك عقب المختار:
مشكلة ولا كالمشاكل و... (تلعثم ونظر إلى صاحب الجرة لينقذه). أدرك حمدان مكانته، أو على
الأقل مكانة جرتُه قال:

- الفيران. الفيران يا... حضرة بنت البيك..

- ما بها؟

- تدخل الحاكورة تجعلها بورة. لا يسلم ورق ولا ثمر، ولا جذور.

استجمع المختار قُوَّته، والتقط أنفاسه :

- تحقَّت الحقول التي مرَّت بها، وطلّعتُها التي وصلت إلى القرى المجاورة بدأت بتفتيت البوابات، والنوافذ، والسقوف، والأسرة. عضت الكلاب، والقطط، والخيول، والأبقار. نهشت الأطفال..
- فيران تفعل هذا؟! (تعجبت بنت البيك).

- لو تسمعين الصراخ، والوعويل، والوعاء، والصهيل..

قال صاحب الجرة: إنها غضبُ رَبِّ. إن لم نوقفها تلثمهم الحياة، وتبيد الحقول، وتصل..
(أراد أن يقول «القصر» لكنه ابتلعها خوفاً من العواقب).

- ما العمل؟ - قالت بنت البيك - وماذا بإمكانني أن أفعل؟

مال المختار نحوها وقال: الحل بيد البيك. كلمة منه وتأتي الحكومة كلها. بل والحكومات من وراء البحار.

قالت البيك يستجم. والطبيب نصحة بالآ يشغل باله بأية قضية.

قال صاحب الجرة مستغلاً مكانته الطارئة: يا بنت البيك. هذه ليست قضية. هذه خراب. موت.. إبادة. لعنة. والبيك.. (أراد أن يقول بأن البيك لن يسلم منها لكنه ابتلع بقية الجملة ودفعها بالغمغمة).

قالت البيك قال لنا بحزم قاطع: «إذا جاء نافع البوق ليخبرني بأن القيامة قد قامت لا تسمحوا له بالدخول علي».

امتقعت وجوه أعضاء الوفد، وتساقط عليها رذاذ رمادي بارد، وبدأت الأرض تميد بهم. تبخرت أحلام أبي راشد، وأبي رباح الذين لم يجدا ما يُقال بعد الذي قيل، وطارَت خيالات أبي راغب من رأسه. أما المختار فبدا مثل رخوية وَقَعَتْ في ملح. وكيال البيك الذي أدرك خطر الموقف تلوى حائراً وتمتم بحذر:

- لو تجدين مخرجاً. لأن الوضع يَخُوف. وأملاك البيك..

صاحب الجرة قرر أن يرمي آخر حجر: يا بنت البيك. مصيرنا بين يديك. مصير الشعر، والشجر، والبشر، والحيوان.

صَفَّتْ لحظة، ثم قالت: اليوم انتهى لا يجوز تعكير البيك وهو مقبل على المساء. أما غداً.. بعد أن يشرب قهوة الصباح، وتروق نفسه وترتاح أعصابه.. نتحائل أنا وأمي لنعرض القضية.

أغلب الناس في القرية لم يفكروا بالبيك، ولم ينتظروا نتائج زيارة الوفد. فاستنفروا كباراً وصغاراً، بعضهم هب يصنع الفخاخ، والبعض انطلق إلى الأودية والجبال ليجمع الحطب، والقش، وآخرون انهمكوا بغمس الخرق البالية بها لديهم من مازوت وقطران.. واندفع رجال وشباب يحفرون الخنادق في الأماكن التي وجدوها معبراً للخطر. بينما انطلق الأولاد يسدون الثقوب، ويردمون الجحور.

ومع حلول المساء كان الجميع مسلحين بالعصي، والمكانس، والسنة اللهب تراقص عند المداخل، وتدفق الشبان والبنات، والأولاد بمسيرات تطوف القرية أمام خنادق النار وخلفها مشرعين المشاعل، مرددين الأهازيج، مما جعل بعض النساء تتحمس وتطير رفوف الزغاريد. الهبت الزغاريد قلب أحد الرعاة فاستل يرغوله، ومضى إلى الساحة وفي الحال تراقصت الأقدام على أنغامه، وسرعان ما انتقلت العدوى إلى عازفي المجاوز والشيبات، وناقري الدفوف. شعرت بعض النساء أن الرقص والغناء والعزف تظل ناقصة. فهرعن لإعداد مناقيش الزعتر، والمطبخ، والزلابية، والكعك. أما الشيوخ وحتى الذين لم يلتقوا منذ زمن لأسباب ما، سرعان ما تجمعوا في المجالس الكبيرة، وحطوا الدلال على النار، لتفوح رائحة القوة والهبل، وهم ينتظرون إلى أن يخف حماس الشباب ليقودوا السهرة المتأخرة.

كانت الساعة تقارب منتصف الليل حين فاحت رائحة المناقيش والكعك مع النسيم الندي فطار النوم من عيون الأطفال، فخطف كل منهم كعكته وراحوا ينطون:

«بكرة العيد ونعيد

ونذبح بكرة سعيد»

ومع قتراب الصباح كان الرقص والغناء يشندان ساعة بعد ساعة، واليران تتوهج، والمشاعل تراقص. ولم تتوقف الاحتفالات الفيرانية إلا بعد شروق الشمس، ساعة انقلبت الدنيا.

قال الراوي:

تمنى بعض المخلصين فيما بعد، لو أن عزت بيك ما نهض في هذه الساعة، لكن عزت بيك نهض اليوم أبكر من المعتاد بقليل ليخلص من آثار كابوس ناخ على صدره، فأدار اسطوانة الصباح التي تبث الموسيقى الحاملة في الحديقة الخاصة، له خاصة، وتدثر بعباءة الحريرية، وخرج ليتعش بطراوة الندى.

فكر بعض المخلصين وقال: لو أنه تنبه للحركات الصغيرة في الحديقة.

لكن عزت بيك لم يتنبه، ظنّها قطعاً تلعب. وما أكثر القطط في عمارته! فأدّى التمارين الرياضية المقررة، وظل يكررها زيادة على الرقم المحدد، حتى تلاشت قواه، حين ذاك فقط اتجه إلى اريكته - هذا نصيبه كما علّق أحد المريدين - وأريكة البيك موضوعة في مكان مدروس بعناية، فحين تفتح الشمس عينها يجب ان تعمز البيك من خلال الزهور، والغصينات الخضر، في هذه اللحظة يضغط على زر الاريكة، لتأتيه الخادمة بالحليب الممزوج بالعسل، وفنجان القهوة ثم تسارع بالعودة، وإغلاق الباب المزود باللباد كي لا يصدر أي صرير أو طقطقة، البيك يحب الاستمتاع بهذه اللحظات الإشراقية الموسقة المعسولة بهدوء تام، فقد حدث قبل عشرين سنة أن سجّن ابنه أسبوعاً لأنه بكى في لحظة الصفو هذه، ومنذ ذلك اليوم أخلي الجناح المطل على الحديقة

الخاصة كي لا تصل إلى أذن البيك أية تامة.

قال أحد الأنصار متألاً: فقط لولم يقعد على الأريكة في هذا الصباح. ومع ذلك تقدم عزت بيك إلى أريكته كالعادة، بثقة لا تُزعزع، ولم يدر بأن جحافل الفيران لما أشرفت على القرية مساء، ورات النيران والمسيرات، والرقص، وسمعت الغناء والعزف. . . تجنبت الممعة المجنونة رغم رائحة الكعك والمناقيش التي لا تقاوم، لأن الجرذان التي جازفت طمعاً بالكعك لقيت مصرعها حالاً والقيت في خندق النار.

لهذا أشار قائد الفئران بالالتفاف بعيداً عن خطر هؤلاء المجانين الذين استبد بهم الطرب، والتوجه إلى قصر البيك فهو أخصب ومخازنه عامره، ولما وجدت الفيران بوابات القصر سمكة، وقوية. يصعب اجتيازها في وقت قصير، سارعت بالتفافز إلى حديقة القصر لتمسحها أولاً، فالتهمت ما يمكن التهامه، والجحافل التي وصلت متأخرة كان جوعها أشد، ولم تجد أمامها إلا أريكة البيك، فانقضت لتتهم ما فيها من قش، وخيطان، . . . وتمرن أسنانها بالعوارض والأرجل الخشبية، وسرعان ما أصبح الكرسي الفخم مجرد خيال، أو ذكرى كرمي مثل كرمي سليمان، وكل ما تبقى منه قوائم متآكلة.

قال الراوي:

اقرب عزت بيك متشياً برطوبة الصباح، ومتعباً بعد التمارين الإضافية، ومشعباً بالعظمة حتى منخرية، مما يجعل عينيه لا تريان ما أمامه لانها متعلقتان بأفق بعيد، وواثقاً ثقة الجبل بمكانه، ومتأكد أن أحداً لا يجرو على العيب بممتلكاته، وأشيائه، وأن الشمس لولا أذنه، ورجبته لما تجرأت على رؤية أريكته. . . نفخ نفخة ثور متخم، وهبط. سقطت مؤخرته الثقيلة بين العوارض. تشقلت رجلاه إلى ما فوق رأسه. ارتصت رأسه بين ساقيه. تحولت عباءته إلى كيس مشدود على جسمه لا يعرف الخلاص منه، تحبب مثل ضبع في فخ. رقصت أطرافه بجنون. مؤخرته المدهنة تنزلق مع كل حركة أو محاولة للتخلص، وتراجع العباءة عنها. . . جرحت بطن البيك، ونقطر الدم بين فخذيه العاريتين. سكنت حركة البيك لحظة ليستجمع قواه. سُمّت الفيران رائحة الدم، والذي وصل منها متأخراً كان تلمض على خيال الطير، ولم يصدق أن وليمة كهذه بانتظاره هجمت الفيران تلمس المرق الأحمر الساخن. . . وصل جرد يبيح عن حصة. . . عن أي شيء. . . وجد صحبه يمسحون شواربهم. بحث عن قطرة نهش التراب. . . رفع رأسه يتلمض. . . رأى كيس لحم طري مدلى. رف شارباه، وانفض ينهش. دوت صرخة البيك وهو يتخط «من يسمع؟ الفلاحون بعيدون، والجردان سمكة، و. . . وحتى ولو اسمعوا فلا يسمع بدخول الحديقة إلا بعد سماع الجرس».

استطاب الجرذ خصية البيك، واستسهل ابتلاعها، فاندفع بضراوة «مثل هذه الوليمة لا تسخ، ولا تتكرر في العمر، فلا هجم مادامت سأصبح فيرانياً تتحدث بمأثرتي الفيران والجرذان إلى يوم القيامة».

أعداد جديدة تقافزت على كتفي البيك ورأسه عليها تصل إلى أذنيه ولسانه. الجرد الشجاع نهش نهشة من مكان آخر، انتفض البيك انتفاضة ديك ذبيح. وقعت يده على الزر. فطن له في تلك اللحظة.

ارتعبت الخادمة فالجرس رن قبل موعده المعتاد. أولاً، وما زال يرن بعصبية ثانياً مما يدل على أن البيك غاضب جداً. هرولت وقلبتها ينطُ أمامها، فلم يحدث أن رن الجرس مثل هذا الرنين إلا مرة واحدة قبل عام عندما شخَّ الكلب المدلل على طرف الكرسي فاستنفر الحراس لمطاردته. ولما جاؤوا به مقيداً أعدهم البيك بمسدسه. وفكرت مذعورة هل فعلها الكلب الجديد؟ لكن هذا مدرب ويعرف أين يأكل، وأين . . .

صُعقت الخادمة. تجمدت لهولة، ثم أطلقت صراخها وساقها. تفجّر القصرُ. وثبتت مرةً البيك شبه عارية بقميصها الشفاف تخرج كتلتها نطت بنت البيك بسرّوالم موشى لا يغطي ربع اليتها المحشوة. أقبل الوكيلُ ينجُبُ بقميص داخلي، وبنطال مفتوح. هرع السائسُ يضلع بعدما طارت فرودة الخداء من قدمه وهو يركض. تدافعت أيدي على الهاتف.

قال الراوي:

ذهل الناس في القرية وطارَتْ فرحةُ الليلة الماضية من رؤوسهم وهم يرون سيارات الاسعاف تموء مندفعة إلى قصر البيك، وتسابقها سيارة الشرطة مثل حجر يهوي في منحدر، وعرف بعضهم سيارة القاضي، والقائم مقام، ورئيس البلدية المندفعة مع قطع السيارات مثل جحاش لأفها وحش. نط أحد العفاريت يصفق:

- سيارة الرقاصة لهلوبة.

واسرع بعضهم إلى قصر البيك يتفرج على ما يجري من وراء السياج فشغل بعضهم بمشهد البيك وهم يحملونه إلى سيارة الإسعاف، وأطلق الشبان أعنة خيالاتهم وهو يرقبون قميص لهلوبة المشرع، وينظالها الضيق اللامع مثل جلد الأفعى.

مع سيارة الإسعاف غابت سيارات عديدة عن الأنظار، وبقيت سيارات عديدة للتحقيق الذي فتح فوراً منذ وصولهم لمعرفة ملابسات الحدث، وتحديد المسؤولين. لكن إشارة عاجلة وسرية جداً وصلت من المستشفى تقول: «نريد بيضة لعزت بيك بدلاً من بيضته المأكولة» كانت الإشارة محيرة، ومربكة لقائد الشرطة المتواجد في المكان، وقبل أن يفيق من حيرته وصلت إشارة ثانية: «نريد بيضتين لعزت بيك بأسرع ما يمكن، ويفضل أن يكون عدد البيضات أكثر ليسهل الاختيار» وهنا أدرك قائد الدورية ما يجب فعله، فأعطى الإشارة لقواته بأمر مفصل واضح محدد.

أحكمت قوات الشرطة الطوق على القرية كي «لا يفلت منها عصفور» كما قال قائد الحملة في أمره، وعززت القوة المهاجمة بعدة سيارات خاصة تحمل كمية كبيرة من القيود الحديدية، وفي اللحظة المناسبة أعطيت إشارة الاقتحام، وأطلقت زخات من الرشاشات في الهواء لبث الرعب، ولتحذير الناس من المقاومة. كان الهدف واضحاً: «اعتقلوا كل ذكر بين العشر سنوات والخمسين».

لا تفرقوا بين أبيض أو أسود أو أحمر، اقرنوا كل اثنين في قيد».

نبتوا البيوت بمهارة عجيبية حلَّت عليهم فجأة. قلبوا الفراش. حطموا أبواب خزائن اللباس. كسروا المرايا. مزقوا أكياس الحبوب بالحرايب. نعرُوا القِرْبَ والشَّكَاءَ المنفوخة. دحرجوا الجرار برفساتهم. مدوا رؤوسهم في أفتان الدجاج، والإوز. انبطحوا يتشممون جحور الأراب. صاح قائد الحملة فاقداً أعصابه: «إلى القبور. تسلقوا الأشجار، فنشوا كل نصيبة. كل حفرة. فلُّوا الأغصان».

- ولم نجد ذكراً واحداً من ابن سنة إلى مئة؟! طار صواب قائد الحملة وهو يتساءل بذلك. التفت إلى المختار، وقبض على خناقة:

- يا جربوع يا ابن الـ... أين رجال القرية؟ أين الأولاد؟ حتى الأولاد؟ ابتلعهم الأرض؟ صارت لهم أجنحة وطاروا؟.

تهدج صوت المختار وهو يقاوم الاختناق:

- لما رُحْتُ إلى قصر البيك تركتهم هنا. يبدو أنهم فروا إلى الجبال. صرخ قائد الحملة: من سرب الخبر إليهم يا عكروت؟

ارتعش المختار مذكوراً يا سيدي رجالي لا يفعلونها أبداً. لكن هؤلاء عفاريت يشمون رائحة الخبر من أنف الريح.

انفض قائد الحملة كأنه في مقلٍ وصرَّح بالمهمة السرية للحملة بعدما رأى انفضاحها: - يا مختار يا عظيم - البيك يحتاج خصيتين. أفهم؟ يحتاج خصيتين حالاً.

تمتم المختار الذي دهش للخبر: م م م ماذا؟

طفق قائد الحملة يذرع المكان جيئةً وذهاباً مثل مصروع. صرخ فجأة:

- قيدوهم (وأشار إلى المختار ورجاله).

انكمش رجال المختار مثل معزى هزيلة فاجأها شؤبوب. وثب قائد الحملة ومزق ثياب المختار، عراه كما يعرى عرنوس ذرة صفراء. اندفع الجنود يقلدون معلمهم بدون انتظار أمر. قُدِفَ العراءُ إلى الشاحنات. أزَّت الدواليب. انطلقت تفترس الدروبُ في طريقها إلى المستشفى.

أشدَّ ما أهانَ قائد الحملة، ووترَّ أعصابه أن واحدةً من نساء القرية لم تحاول أن تشفع لكيس يُبَزَّلُ، أو جرةٍ مُحَطَّم. أو. . وهاهُنَّ على السطوح ينقرن الطلاب، ويزغردن للشاحنات.

قال الراوي:

لا تدري ما الذي حدث بعد ذلك. لكن رائحة خبر عاجل تسربت مثل رائحة فطيسة في جب، تفيد بأن البدائل التي وصلت إلى المستشفى كانت شبه ميتة، ولا تصلح. وأن المختار في المنطقة ابلغوا بتقديم قوائم عاجلة بأسماء الرجال والشبان البالغين.

ملاحظة للتداول كما ينصح الراوي:

من المؤكد أن المكتب السري يعكف الآن على دراسة قائمة أسماء محددة.

تمه
الصبح هو عدنا
يوسف جاد الحق

حبيبي .. حلمي الأزلي ..
لا تحزني .. ولا تيشي ..
لا يعترينك اليأس أبداً ..
لم يبق في الليل إلا أقلّة وفجرنا يقترّب
انتظري عودتي .. فغيابي عنك لن يطول كثيراً، وأنت تعرفين أني لا أخلف لك موعداً.
ثم مضى يشق الظلام مخترقاً جوف الليل الرابض فوق الكون، ووقع خطواته يتناهى إليها.
ثم يخفت الصوت شيئاً فشيئاً الى أن يتلاشى في الأفق المجهول.
انقضى على ذلك زمن طويل، أضناها، ابانه فراقه. وأنهكتها الأيام بما القت على كاهلها
من أرزاء وأحزان ما برحت تنهال عليها كمطر ينهمر من السماء مدراراً.
ترى في أي مكان من هذا العالم هو الآن؟

كاتب وقاص من فلسطين.

تساءلت في شجن . ثم مالبت أن أخذت تندافع في رأسها صور شتى لاحصر لها ، من ذكرياتها معه . ومضت تستعرض عشرات منها في شريط متصل منذ تقدم إليها خاطباً .
تذكرت :

كم من مرة ضربا موعداً لرفافهما ، بيد أنه في كل مرة منها كان يحدث شيء ما يحول دون اتمامه . وكان ذلك الذي يحدث على أيدي متطفلين قبض لهم أن ينجحوا في عرقلة ذلك الزفاف ، حتى عندما كان يبدو وكأنه قاب قوسين أو أدنى ، وأن لاشيء يمكن أن يحول دونه . كانت لهم قدرة خارقة على تبديد الفرح . . على خنقه كلما لاحت بوادره في الأفق .
تساءلت :

أكانت تلك هي مهمتهم التي خلقوا من أجلها؟؟

بدا لها أن حرصهم كان شديداً على أن يملأوا المآقي بالدموع . . أن يفجروا ينابيع الدماء في الصدور . . أن يحرقوا البيادر ويهدموا الدور وأعشاش الطيور . . أن يفتالوا البسمة على الشفاه ليثدوا الفرحة قبل أن تتفتح أزاهيرها .

وهذا موعداً جديد يضربه لها قبيل ذهابه . حاولت جاهدة أن تبقيه قريباً منها ، ولكن عبثاً ذهبت محاولاتها . فالواجب الكبير - كما قال لها - يأتي قبل أي شيء آخر . بل ان قيامه بهذا الواجب هو الذي سوف يحقق لها الأمل في حياة لا تخيق بها الأخطار من بعد ذلك . . في استقرار راسخ لا تكتنفه المخاوف في مقبل الأيام .

ذلك لن يحدث قبل أن تخلو مينهم الديار ، سوف تعم الطمأنينة ، آنذاك ، وراحة البال ، على حد تعبير جدته المعمرة الحاجة سكيئة .

من أجل ذلك مضى في تلك الأمسية الحزينة .

ذكريات الأحداث الكثيفة المتزاخمة ، تتداخل وتختلط الى حد يكاد يفقدها القدرة على الفصل بين الواحدة والأخرى ، فهي متصلة بلا انقطاع ، غزيرة كأمطار آذار . .

ترنو الى السماء وهي مستلقية على العشب البري ، أمام كوخها القديم ، تنسل الى جسدها برودة محببة تكاد تسلمها إلى الكرى ، لولا استرسالها في التفكير في الأيام التي سلفت ، حيناً ، وفي الأيام المقبلة ، حيناً آخر ، تحبيل بصرها في أرجاء سماء شاسعة مترامية الأطراف ، مرصعة بالنجوم ، رغم غيوم شاردة تائثرت على صفحتها هنا وهناك .

يخطر لها :

كم مرة ترى ، في الحسابات الفلكية ، عبرت تلك النجوم في مسارها ، منذ الأزل ، فوق هذا المكان ، وذلك النجم المتلألئ في البعيد ، يهبط كل ليلة في موعده وموقعه تماماً . لكان أحداً يرغمه على الا يتخلف ، ولولمة واحدة ، عن مكانه وزمانه . وتلك المجرة النائية تتوسط كبد السماء ، بالكاد تغير مكانها ، في حركة بطيئة لا تدرک ولا تُرى .

الموجودات كافة ، بدءاً من القوارض ، حتى المجرات والنجوم ، تملك أوطاناً تتحرك على

ساحتها. يحدث هذا في الليالي كلها، على السواء، صافية كانت السماء، أو كانت مدهمة حالكة، والناس. إبان ذلك يجيئون ويموتون بلا وناء. ولا بد أنهم سوف يواصلون ذلك الى أمد بعيدة، وحتى نهاية الزمان.

ما في السماء لا يعتره التغيير الا قليلاً، فيما يترأى للعين خلال حياة بشرية واحدة، الحركة ذاتها، رتيبة منتظمة، كأنها السكون المطلق. أما هاهنا، فما من شيء الا ويعتره التبدل والتغيير في حركة دائبة متصلة. الشيء الوحيد الثابت على ظهرها معاناة الانسان، ودورة الحياة والموت. تلك الحلقة المفرغة. . والمفرغة. .

خطر لها أن تتساءل، كما تساءلت من قبل مرات لا يحصيها عدد، فيما هي تنهض، بعد أن ملّت الاستلقاء، فتستند الى جذع شجرة الزيتون العتيقة، وترنو بنظرة حانية الى دغل كثيف من أشجار البرتقال الفاحم في عتمة الليل، فيرتد اليها البصر حسيراً. ترى كم من جيوش الغزاة عبرت هذه الرقعة من الأرض، تحت هذا الموقع من قبة السماء، على مر الدهور؟

أيّ كمّ من الدماء أنبجس هاهنا فرواها وأضحى واحداً من عناصر تكوينها؟

ولربما كان لون التربة هذا، شبيهاً بالحناء بسبب ذلك

ثم اندثر كل أولئك، والأرض وحدها باقية، والمشهد يتكرر عبر عصور تستجد وعصور تبيد. .

أحسّت، لسبب لا تدره أنها كانت هنا على الدوام، ترافق الأحداث المتعاقبة، ودورة الافلاك لا تذكر يوماً كانت فيه عدماً أو أن حيناً من الدهر أتى لم تكن فيه شيئاً مذكوراً. .

خامرها ذلك الاحساس المدهش بالخلود: مؤكداً لها، في يقين لا يرقى اليه الشك، بأنها لن تبح مكانها هذا مابقيت تظّل الأرض سماء

أما آخر الغزاة هؤلاء، الذين يحولون بينها وبين فتاها في الأيام الراهنة، فقد هان أمرهم في عينها، حتى بدوا، ازاء ما حفلت به ذاكرتها، أشباحاً قميئة عابرة، سرعان ماسوف تتلاشى عند أول بادرة ضياء يلوح في الأفق. هي واحدة من تلك الموجات التي تتابعت منذ فجر التاريخ، وربما قبل أن يخط التاريخ في سفره سطرًا، دون أن تذر وراءها سوى بصمات شائهة عفا على أكثرها دفق الأمطار والانهار، وسواقي الرمال.

غمعمت بصوت خافت:

أجل ماذا يمنع أن يحدث هذا مرة أخرى؟

بل، ان التاريخ ليعيد نفسه بمعنى ما. .

تردد البصر، بعيداً وقريباً. . تبحث عن يمكن أن تتحدث اليه. . تبته خواطرها. . يشاطرها أحزانها. . يؤنس وحدتها، على الاقل.

الحوار؟

انهم ينعمون بالنوم . في هذه اللحظات ، كأنها أمنوا غضب الطبيعة ، وتقلبات الأنواء . الأتية عاصفة . . الأ يقع زلزال . هم نيام فيها هي وحدها ساهرة . حتى أولئك الذين لم تأخذهم سنة من النوم ، راحوا يتناجون همسا كيلا يستمع اليهم أحد ولثلا ينشغل واحدهم عن ممارسة لذاته ، أو إحصاء دراهمه ، أو التفكير بمشاريعه من أجل غد أفضل أوفر رفاهية ، وأكثر رعداً ، لاسيما بعد أن من الله عليهم بثروات لا يعرفون كيف ينفقونها . .

ساهرة وحدها ، لارفيق لها سوى الحزن ، وأفكار تهيم في رحاب الكون وما وراء الكون . . الصمت كالليل يرخي سدوله في نصف الكرة الشرقي . تحس وقعه مقلقاً ، يذكرها بالفناء ، بالعدم . . فمتى كانت الحياة سكوناً سرمدياً كهذا؟

تزداد مخاوفها ، وتضطرم أحزانها اذ هي ترى أنها تركت وحدها هذا الزمن كله ، لكنها هي قد نسيت تماماً .

تفكر حانقة في شيء تصنعه من أجل ايقاظهم ، ضاربة عرض الحائط بما يقولون ويتقولون . هل تصرخ عالياً كي تهز الكون برمته؟

هل تمطر زجاج نوافذهم وأسرتهم بوابل من الحجارة؟

لكنها فعلت كل ذلك من قبل مرات ومرات . وفي كل مرة كانوا يستيقظون متزعجين ، فينبهون عليها لوماً وتقريعاً ، أو يجاملونها بكلمات لاتعوزها الباقية ، مؤكدين لها أنهم يشاطرونها أحزانها ومخاوفها ، بل انهم لا يدخرون جهداً لمساعدتها ، الى أن يعود اليها فتاها ، ويزفونها اليه في احتفال بهيج لم يُشهد له مثل من قبل . !

أما فيما بينهم وبين أنفسهم فقد كانوا يصبون على رأسها جام سخطهم ، تلك التي كانت سبباً في اقلاق راحتهم ، اذ أيقظتهم من سباتهم ، وعكرت عليهم صفو أحلامهم .

كانت تلك ليلة أخرى تأجلت ، كما تأجلت ليال من قبل . .

والليل يطول ويطول ربما أكثر من أي ليل آخر . .

لكم حاولت أن تقنع فتاها أن الوقت قد حان لكي يبنيا عيشها بعد أن طال بهما الانتظار أكثر مما ينبغي لملهما . بيد أن جوابه كان حاسماً كما في كل مرة فاتحته فيها بمكنونات صدرها ، سواء عن طريق الرسائل ، أو خلال الحلم والمناجاة تلميحاً أو تصريحاً . . الكلمات ذاتها :

«لكي نبني بيتنا ، أيتها الحبيبة ، على أرض ثابتة لا يتهددها الخطر فيما بعد ، ينبغي أن نخرج منها المتطفلين على حياتنا ، والا فانهم سوف يحشرون أنوفهم في شؤوننا كلها ، وربما في طريقة انجابنا لاطفالنا . .

ترمقه بنظرة متسائلة :

- ألا ترى أنهم لبشوا هنا أكثر مما يجب؟

فيرد بثقة ، مطمئناً اياها :

- الشيء المؤكد، أيتها الغالية، أنهم راحلون . .
وفي محاولة أخيرة منها لاقناعه تقول له في ضراعة من يخشى فراق الآخر الى أبد الدهر:
- ليلة واحدة . . هب أنها (هدنة) ليوم واحد. ثم تستأنف بعدها ماكنت فيه، أيها الحبيب.
فيرد بهدوء:

- المهادنة مقتل الثورات، ومضيعة الحقوق، يا عروسي الجميلة
تمثلته أمامها. أيقنت أن ماقاله كان صحيحاً.
تنبّهت الى أن الليل أضحى في هزيعه الاخير، والى رياح عاصفة شرعت تهب من اتجاهات
عديدة بدت لها السماء أكثر قرباً من ذي قبل.
حركة أخذت تسري في الجوار الذين أيقظتهم الرياح المتعاطمة المحملة بركام من الأتربة
والحصى والحجارة.

ومع اشتداد العاصفة وانهار المطر كانت بشائر الصباح تلوح في الأفق . . تقرب حثيثاً.
ذلك الشريط، حيث تلتقي الأرض بالسماء يتضرج بلون الأرجوان . . ضياء خافت يبزغ من
هناك ثم ينداح كشلال يتدفق في كل اتجاه.
يطلّ الفتي وثيد الخطا . . لكنه يقرب . . في موعده يجيء . . مع تباشير الصباح، كما
وعد . .

تغمر الفرحة صدرها يتوهج الأمل في عينيها. قوة جديدة تنداح دافقة في شرايينها، لم تعهدها
منذ زمن . .

تناجيه هامسة، وهي تبسط ذراعها كي تضمه الى صدرها:
- ها أنتذا تعود يا حبيبي . .

- انه الصبح . .

- في هذه المرة، عرسنا يبدو حقيقة مؤكدة

شعر
تداعيات لها

خليل محمد الداموني

هي الآن تسيحجةً للمدار
تجفّفُ حزنَ المخيمِ بالإبتهالِ
ترشُّ صدى الأغنياتِ على وتر القلبِ
ترفعُ من صبرها المتوقّدِ مشنقةً للمحالِ
تعلمنا حكمةً البؤسِ
إذ ينبتُ الصبرُ وسَطَ المآسي
تقاومُ بالصبرِ وحشَ الكآبةِ
ها أجلتُ حزنَها والبكاءِ
هي الآن تَعْبُرُ خارطةَ النزفِ والخوفِ
تَعْبُرُ خارطةَ الموتِ والصمتِ
تلبسُ حزنَ فلسطينِ ثوباً من الكبرياءِ
تضمّدُ نرفَ الفؤادِ
تُرزّرهُ بضمادِ التشبُّثِ والانتماءِ

هي الآن تنشُرُ فوقَ المخيمِ حبلَ التجلُّدِ
تهيّءُ مقبرةً للكآبةِ

شاعر من فلسطين.



تمدُّ جدائلها فوقَ روحِ المقاتلِ ساقيةً للتجدُّدِ
 هي الآن تلبسُ مجدَ فلسطينِ
 .. عادتْ من الزمنِّ المتفتتِ
 تجمعُ شملَ النوارسِ في جوقَةٍ واحدةٍ
 إنها الطلقةُ الواعدهُ
 تكدُّسُ في صُرَّةِ الزادِ خبزَ الطوابينِ
 والزعترَ البلديَّ
 وبعضاً من البرتقالِ
 تقدمُ سوسنةَ القلبِ للقادمينَ
 تعطّرمهم بندى الأغنياتِ
 تدرهم بالرضى، بالتباريكِ والدعواتِ
 وحين تفرُّ من الدربِ كلُّ الدروبِ
 ويجثمُ فوقَ الجفونِ العذابِ
 تفجرُ انشودةَ الروحِ
 ... توقدها من دمائِ الشبابِ

هي الآن أمُّ الشهيدِ
 تبرعم رغمَ الجراحِ
 وتسكبُ من دمعةِ الكبرياءِ
 نزفُ لها الفجرَ عيداً
 تزفُ لنا الفَ عيْدُ
 هي الآن طقسُ جديدِ
 تعرّشُ في مهرجانِ الشهادةِ
 ... يزهو فوقَ الجراحِ الصباحِ
 ليعلنَ بدءَ الحياةِ الشهيدِ

فيا.. يا كتابَ الرؤى
 ينتشي النزفُ في جرحِ المترنِّبِ

يقرأ سَفَرَ الترابِ وعشقَ السنابلِ
يلوّنُ وَجْهَ الطريقِ بزهوِ الشَّفَقِ
يرتلُ معنى الإِرادَةِ
إذ تستحيلُ اشتعالاً بروحِ المقاتلِ
فينشدُ فاتحةَ الإِنتماءِ إِلَيْكَ
في حضرةِ الغارِ، في كرنفالِ الحبِّ

* * * *

تجيينَ مثلَ السحابةِ
... تهطلُ «بالميجنا والعتابا»
تطلينَ من فَرَعِ المستحيلِ
كما آيةٍ من هديلِ
تحجُّ إِلَيْكَ النوارسُ
يا الأغنياتِ الذريفُ
يا انهمارَ الكرامةِ في بؤبؤِ الدَمِ
في إشتعالِ الرغيْفِ
نضيعُ، وحينَ نفتشُ عَنَا
نرانا بأنفاسِكِ الطيباتِ
اكتسبنا بكِ اليومَ من عُرِيِ أوامهمُ
.. كيف يمكنُ للقهَرِ أن يشتهيكِ، بأي اللغاتِ
يحاوِرُكَ الموتُ
ها قد منحتِ انبعاثَ المدىِ خُصلَةً من حياةِ
كيفَ آخيتِ شمسَ الولادَةِ
فَعَرَدَ في مقلتيكِ الإِبَاءُ
وَرَدَدَ إِسْمَكَ رَجْعَ الصَدَى
باسمكِ الشعرُ يحيا، فنحيا
وننشدُ فاتحةَ الإِنتماءِ إِلَيْكَ
لأنكِ في كلِّ آن تغذينَ سيركِ نحوَ الوطنِ
ولأنه في كلِّ نَبْضٍ تُسافرُ فيكِ دماءُ الوطنِ

إذا ما أفقتم كما صحوة الله وقت ارتعاش
 التوحد في البرتقال
 إذا ما رأيتم صبيّاً يهاجر بين المآقي
 ودمع الحجارة والإنفجار
 إذا ما شربتم صدى الانبعاث لوعده تنامي
 بسر المرارة والاحتضار
 إذا ما تجسّد فيكم نداء الصواري
 ولون البراري
 وطعن الترهل في الانتظار
 وعزف الشواطىء لحن البحار
 إذا ما توقّف نبض الصبية عند المحقق
 وراح يخلّق
 فوق الروابي ويعدو حثيثاً
 بلون النهار
 إذا ما عبرتم حدود النبوة، صرتم
 رسول جراح المحال
 وجبتم كما ربح يافا الندية كلّ العواصم
 جثم إلينا بنبض الحصار
 إذا ما حملتم طقوس النهوض من المستحيل
 أو الاندثار
 فهبوا كما لون وعد القيامة فوق الصليب
 وعودوا لوأد الشمع فينا
 فإما الحجارة
 وإما القيامة قبل القيامة
 أو الانتصار

إذا ما شربتم خنوع العواصم

شعر

زمان التوحد في البرتقال

سمير الخطيب

شاعر من فلسطين.

وكنتم قرايين هذا الدناز
ضحايا الخطابة والانهار
إذا ماشرتم بأن الليالي تنام بعيداً
كأهة طفلٍ وصرخة ثكلى . . وآخر نبض
نبي يموت على جانبي المسافة
بين النبوءة والاغتيال . .
إذا ماعبرتم بوادي السكون وعدتم
كما المستحيل لحيفا
سكنتم وريد الجوّاري ببعض العواصم
قولوا: وداعاً لمن ضاع فينا
فمات
وصارت يدها بلون السنين
العجاف البوار
ومرّ القطار

أفيقوا على صرخة الساكنين برحم الترجع
بلحم التفجع
بوعد نبي صغيرٍ أباح اقتسام الشهادة
للعاشقين
لوعد التبرعم فوق النصال
إذا ماسمعتم أنين جريح يضيء السماء ويرنو اليكم
فقولوا: رأينا نبيّ الحجارة
وظلّت مدائن ليلي نياماً
وقيس يرتب شتى التأوه
يرقد قيس
وتصحو الحجارة
تأتي البشارة . .

قال لي سيد عاشق مرةً:

كيف تنظرُ للعاشقين بهذا الوقار
الشقي،
وعينك في الوحل ساطعة كالنجوم؟
قلتُ:

يا سيدَ العاشقين أنتظرُ،
قلتُ:

بعدَ الوضوءِ الشهي،
أنتهي في صلاتي تماماً،
فيمتليءُ الصُّبْحُ بالسيدات اللواتي
تبحرن في العشق،
أعلمُ أنك سيدُهُنَّ جميعاً،
أنظرُ يا سيدَ العاشقين ولا أستحي.

انكسار

قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ مَوْعِدِي
مَعَ فُتَاتِ الْحَيْنِ،
بَعْدَ هَذِي السَّنِينَ
سَوْفَ أَدْنُو مِنَ الْحَسَنِ وَالذِّكْرِيَاتِ
إِذَا جَارَ لِي أَنْ أَكُونُ
فَأَنَا قَالِبٌ،
لَيْسَ لِي غَيْرُ هَذَا الْجِدَارِ الَّذِي بَرَّئِي،
لَيْسَ لِي زَنْبَقٌ مِثْلَ بَاقِي الرِّجَالِ
وَلَا حَسْرَةٌ أَحْتَوِيهَا كَكُلِّ النِّسَاءِ،
لَيْسَ لِي غَيْرُ هَذَا الْوَلُوجِ.
.....
مَعْصَمِي كَاذِبٌ.

شعر

خماسية للوصول الى جلفار^(١)

عثمان حسين^(٥)

تَوَحَّد

ضَيْفٌ بِلَا مَعْنَى أَطْلُ
وِظْلٌ فِي الْمَعْنَى مُقِيمٌ
لَا يَسْتَحِي مِنْ عَشِقِهِ
هَذَا الَّذِي لِبَسِ النَّعِيمِ
.....

لَكِنَّهُ كَدَمَوْعِهِمْ
يَهْمِي بِلَا وَجْدٍ أَتِيْمٌ
.....

هؤلاءِ العَجْرُ،
عندما يشعرون برغبتهم في البكاء،
ينفجرون، ولا يستحون.

شاعر من فلسطين.

وسلالته أنكرت أننا من وطن
 معصمي غار في ملكوت البديل
 وأنشأ مرفأه كاللصوص ،
 لماذا، إذاً، ترتضيني هواءً،
 تقلص حتى انتنى،
 واستدار إلى ظهره
 فانكسر

ارتطام

عقرب أسود يقترب
 يستدير إلى خلفه
 ويعود إلى المبتدأ
 لم يقل:

انتبه حين أقدم عند المساء
 وجادلني بخجل،

قال لي:

يا رجل...

حين أقدم في المرة القادمة
 لا تخف من مجيئي الأخير

سوف أنسيك هذا الوجع،

وأعلق لوني وشاحاً على ساعديك،

سوف أكنس كل الغبار برفق

عن العين والقلب والقادما.

اشتعال

يستقر بذاكرتي ملجأ

يحتوي زاد عشرين قرناً
 وما قبلها غائب.

تجادله الطائرات بعنف لطيف
 أخبى ذاتي به، بعض وقتي،
 وأقتات من زاده،

وتعاوده الطائرات،

فتقصف قصفاً لطيفاً،

ويمتد وقتي إلى بعضه،

يدخلون إلى ساحة الذكريات،

يقصفون منافذها،

يسحبون بلطف ذات ذاكرتي،

يشعلون «الأناء».

جلغار (١)

قطعة شامخة،

صمتها في إناء الحليب اندلق،

مخلبها مغول،

طفلها يستببح براءته،

ويسمي متاعبه في نرق،

قطعة غارقة،

فكرها مستطير، وقامتها مارقة.

تستحي من أنوثتها في المساء

وتوججها بعتة

وتقاتلها في العن.

(١) الأسم القديم لرأس الخيمة.

شعر

امرأة من برق وماء

محمد وحيد علي

جاءت تفتّح وردها
وتزيح عن جسدي الحطام
هطلت بلألاء التشهي
وانتشت كالارض
فارتعش الهواء
وغاب عن روعي القتام
مرحى لمرجسة تسقسق ،
في تويجات الرخام !! ..

* * *

ستمر من هذا المكان
وتفتّح الجسد النحيل ،
على فضاء من نبيذ الحب
إني واقف بين الغواية والخطيئة
أهتدي سحر الأمان
ستمر من هذا المكان !! ..

* * *

ثمرتدلى من سما أنتى
وأشعل في جذران الرماد
ركضت نحو بهائك المجنون ،
يعزف قامتي

شاعر من سورية.

ويضيء أفراساً من الشهواتِ
في حمى الحدادِ
مسامقاً شجراً لآلهة من الحمقى
من العشاقِ
والشعراءِ في صحو البلادِ
أضجُ في عسلي
وفي شفتين ضاءهما العقيقُ
فأزهرها موتي الشهويِّ
وعلقاني في حدادي ،
طافحاً في عشقي الآتي
أمرُّ كما يمرُّ البرقُ ،
في جسدِ السحابِ !! ..

* * *

عبثاً تطيرُ حمائمي ،
في الصبحِ نحو الله ..
حيثُ اللهُ موسيقا
وزقزقةُ الوردِ
وضجةُ في ثديِ امرأةٍ
ينامُ البرقُ في أحضانها ! ..
عبثاً أموتُ بحكمةِ الأوثانِ
أو حكمِ القضاةِ
عبثاً أفتشُ عن متاهة ،
في الشارعِ اليقظانِ ،
تسبحُ في ضفافه نسوةُ
خبانِ جمرِ الأمنياتِ
عبثاً أحاربُ كلُّ هذا الموتِ

كي ينجو الموات !! ..

* * *

ها إنني أمضي إلى منفاي
يغرقتني غيابك لحظة ،

في الموت

أستلقي لأحصي ما تبعثر في يديك ،
من البنفسج ،

في دمائي ،

من النجوم

أمضي إلى فرحي

كأنني غيمة ،

أهمي

لاشعر أنني في الأرض ،

إنني لصق جسمك فاتن

ورغائبي كالطير

في حضن الفضاء ! ..

هذي الخطايا غسلت جسدي ،

من جمر

وطارت كالعصافير الوديعه

في وجيب الروح

خبانا حكايانا ،

إلى عام يجيء

وينقضي كالخوف

خبانا الطفولة في تداخل نجمتين

أنا سماؤك دترتك من الصقيع

وأنت أرضي ، جمرتي

ونبيذ أخلامي القصية

زلزلي مرحي

لأصعد في بهائك

أو لأهبط في جحيمك لحظة

وأقر من عطب السراب !! ..

* * *

تمر تدلى من سماك

وراح في وحش الغياب

سنلتقي .. ونموت مثل فراشتين ،

على سراج

ستودعين غرائزي الأولى

وتنسجين خلف الوقت

ناحلة تمر فصولنا المتبقية

وتنوس روحانا

كأنا لم نكن جسدين ،

من ذهب

ومن برقي

وماء ...

بالقامتك المضيئة أينعت

وأنت تعانق ماءها في . السلام على

الهوى

ها أنحني وأشم عطرك

راعشاً في داخلي ،

كل الرغائب والخطايا

أيها الحب التقى :

سنلتقي ونضيء مثل سحابتين

لا يستطيع الموت أن يعلو ،

إلى متعانقين !!! ..

خرجوا للموت... يبعثون الشهادة
بعدما عانوا طويلاً، كل أنواع الإبادة..
وقفوا وقفة الأبطال.. في ساح الحرم
واستعدوا للصراع العُلجِ يرمي بالحِمْم!

★ ★ ★

قذفوا الأحجار سَجِيلاً زواما
واستهانوها بالردى!
عقدوا العزم على العيش كراما
واشتروه بالفدى!

★ ★ ★

تلكم معركة التحرير قد دارت رَحاهَا
فجأ الطغيانُ جيلَ حَسْبِوه يستكين!
عزلوه في خيامٍ يتردَّى في لظاهَا،
فإِذا الماردُ يُلقى عنه أعباء السنين!

★ ★ ★

أين شامير.. ورايين.. وصنَّاعُ القنابل؟
هرعوا يرمون بالنيران أطفالاً أباءً..
ويل اسرائيل من شعبٍ فدائي مناضلٍ
ثائرٍ.. يحرق أحلام الطفاة!

★ ★ ★

زغردي يا ثورة الأبطال، فالنصر قريب
وارفعي الرايات زهواً بهلالٍ وصليب
إنما العمرُ جهادٌ.. وصمودٌ.. ورجاء
لا ينال المجد من لم يبذل الروحَ فداءً!

شعر

ثورة الأبطال

د. نزار الكيالي (*)

شاعر من سورية.

حوار

المسرح الفلسطيني قبل النكبة

نصري الجوزي محطات وذكريات

حوار طلعت محمود سقيرق



نصري الجوزي واحد من رواد المسرح الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ . وكان له أن أسهم بفاعلية كبيرة في وضع البصمات الأولى على صفحة هذا المسرح ، تأليفاً و تمثيلاً وإخراجاً ومعايشة وتأسيساً للفرق والنوادي ، إلى جانب تجربته التمثيلية الطويلة في إذاعة فلسطين آنذاك . . ولا يكاد يخلو مقال أو دراسة أو كتاب عن المسرح الفلسطيني من ذكر دور الجوزي وإسهاماته الكبيرة . . وقد حاولت في حوار مع الأستاذ الجوزي - يذكر أنه من مواليد القدس عام ١٩٠٨ - الوقوف قدر المستطاع عند الكثير من التفاصيل والجزئيات التي تتعلق بالمسرح الفلسطيني قبل النكبة . . فكان هذا الحديث . .

* متى بدأ المسرح الفلسطيني.. وماذا يمكن أن نقول عن هذه المرحلة؟؟

** بداية لابد من الحديث عن العوامل الرئيسية التي تأثر بها المسرح الفلسطيني ، ومنها عاملان يمكن التوقف عندهما ، الأول: قيام النهضة التمثيلية العربية على يد الرائد الأول مارون النقاش (١٨١٧ - ١٨٥٥) اللبناني الأصل الذي مثل في بيته ببيروت ثلاث مسرحيات هي : «البخيل ١٨٤٧» و «أبو الحسن

المغفل ١٨٤٩» و«الحسود السليط ١٨٥٣».. وكان من تلاميذه ابن أخيه سليم خليل النقاش الذي حمل رسالة الفن بعد عمه، وألف فرقة في بيروت، وسافر بها الى مصر ليقدم عدداً من المسرحيات على مسارحها، ثم تبعته عدة فرق أخرى عملت على النهوض بالفن المسرحي.. وطبيعي أن تتأثر فلسطين بالحركة المسرحية، وأن يقبل أبنائها على إنشاء وتأسيس الجمعيات والنوادي الفنية والمسرحية..

العامل الثاني الذي كان له أكبر الأثر في إبراز الحركة المسرحية في بلادنا، هو وجود المعاهد والمدارس الأجنبية الكثيرة، التي كانت تقيم حفلات تمثيلية في الأعياد الدينية، أو في نهاية العام المدرسي. وقد تبين للباحثين أن مثل هذه الحفلات كانت تقام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.. هذه كانت بداية البدايات في وطننا العربي الذي هو كل لا يتجزأ..

وفي حديثنا عن فلسطين تحديداً، فقد قام فريق من طلاب مدرسة المطران في مدينة القدس، وكان ذلك بعد إعلان الدستور العثماني، بتمثيل مسرحية «صلاح الدين الأيوبي» في مقهى المعارف الواقع في باب الخليل.. أما الرواية الثانية التي قاموا بتمثيلها، فكانت أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٥)، وكان عنوانها «لصوص الغاب»، وهي مترجمة عن الكاتب الألماني نيتشه.. وفي عام ١٩١٨ قام فريق من الأدباء المقدسة بتمثيل رواية «فتاة عدنان أو شهامة العرب»..

وفي مدينة حيفا برز جميل البحيري بين السنوات «١٩١٩ - ١٩٣٠»، وقدم العديد من المسرحيات لطلبة المدارس، منها: «سجين القصر».. «قاتل أخيه».. «في سبيل الشرف».. «وفاء العرب» و«أبو مسلم الخراساني» وسواها..

وفي نابلس قام المربي الكبير المرحوم محمد عزة دروزة بوضع مسرحية «السمار» عام ١٩١٣، ومثلت في السنين الأولى من الاحتلال الانكليزي.. ثم قصة «وفود النعمان على كسرى أنوشروان».. وعندما تولى إدارة مدرسة النجاح الوطنية، حوّل هذه القصة عام ١٩٢٣ الى تمثيلية، مثلتها فرقة التمثيل في المدرسة على مسرح البلدية.. وعام ١٩٢٤، وضع تمثيلية باسم «عبد الرحمن الداخل»، مثلتها فرقة المدرسة أيضاً.. كذلك وضع تمثيلية أخرى باسم «ملك العرب في الأندلس» ومثلتها فرقة المدرسة المذكورة..

ثم انتشرت فكرة التمثيل في سائر المدن والقرى الفلسطينية، فهبّ الشباب الناهض، وأسس الجمعيات والنوادي، وشارك في إحياء الفن المسرحي بتقديم فصول ومسرحيات مطولة..

* كيف تقبل الناس هذا الواقد، وكيف تعاملوا معه...؟

* أقبل الشعب الفلسطيني بمعظم فئاته وثقافته على الإنتاج المحلي مع ضعف مادته وتمثيله في البداية.. أحبّ المسرحيات والفصول المؤلفة، لأنها كانت تعالج مشاكله الاجتماعية.. ومع أن الشعب أحبّ هذا الفن الجميل، إلا أنه كان لا يزال تحت تأثير الماضي.. تحت تأثير أربعة قرون من الحكم العثماني، حيث كان التعليم مفقوداً، والجهل قائماً، والتعصب سائداً.. ساذكر لك هذه الحادثة:
في العشرينات، وفي بلدة فلسطينية ما، كان نجيب الريحاني يمثل دور شاه كبير السن.. عندما فتح

الستار كان نجيب ببدلته الملوكية وشعره المنفوش . كان جالساً على كرسي وثير، وعلى إحدى ركبتيه جلست زوجته الصبية الحلوة تداعب خصلات شعره . . وفجأة ارتفع الضجيج والصخب في القاعة، وأخذ الجمهور يصفر ويضرب برجليه، وأخذت بعض الأصوات تصيح : «استحي على شيبتك» . فما كان من نجيب إلا أن أنهض زوجته - في المسرحية - من حضنه، وهمس في أذنها كلاماً لم يسمعه أحد من الحضور . وبعد دقيقة تقريباً دخلت الزوجة الصبية وهي تضع يديها في جيبي بنطالها وتصر صغيراً قوياً مزعجاً . ٨٨ . فالتفت إليها الريحاني وأسمعها كلاماً مؤذياً عن الصغير . فساد القاعة سكون تام، وتابع الريحاني مسرحيته .

وتطور الموقف في الثلاثينات، وأصبح المرء يشاهد على خشبة المسرح مثل المشهد السابق، فيهمس في أذن زوجته أو أخيه، دون إبداء أية ملاحظات بصوت مرتفع، وذلك نتيجة تقدم العلم والثقافة . أما في الأربعينات فقد كان الشعب يرفض كلَّ غث، يرفض المسرحية التي لاتعالج مشاكله . وفي هذا الوقت وصلت المسرحية العربية الفلسطينية إلى الأفضل وقرظتها الصحف والمجلات أحسن تقرير . . ولا يغرنُّ عن البال، أنَّ الأوضاع السياسية السائدة في جميع أرجاء فلسطين، كان لها أكبر الأثر في توجيه المؤلفين إلى موضوعات اجتماعية وطنية . . موضوعات تتعلق بالأرض والمحافظلة عليها، بالسهمرة وكيف يجب أن نتخلص منهم، بالكفاح والنضال في سبيل الحفاظ على فلسطين وتراب فلسطين .

* ذكرت في المدارس الأجنبية ومسرحها، فكيف تعامل كتاب المسرح مع هذه المدارس وسواها؟

* كان المسرح الفلسطيني يتصارع مع هذه المدارس الأجنبية، التي كان همها الأكبر أن تدوس العادات والأعراف، وأن تقضي - إن استطاعت - على اللغة العربية، لغة الآباء والأجداد . . وأيضاً كان كتاب المسرح في فلسطين يقفون ضد القوانين الحكومية المحففة التي تسنها السلطات البريطانية الحاكمة، لنكم الأفواه، وتقضي على كلِّ فكرة تحريرية . . وكان المسرح الوطني في صراع دائم مع المسرحية المستوردة التي تهدف إلى إلهاء الشعب عن التطلع إلى أهدافه، المسرحية التي تبعث السموم في أفكار الشبيبة العربية الفلسطينية لتعيقها عن تادية واجباتها الوطنية والإنسانية . . وكما أسلفت، فقد تطور الوعي بين أفراد الشعب العربي الفلسطيني تطوراً سابق فيه الزمن، وأصبح يميز بين الغث والسمين . . بين الأدب الراقى الهادف وبين الأدب الرخيص المائع . .

* تأسست فرقكم «جمعية الفنون والتمثيل» في القدس عام ١٩٢٧، او بداية عام ١٩٢٨ . . فماذا عن هذه الفرقة . . قوامها . . نشاطها . . رحلتها في العطاء؟

* * أسسنا هذه الفرقة لغايات عديدة منها: توحيد جهود الطلاب والطالبات من أجل النهوض بالتمثيل كفن من الفنون الجميلة، وأن نثقف الشبان والشابات الذين لم تنح لهم الفرص لتلقي تعليمهم الابتدائي

والتوسط، أن نصرهم بالأحداث القائمة في البلاد، وأن نجعل منهم مواطنين صالحين لأنفسهم وللوطن. . . وقد شرعنا في إقامة دورات تدريبية، كنا نعلم فيها الطلاب والعمال وكل من يؤم فرقتنا. كنا نعلمهم اللغتين العربية والانكليزية ومبادئ الحساب. . . كانت الرسوم المدرسية الليلية لاندكر، وكان المعلمون يقومون بهذا العمل مجاناً، إن لم نقل إنهم كانوا يسهمون في شراء الكتب والدفاتر. . .

وكان من ضمن أهدافنا إيجاد الفتاة المتعلمة المثقفة، كي تقوم بقسطها من الواجب في سبيل رفعة فن التمثيل والصعود الى خشبة المسرح. . . وكان هناك محاضرات وجلسات نوعية. كنا نبين فيها للعامل كيف يناضل في سبيل نيل حقوقه. واستطعنا أن نؤسس جمعية للعمال نديرها ونوجهها. . .

واستمر العمل في «جمعية الفنون والتمثيل» حتى أواسط عام ١٩٣٢، عندما دب الخلاف بين العمال والمتنفذين وأصحاب الغايات والفن. . . ثم انتقلت الجمعية إلى اسم «نادي الشبية الأرثوذكسية» الذي قام بتمثيل مسرحيتين من تألفي، هما «فؤاد ليلي» و«الحق يعلو». . . وأذكر هنا أن «جمعية الفنون والتمثيل» كانت قد قدمت مسرحية «عنتر بن شداد». . . وكنا أول فرقة تضم إليها الجنس اللطيف في فلسطين. . . كما قمنا بتمثيل مسرحية «مجدولين أو تحت ظلال الزيزفون». . .

* ماذا عن نشاطات بقية الفرق في فلسطين قبل عام ١٩٤٨؟

** في القدس تأسس النادي العربي أواخر شهر حزيران عام ١٩١٨. . . وفي ١٩١٩/١/٢٧ قام شباب النادي بتمثيل رواية «شهداء العرب». . . وهناك «المنتدى الأدبي» الذي تأسس عام ١٩١٨، ومثل مسرحية «صلاح الدين الأيوبي» عام ١٩٢٠. وفي سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٧ قام شقيقي صليبا الجوزي بحركة تمثيلية واسعة النطاق من حفلات مدرسية إلى حفلات للكبار. وقد ألفت في هذه الفترة «الابد للحب أن يتصر» و«أمي». . . وعندما دخل شقيقي القفص الذهبي قمت بمتابعة المشوار، وكتبت عدة مسرحيات محلية، منها على سبيل المثال: «فؤاد ليلي» ١٩٢٨. . . «الحق يعلو» ١٩٢٧ - ١٩٢٨ «الشموع المحترقة» ١٩٣٠. . . «أشباح الأحرار» ١٩٣٥. . . «عشاق التماثيل» ١٩٤٥. . . «تراث الآباء» ١٩٤٦. . . «الظرف الثلاث» ١٩٤٧. . . «ذكاء القاضي» عام ١٩٤٥. . . والثلاث الأخيرة مخصصة للأطفال. . .

وفي حيفا كان النشاط الكبير لجميل البحيري الذي أصدر مجلة «زهرة الجميلة» عام ١٩٢٢ وجريدة «الزهور» عام ١٩٢٧. وكان له دوره في حقل المسرحية، وفي ترجمة الروايات الغربية الى العربية. . . وقد ألفت الكثير من الروايات للمسرح العام والمسرح المدرسي كما أسلفنا. . . وهو من المؤسسين «لحلقة الأدب» في حيفا. وهي التي أحدثت نشاطاً كبيراً في عالم الفكر والأدب، وكانت تقيم الحفلات والمحاضرات والمسافقات للتأليف المسرحي. . . الى جانب ذلك كان هناك «جمعية التمثيل في حيفا» و«جمعية الرابطة الأدبية». . . ثم تأسست الجمعية الإسلامية والجمعية المسيحية. . . وفي أواسط العشرينات قامت جمعيات عديدة.

أما في يافا فقد قامت «اللجنة التمثيلية» لفترة من الزمن ثم اختفت. ومن الفرق التي تذكر في الحقل

التمثيلي في هذه المدينة، فرقة «النادي الأرثوذكسي»، و«فرق الجمعيات الإسلامية المتعددة». وقد مثلت جمعية «الشباب المسلمين الكبرى» رواية «دموع اليانسة» .

وفي عكا قام «اتحاد عكا» في الفترة ١٩٢٩ - ١٩٤٨، وكان تأسيسه في منزل السيدة زكية حقي - زوجة الشاعر أبو سلمى فيما بعد - وكانت الكاتبة أسمى طوي توضع المسرحيات لهذا الاتحاد، وهي التي تحول منزلها إلى مسرح تدرّب الشباب فيه على التمثيل، حتى وصلت إلى مستوى متميز .

وفي بيت لحم، قامت اللجنة التمثيلية لنادي الشبيبة الأرثوذكسية في بيت لحم بتمثيل روايات للجمهور، ومنها رواية «عواطف الزوج» . كما قام فريق الهيئة التمثيلية لنادي الشبيبة بالتجوال في المدن الفلسطينية والأردنية، وتقديم مسرحية «رواية الاستبداد» .

وقبل أن ننهي حديثنا عن أهم الفرق التي أسهمت في بناء المسرح الفلسطيني، علينا أن نشير إلى أن شاباً من حيفا اسمه عزيز ضومط كان قد بذل جهوداً جبارة في سبيل نشر الأدب العربي في أنحاء ألمانيا. وكان يكتب في الصحف الألمانية، ويضع التمثيليات التي تتغنى بهاثر الآباء والأجداد. وآخر رواية وضعها كانت «والي عكا»، ومثلت على مسرح بلدية «شترالون»، فنالت استحساناً كبيراً. وقد أقام له الألمان حفلة تكريم ألقى فيها بالألمانية ترجمات شعرية لشوقي وحافظ ومطران.

* ذكرت بعض كتاب المسرح في فلسطين.. فهل نستطيع ان نتوسع قليلاً في هذا الجانب؟

* * ذكرنا جميل البحري ابن حيفا . ومحمد عزة دروزة، وأسمى طويي الشاعرة كتبت للمسرح «مصرع قيصر روسيا وعائلته» عام ١٩٢٥ . «صبر وفرج» عام ١٩٤٣ . و «نساء وأسرار» و «أصل شجرة الميلاد» . وهناك الكاتبة المعروفة نجوى قعوار فرح، والتي كتبت للمسرح والإذاعة: «أنا لأحارب من أجل عمر» ١٩٤٦ . «روعة الزهراء» ١٩٤٧ . «الأميرة حنان» ١٩٤٧ . «الآلهة المهجورة» شباط ١٩٤٨ . وهناك الى جانب ما ذكرنا، عن شقيقي صليبا وعني، شقيقي الثاني جميل الجوزي الذي ترجم عدداً كبيراً من الفصول التمثيلية عن اللغة الانكليزية، جمع بعضها في ثلاث مجموعات هي: «السبعة وتمثيليات أخرى» «الزوجة الخرساء وتمثيليات أخرى» و «غرام أعمى وتمثيليات أخرى» . وأيضاً نذكر شقيقي فريد الجوزي الذي ألف فرقة تمثيلية هزلية باسم «إضحك»، ومن الفصول التي ألفها وترجمها أو اقتبسها: «الطيب والعمدة»، «أم نبيه والاختراعات» . «كيد النساء غلب كيد الرجال»، «أبو شوشة» «يونان في مقهى» وغيرها . وأذكر ابن عمي إميل الجوزي الذي مثل وكتب، ومن مسرحياته: «بين العدالة والقانون» «الخطايا السبع» «في ذمة القضاء» «مات الملك عاش الملك» . وغيرها .

ونذكر الكاتب شكري السعيد الذي ألف فرقة «الثقافة والفنون» عام ١٩٣٩ . وقد كتب العديد من الإذاعيات للإذاعة الفلسطينية، وأصدر مجموعة من الإذاعيات حملت عنوان «القدس الشريف ومسرحيات أخرى» . ونذكر أيضاً الكاتب شفيق الرززي الذي كتب مسرحية «في سبيلك ياوطن»، وهي في خمسة فصول، شاركه في تأليفها أخوه وديع، وقد طبعت في القدس عام ١٩٣٤ . ولاننس الشاعر برهان الدين

العبوشي الذي كتب مسرحية «وطن الشهيد» عام ١٩٤٧ ..

« الصحافة الفلسطينية في هذه الفترة. كيف تعاملت مع المسرح الفلسطيني.. هل ساعدت على نهضته ام اكتفت بدور المعلق؟ »

« * أستطيع أن أقول بفخر وإعجاب: إن الصحافة العربية الفلسطينية قامت بتعزيز وبناء الجمعيات والنوادي الأدبية والرياضية والتمثيلية، وإن نقدها كان بناء. ولم تكن تتهاون أمام أية مسرحية أو مادة ضعيفة.

« اخيراً ماذا عن التمثيل في الإذاعة الفلسطينية «إذاعة القدس» وهنا تجدر الإشارة إلى انها مرحلة غنية فيما يخصك، فقد اعطيت الكثير. ليتك تحدثنا عنها وعن علاقتها في إغناء فن التمثيل والمسرح تحديداً؟ »

« * الأدب الإذاعي كان عاملاً من عوامل النهضة الأدبية في فلسطين. والذين تولوا مراقبة البرامج العربية في دار الإذاعة الفلسطينية في القدس الشريف، كانوا جهابذة، عرفوا ما يجب عليهم أن يقوموا به نحو الشعب العربي الفلسطيني، من تقديم التوعية والثقافة والعلم. . وهؤلاء الجهابذة هم: ابراهيم طوقان، وعجاج نويهض، وعزمي الشاشيبي. . وقد اهتموا ببرامج الأطفال، التمثيل، الأحاديث الأدبية، الموسيقى، أو سواها.

وعن نفسي فقد أسست مع أخوتي جميل وفريد وابن عمي إميل «فرقة الجوزي» مع ابتداء افتتاح المحطة عام ١٩٣٦، وواظبنا على تقديم المسرحيات والفصول التمثيلية حتى عام ١٩٤٨. . قدمنا أسبوعياً فصلاً تمثيلاً يستغرق نصف ساعة للفصل الدرامي، وربع ساعة للفصل الهزلي. استطعنا أن نواصل العمل من خلال هذه الفرقة لمدة اثني عشر عاماً. وقد ضمنا عدداً كبيراً من الأناس ليقمن بتمثيل الأدوار النسائية، ويزيد عدد المسرحيات التي قدمناها إذاعياً على المئة والخمسين.

وأذكر هنا أنني قدمت من محطة الإذاعة الفلسطينية اثني عشر حديثاً عن تاريخ المسرح العالمي. وكثيراً ماكنت أتحدث عن كتاب المسرح القدامى والحديثين بمناسبة مرور كذا من السنوات على مولدهم أو وفاتهم.

شخصيات فلسطينية

اسعاف النشاشيبي ١٨٨٢ - ١٩٤٨

نصري الجوزي



في الرابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) عام ١٩٤٨ ، نشرت جريدة « المصري » ، حكمة مسهبة للمؤرخ احمد لطفي السيد الصغير ، عن المرحوم اسعاف النشاشيبي جاء فيها :

« ويتصل اول هذه الأسرة ، بالشيخ المعتقد احمد بن رجب النشاشيبي ، وهو من رجال السلطان الملك الظاهر جقمق ، وكان خازن داره الخاص ، في أيام امارته الأولى في فجر القرن التاسع الهجري . وترك ابنه الأمير ناصر الدين محمد . وقد ولد في مصر في سنة ٨٢١ هـ ثم اتصل كآبيه لخدمة ، الملك الظاهر جقمق ، .

« وفي سنة ٨٧٥ اختاره الملك الأشرف قايشاي ، لوظيفة ناصر الحرمين الشريفين ، (القدس والخليل) .

« وقال السخاوى في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، كان الأمير ناصر الدين بن النشاشيبي من أهل الخير والصلاح . حفظ القرآن الكريم وهو صغير ، وجوده على ابن كزلبغا والزين طاهر ، وآخرين .

وبعد ان ذكر خدماته في القدس والخليل قال : « وصرفه السلطان قايتباي بدقهاق . والعلمي يؤكد ، ان النشاشيبي ، هو الذي استعفى من تلقاء نفسه ، وان السلطان الحّ عليه في البقاء في الحرمين ، فرفض وصاحب الدار ادرى .

ولم ينس الأمير ناصر الدين تلك البلاد التي صرف فيها زهرة العمر ، فرجع الى القدس وتأنل الدور والقصور والحقول والبساتين . وانتهت الأسرة كلها بالانتقال من مصر إليها منذ القرن التاسع الى الآن .

اسعاف النشاشيبي :

ولد في القدس سنة ١٨٨٢ ، في بيت ثروة وغنى ، التحق اسعاف بكتاتيب القدس ، وبعد ان أكمل دراسته الابتدائية ، اخذه والده ، عثمان النشاشيبي ، وله من العمر اثنتا عشرة سنة ، الى (دار الحكمة) في بيروت وتعلم على يد الشيخ عبد الله البستاني ، وامضى في دار الحكمة ثلاث سنوات . وعاد الى بيت المقدس بعد اعلان الدستور ١٩٠٨ ، واخذ يقرأ ويكتب وينظم الاشعار .

يقول المرحوم خليل السكاكيني ، صديق اسعاف في كتابه « كذا انا يا دنيا » ، تم طبعه من « الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين - الأمانة العامة ١٩٨٢ » ، كان وهو صبي يحب الزعامة ، وكان في ذلك يشبه اخي يوسف . فكان هذا زعيم لذاته في محلته . وكان هذا زعيم لذاته في محله . كانت لهذا منطقة نفوذ وكانت للآخر منطقة نفوذ . ولم يكن يمر يوم الا عبأ الواحد فرقة ، وجهازها بالعصي ، وزحف الى منطقة نفوذ الآخر فيتلقاه بفرقة . ونشب القتال ، ولا يخرج الفريقان من المعركة الا وقد تحزقت الثياب وتحطمت الرؤوس ، وسالت الدماء ، كان كل واحد من الزعيمين ، عبد الله بن الزبير وهو صبي .

« ثم وقعت خصومة شديدة بينه وبين ابيه ، وكان ابوه قد كتب جانباً كبيراً من املاكه على اسم ولده . وكان ينتظر ان يكون ولده ، من رجال الاعمال ، يحافظ على املاكه ويستثمرها . فوجد انه تعلق بالأدب ، والأدب لا يغني ولا يضمن . وفي ذات يوم ، بلغه ان ولده باع قطعة ارض في يافا ، فنارجنونه ، وطلب من البوليس ان يفتش عنه ويلقي القبض عليه ، الى ان ظفر به في باب الخليل ، فهرب الولد ، فتبعه الأب والبوليس وامسكوه في السوق الجديدة ، فجمع الناس وذهبنا نحن اصدقاء الولد الى مكان الحادث لعلنا ننقذ الولد او نترضى الأب ، ولكن على غير جدوى . وكان الولد اسعاف يصيح : اتضرب يا عثمان فخر بلادك ؟ ثم ركب الاب بغلته وجعل يخاطبني :

يا سكاكيني ، هذه آخرة من يقرأ مقدمة شمّيل . يعني مقدمة كتاب شمّيل على مذهب دارون . قضى اسعاف اياماً غير قليلة في السجن ، وكنا لا ننقطع عن زيارته ، ونطبّب خاطره ولكن تمكن الحقد في صدره على ابيه . »

عرفت بعض الأوساط في فلسطين ، المجالس العائلية التي تشبه الجمعيات الأدبية وغير الأدبية ، ومن امثلة هذه المجالس الذي كان ينتظم في دار عثمان بن سليمان النشاشيبي ، والد الأديب محمد اسعاف النشاشيبي . وقد كانت اصداء الفقه واللغة ، تتردد في ذلك المجلس وامثاله ، وكان ينتظم في ذلك المجلس محمد جاد الله ، وعارف الحسيني ، وموسى عقل ، واسعد الامام ، وراغب الخالدي ، وكامل الحسيني المفتي ، ورشيد النشاشيبي وعبد السلام الحسيني وغيرهم . وكان محمد اسعاف النشاشيبي في صغره يتسلل الى ذلك المجلس ، ويسمع هؤلاء الشيوخ يتقارضون الشعر ، ويتذاكرون الأدب ومسائل الفقه^(١) .

ورد في مجلة النفائس العصرية ، سنة ١٩١١ ما يدل على ظاهرة بارزة في تلك الاوساط الفلسطينية ، كان لها آثار في حياة المجتمع الفلسطيني ، لا تقل أهمية عن آثار الجمعيات الأدبية ، المؤسسة بقواعد وانظمة معروفة .

ولعل ذلك يتضح من حكاية رواها الكاتب الروسي المعاصر ثيودورف في جريدة (ريتش) ، وهي من الجرائد اليومية المشهورة التي كانت تصدر في بطرسبرج ، قال فيها :

« اجتمعت ببعض ابناء القدس في منزل الخوجا بندي الجوزي ، استاذ الآداب العربية في كلية قازان ، وكان معي الخوجا كراتشكوفسكي المستشرق الروسي ، وكان قد جاء الى الشرق في مهمة علمية ، فأقام في مصر وسورية وفلسطين هذه الغاية سنة ونصف السنة ، فأتقن اللغة العربية ، وتخلق بأخلاق العرب وعاداتهم . أما الأدباء الذين أشرت اليهم فهم الاستاذ خليل السكاكيني ، والشاعر الكاتب محمد اسعاف النشاشيبي ، وارسقراطي من سلالة الفاتحين جميل الخالدي ، وكان حديثنا بعضه بالفرنسية ، وبعضه بالانكليزية ، واكثره بالعربية ، وكان رفيقي المستشرق وصاحب المنزل يترجمان الحديث ، وكنت اسمع ، وانا مسرور مرتاح ، حديث هؤلاء الشبان المتقدين ذكاء وحماسة ووطنية . وقد علمت اموراً كثيرة ، مما لا تعلمه نحن الاوروبيين عن هذه الامة العظيمة بتقاليدها وتاريخها وآدابها . ولا يخفى ان جمهور السياح الاوروبيين ، اذا كتبوا شيئاً عن سورية وفلسطين ، انما يلتقطون ذلك من افواه الحوذنين والحمالين والباعة المتجولين .

الى ان يقول :

« كنت جالساً اسمع اللهجة العربية ، وكأني اسمع انغاماً موسيقية جميلة ، يستشف منها القوة والعتاد ، وكان تلك الالفاظ نار تتسعر حدة ،

ثم يقول وبعد ان مضى هزيع من الليل ، اقترحت على النشاشيبي ان يسمنا شيئاً من شعره ، فانشدنا قصيدة في الحرية ، (ذكرى فتاة مكدونيا) ارتحت اليها كل الارتياح ، واكبرت المعنى العربي العظيم ، في اللفظ العربي الفخيم . وخلت وكأني اسمع اصوات جمهور لا فرد .

كان هذا الشاعر يقرأ قصيدته ، وفي كل نبرة من نبراته معان عظيمة . وقد ظهر لي وهو يقرأ نشيطاً

عنداً متحمساً . هذا الشاعر عربي قبل كل شيء ، ومسلم ، ولكنه ممتزج مع اخوانه المسيحيين ، امتزاج الراح والماء .

ونقدم للقارئ الكريم بعضاً من ابيات ذكرى مكدونيا وهي قصيدة في الحرية :

لا تخافي من العدو اغتبيلا	لا تخافي من كيده لا تخافي	لا تخافي من العدو اغتبيلا	لا تخافي من كيده لا تخافي
قد ابدناه بالسيوف المواضي	وتركناه عبرة وفتالا	قد ابدناه بالسيوف المواضي	وتركناه عبرة وفتالا
وازلنا في الملك كل فساد	وشفينا ما كان داء عضالا	وازلنا في الملك كل فساد	وشفينا ما كان داء عضالا
وحمينا حماك من كل باغ	رام منا ومنك ما لن ينالا	وحمينا حماك من كل باغ	رام منا ومنك ما لن ينالا

وكان ينظر الى مكدونيا ، نظرة العطف لوقوعها في الظروف نفسها التي وقع فيها وطنه الصغير ، ثم يروي قصة الدستور ، وقيام الأحرار للتخلص منه . فيقول :

حسب القوم نائمين وخالا	راح يعني لك الغوائل كيما	حسب القوم نائمين وخالا	راح يعني لك الغوائل كيما
ني الكامنين في « سلنيك »	ني الأسد انورا ونيازي	ني الكامنين في « سلنيك »	ني الأسد انورا ونيازي
فأنوه مزجرين غضابا	كان هذا الحسبان منه ضللا	فأنوه مزجرين غضابا	كان هذا الحسبان منه ضللا
	يهلك الملك والورى والمالا		يهلك الملك والورى والمالا
	يرقبون الشؤون والأحوالا		يرقبون الشؤون والأحوالا
	واخا المجد شوكت المفضالا		واخا المجد شوكت المفضالا
	واذاقوه شدة ووبالا		واذاقوه شدة ووبالا

الى ان يقول :

ايها الشرق طال نومك فانهض	اهجر الجهل والعماية هجرا	ايها الشرق طال نومك فانهض	اهجر الجهل والعماية هجرا
انسك ربيع الإخاء نحو مجد	اتسك الدين في المعابد ييكي	انسك ربيع الإخاء نحو مجد	اتسك الدين في المعابد ييكي
تخذوه يا شرق للظلم سبلا	واضلوا وحرفوا الأوقالا	تخذوه يا شرق للظلم سبلا	واضلوا وحرفوا الأوقالا



قام بعد الإنتداب البريطاني على فلسطين ، اتجاهاً لأديبين ثائرين ، الاتجاه الأول يعمل الى التجديد في الاسلوب والموضوع ، والتطور مع روح العصر ، والاتجاه الثاني يرمي بالمحافظة على القديم

والتمسك بالتراث العربي .
وحامل لواء الاتجاه الاول هو المرحوم خليل السكاكيني ، وحامل لواء الاتجاه الثاني هو محمد اسعاف

النشاشيبي .
اما صاحب المذهب الثاني ، محمد اسعاف النشاشيبي الذي طالما عناه السكاكيني في كثير من احاديثه وكتابه فقد تبادل مع امين الريحاني مقالات قيمة في هذا الصدد ، يقول فيها شارحاً مذهبه :
« وجدت الأستاذ الريحاني يعيب في مقالة التقليد والاغراب ، وهجن ، اصطلاحات واستعارات يشغف بها المقلدون ، ويعد الانشاء فناً - والتجاوز في الكلف بالفن خسرانا ، واللغة ذريعة ، واتخاذ الذريعة غايةً ضلالاً - ويرى اننا محتاجون ، جد محتاجين الى الذي هو انفع الى العلم الغربي الحق ، فلا يجوز ان يشغلنا الكلام المزوق عنه .

« أجل ، ان في هذا العصر من يقلد المتقدمين ، ومن يشمله اللفظ الغريب ، ومن يستجيد الاستعارات ويشملها ، فتظلم فيها معانيه ، ولكني - والحمد لله - لست كأحد منهم ، فما انا بالمقلد اديباً قديماً او حديثاً ، بل ممن ينعي على ذي التقليد تقليده .

وقد الاقبي الكاتب العظيم من المتقدمين فلا يسيطر علي ، ولا امشي وراءه ، وله قوته وطريقته ، ولي ضعفي وطريقيتي ، وقد يكون متقدماً بعد التحقيق ضعيفاً متأخراً ، وقد تكون طريقته مضلة ، كابن الحريري ذي الاسلوب الاعجمي ، وكمضارعيه من المولدين الذين ضلوا سواء السبيل ، فتسكبوا عن النهج الطبيعي العربي ، وأضلوا من بعدهم خلقاً كثيراً ، وقد نددت بهم في « الكلمة » ودعوت القوم الى هجر كلامهم ، واتباع طريق المهتمين الصالحين . فلست إذاً مقلداً في القول احداً ، وانما هي الفاظ عربية مضربه عرفتها ، واسلوب عربي مبين عقلته ، ومَلَكة جاءت ثم كلام ، هو ذوب روعي وابن نفسي وخليقتي وطريقيتي ، وفي الخلق شبه ، وفي النفس قوة وفيها وضوح : ظاهرها كباطنها وباطنها كظاهاها . فان اشأنا التزويق في الكلام ، واشأنا هذه الاستعارات المخسرات ، وابعض بديع الجماعة ، فلا احتج الا على القول المبين ، ولا يجي مني الا الجملة البينة ، وكرهني الغريب الذي ذموه ككرهي الاستعارة المعقولة . وما هذه الالفاظ التي يطلبها مكائنها وتحسبها بعض الناس غريبة ، الا الفاظ مضرية لا حميرية ولا بيانية ، وليست من الفاظ حضرموت ، فلا تدفنها - يا اخا العرب - ولا تنكرنها ولا ترينها غريبة ، واعرضها على السمع لا يحجمها ، وحرك بها اللسان لا يستغلها ، وما غرب مثلها الا تقهقر أمه ، القارئ في بدوها وحضرها في الألف واحد ، ولو كان لها حال كحال الامم ، ما انكرت معروفاً ولا استغربت غير غريب .

وخلاصة هذا الكلام ان اسعافاً :

- ١ - ينكر ان يكون مقلداً اديباً قديماً او حديثاً ، ويرى التقليد مذمة .
- ٢ - ويكره التزويق المصطنع ، والتحلية المفتعلة في الأسلوب .
- ٣ - وينفر من الاستعارات التي تشوه المعنى فيظلم أو يتغلق فهمه بها .
- ٤ - وابعض البديع وخاصة الانحراف فيه كما فعلت طائفة من كتاب الرسائل .

٥- ويتجنب استعمال الغريب فيما يكتب .

من آثاره القلمية :

- ١- امثال ابي تمام (نشرها تباعاً في مجلة « النفائس » سنة ١٩١٢ وقرأ في سبيلها ٤٠٠ كتاب من كتب اللغة والأدب .
- ٢- كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه . طبع سنة ١٩٢١ .
- ٣- مجموعة النشاشيبي - طبع سنة ١٩٢٢ .
- ٤- قلب عربي في عقل اوروبي - طبع سنة ١٩٢٣ .
- ٥- البستان - طبع سنة ١٩٢٧ .
- ٦- كلمة في اللغة العربية - طبع سنة ١٩٢٥ .
- ٧- مجموعة النشاشيبي ، تضم :
 - أ- العربية وشاعرها الاكبر احمد شوقي .
 - ب- اللغة العربية والأستاذ الريحاني .
 - ج- العربية في المدرسة .وكلها طبعت سنة ١٩٢٨ .
- ٨- البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد شوقي - طبع سنة ١٩٣٢ .
- ٩- الاسلام الصحيح - طبع سنة ١٩٣٥ .
- ١٠- مقام ابراهيم - طبع سنة ١٩٣٨ .
- (خطبة القاها في حفلة تأبين المرحوم ابراهيم هنانو- بدمشق) .
- ١١- نقل الأديب - طبع سنة ١٩٥٦ .

وفاته :

في العاشر من شهر شباط عام ١٩٤٨ ، كان اسعاف النشاشيبي يلفظ انفاسه الاخيرة ، في احد مستشفيات الدقي بالقاهرة .
وكان الى جوار سريره ساعة وفاته ، كل من الأديب المصري ، احمد حسن الزيات ، ورئيس وزراء مصر سابقاً محمد فهمي النقراشي ، وعبد الرحمن الجديلي ، سكرتير سعد زغلول باشا زعيم مصر الخالد .
ويقول احمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة « كنت ثالث ثلاثة ، استبقاهم الوفاء بجانب اسعاف في ساعاته الاخيرة . وكان الطبيب واقفاً يصف الدواء ، وينظم العلاج ، ويرشد المعرضة ، وكان المريض جالساً في سريره حاضر الذهن ، حافل الخاطر يغالب انبهار النفس من الربو ، وتجاذب العواد ما

دق من الحديث . فهو يضع لسانه حيث شاء من نوادر اللغة ، وطرائف الأدب . . وكانت مشاعر العزم في حديث أديب العربية ، توسع في انظارنا فسحة الأمل ، وتصرف عن اذهاننا الخوف ، فلم يدر في خلدنا ، ان المنية كانت مترقبة فوق سريره ، تنتظر انفاسه المعدودة ان تنقضي ، والفاظه المسرودة ان تنفذ ، فلم يكد السامر ينفض ، والساهر ينام حتى ختمت على فمه قصة المنون ، فسكت سكون الأبد .



وهكذا دفن هذا الأديب المقدسي في تراب مصر ، مخلفاً وراءه قصره المنيف في المدينة المقدسة ومكتبته القيمة .

رحم الله الفقيد واسكنه جناته الفسيحات .
ولنا عودة الى الحديث عن قصر المرحوم محمد اسعاف النشاشيبي ، ومكتبته القيمة التي كانت تحوي
أصدق المراجع واغلى المخطوطات .

الموسوعة الفلسطينية الجزء الثاني الصفحة ٦٢ .

كتب

ظاهرة الهجرة في المجتمع الفلسطيني*

تأليف: نبيل علقم ووليد ربيع

مراجعة: يوسف حداد

ان موضوع الهجرة العربية من فلسطين والهجرة اليهودية اليها موضوع بالغ الامة والخطورة، خاصة بعد أن اصبحت الابواب التي كانت شبه موصدة في بلدان شرقي اوروا مفتوحة على مصراعها لتدفق سيل عرمرم من المهاجرين اليهود الى فلسطين، في حين بدأت اعداد وافرة من المهاجرين الفلسطينيين الشباب بمغادرة فلسطين تحت وطأة القمع الاسرائيلي والمضايقات الاجتماعية الصارمة والمتعددة الاشكال. وهذا ما ارادته الصهيونية منذ قيامها.

لقد دأب الصهاينة على السعي لاستقدام المهاجرين واستملاك الاراضي، وبقي النضال الفلسطيني مستمراً في مقاومة هذين الامرين. بيد ان الصهاينة تمكنوا من خلال الحروب العربية - الاسرائيلية من السيطرة على كامل فلسطين واقتلاع مئات الآلاف من سكانها عنها، ومع ذلك بقي هاجس التزايد السكاني الفلسطيني الطبيعي عاملاً قلقاً لدى قادة اسرائيل، وجاءت الهجرات اليهودية الحالية من شرقي اوروا مبددة لهذا القلق الى حد كبير، ومثيرة لقلق عربي يتمثل في دفع الفلسطينيين المتواجدين على ارضهم للهجرة عنها، ويتمثل ايضاً في سعي اسرائيل للتوسع اقليمياً بغية التمكن من استيعاب اعداد المهاجرين المتزايدة. ومن المعلوم ان الاستراتيجية الصهيونية تقوم على التوسع المرحلي. وهذا ما اثبتته الوقائع، وهو الامر الذي لم يعد يخفيه صقور الحكم في اسرائيل، مستفيدين من تردي الوضع العربي العام ومن الدعم الاميركالي المتزايد.

ان التنه لخطورة الهجرة اليهودية الى فلسطين والهجرة العربية منها ليس ظاهرة جديدة، ولا بد من اشارة عابرة اليها قبل الشروع في مراجعة كتاب الاستاذين نبيل علقم ووليد ربيع. فلقد اشار حنا صلاح في الكتاب الصادر عن الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية في نيويورك عام ١٩١٩ الى خطورة هذه الظاهرة محذراً من العواقب، متمنياً عودة المهاجرين الفلسطينيين الى بلدهم.

يتألف الكتاب الذي بين ايدينا «ظاهرة الهجرة في المجتمع الفلسطيني» من مقدمة وخمسة فصول، يدور الفصل الاول حول تعريف الهجرة ومراحلها ونتائجها، ويتناول المؤلفان في الفصل الثاني نموذجاً

الطبعة الاولى ١٩٩٠



لاحدى القرى الفلسطينية - ترمسعيا - فيتحدثان عن لمحات تاريخية وجغرافية واقتصادية، وينتقلان الى «التعليم وقطاع الخدمات» والى «السكان والحياة الاجتماعية». ويعالجان في الفصل الثالث حجم الهجرة من تلك القرية ومراحلها في العهد: العثمانية، البريطانية، الاردنية، الاسرائيلية، اما الفصل الرابع فيدور حول تحديات المهجر المتعددة والمتمثلة في العمل واللغة والامن والثقافة والعلاقات الاجتماعية، اما الاغراءات فتتمثل بالثروة والحرية الشخصية والتكنولوجيا والادارة. ويتناول المؤلفان في الفصل الخامس والاخير نتائج الهجرة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والسياسية، اضافة الى الملاحق والمصادر،

تسلط المقدمة الاضواء على مضمون الكتاب. وتتوضح فيها اشكال الممارسات الاسرائيلية الهادفة الى تهجير الفلسطينيين المتواجدين على ارضهم، وخطورة الهجرة الخارجية الفلسطينية الى الاقطار الاجنبية الآخذة في التزايد عاما بعد عام خصوصا من بعض المناطق في الضفة الغربية، وبرزت تلك المناطق اقضية بيت لحم والقدس ورام الله.

وقد اختار المؤلفان في تناولهما لظاهرة الهجرة قرية ترمسعيا كنموذج يمثل الهجرة الخارجية الى الاقطار الاجنبية، يدفعها الى ذلك معرفتها التامة والدقيقة حول المقيمين والمهاجرين من هذه القرية. ومن المقدمة الى الفصل الاول حيث يستعرض المؤلفان تعريفات الجغرافيين والمتخصصين في علم السكان والاجتماع والاقتصاد، للهجرة بأشكالها المتنوعة، لينتقلا بعد ذلك الى مراحل الهجرة الفلسطينية التي تمت في العهد العثماني منذ منتصف القرن التاسع عشر واستمرت حتى نهاية الحكم العثماني، ثم الهجرة التي تمت في عهد الاحتلال البريطاني وبلغت اوجها بتهجير ما يزيد عن ثلاثة ارباع مليون نسمة عام ١٩٤٨. فالهجرة التي حدثت في العهد الاردني وبلغت اوجها في حرب حزيران عام ١٩٦٧، واخيرا الهجرة المستمرة بعد هذا العام على شكل نزيف مستمر لم ينقطع.

اما دوافع الهجرة في العهد العثماني فتعود لعاملين هما: التبشير والغزو الثقافي الغربي، والاضاع الاقتصادية المتردية في الديار السورية التي كانت فلسطين جزءاً منها، فالتبشير والتغريب الثقافي هما مقدمة للاستعمار وهما السبب في الصراعات الطائفية التي حدثت في لبنان على سبيل المثال عام ١٨٦٠ بسبب التنافس الحاد بين مطامع الدول الاوروبية الكبرى.

ومن الملاحظ ان بدايات الهجرة الفلسطينية في هذه المرحلة انطلقت من مناطق التبشير الغربي كمناطق بيت لحم والقدس ورام الله، حيث كان الناس يسمعون من المبشرين هناك عن الاعاجيب في العالم الجديد فتدفعهم هذه المشوقات الى الارض الساحرة.

غير ان العامل الاقتصادي كان أكثر تأثيراً في عملية الهجرة، فالواضع الاقتصادية المتردية في العهد العثماني «وحالة البؤس والفقر والاضطهاد التي كان يعاني منها الفلسطينيون في تلك الفترة، ومبشرات النظام الرأسمالي الجديد بفلسفة الغنى والثروة والحرية الشخصية والاقتصاد الحر، ومغريات الحياة الاوروبية والاميركية ساعدت على فتح الثغرات في جدار مجتمع متماسك في بنينه وثقافته التقليدية». وهكذا نجد ان هجرة هذه المرحلة انطلقت من المناطق الجبلية الفقيرة تخلصا من الضيق وطمعا بالبحبوحة من جهة ثانية.

اما في العهد البريطاني فقد تعاون الطرفان : البريطاني والصهيوني على اقامة البناء التحتي للاقتصاد في فلسطين والسيطرة عليه ، « ولم يكن الهدف الاقتصادي معزولا عن الهدف السياسي فكلمنا اعداد الفلاحون الفلسطينيون فقرا كلنا اضطروا الى التخلي عن اراضيهم ، ذلك اهم السبل الى اقامة الوطن القومي اليهودي » وبثأير الفقر كانت تتم الهجرة الفلسطينية الى الخارج بينما كانت الهجرة اليهودية بالمقابل ترتفع ، اذ لم يكن عدد اليهود في فلسطين عشية الحرب العالمية الاولى يتعدى ستين الف نسمة ، ونرى ان هذا العدد ارتفع الى ما يقارب ستمائة الف نسمة عام ١٩٤٧ . وما زاد في هجرة الفلسطينيين «سهولة الحصول على وثيقة سفر بريطانية . . . وربما تشجيعها مثل هذه الهجرة . . . اضافة الى تأثير الدعاية والاشاعات التي كانت تطلق عن الغنى والثروات التي جمعها المهاجرون السابقون في البلاد الجديدة دون عناء» .

وخلال العهد الاردني تضافرت عدة عوامل ادت الى الهجرة . كان من بينها الوضع الاقتصادي الاردني المتردي ، وتدفق عدد هائل من النازحين الفلسطينيين خلال عامي ١٩٤٧ - ١٩٤٨ ، والسفر لتابعة التحصيل العلمي ، اصف الى ذلك البحث عن الثروة وعن الحرية السياسية والفكرية والاجتماعية . وهكذا امتدت الهجرة الى جميع الفئات الاجتماعية ولم تقتصر على الفقراء والمعدمين .

وفي العهد الاسرائيلي تم تهجير اربعمائة الف فلسطيني من الضفة الغربية عام ١٩٦٧ ، ومنذ الاحتلال الاسرائيلي «ونزف الهجرة لا يتوقف ، وذلك بسبب الاساليب التي تتبعها سلطات الاحتلال من أجل عملية التهجير بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبسبب الظروف الاقتصادية والاجتماعية والامنية والسياسية التي خلقها وتحققها الاحتلال منذ عام ١٩٦٧ حتى الآن» . ومن الملاحظ «ان الهجرة قد ازداد حجمها في العامين الاخيرين اي بعد اندلاع الانتفاضة في الارض المحتلة» وهذا عائد الى الارهاب الصهيوني واغلاق الجامعات والمدارس ، والبطالة المتفشية بين خريجي الجامعات بشكل خاص .

أما نتائج الهجرة السلبية فتتمثل في المجال الديمغرافي ، «فالهجرة نزيف بشري يضعف الوجود الفلسطيني في الاراضي المحتلة ، وهذا الوجود او الصمود رغم الظروف القاهرة والتحديات بأشكالها هو ضمان المحافظة على الهوية الوطنية والتصدي للمخططات الاسرائيلية في تفرغ الارض والاستيلاء الزاحف عليها ، باقامة المستوطنات واستيعاب المزيد من المستوطنين اليهود فيها» . وتكمن خطورة الهجرة في ان اكثر المهاجرين الفلسطينيين هم من الشباب الذكور . ومن النتائج أيضاً اختلال التوازن بين اعداد الذكور والاناث وارتفاع نسبة العوانس في المجتمع . وفوق ذلك فإن من ابرز الاخطار الناتجة عن الهجرة اهمال الارض والزراعة ، علما بان الصراع العربي الفلسطيني - الصهيوني صراع على الارض الفلسطينية ، واخيرا لا بد من القول بان هجرة المعلمين هي هجرة بالغة الخطورة ، ذلك ان النخبة من الادمغة هي التي يفترض ان يكون لها دور حاسم في التوجيه والقيادة في المواجهة مع الاحتلال الاسرائيلي ، وتبقى ايجابية واحدة لا تقاس بالسلبات المتعددة هي ارسال المهاجرين الاموال الى ذويهم .

ان «وقف نزيف الهجرة الى الخارج يساهم في حسم الصراع الديمغرافي لصالح الشعب الفلسطيني ، وذلك من خلال المحافظة على هوية الارض والمكان معا ، وبالتالي لصالح القضية الفلسطينية برمتها» . هذا صحيح بيد ان الكاتبين لم يشارا الى الوسائل الكفيلة بايقاف هذا النزف . واولى الناس بالصمود هم النخبة

الثقفة التي بمقدورها خلق المعطيات للبقاء ومقاومة النزوح نحو الهجرة، كما ان على الجهات المسؤولة في الخارج تقديم مستلزمات الصمود.

ينتقل المؤلفان في الفصل الثاني من التصميم الى التخصيص، فيتناولان بالتحديد قرية ترمسعيا مبتدئين بلمحة تاريخية عنها من حيث التسمية والاستيطان القديم منها وصولا الى الوقت الحاضر. ويظهر العرض مشاركة اهل القرية في الانتفاضات والثورات الفلسطينية خلال مرحلة الانتداب وفي المشاركة في الانتفاضة الحالية بوجه الاحتلال الاسرائيلي. ويتميز هذا الفصل والفصول اللاحقة بالاعتداد الشخصي في الرجوع الى مصادر شخصية من اهالي القرية، وفي ابراز المعلومات منهم بلهجتهم العامة.

ومن اللمحة التاريخية الى اللمحة الجغرافية حيث يظهر موقع القرية ومساحتها وحدودها بالاضافة الى تضاريسها ومناخها ومياهها. وعلى الصعيد الاقتصادي، فسكان القرية يعتمدون بشكل اساسي على الزراعة وتربية المواشي. على ان الاهتمام بالزراعة قد قل شأنه بسبب الهجرة. اما التجارة فمقصورة على الجانب الداخلي، وبشأن الصناعة فهي منحصرة بصناعة الاغذية. وفيما يتعلق بالعمل الوظيفي فان العاملين يتوزعون على دوائر التربية والتعليم والصحة والاراضي والاقواف الاسلامية. واغلب العاطلين عن العمل هم من المتقاعدين أو المسنين. ولقد افادت القرية مادياً من اموال المهاجرين من بنيتها نظراً لوفرة عددهم.

وفي نطاق التراخي الاجتماعية يتضح مدى التطور الذي لحدث في القرية، وتشير نسبة عدد خريجي الجامعات والمعاهد الثانوية الى الاقبال المتزايد على العلم، والى ارتفاع عدد المتعلمين قياسا بعدد السكان. وما هو ملفت للنظر ان اهالي القرية اعتمدوا على انفسهم في تطوير قريتهم، فقاموا ببناء جناح في مدرسة الذكور وجزء من مدرسة البنات، وبناء مقر جمعية الريف للتنمية الاجتماعية، وساهموا في تعبيد وفتح شوارع القرية. بالاضافة الى انشاء روضة اطفال ومشغل خياطة وصف مكافحة الامية للبنات. ومن ناحية صحية فقد شيد المجلس البلدي مقراً لعيادة صحية ومركزا لرعاية الامومة والطفولة.

وعلى صعيد الحياة الاجتماعية لا يزال الاب في الاسرة يتمتع بالسيطرة التامة على افراد أسرته، على ان هذه السيطرة قد اخذت تخف نسبياً، والمرأة في القرية تشارك الرجل في اعماله الزراعية اضافة الى عملها في البيت، وفي حال هجرة زوجها تتحمل وحدها غالباً كل المسؤوليات الخاصة والعامة.

وعلى مستوى القرية بشكل عام فان مظاهر التماسك الاجتماعي تبدو واضحة في ما يسود حمائل القرية من مجاملات في مناسبات الاتراح والافراح. كما ان اهالي القرية يرتبطون بعلاقات صداقة مع اهالي القرى المجاورة وبشاركونهم في افراحهم واتراحهم ويشترك الجميع في النضال الوطني.

ان التماسك الاجتماعي في ترمسعيا قد افشل محاولات الاحتلال الاسرائيلي في تغذية الصراعات بين «الحمائل» التي يتألف منها سكان القرية، وهذا عائد الى وعي ابناء القرية، وحبذا لو اشار المؤلفان بومضة سريعة الى القرى المجاورة واطهرا اوجه التشابه او الاختلاف فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية.

يتناول المؤلفان في الفصل الثالث مراحل الهجرة الاربع من قرية ترمسعيا، ويستعرضان ظاهرة الهجرة في المنطقة الممتدة من حدود بيت لحم جنوباً الى الحدود الشمالية للواء رام الله، حيث تشكل الهجرة

«مشكلة متعددة الجوانب سكانياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً». أما بالنسبة لقرية ترمسيعا فهناك المهاجرون من هذه القرية الى مدن وقرى قريبة من الضفة الغربية، وهناك المهاجرون الى الاقطار الاجنبية والذين يزيد عددهم عن عدد المقيمين في القرية. وثمة مهاجرون الى بلدان عربية بينها الاردن والسعودية والكويت.

كانت الهجرة طوال العهد العثماني هجرة داخلية متواضعة في ترمسيعا كبقية الولايات العثمانية، اما الباعث عليها فكان البحث عن فرص افضل للعمل او الفرار من التجنيد او العجز عن دفع الضرائب، ولم تعرف هذه القرية الهجرة الخارجية الا في اواخر العهد العثماني، ولقد تشابهت اسباب هذه الهجرة مع اسباب الهجرة الداخلية كما انها توافقت في هذه المرحلة مع هجرات السوريين واللبنانيين والفلسطينيين. وبعد نهاية الحرب العالمية الاولى اخذ أبناء ترمسيعا الذين هاجروا يعودون لقربتهم ويستثمرون ثروتهم في شراء الاراضي. وقد اغرى ثراؤهم ابناء قربتهم للهجرة في أوائل عهد الاحتلال البريطاني. وفي عهد الاحتلال هذا، كانت عوامل جديدة وراء الهجرة، كان أبرزها الدمار الاقتصادي الذي ألم بالقرية نتيجة للحرب اضافة الى عامل الغيرة، والجدير ذكره ان عدد المهاجرين ارتفع في هذه المرحلة وبعضهم عاد الى قربته والبعض استقر في المهجر.

استمرت الهجرة بالعهد الاردني الى الخارج بدوافع اقتصادية، وبما سهل عملية الهجرة افتتاح مكاتب للسياحة والسفر في المدن القريبة. على ان ارتباط المهاجرين بقربتهم من خلال زياراتهم لها بقي مستمراً دون انقطاع حتى عام ١٩٦٧. فبعد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة نتج «وضع جديد بالنسبة للفلسطينيين في الاقطار العربية او الاجنبية، اذ ان المهاجرين منهم الى هذه الاقطار قد تحولوا الى مهاجرين بفعل الاحتلال الذي سلهم حق العودة الى عائلاتهم واسرهم ووطنهم». كان ذلك نتيجة للاحصاء الذي اجرته سلطات الحكم العسكري الاسرائيلي في شهر آب ١٩٦٧، حيث اصدرت بطاقة هوية للمقيمين في الارض المحتلة ساعة الاحصاء. وبسبب ذلك حرم من كان خارج القرية من حق العودة اليها.

وفي ظل الاحتلال الاسرائيلي اخذت معدلات الهجرة السنوية بالارتفاع، وذلك عائد الى سوء الاوضاع الاقتصادية وتفاقم الاوضاع الامنية، وامكانية دخول الولايات المتحدة بسهولة أكبر بكثير مما كان عليه الوضع قبل الاحتلال الاسرائيلي، اضافة الى سياسة التهجير الاسرائيلية. ومنتهى الخطورة «ازدياد الهجرة بعد انفجار الانتفاضة ووصولها ارقاماً قياسية»، خاصة وان كثيرين من المهاجرين فقدوا هويتهم نتيجة للقوانين الاسرائيلية. لايد من الاشارة الى الدقة والموضوعية اللتين تتميز بهما الدراسة الغنية بالجداول والاحصاءات والمصادر الشخصية الميدانية، الامر الذي يعطيهما قيمة واهمية، حيث يظهر عمق المساسة في غياب الزوج القسري عن زوجته، والابن عن اسرته، والاخ عن اخيه ناهيك بغياب الجميع عن الارض. ولئن كانت هناك اغراءات تدفع البعض للهجرة، فان هناك تحديات تواجه المهاجر، هذان الامران هما موضوع الفصل الرابع. ومن التحديات إيجاد العمل المناسب، اذ غالباً ما يفتقر المهاجر الى المال، فكان عليه ان يشق طريقه بصعوبة. ولكن مهاجر الخمسينات لم يواجه من الصعوبات التي واجهها مهاجر

العشرينات لوجود عدد أكبر من المهاجرين الفلسطينيين، ومنهم من كان قد شق طريقه وفتح محلاً تجارياً فكان يقدم المساعدة لهؤلاء القادمين الجدد...». ومن الاعمال التي كان يتعاطاها المهاجرون الجدد تجارة «الكشة» وتجارة العقارات، والعمل في الشركات ودوائر الحكومة، والعمل مرهق للغاية في بلاد المهجر. ومن التحديات التي واجهت المهاجر عدم معرفته للغة الاجنبية، فحتى اواسط الخمسينات كان المهاجرون اميين او شبه اميين، ويبقى التحدي الكبير في جهل ابناء المهاجرين للغة آبائهم القومية، وصعوبة الامل في التغلب على ذلك.

ويواجه المهاجرون ايضاً افتقار الامن حيث تكثر في بعض المقتربات اعمال السرقة والقتل، والكوارث الطبيعية، والثورات والانقلابات العسكرية، وهي امور قد تدفع البعض للانتقال الى مهجر آخر. كذلك يجد المهاجر تبايناً كبيراً في الثقافة، وبعض المهاجرين يتقبل ما يعتبره صالحاً دون ان يضحى بثقافته وشخصيته. والبعض الآخر يتقبل الثقافة الجديدة كلها الغث منها والسمين، ويتنكر لقوميته وثقافته الاصيلة.

وتبقى من التحديات العلاقات الاجتماعية في المجتمع الجديد. فالمهاجر عليه ان يتعامل مع ابناء بلده وهو بالضرورة محتاج لمساعدتهم، وعليه ان يتعامل مع الاجانب. والمهاجرون غالباً يحافظون على التقاليد الاجتماعية، لا سيما في الافراح والاتراح والشؤون الدينية، ويشارك ابناء القرى بعضهم البعض في معظم هذه المناسبات. ويتسع نطاق المشاركة عربياً في الشؤون السياسية وذلك في حضور ندوات والمشاركة في مظاهرات. ومن الملفت للنظر انشاء ابناء القرية الواحدة جمعية خاصة بهم، اما العلاقات الاجتماعية بين المهاجرين العرب والاجانب فتختلف من بلد لآخر من بلدان المهجر. فالعلاقات مثلاً في الولايات المتحدة مع الاجانب مقتصرة على مجال العمل، بينما هي في امريكا الجنوبية فهناك علاقات اجتماعية اوسع نطاقاً.

على ان العربي كان في منظور الاجانب، انساناً متخلفاً، وغالباً ما يقرنونه بالجمل، وأكثر الاجانب في المهاجر لم يكن يسمع او يعرف شيئاً عن فلسطين وقضية شعبها، لكن الانتفاضة اعادت فلسطين وقضية شعبها الى مسمع كل فرد في شتى بلدان العالم، وفي اعتقادي - كمقيم مؤقتاً في الولايات المتحدة - ان هناك تقصيراً فاضحاً على الصعيدين العربي والفلسطيني بشأن القضية العربية عامة والفلسطينية خاصة، اذ لا يكفي ان تقام لقاءات وندوات في مناسبات معينة بل يجب ان يكون هناك تنسيق وعمل دائم ومستمر بين مختلف العرب المهاجرين على غرار اللوبي الصهيوني بحيث يمارس اللوبي العربي الوسائل عينها التي يمارسها اللوبي الصهيوني لدعم الحق العربي الفلسطيني، ذلك ان الاقتصار على جمعيات القرى، بالشكل الراهن، ومع اهميته، لا يعطي النتائج المرجوة، وازيد فأقول ان على الثورة الفلسطينية ان تعبر هذا الامر اهتماماً، وذلك من خلال انشاء لجنة مركزية متنقلة تعمل لتكوين لوبي فلسطيني يأخذ في التوسع لصيبح لوبياً عربياً شاملاً كل المهاجرين.

اما الاغراءات الحافزة للهجرة فتتمثل في الفرص المتاحة للمهاجرين في المهجر، بالمقارنة معها في الوطن، وأبرزها مايتعلق بالثروة وبالحرية الشخصية والتقدم العلمي ومزايا الادارة واغراءات وسائل اللهب

المختلفة. وبعض المهاجرين يحقق الثروة التي كان يحلم بها والبعض يفشل في تحقيق ما كان يصبو اليه. يبقى ان نقول ان هذه الدوافع للهجرة تترك أثراً بالغة السلبية والخطورة، ومن اولى الاهتمامات القومية والضرورية إيجاد الوسائل الملموسة والسريعة الكفيلة بإيقاف هذا النزف البشري والابقاء على الالتصاق بالأرض، لان في ذلك وحده افشال المشروع الصهيوني، وكم كنت اتمنى على المؤلفين - كونها من الصامدين، ومن المطلعين على احوال القيمين والمهاجرين - ان يعيروا هذا الشأن اهتماماً ويقدموا حلولاً واقعية ممكنة ومتاحة.

يتعرض المؤلفان في الفصل الخامس والآخر لنتائج الهجرة من قرية ترمسعيا، وقد لا تختلف هذه النتائج عن نتائج القرى الفلسطينية الاخرى. ولقد تنوعت نتائج الهجرة على صعيد الفرد أو الجماعة. فمن ناحية ثقافية «تعكس اغاني (الترويدة) النسائية بشكل خاص الالم والمعاناة النفسية للمرأة نتيجة غياب الزوج أو الابن...». وشواهد هذه (الترويدات) مذكورة بوفرة. ويبقى الامل في عودة المهاجر مستمرا وذلك خلال بعض الممارسات حول هذا الموضوع. وتبدو ابلغ صور الفرحة حين عودة المهاجر، وخصوصا اذا كان من ذوي الجاه والثروة، وتعكس الاغاني الشعبية الارتياح والتبجيل للعائد الثري، كما تعكس الاغاني الشعبية رجولة العائد دون ثروة وترتكز على لعنة الغربة.

ومع اغراءات الهجرة والدوافع اليها فان سلبيات الهجرة ومعاناة المهاجرين من جهة وحب الأرض والالتصاق بها من نزيف الهجرة، وستظل الاغاني الشعبية تفعل فعلها في النفوس للحد من الهجرة، وسيظل مغني ظريف الطول يعني:

يا ظريف الطول وقفْ تا قولك رايح الغربة وبلادك أحسن لك
خايف يا المحبوب تروح وتملك وتعاشر الغير وتنسى بلادنا
«وستظل مقولات الزوجة والام والشيخ في القرية ترن في آذان المهاجرين والمقيمين معلنة الضرر الواقع على مجتمع القرية وعلى نساها واطفالها وارضها وشيوخها». وفي ذلك عامل لوقف النزف. ومن نتائج الهجرة تحمل المرأة التي هاجر زوجها المسؤوليات المنوطة بالرجل، وبرزت هذه المسؤوليات ما يتعلق، بالعمل وبتربية الاطفال والقيام بالدور الاجتماعي في مجال العلاقات مع الاخرين. وهذا يعني تحرر المرأة في القرية التي يهاجر فيها الزوج اكثر من المرأة في القرى التي لا يهاجر فيها الأزواج. ولكن هذه الحرية لم تأت عن طريق التطور التدريجي، بل جاءت نتيجة لعامل الهجرة اي غياب طرف اساسي من المجتمع...».

وتنتج عن الهجرة زواج عدد كبير من ابناء ترمسعيا من نساء اجنبيات، وبذلك انخفضت نسبة الجنس (الذكور الى الاناث) ويعني ذلك ارتفاع عدد العوانس والارامل والزوجات المقيمت بيننا ازواجهن في المهجر.

وعلى صعيد اقتصادي فان قلة قليلة من ابناء القرية من الذين اثروا عادوا اليها، والجدير ذكره ان الاموال الواردة من المهاجر توظف في بناء بيوت جديدة في القرية او في المدن القريبة منها إضافة الى الاحتفاظ بمدخرات ذهبية ووضع الارصدة في المصارف الاجنبية، ومن النتائج السلبية التحول عن الاقتصاد

الزراعي التقليدي الى اقتصاد استهلاكي . وتظهر العقلية الاستهلاكية في حياة الترف والرفاه التي يعيشها معظم ابناء القرية .

خلاصة القول ان اموال المهاجرين ادت الى تحسن الاحوال المعيشية في القرية ، لكن سوء استثمار الاموال تنتج عنه اضرار فادحة ، وخصوصا ان عقلية الانتاج مازالت بعيدة عن ثقافة مجتمع القرية . اذ لم يتم حتى الآن سوى اقامة مشروع انتاجي واحد من اموال المهاجرين . «وذلك على الرغم من الامكانات الهائلة في اقامة عشرات المشاريع الانتاجية باستثمار جزء من اموال المهاجرين في المهجر او من اموال ذويهم في القرية نفسها» .

وعلى صعيد ديمغرافي ، فان معدل المواليد اخذ بالانخفاض بسبب هجرة الشباب ، وفيما يتعلق ببنية الجنس فان عدد الذكور في الفئات العمرية فوق سن ١٥ سنة أقل من عدد الاناث . وتبقى اخطر نتائج الهجرة النتائج السياسية . فالهجرة تمثل «مظهرا من مظاهر الصراع مع الاحتلال . فيحاول الفلسطينيون استثمارها لتحقيق اهدافهم المختلفة ، ويحاول الاحتلال استثمارها لتفريغ الارض من سكانها ، واقامة المستوطنات على هذه الارض ، واسكانها عن طريق هجرة يهودية معاكسة» ، والمهاجرون من القرية يواجهون سياسة التهجير الاسرائيلية بعدة وسائل ، ابرزها تعميق ارتباطهم بالقرية والوطن ، وذلك من خلال التمسك بحق الزيارة من اجل الزواج او الحج او تشييع جثمان قريب او تجديد بطاقة المرور ليحافظ المهاجر على حقه في العودة والاقامة متى رغب في ذلك ، لمن كان يحمل بطاقة الهوية من بين المهاجرين . وبالمقابل فان سلطات الاحتلال تقوم بوضع شتى العرائل امام المهاجرين الراغبين بالعودة النهائية او الراغبين في القيام بزيارة . ان المعركة مستمرة بين المهاجرين وسلطات الاحتلال ، ذلك ان التعارض بين الجانبين مبدأي وجوهري وكل يسعى لتحقيق هدفه .

لا بد من القول اخيراً ان هذا الكتاب ذو اهمية بالغة الخطورة بالنسبة للصراع العربي - الاسرائيلي - فهو يدق ناقوس الخطر الناجم عن تزيف المهاجرين المستمر والذي يقابله هجرة يهودية مستمرة ، اذ لا يمكن حسم الصراع دون الارض ، من هنا كانت اسرائيل تعمل بشتى السبل لتفريغ الارض من سكانها العرب واحلال مستوطنين يهود مكانهم . ان طرق الكتاب لهذا الموضوع ، عدا عن كونه جديداً ، مهم جداً وهذا ما حدا بالمؤلفين لولوجه .

ويتميز الكتاب بوفرة الاحصاءات العلمية والجداول ، والمقارنات ، والاستنتاجات وبالرجوع الى مصادر ميدانية إن في القرية او في المهاجر ، وتدوين اقوال الاشخاص الذين أخذت منهم المعلومات بالكلمات نفسها وباللغة العامية ، حفاظا على الدقة والموضوعية ، بالاضافة الى الاغاني الشعبية التي تعكس وجدان الافراد والجماعة بشأن الهجرة وآثارها .

ولئن كان التخصيص لشأن المهاجرة قد تمحور في الغالب على قرية ترمسعيا ، فان ذلك لا يقلل من شأن الكتاب ، لان هذا الشأن مماثل لكل شأن بأية قرية او مدينة فلسطينية ، وما لا شك فيه ان المؤلفين قد بذلوا جهودا كبيرة في اعداد هذا الكتاب واغنياه بالمعلومات الدقيقة والاحصاءات الوافرة فعدا بحق فتحاً جديداً في ميدان التأليف يستحق كل التقدير .



التقرير الاول

من سوريا وفلسطين والاردن ولبنان وفرنسا
والمانيا وبلجيكا، وشملت ابحاث الباحثين
الحديث عن تاريخ المنطقة (جبل حوران) منذ
عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحاضر، ففي
الجلسة العلمية الاولى عُرض بحث هام عن آثار
العصور التي تعود الى الفترات القبتاريخية في
سورية الجنوبية للدكتور سلطان محيسن من
جامعة دمشق استعرض فيه أعمال التقيب
الاثري والدراسات الميدانية في هذا المجال،
وخلص الى ان المنطقة الجنوبية من سورية
الحالية وفلسطين والاردن قد شهدت ظهور
الحضارات الحجرية الهامة مثل الحضارة
النيطوفية والحضارة الغسولية وغيرها، وقدم
شواهد على ما ذهب اليه. وجاء البحث الثاني
للدكتور عادل عبد السلام من جامعة دمشق
ايضا، حول الطبيعة الجغرافية لمحافظة
السويداء وجبل حوران عموماً، تحدث فيه عن
الانديفاعات البركانية وأنواع الصخور والمياه
والانهار.. الخ وربط المحاضر الطبيعة الجغرافية
بنشوء الحضارة في المنطقة وخلص الى القول إن
الدراسات الجغرافية تساعد في أعمال الباحثين
والمؤرخين والمنقبين الاثريين وتسهل مهامهم. أما
الدكتورة ميلغا زيدن من الجامعة الامريكية
ببيروت فتحدثت عن مدينة «بصرى في حوران»
مركزة على أعمالها في بصرى، كما تحدثت عن
التعدييات على التراث الحضاري في مناطق
اخرى مثل كامد اللوز بلبنان، وحول «الجنوب

الندوة الدولية لتاريخ واثار محافظة السويداء

السويداء

٢٩ - ٣١ تشرين أول ١٩٩٠

● د. شوقي شعث

درجت وزارة الثقافة وبنيتها المديرية العامة
للآثار والمتاحف على عقد ندوات دولية تركز
لتاريخ واثار محافظة من المحافظات السورية،
فكانت ندوة الدراسات الاوغاريتية التي عالجت
تاريخ مدينة اوغاريت واثارها ومحافظة اللاذقية
بوجه عام، وندوة آثار محافظة الرقة، وندوة آثار
محافظة دير الزور «تاريخ واثار محافظة
السويداء». وستتبعها ولا شك ندوات اخرى
تعالج تاريخ واثار مدن سورية اخرى.

جاءت ندوة السويداء بعد حفل الافتتاح في
خمس جلسات علمية بدأت يوم الاثنين وانتهت
يوم الاربعاء. وقد شارك في هذه الندوة نحو
ثلاثين عالماً وباحثاً من القطر العربي السوري
والاقطار العربية والاجنبية. فقد شارك باحثون

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

العلاقات الاقتصادية والثقافية بين سوريا وإيطاليا، ومن الجدير بالذكر هنا أن صناعة الأدوات المنزلية الاتروورية من البرونز كانت مشهورة جدا منذ أواخر القرن الخامس الى القرن الرابع قبل الميلاد، وهناك احتمال من أن الاواني التي عثر عليها في حوران قد وصلت الى شمال جبل حوران عن طريق الشحن في نهر العاصي باتجاه سهل حمص جنوبا، ثم جرى نقلها براً الى دمشق، ومن هناك الى الاسواق المزدهرة في أراضي حوران الخصبة.

وحول معبد بلدة سليم في جبل العرب تحدث الدكتور كلاوس فرايبيرغر. قائلاً ان غياب النقوش الكتابية الداخلية في معبد سليم جعلنا نعتمد على اللقى الاثرية لتتعرف على الرب الذي اقيم له هذا المعبد، ومن تلك اللقى رأس تمثال منقوش ومنفذ بقياس يفوق القياس الطبيعي، ومن خلال ملامح التمثال التعبيرية يمكننا القول انه ربما كان للرب «بعلشمين» سيد السماء، فقد كانت عبادة هذا الرب منتشرة بكثرة في العصرين الهلنستي والروماني في مناطق سوريا وفلسطين، وبعد مناقشات ومقارنات ينتقل الباحث الى السؤال: من امر ببناء هذا المعبد؟ ومن كلف ببنائه؟ ويجيب أن ذلك غير معروف بدقة. ولكنه يتابع قائلاً إن زخارف البناء تبرز صلة وثيقة بين النصب التذكاري في سليم والمعابد الأغسطية العائدة لعبادة القيصر، بغض النظر عن أمر ببنائه أو كلف به. وحول «العلاقات التجارية بين شبه الجزيرة العربية وجنوب سوريا قبل الاسلام»، تحدث الاستاذ وضاح محي الدين من المتحف الوطني بحلب

السوري في عصر البرونز الوسيط. وقدم الباحث السوري ميشيل مقدسي شواهد من تنقيبات أثرية قام بها مدلا على أهمية المنطقة في العصر البرونزي الوسيط. كنقطة وصل بين حوضي العاصي والفرات الاوسط من جهة وفلسطين من جهة أخرى، وهي عمليا نقطة العبور الاسهل للقوافل التجارية بين مدن الشمال: ماري (تل حريري اليوم) ترقا (العشارة)، توتول (تل البيعة) حماه قطنه (المشرفة اليوم) وقادش (تل النبي مند)، ومدن الجنوب: حاصور (تل القدح)، مجدو (تل المتسلم)، وأريحا. وحول «مسائل العمارة في عصر البرونز الحديث في سورية الجنوبية» قدم السيد فرنك بريمر بحثاً قدم فيه شواهد هامة.

في الجلسة العلمية الثقافية تحدث الاستاذ موريس سارتر في ورقته المعنونة «انتجاع الكلا والاقتصاد الرعوي في سورية الجنوبية» عن حياة القرى وعن حياة الرعاة الصقويين (نسبة الى الصفا بجبل حوران) وكيف كانوا ينتقلون من مكان الى آخر طلباً للكلا لاطعام قطعانهم من الغنم والماعز كما تحدث عن طبيعة العلاقة بين سكان القرى والرعاة وكيف جرى التعايش فيما بينهم.

أما الدكتور توماس فيبر من المعهد الالمانى للأثار بالاردن فتحدث عن بعض القطع البرونزية الاتروورية التي عثر عليها في حوران مصنوعة من البرونز الذي جرى استيراده من اترووريا بإيطاليا، وقام بمقارنتها مع قطع أخرى مصنوعة من البرونز الاترووري ومحفوظة في متاحف نيويورك ودمشق، وبالطبع يشير هذا الى

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

الاسلام اما بعد ذلك فالامر مختلف).

اما الجلسة العلمية الثالثة فكان اول المتحدثين فيها الدكتور عدنان بني (شيخ الأثاريين السوريين) وهو من المديرية العامة للآثار والمتاحف، وتحدث عن التنقيبات الأثرية في ذاكير الواقعة الى الشرق من هضبة اللجاة، تلك التنقيبات التي قام بدارتها، فذكر ان تلك كانت بدافع اكتشاف صدفة لمنحوتات هامة محفوظة اليوم بمتحف السويداء. وعند الحديث عن النتائج يذكر انه تم اكتشاف باحة معبد وثني روماني ظلت بعض خرائط قائمة حتى مطلع القرن العشرين ثم اُخفت ولم يبق منها الا اجزاء متفرقة من الزخارف البارزيتية وبقايا تقدمات وبعض السرج والكسر الفخارية. الا ان اهم اللقى الأثرية كان رأسا لانسان يمثل رجلا كهلا قد يعود الى فترة الاسرة الانطوفية، على حد قول الباحث، ويضيف ان هذا التمثال لا يعود الى امبراطور بل ربما يعود الى أحد حكام الولاية العربية السابقين لفترة بناء المعبد أو المعاصرين له. وكان البحث الثاني للاستاذ وحيد خياطة من مديرية آثار حلب بعنوان «اصل العرب الانباط في سورية» فذكر الاصل اللغوي لكلمة النبط والانباط ومعناها وركز على ان هؤلاء أي الانباط عرب من سوريا، وذكر ورود اسم العرب في النصوص الآشورية. ونجده يعتمد على رأي للدكتور هورست كلنفل الذي يقول ان موطن العرب هو سورية ونظراً لصعوبة التوغل في بلاد آشور وبابل وفارس فقد توجهوا جنوباً نحو الصحراء، ويضيف ان تحرش العرب بالآشوريين منذ مطلع الالف الاول قبل الميلاد

مستعرضا التبادل التجاري بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ذاكرا اهم مراكز تلك التجارة، كما تحدث عن الاسواق التي كان العرب يتبادلون فيها سلعهم ومنها اسواق: ذي المحبة وذي المجاز ودومة الجندل وبصرى واذرعات، ثم ينتقل إلى الحديث عن أسباب ازدهار بصرى في حوران ومكة في شبه الجزيرة العربية، وركز على أن اهم أسباب النهوض التجاري بمكة كان «نظام الايلاف»، هذا الى جانب تحدثه عن البضائع التي كان العرب يتاجرون فيها، فالى بصرى كانت تصل كثير من البضائع منها: الحرير، خشب الصندل والتوابل والذهب والاحجار الكريمة والعاج والعطور، ومن بصرى كان الزيت والقمح والخمر والاسلحة والمنسوجات والزجاج واللحوم المقددة تنقل الى مكة وغيرها من بلدان شبه الجزيرة العربية.

وعن الخصائص المحلية للعمارة القديمة في جبل العرب، تحدث المهندس منهل وهب عن أسباب نشوء تلك العمارة وسكن الانسان القديم في سورية وفي جبل العرب، وعن العمارة الشرقية القديمة والعمارة الهلينستية ذكر انه في الفترة الاخيرة سادت ثلاثة اساليب معمارية هي: الاسلوب الاغريقي، والاسلوب المختلط بين الاغريقي والشرقي النبطي، اما الاسلوب الثالث فكان شرقيا بحتا، واستعرض بعد ذلك تطور العمارة الرومانية والعمارة البيزنطية وفي الختام تحدث عن العمارة العربية الاسلامية فذكر ان العرب المسلمين لم ينقلوا معهم فنا متميزا وانما شجعوا ما هو سائد لذلك لم يتركوا آثارا مميزة في هذه المنطقة (لعل ذلك ينطبق على صدر



وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

الهلنستيين في سوريا وفلسطين.. ولكن عندما تحولت طرق التجارة الدولية عن بلادهم حاولوا الالتفاف على ذلك بنقل عاصمتهم الى بصرى الا ان ذلك لم يفدهم حيث قضى غالرومان على دولتهم عام ١٠٦ م، وبذلك انتهت البتراء كما انتهت غيرها من مدن القوافل لاحقا مثل تدمر ودورا اوربوس (صالحه الفرات) وغيرها.

اما الدكتور جوت شحادة من المتحف الوطني بدمشق فقدم ورقة بعنوان «السويداء في ذاكرة التاريخ» من خلال معروضاتها في المتحف الوطني بدمشق، تحدث في ورقته (بحثه) عن أهم القطع الاثرية التي كان مصدرها محافظة السويداء كالفسيفساء والبرونز والزجاج والحلي والتمائيل البازلتية، وان دل هذا على شيء فانما يدل على ازدهار منطقة السويداء في عهد الامبراطور فيليب العربي، وفي عهد الاسرة السورية الحمصية التي حكمت قبله في روما اعتبارا من نهاية القرن الثاني الميلادي، وذلك نظرا لكثرة المعابد المتناثرة وتنوعها، كمعابد: القنوت، شهبأ، عتيل، مردوك، سليم، المجيدل، دير اللبن، الهيث وشقا والجنيئة وصرخد. بعدها انتقل الى الحديث عن المقتنيات البازلتية المودعة بالمتحف الوطني بدمشق وعن أعمال الزجاج والقمار والبرونز ويضيف أنه اذا القينا نظرة على المكتشف من الحلي في جنوب سورية فإننا ندرك مدى اهتمام السوريات في العصر الروماني بالعقود والاقراط والخواتم والاساور والمشابك.

وحول الاستكشافات والتنقيبات الاثرية في سورية الجنوبية تحدث جان ماري درنزره حيث

لدليل على وجودهم في بادية الشام منذ عصور سحيقة ويخلص الى القول ان للانباط تاريخاً قديماً في الهلال الخصيب، الا انهم برزوا على سطح الاحداث عندما استوطنوا في سورية الجنوبية واقاموا دولتهم في البتراء وتحكموا في طرق التجارة الدولية، ويختم محاضرته «أن اسماء الانباط عربية مثل (حب وخالد وحنان وحسن وذؤيب وشبرمة...) فهل نستغرب بعد كل هذا قول ابن عباس: «نحن معاشر قريش من النبط». وكان البحث الثالث للدكتور شوقي شعث من المتحف الوطني بحلب حول: «الاقتصاد ودوره في بناء الحياة السياسية للانباط» فبعد عرض لأهمية الاقتصاد بشكل عام انتقل الى الحديث عن التجارة الدولية النبطية في مرحلتها. الاولى يوم كان الانباط نقله لها، وثانيهما عندما انتقلوا الى أن يكونوا سادة تلك التجارة، لقد ارتد الرخاء الاقتصادي الذي توفر من التجارة الى سائر مناحي حياة الانباط الاخرى مثل الحياة الزراعية والحياة الصناعية، ثم انتقل الى المحطات التجارية، وعدد أهمها وهي: غزة، عبده، الخلصة، سبيطة وعلها في منطقة بئر السبع بفلسطين، وفي سوريا ذكر بصرى وصلخد وأم الجمال وخربة السمره. كما تحدث عن مواكبة النشاط الزراعي للنشاط التجاري وكيف أن المنحدرات العربية لجبل حوران التي ضمت أهم المدن النبطية كانت من أخصب البقاع في الدولة النبطية نظرا لتوفر المياه والتربة الصالحة للزراعة. وبسبب ذلك الازدهار التجاري دخل الانباط في منافسة قوية مع جيرانهم البطالمة في مصر والرومان وقبلهم مع

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

العربي، تحدث فيه عن نشأة الامبراطورية وعن أصله وعن البيئة التي تربي فيها، وعن الانجازات التي تمت في عهده وعن الامتيازات التي منحها لمدينة شهباء والمناطق العربية الاخرى، كما تحدث عن النهج الذي اتبعه فيليب في الحكم وكيف اعتمد على مجلس الشيوخ في حكم الامبراطورية. ولكن القدر لم يمهل فيليب العربي فانتهى بنفس الطريقة التي اتي بها أي بثورة الجند وتمردهم. أما الاستاذ فرانسوا فيلنوف فقدم بحثاً بعنوان: الاقتصاد والحياة الاجتماعية في قرى منطقة السويداء - قنوت في العصر الروماني من القرن الاول حتى القرن الرابع الميلادي، وبدأ بالقول إنه سيتناول في بحثه تجربة شمولية حول المعطيات التي حصل عليها منذ خمسة عشر عاماً عن طريق اللقى الاثرية فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية لقرى جبل العرب. وهذه المعلومات تضاف الى المعلومات الكتابية، خاصة الكتابات اليونانية التي تشير الى وجود العديد من البنى المشتركة المحلية في القرى التي جرت دراستها، مثل بيوت سبع مثلاً في حقل الهندسة المعمارية المكتظة وشبكات الطرق والازقة التي تخدم العديد من البيوت، ويتحدث عن العلاقات بين الحضر والبدو وأن هناك قطعة بين الطرفين، ويضرب مثلاً على ذلك موقع قرية الديانة. فالسكان الذين تمركزوا في ذلك الموقع بين القرن الاول والثالث الميلادي كانوا بدواً الا أنهم قاموا بتقليد الاشكال الهندسية المعمارية للقرويين.

وحول «زخارف سواكف الابواب في سورية الجنوبية»، تحدثت الباحثة جاكلين دانزر قائلة

استعرض اعمال الرحالة الاوائل مثل «سيتزين» وبوركهاات الذين كانوا مدفوعين برغبة الاكتشاف. وكان أولئك الرحالة يدونون كل ما تقع عليه اعيينهم من وصف للأثار والاعدات والتقاليد والعمارة، ثم انتقل إلى اعمال رحلة اكثر اختصاصاً في التاريخ القديم وعلم الكتابات والعمارة والفنون التشكيلية، وكان مهمهم جمع مجموعة منسجمة من الوثائق. ثم تأتي المرحلة الثالثة من العمل وهي التنقيبات الاثرية. ويخلص الباحث الى القول إن النتائج التاريخية التي بنيت على أعمال التنقيب الاثري تؤدي الى تحديد ثقافة اقليمية أصيلة تظهر في تقنيات جمع المياه وخرزنها وتنقية الارض من الحجارة وتقسيم المساحة وكيان الملكية العائلية وتظهر هذه الاصلة الاقليمية أيضاً في العمارة البارزنتية وفي الزخرفة المعمارية وفي نحت التماثيل.

ويختتم الدكتور علي أبو عساف المدير العام للأثار الجلسة العلمية الثالثة ببحثه المعنون «دراسة في الكتابات الصفوية»؛ تحدث فيه عن جهود العلماء الاجانب في الماضي في توثيق تلك النصوص الصفوية المنتشرة بكثرة في جبل العرب وعن موضوعاتها ومميزاتها وقارنها باللغات السامية الاخرى في المنطقة، ويسعى الباحث بدراسته هذه الى اضافة معلومات جديدة الى المعلومات التي توصل اليها الباحثون العرب والاجانب. ومما هو جدير بالذكر أن منطقة الصفاة تعج بالكثير من تلك الكتابات.

كان أول المتحدثين في الجلسة العلمية الرابعة الاستاذ بشير زهدي من المتحف الوطني بدمشق وكان عنوان بحثه الامبراطور فيليب

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

وفي الجلسة العلمية الخامسة والاطيرة تحدث الدكتور ميخائيل ماينكه حول المساجد الجامعة في منطقة حوران مع التركيز على جوامع مدينة بصرى المدينة الهامة في حوران، والدكتور ماينكه عمل ويعمل في بصرى، مركزا أعماله على المعالم التاريخية الاسلامية، وقد عمل في حمام منجك وغيره من المعالم الاسلامية اثناء اقامته بدمشق كمدير لمعهد الاثار الالماني وحتى بعد نقله الى برلين كمدير لمتحف الفن الاسلامي.

وكان المحاضر الثاني في هذه الجلسة العلمية الدكتور محمود حريتانى الذي قام باستعراض وصفى لمجتمع جنوب بلاد الشام في القرن التاسع عشر من خلال مخطوط في يده، وركز على الحكم المصري ايام محمد علي باشا لبلاد الشام وعلى طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الشعب في جبل العرب والسلطة الحاكمة.

وعن الفترة نفسها، أي القرن التاسع عشر تحدث فندي أبو فخر عن جبل حوران في القرن التاسع عشر فاستعرض صلات سكان لبنان وبعض مناطق فلسطين وشمالى سوريا بجبل حوران والهجرات التي تمت، ثم استقرار بعض النازحين الى منطقة حوران وجبل العرب ثم انتقال الى النزاعات التي قامت بين هؤلاء والبدو من جهة وبين سكان الجبل وادارة محمد علي باشا من جهة أخرى، وعدد الخسائر التي لحقت بجيش محمد علي والاعمال الانتقامية التي قام بها الجيش المصري الى أن تم الصلح بين الطرفين.

وحول آثار قنوات في جبل العرب تحدث الاستاذ غالب عامر رئيس دائرة آثار محافظة

انه في سورية الجنوبية تشغل بالصور المنحوتة على حجارة المباني الاثرية كثيرا من المشاهد، منها مشاهد مصورة على أسفل السواكف ومشاهد مصورة على السطح الشاقولي للسواكف، الى جانب سواكف محورية حول جذع مركزي، وسواكف ذات صور متقاربة أو بتدرج خطوط.

اما الدكتور خليل مقداد فتحدث عن المسارح الاثرية في جنوب سوريا فذكر أن هناك عددا كبيرا من المسارح بلغت خمسين مسرحا في بلاد الشام منها في جنوب سوريا احد عشر مسرحا، في شهباء، قنوات، سبع، شقاء، السويداء، بصرى، سمرصور، درعا، والحمة، ثم انتقل الى الحديث عن بناء المسارح وعمارته وحجمها وتقسيماتها الداخلية وعدد طبقاتها وتوضعها وتأثرها بالمسرح الاغريقي والمسرح الروماني. ويشير في نهاية بحثه الى أن المسارح في جنوب سورية كانت تقوم بدور اضافي كمركز لاجتماعات دينية أو سياسية أو مجالس بلدية أو اجتماعات جماهيرية أو عسكرية.. الخ، إلا أن الوظيفة الاساسية تبقى الوظيفة التي بني من اجلها وهي العهود والتسلية والترفيه عن النفس.

وعن حمامات بصرى في العهد الروماني تحدث الاستاذ رياض مقداد فعرض لاهمية مدينة بصرى وتوفر المياه بمنطقتها مما ساعد على وجود عدة حمامات فيها، من أهمها الحمامات الجنوبية وحمامات السوق (خان الدبيس) وحمام العسكر الواقع في جانب المدينة الشمالي والذي كان مخصصا لحامية المدينة العسكرية.



وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

وشهبا، وجدير بالذكر هنا أن سكان تلك المناطق كانوا يعبرون عن ترحيبهم بالضيوف بكرمهم الاصيل وطف المعشر وحسن الاستقبال الذي كان دائما مصحوبا بالقهوة العربية والعنب والتفاح من انتاج اراضيهم الزراعية.

هذا عرض قد يكون شاملاً لوقائع الندوة العالمية حول آثار وتاريخ السويداء، والسؤال الذي يبرز الى الذهن هنا ما هي أهمية هذه الندوة والنتائج التي تحققت بعقدها، وللإجابة على هذا السؤال نقول: لقد ركزت الندوة على إبراز تاريخ محافظة السويداء وآثارها في الدرجة الأولى ثم تاريخ وأثار المنطقة وسورية الجنوبية بشكل عام، وقد تناولت الأبحاث طبيعة المنطقة الجغرافية ومصادر المياه والمناخ والتضاريس كل هذه المظاهر ساعدت على توطن الإنسان في المنطقة وبالتالي ظهور المدن والقرى وظهور العمارة السكنية والدينية ومن النحت وغيرها من الفنون، وقد ركزت بعض أبحاث الندوة أيضا على أهمية تلك العمارة وزخارفها وعلى بعض اللقى الأثرية وعقدت مقارنات كثيرة كان هدفها تعزيز الصلات الثقافية بين مناطق بلاد الشام والعالم، وتناولت بعض الأبحاث العرب الأنباط وأصولهم ودورهم التجاري والحضاري الذي لعبوه في جنوب بلاد الشام، كما ألقى الضوء على تاريخ المنطقة الحديث والدور الذي قام أبناؤها به في الثورات السورية التي كانت مقدمة للاستقلال الوطني، بوجه الأجمال كانت الندوة تظاهرة ثقافية كبيرة تفاعلت معها جماهير المثقفين والطلبة وعمامة الناس وكان حضورها متميزا قل أن نجده في ندوة أخرى.

السويداء سابقاً مستعرضاً الأعمال التي قام بها أثناء عمله التنقيبي والصياني في الموقع. وتعتبر آثار قنوات من الآثار الهامة جداً في القطر العربي السوري. وبين الاستاذ غالب أهمية الأعمال في قنوات أثناء زيارة الباحثين للموقع، وحلت بولين دونسيل محل أحد الباحثين الذين لم تسعفهم ظروفهم للحضور، فتحدثت في بحثها المعنون «مركزان هامان للحج يقعان في السويداء وقنوات من منطقة جنوب سوريا» عن البازليكة الخاصة بالسويداء وعن الأعمال الترميمية التي تمت في هذه البازليكة ابان الحكم البيزنطي في مجال الزخرفة والواجهة الرئيسية والبوابات وصفوف الأعمدة وغيرها، أما عن كنيسة سيراجليلو في قنوات فذكرت استعمال البناء الوثني في العهد البيزنطي والإضافات التي أضيفت إليه، وتساءلت في نهاية بحثها ما الذي جذب الحجاج الى هذين المركزين؟ فتجيب أن السبب ربما يعود الى وجود كنيسة للشهداء في السويداء تضم الذخائر المقدسة ضريح للشهداء في قنوات.

وفي يوم الخميس الواقع في ١١/١١/١٩٩٠ وهو اليوم الذي تلا انتهاء أعمال الندوة بالسويداء نظمت اللجنة التحضيرية للندوة ومحافظة السويداء رحلة علمية للباحثين زاروا فيها بصرى واطلعوا هناك على المدرج الروماني وترميمات حمام منجك وجرى افتتاح معرض للصور نظمه معهد الآثار الألماني لأهم الأوابد الإسلامية بالمدينة والأعمال الصيانية التي تمت فيها، هذا الى جانب زيارات أخرى في المدينة، ثم انتقل المشاركون الى قلعة صلخد وقنوات

التقرير الثاني

وفي تقريرنا هذا سنحاول ضمن المعلومات المتوافرة لقاء الضوء على التطورات العسكرية في الكيان الصهيوني خلال الربع الاخير من عام ١٩٩٠.

أولاً: موقف الكيان الصهيوني من أزمة الخليج:

فاجأ احتلال الكويت اسرائيل مثلما فاجأ الولايات المتحدة والدول الغربية، التي توقعت استخباراتها، كما يبدو عملية محدودة على الاكثر^(١).

ولقد أدركت الولايات المتحدة، منذ البداية، أن أي مسعى لمحاصرة العراق اقتصادياً وضربه عسكرياً، إذا لزم الامر، وأن أية مشاركة أو أي تدخل اسرائيلي بارد في المواجهة مع العراق، قد يشوش على ادارة الولايات المتحدة للالزمة سياسياً وعسكرياً. ومن هنا طلبها من اسرائيل بحزم أن تبقى في الظل، وأن تضبط ردات فعلها وتترك أمر المواجهة مع العراق لها ولحلفائها. واستجابة لهذا الطلب، قال وزير الدفاع الاسرائيلي موشيه آرنس في تصريح له «ان الأميركيين يحاولون خلق جبهة عريضة تشتمل على دول عربية مثل مصر، ويحشدون قواتهم في دولة عربية أخرى - العربية السعودية - وفي هذه الاوضاع، من المفهوم انه ليس لهم مصلحة في اشراك اسرائيل في هذا الجهد، ولذلك فإن

التطورات العسكرية في الكيان الصهيوني

الربع الرابع ١٩٩٠

ع.١ •

ان كل من يتأمل أحداث الربع الاخير من عام ١٩٩٠ التي جرت عقب التدخل العراقي في الكويت في اوائل شهر آب من نفس العام، يصعب عليه التخلص من هاجس تفجر الحرب بين القوات العراقية من جهة وبين قوات التحالف بزعماء الولايات المتحدة من جهة أخرى. هذا الوضع كان قد تطلب من الكيان الصهيوني موقفاً بعيداً عن التورط في هذه الحرب. لقد خيم على الموقف الاسرائيلي الرسمي تجاه أزمة الخليج عامل مهم، وهو طلب الولايات المتحدة بحزم من اسرائيل أن تبقى في الظل، والتزام الهدوء، وأن تمتنع من أية خطوات أو تصريحات من شأنها أن تشوش على الاستراتيجية الاميركية العامة لمعالجة الازمة، أو تفسر بانها تدخل في المواجهة ضد العراق.

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

اسرائيل ليست شريكة فيه»^(١).

الاسرائيلي خلال الاسبوع الثالث من ايلول الماضي قائمة الطلبات التسليحية والمالية لاسرائيل التي اشتملت على مساعدات طوارئ عسكرية فورية لاسرائيل قيمتها مليار دولار، وزيادة المساعدات العسكرية الاعتيادية بنسبة ٤٠٪ تقريباً، أي ١,٨ مليار الى ٢,٥ مليار دولار سنوياً، وشطب ديون اسرائيل العسكرية للولايات المتحدة، والا هم من هذا كله، طلب مساعدة اميركية كثيفة لتطوير تكنولوجيا عسكرية معقدة في اسرائيل كي تحافظ على التفوق الجوي، على الدول العربية، على أساس ان الازمة في الخليج تشكل تهديداً مباشراً لامنّها، وتلقي عليها عبئاً مالياً ثقيلاً. ولقد ابدت الاوساط الاسرائيلية في العاصمة اميركية ارتياحها الى نتائج زيارة وزير الدفاع الاسرائيلي ل واشنطون. ومنذ بداية ازمة الخليج، والصهاينة يراهنون على الحل العسكري لهذه الازمة، والذي يتجاوز انهاء الضم العراقي للكويت، ويعني بالنسبة لهم، أساساً، تدمير القدرات العسكرية والاقتصادية للعراق، ومقاومة الوضع العربي، وزيادة خلط الاوراق واعادة ترتيب الاوضاع، واحداث تغيير جيواستراتيجي في المنطقة، بما يؤدي الى تحسين الوضع الاستراتيجي للكيان الصهيوني.

وخلاصة الموقف الاسرائيلي العسكري المعلن في ازمة الخليج، هو انه ينبغي على اسرائيل ان ترد فوراً، اذا تعرضت لهجوم بالطائرات، او اذا دخلت قوات عراقية الى الاردن، اما اذا اقتصر الامر على اطلاق الصواريخ، فان الرد يدرس على ضوء حجم الاضرار والخسائر التي تنجم عن

وقد حظيت استجابة الحكومة الاسرائيلية هذه للطلب الاميركي بتأييد واسع في الاوساط السياسية الاسرائيلية الموالية منها والمعارضة. وفي الاعتقاد ان اسرائيل لم تنجر الى الازمة، لان الولايات المتحدة، للأسباب التي ذكرت اعلاه، لم ترد ذلك. ولقد صدرت عن مسؤولين اسرائيليين كبار تصريحات لا يمكن تفسيرها الا بانها تنطوي على تهديدات للعراق. ولعل مغزى هذه التصريحات تفسره ما كانت صحيفة «عل همشمار» قد نشرته ومضمونه ان «جهات في القدس تعتقد ان أي تدخل في الازمة ينبغي أن ينبع فقط من الضرورات الامنية القصوى لاسرائيل، وان من واجبها في هذه الحالة القضاء على «البنية التحتية النووية العراقية» التي تمثل التهديد الاساسي لوجود اسرائيل بالذات»^(٢). ان المسألة التي تهم اسرائيل اكثر من اية مسألة أخرى، والتي هي في نهاية المطاف العامل الحاسم في معادلات الصراع العربي - الاسرائيلي، كلها، أي التسليح والميزان العسكري فيها وبين الدول العربية. وهذا ما دعى وزير المال الاسرائيلي يتسحاق موداعي في اجتماع للحكومة الاسرائيلية للقول: «ان الوضع الجغرافي قد تغير في المنطقة نتيجة غزو العراق للكويت، وأنه ينبغي للحكومة الاسرائيلية ان تطالب الولايات المتحدة بزيادة المساعدة العسكرية لاسرائيل وبسرعة»^(٣).

وقد تركز الاهتمام الاسرائيلي تركيزاً خاصاً منذ بداية الازمة على المطالبة بالمساعدات العسكرية، حيث قدم آرنس وزير الدفاع

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

الاسرائيلية عن شامير استعدادها لـ«التوسط بين موداعي وموشيه ارينز فيما يتعلق بالموازنة الاضافية التي طلبها وزارة الدفاع والتي تقدر بـ ١,٨ مليار دولار وهو مبلغ سبق لموشيه ارينز قال إن وزارته سوف تنفقه لتمويل استعدادات الجيش وجهاز الامن في ضوء أحداث الخليج^(١).

وتشمل خطة النفقات العسكرية الناجمة عن أزمة الخليج (شراء عتاد عسكري، ونشر القوات وتجنيذ قوات الاحتياط) اضافة الى معدات الاجهزة الامنية في السنوات القادمة. هذا مع الاخذ بعين الاعتبار أن وزارة الدفاع تحصل على مساعدات سنوية من الولايات المتحدة قدرها (٣,٢٥) مليار شيكل. وحذرت وزارة المالية من أن قبول طلبات «ارينز» سيتم على حساب المهاجرين اليهود البالغ عددهم (٢٨٨ - ٤٠٠) الف مهاجر في السنة اعتباراً من العام القادم.

هذا وقد صادقت الكنيست في جلسة عقدها يوم ١٦/١٢/١٩٩٠ على قانون الموازنة لعام ١٩٩١، والقوانين المرفقة معه. وقد بلغت ميزانية الدفاع ١,٧ مليار شيكل. هذا وتبلغ موازنة وزارة الاستيعاب (١,٢) مليار شيكل على فرض أنه سيتم استيعاب (٢٩٠) الف مهاجر استيعاباً مباشراً من أصله (٣٠٠) الف مهاجر^(٢).

ثالثاً: التسليح:

١ - قررت القيادة العسكرية الاسرائيلية شراء طائرات بدون طيار من طراز/ سرتشر - سوريك/

ذلك. فقد ذكر وزير الحرب الصهيوني السابق يتسحاق رابين امام لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست، أن «على اسرائيل» أن تستجيب للرغبة الاميركية، وأن تطلب من الولايات المتحدة العمل ما في وسعها في المرحلة الاولى للهجوم الاميركي، في حال وقوعه، للقضاء على قدرة العراق على اطلاق صواريخ أرض - أرض، وإذا نجحت الولايات المتحدة في هذه المهمة فليس هناك ما يدعو للتدخل في الحرب. اما اذا فشلت هذه المهمة، فيجب على اسرائيل ان تتخذ قرار الرد، وفقاً لحجم الاضرار التي قد تلحق بها^(٣).

كان الموقف الصهيوني العلني، هو ان اسرائيل تحتفظ لنفسها بحق الرد في الزمان والمكان، ولكنها في هذه المرحلة سوف تنتهج أسلوب «ضبط النفس» وتحتفظ لنفسها بمستوى منخفض، لان ذلك يخدم مصالحها. حيث يطالب الصهاينة بالحصول على ثمن اضافي مرتفع، لسياسة «ضبط النفس» على شكل مساعدات عسكرية واقتصادية من الولايات المتحدة والمجموعة الاوروبية.

ثانياً: الموازنة العسكرية:

● كان موضوع الموازنة العسكرية والتخفيضات التي تقترحها وزارة المالية موضوع بحث بين وزير المالية اسحق موداعي ورئيس الحكومة شامير في اجتماع عقده الاثنان على هامش اجتماع عادي للحكومة للحكومة عقد يوم ٢٥/١١/١٩٩٠. ونقلت الاذاعة

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

رابعاً: تعيينات عسكرية:

بناءً على توصية وزير الحرب الصهيوني موشيه ارينز وافقت الحكومة الاسرائيلية على تعيين اللواء/ اهود براك/ رئيساً للاركان خلفاً لـ/دان شومرون/ الذي تنتهي مدة توليه هذا المنصب في مطلع نيسان ١٩٩١.

ويبلغ براك ٤٨ سنة من العمر، انتسب الى الجيش في عام ١٩٥٩، في حرب ١٩٧٣ كان براك قائد كتيبة دبابات. وفي غزو اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ كان نائباً لقائد القوة الاسرائيلية التي هاجمت في القطاع الشرقي في البقاع اللبناني.

وباراك مجاز في الفيزياء والرياضيات ويحمل ماجستير في تحليل الاجهزة من جامعة ستانفورد في كاليفورنيا. ويوصف براك بأنه رئيس اركان التسعينيات.

وقد بدأت تعيينات جديدة في قيادة الجيش الاسرائيلي، مرافقة لتعيين رئيس الاركان الجديد. وهو الطاقم الذي اختاره رئيس الاركان المقبل للعمل معه في هيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي، وقد شملت هذه التعيينات كلاً من: اللواء عمرام متسناح رئيساً لشعبة التخطيط في رئاسة الاركان العامة. اللواء احتياط عمانويل سيفل قائداً لاسلحة الميدان (القوات البرية) - اللواء اوري ساغي رئيساً لشعبة الاستخبارات العسكرية - اللواء اسحاق مردخاي قائداً للمنطقة الوسطى.

هذا وقد، أعلنت مصادر عسكرية اسرائيلية، انه بسبب أزمة الخليج، وما رافقها من توتر في

المحلية الصنع، وسوف يزود الجيش الاسرائيلي بهذا النوع من الطائرات اعتباراً من مطلع عام ١٩٩١ بأعداد كبيرة. وهذه الطائرة مخصصة لاجمال المراقبة والرصد. والميزة الرئيسية لهذه الطائرات هي بقاؤها فترة ٢٤ ساعة فوق الهدف المراد، اضافة لسرعة طيرانها وقدرتها على التحليق على ارتفاع منخفض.

٢ - تم تسليم اسرائيل بطارتين من صواريخ باتريوت الامريكية الصنع، حيث تتوقع المصادر الاسرائيلية أن يكون هذا النوع من الصواريخ جاهزاً للاستعمال في مطلع عام ١٩٩١. واستعداداً لذلك توجه الى الولايات المتحدة وفد عسكري اسرائيلي قوامه ٦٠/ من عناصر سلاح الجو لاستيعاب هذا الطراز من الصواريخ التي توصف بأنها أفضل الصواريخ المضادة للطائرات في العالم، وقد تمت ملاءمتها لاعتراض صواريخ أرض - أرض اثناء انطلاقها باتجاه الهدف^(١).

٣ - دخلت دبابة «ميركافار - ٣» الاسرائيلية الصنع التي تصفها المصادر الاسرائيلية بأنها أحدث الدبابات المتطورة في العالم، الخدمة الفعلية يوم ٢٠/١١/١٩٩٠، باحتفال أقيم في هضبة الجولان المحتلة، حضره عدد من قادة الاسلحة والمناطق. وتشمل التحسينات التي أدخلت على هذه الدبابة: ثلاثة نواقل للحركة باتجاه الخلف، وقدرة كبيرة على المناورة، وامكان القيام بالاعمال المطلوبة بصورة ممتازة في الشروط الطبيعية الصعبة جداً، وقدرة على المناورة، اضافة الى أن احتمالات الانقاذ عالية جداً عند حدوث الاصابة^(٢).

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

غزة منذ يوم الرابع عشر من تشرين الثاني، للحد قدر المستطاع من مظاهر العنف ومن أجل الحؤول دون الاحتفال بالمناسبة^(١٧). هذا بالإضافة الى أن وزير الدفاع الاسرائيلي «ارنس» أعطى موافقته على انشاء (٩٠) نقطة تفتيش على طول كل المحاور الرئيسية في الضفة والقطاع تبلغ تكلفتها (٢٠٠) مليون شيكل. واحدى النقاط المركزية في سياسة ارنس هي انشاء هذه النقاط والتي ينوي انشاء المزيد منها في المناطق المحتلة في المستقبل^(١٨).

اضافة الى ذلك تم نشر وحدات من الجنود الموهين التي ستكون مهمتها اطلاق النار على راشقي الحجارة. وقالت صحيفة هآرتس أن احدى هذه الوحدات أصابت وجرحت شاباً من قرية تكوع بمنطقة بيت لحم شوهد يرمج الحجارة باتجاه سيارات المسافرين. وأوردت الصحيفة المذكورة خبراً يفيد بأن وزير الدفاع صرح يوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني أمام الكنيست بأنه يسمح باطلاق النار على راجمي الحجارة باتجاه سيارات المسافرين سواء من المدنيين أو من جنود جيش الاحتلال^(١٩). أما رد الفعل الاسرائيلي ضد ظواهر اطلاق النار على قوات جيش الاحتلال فقد تجلت بشن حملة اعتقالات ضد المواطنين الفلسطينيين. وتم القاء القبض على نشطاء اللجان الشعبية واللجان الضاربة في منظمات مختلفة.

وعلى صعيد آخر، فإن حالة التوتر التي تعيشها المناطق المحتلة قد امتدت الى هضبة الجولان نتيجة لتزايد الاعمال القمعية التي تقوم

المنطقة تقرر في الاركاب العاملة تأجيل تنفيذ التعيينات في المناصب الرئيسية الواردة ذكرها اعلاه وهذا التأجيل نابع من التقدير بأنه «ليس من المرغوب فيه، في هذه المرحلة، والحديث يدور بشكل خاص عن ضباط كبار في شعبة الاستخبارات «يتابعون بشكل جيد» أزمة الخليج»^(٢٠).

خامساً: سياسة القبضة الحديدية في الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧:

ثمة ظواهر يمكن اعتبارهما دلالات على التشدد الاسرائيلي في سياسة القبضة الحديدية عقب أحداث الحرم القدسي الشريف، حيث جرى اعتقال عدة شخصيات فلسطينية في المناطق المحتلة بتهمة مشاركتهم في عمليات القيادة الوطنية الموحدة وفي اصدار التوجيهات للنشطاء واللجان الضاربة لفرض سيطرتها في المناطق... من جهة أخرى جاءت عملية مقتل الصهيوني المتطرف «كاهانا» بعد أحداث الحرم القدسي الشريف، لتزيد الوضع توتراً، حيث قدرت جهات أمنية اسرائيلية أن مجموعات من اليهود المتطرفين والمزودين بالاسلحة النارية انتظمت للقيام بعمليات انتقامية من العرب في كل مرة يتعرض فيها اليهود للاذى على أيدي العرب^(٢١). وكانت الاجهزة الامنية الاسرائيلية قد توقعات توتراً شديداً خلال شهر تشرين الثاني بمناسبة ذكرى اعلان (م.ت.ف.)، وكاجراء وقائي فرض جيش الاحتلال الاسرائيلي حظر التجول وحصاراً في معظم مناطق الضفة الغربية وقطاع

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

- ٤ - صحيفة دافار ٨/٦/١٩٩٠.
- ٥ - الاذاعة الاسرائيلية ١٤/١/١٩٩١.
- ٦ - صحيفة هآرتس الاسرائيلية ٦/١١/١٩٩٠.
- ٧ - صحيفة هآرتس الاسرائيلية ٩/١١/١٩٩٠.
- ٨ - صحيفة هآرتس الاسرائيلية ٢٥/١٢/١٩٩٠.
- ٩ - صحيفة معارف الاسرائيلية ٢٢/١١/١٩٩٠.
- ١٠ - صحيفة معارف الاسرائيلية ٣١/١٠/١٩٩٠.
- ١١ - صحيفة هآرتس الاسرائيلية ٢٤/١٢/١٩٩٠.
- ١٢ - هآرتس ٧/١١/١٩٩٠.
- ١٣ - هآرتس ١٥/١١/١٩٩٠.
- ١٤ - هآرتس ٢٢/١١/١٩٩٠.
- ١٥ - هآرتس ٢٥/١١/١٩٩٠.
- ١٦ - معارف ١٤/١١/١٩٩٠.
- ١٧ - هآرتس ٢٥/١١/١٩٩٠.

بها سلطات الاحتلال الاسرائيلية اثر استشهاد المواطن السوري فايز سعيد محمود، حيث اشترك آلاف المواطنين من القرى العربية في الجولان في تشييع جنازة الشهيد الذي قتل من قبل جنود الاحتلال شمال هضبة الجولان.^(١٧)

الهوامش

- ١ - صحيفة دافار الاسرائيلية ٨/٦/١٩٩٠.
- ٢ - صحيفة يديعوت احرونوت ١٠/٨/١٩٩٠.
- ٣ - صحيفة عل همشمار ٦/٨/١٩٩٠.

التقرير الثالث

النقابية ، مهرجاناً خطابياً حضره عدد من المثقفين والكتاب الفلسطينيين والعرب ، وحشد من أبناء الشعبين الفلسطيني والسوري ، مساء الاربعاء الموافق لـ ٢/١/١٩٩١ في مجمع الخالصة بمخيم اليرموك ، التيبت خلاله مجموعة كلمات في هذه المناسبة وهي :

كلمة لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية ، القاها الباحث ، عبد القادر ياسين ، ركزاً في كلمته ، على إيلاء الفقيه الاهتمام الأول للابداع والديمقراطية . كما ظل يرفض - منذ ترك الاردن - الالتزام بالأطر ، في الابداع والسياسة والزواج عن حد سواء .

وعرض المتحدث لمحات تعرفه بالفقيه ، في القاهرة ، صيف ١٩٦٨ ، ثم ارتباطهما بالنشاط

مهرجان خطابي: في الذكرى السنوية الاولى لرحيل المناضل والكاتب الكبير غالب هلسا

● عبده الاسدي

في الذكرى السنوية الاولى لرحيل الكاتب والمناضل غالب هلسا ، اقام الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، لجنة العمل

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

واكد الكاتب ناجي علوش على الدور النضالي للمناضل الراحل فقال : « يا رفيق الدرب ، كنت مع الالتزام الفكري ، لانك كنت ترى علاقة الافكار بالطبقات والمصالح ، ولأنك ترى ان الاديب ، ليس معنياً بتفسير العالم ، بل بتغييره ايضاً » . وتابع يقول : « لقد ربطت التزامك الفكري بالسياسة ، والعمل السياسي ، ولذلك ، كنت تربط النظرية بالعلم والتحليل بالموقف ، ولم تكن تكتفي بالتزام ثقافي لا يعني بالنضال » . وفي نهاية كلمته ، اكد المتحدث على معاهدة المناضل غالب هلسا لتحرير كل الارض العربية ، من المحتلين والغزاة ، سواء كانوا العدو الصهيوني ، او القوات الاميركية ، ووجه تحية لجنة العمل النقابية ، وتحية مجلة الكاتب الفلسطيني ، اللتين اسهم فيهما الراحل في التأسيس .

كما والقى الاديب السوري خيرى الذهبي كلمة اصدقاء الاديب الراحل قال فيها : « لقد مضى غالب هلسا ، ولكن ما مضى كان الجسد ، وما بقي منه كان كبيراً ، كبيراً جداً ، .. غالب ترك لنا اهم ما فيه ، وأعظم ما فيه ، عذابات روحه وآلامها المنقوشة على الاسطر ، تركها ، فاذا به ما يزال بيننا وما عليك لتستدعيه وتتم الحوارات القديمة التي انقطعت فجأة ، الا ان تفتح دفتي واحد من كتبه ، فاذا به امامك حاضر فتكمل الحوار ، وتستتم النقاش .. وتستعيد المشاغب الذي كان لا يحب شيئاً حبه للشغب المفيد » .

ثم تحدث عن معاناة الاديب الراحل غالب هلسا فقال « لقد رمى حجارة فزج به في سجون

الفكري والسياسي في فرع الاتحاد العام للكاتب والصحفيين الفلسطينيين في مصر ، منذ عام ١٩٧٤ ، حتى تم ترحيل الفقييد ، خريف ١٩٧٦ ، ثم لحق به المتحدث ، بعد زهاء عام . كما والقى السيد عبد الهادي النشاش ، كلمة حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » اكد فيها على العطاء الذي قدمه المناضل غالب هلسا ، على صعيد الادب والفكر والالتزام الكفاحي . فقال « انه أثرى المكتبة العربية بما يزيد عن ثلاثة وعشرين مؤلفاً في الرواية والقصة ، والمسرح والنقد ، والترجمة والمقالة السياسية والفكرية » . واختمت كلمته قائلاً : « لقد مضى غالب ونحن أحوج ما نكون الى ابداع الثوري الملتزم ، فطوبى له ولرفاقه الذين سبقوه وتبعوه ، الذين مضوا كي تنتصر قضية الحرية والديمقراطية في كل ارجاء الوطن » .

كما والقى الكاتب ناجي علوش ، كلمة لجنة العمل النقابية لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين قال في مستهلها « لقد غاب رفيقنا غالب منذ عام .. قبل الاوان ، ونحن بحاجة الى صلابة موقفه ، في مواجهة الاعداء ، لأن القوى الرجعية والاستسلامية ، لا ترفع راية الاستسلام فقط ، بل تستنجد بالقوى المعادية دفاعاً عن عروشها ومصالحها » . واستطرد قائلاً : « لقد علمتنا كيف يكون المثقف مثقفاً . اذ كنت حريصاً على قراءة التراث وفهمه .. وكنت بذلك تؤكد اصالة ثقافة أمتك ، واعجابك بها ، ولكنك ايضاً كنت تؤكد الحاجة الى تفاعل الثقافات ، الى اغناء تجربة كل أمة ، عبر التفاعل والصراع » .

وثائق وتقاير - وثائق وتقاير - وثائق وتقاير - وثائق وتقاير

الكثيرين الذين تركهم باق ، مضى وفي احترام حتى الاعداء وما اكثرهم ايضاً باق .
وفي ختام المهرجان القى الشاعر محمد لاني ، قصيدة في هذه المناسبة ، بعنوان (رثاء مرحلة في رثاء شخص) .

شرقي المتوسط ، وربما كان العربي الاكثر زيارة لسجون شرق المتوسط فعمدها وعمدته وباركها ولعنته .
واختتم كلمته بانه « مضى ولكنه في القلب باق ، في عيون الادب باق ، وفي لهفة الاصدقاء

التقرير الرابع

استهل التابين الاستاذ حمزة برقواوي - نائب رئيس الاتحاد قائلاً: قليلون هم الذين اعطوا قضيتهم الكثير بصمت دون ان يستعملوا ميزان الربح او الخسارة، وكان نبيل بدران من هؤلاء الذين قدموا الكثير دون مطمع ولا غاية.

ثم القى د. محمود موعد ممثلاً عن دائرة التربية والتعليم العالي في (م.ت.ف.) كلمته الآتية:

آيتها الاخوات... ايها الاخوة:

ليس غريباً ان يكون اجتماعنا ونبيل بدران حاضر معنا، بل ان يكون هو الداعي لاجتماعنا.. هو معنا وان كان غائباً.. نحن نلتقي في ظله، في ظل الانسان المكافح الكبير فيه، في ظل الانسان المناضل المتواضع فيه، في ظل الانسان الذي عمل طويلاً في الصمت، وترك بصمات الكبار في كل ما يفعل.. تركها قوية في النفوس والعقول..

نبيل بدران فارس آخر من فرسان الثقافة والتربية يترجل، يأوي الى الظل ليستريح. فارس

الاتحاد العام للكتاب

والصحفيين الفلسطينيين /

فرع سوريا

يحيي

أربعين الباحث التربوي

نبيل بدران

دقيقة صمت على روح الراحل، وأرواح الشهداء، وقف الحضور في ذكرى أربعين يوماً على رحيل الباحث التربوي نبيل بدران الذي اقامه الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين / فرع سوريا ولجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية يوم الثلاثاء الموافق ١٨/١/١٩٩١.

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

الاخرون، وبالتحرر منها يمكن أن نطلق طاقات الانسان العربي الفلسطيني المبدعة. لقد التف من حول نبيل فريق من كافة الاختصاصات، ليخرجوا مشروعه الى النور، ويحققوه كما حلم به. وتبنت دائرة التربية المشروع الطموح، وشاركت اليونسكو والمنظمة العربية وأجريت الدراسات والاحصاءات ووزعت المسؤوليات وهيئت الاطر المنفذة، وشرع بتأليف الكتب تمهيداً للبدء في العمل.

ولكن الغزو الصهيوني على لبنان في عام ١٩٨٢ عطل هذا المشروع كما عطل كثيراً من مشروعات الدائرة. وفوجئنا، فعلى الرغم من الظروف الصعبة التي نتجت عن الغزو والعدوان، وعلى الرغم من الاخطار المحدقة والمجازر والحصارات، فوجئنا بأن نبيل بدران لم يكف عن العمل، وعن التفكير بمواجهة الوضع الجديد.. لقد رأى أن هؤلاء الشباب والشابات الذين وجدوا أنفسهم في واقع جديد وتخلخل لديهم الوضع الاقتصادي في حاجة الى تأهيل او اعادة تأهيل ليتابعوا حياتهم ومستقبلهم. وسرعان ما افتتحت ورش عمل التأهيل جديدة في المخيمات بالتعاون مع منظمات عربية وفلسطينية ودولية.

وكان آخر ما حدثنا عنه نبيل بدران أن بناء ثانوية في بيروت تسد النقص الكبير في التعليم الثانوي.

أجل، أيها الاخوة، لم يتوقف نبيل بدران لحظة عن التفكير والكتابة والعمل، ولكنه من غير ضحيق عاش بكل دقايق عطائه يعمل في صمت وها هو ذا يغادرنا في صمت. عاش متواضعاً

من فرسان الكلمة الطيبة، الكلمة الفعل والعمل..
يلفه الصمت المحير واللغز الذي لا جواب له..

نبيل بدران اسم تعرفه مخيمات لبنان من شمالها الى جنوبها.. من البداوي والبارد الى الرشيديّة والبص تعرفه مخيمات صبرا وشاتيلا والمية وميه وعين الحلوة.. تعرفه صباياها وشبانها يحمل اليهم رسالة المعرفة والتزود بمفتاح لمستقبل قريب أو بعيد تعرفه رياض الاطفال والتجمعات التربوية تعرفه اروقة اليونسكو، وأوساط المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حين حمل بتواضعه وعلمه اسم فلسطين كلمة الى العالم.

لم ير نبيل بدران الاحلاماً لحقبة وفي جعبته مشروع طموح، أو ورقة لاجتماع عمل... لم يعرف الراحة سبيلاً.. كان دوماً على سفر أو يكاد حتى في مدينته ومخيمه.. كان مرناً سريع التكيف مع الواقع الجديد مهما فرض من صعوبات.. ومتغيرات ليست في الحسابان..

لم نعرف نبيل بدران في مركز التخطيط وهو يخط أفكاره الاولى عن التعليم وعن تحديث المجتمع الفلسطيني زملاء آخرون عاشوا معه تلك الفترة، ويستطيعون أكثر مني أن يتحدثوا عن أعماله وأفكاره في هذه المرحلة.

عرفناه زميلاً في دائرة التربية وهو يحمل مشروعه الكبير الطموح للحملة الشاملة لمحو الامية في المخيمات الفلسطينية بلبنان. لقد كان مشروع عمره الذي فكر فيه وعمل من أجله طويلاً. كان يرى أن الامية بكل جوانبها ومظاهرها هي العدو، وهي العائق وهي التخلف ولا بد من مواجهتها كما يواجه الاعداء



وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

حياة الراحل نبيل بدران قائلاً: نبيل بدران من مواليد حيفا ١٩٣٧.. أنهى دراسته الثانوية في دار الحكمة.. سافر الى المانيا عام ١٩٥٧ ليكمل دراسته.. ساهم في الحركة الطلابية الفلسطينية آنذاك.. درس في البدء الهندسة ليتركها بعد ذلك ويدرس علم الاجتماع.. عمل في مركز الابحاث ومركز التخطيط في لبنان.. اهتم بالفلكلور الفلسطيني (نشر بيليوغرافيا عن الفلكلور الفلسطيني) ساهم في البرامج التربوية في سوق الغرب.. كانت له اسهاماته في مجال رياض الاطفال، وكانت لها اسهامته في انشاء دار الفتى العربي.. اهتم بمجال التدريب المهني.. اهتم بالنشاط الشعبي والنوادي في المخيمات.. كان مناضلاً سياسياً يجد نفسه في مجال العمل الاجتماعي والتربوي فكان همه الدائم وماجسه (العمل الاجتماعي).

أما عن نبيل بدران التربوي فقد القي الدكتور عدنان أبو عمشة كلمته التالية:

تعرفت على المرحوم في السبعينات في مركز الابحاث وكما ذكر زملائنا كان نشيطاً فرحاً متفائلاً في بحثه ثم التقينا في مركز التخطيط وعرض مجموعة انجازاته في مجال الطفولة وتعليم الاطفال ولاسيما الادوات التعليمية كان يهتم جداً أن يبتكر التقنيات التعليمية للاطفال دون السادسة ثم التقينا مرة في ١٩٧٦ قال: حيث كنت اعمل في الجهاز العربي لمحو الامية وتعليم الكبار جاء دون علم بوجودي في هذا الجهاز يستنجد في الجهاز عله يجد بعض الدراسات أو الوثائق ما تعينه على عمل ما في

بعيداً عن الاضواء، منح من نفسه وذوب قلبه كالشجرة والنهر والارض التي تعطي ولا تطلب العطاء ومات واقفاً كما تموت الاشجار واقفة. ويبقى الموت جديداً علينا على الرغم من قدمه. حين يتخطف من حولنا من نحب، ومن في حاجة اليهم، ولاسيما هؤلاء الذين يعملون في صمت، فجأة نفاجأ. نكتشف الحجم الكبير الذي كان لهؤلاء الراحلين، نكتشف الفراغ الذي خلفوه، وصعوبة سد ما كانوا في حياتهم يسدون بعملهم الصامت أو بصمتهم الفعال. أجل كان نبيل بدران من هؤلاء.. عظيماً كبيراً رغم تواضعه فعلاً وفاعلاً رغم صمته. لقد كان رحيله خسارة لشعبنا الصامد، خسارة لداثرتنا، خسارة لاهله ولاصدقائه، خسارة لكل من عرفه من قريب أو بعيد.

لاهله.. لاصدقائه.. لزملائه، لمحبيه جليل العزاء.. وجميل الصبر والسلوان. وله حسن الثواب والصحة والغفران.

أما عن نبيل بدران الانسان فقد تحدث الاستاذ جابر سليمان قائلاً: لقد استحق ما قيل عنه بأنه كان مناضلاً بين المثقفين، ومتقفاً بين المناضلين، لم يجد نبيل قيد أنملة عن دور العمل التربوي والاجتماعي، وعلاقته الوثيقة بالاهداف الوطنية، ولذا لم تستغرقه الشعارات السهلة، ولم يجذبه الخطاب السياسي المباشر والمجرد والمعزول عن الواقع المعاش، كان همه دائماً عقلنة الشعار السياسي واستنبات جذور له في الواقع الاجتماعي وراى الاستاذ جابر أنه كان لزاماً عليه ان يقول ما يقول لما يشككه الراحل من اهمية لنا وقدم بعدها بيليوغرافيا عن

تمكن في ١٩٨٥ أن يأخذ مركزاً جديداً في ظروف صعبة وبعد أن هيا المركز كان همه كبير همه الانسان الفلسطيني، نبيل لم يطفو على السطح فضل أن يبقى بين الغلاية الفلسطينيين، لم ينظر أبداً الى مكسب شخصي كان بإمكانه أن يفعل شيئاً لنفسه ولكنه لم ينظر لذلك كان مناضلاً حقيقياً هذا ما عرفته عن نبيل وما أردت القائه في هذه الندوة».

ثم القى الدكتور عدنان عبد الرحيم..

الكلمة التالية:

لا أعرف اذا كان هذا الوقت مناسب لتقديم ما قام به الزميل نبيل بدران من دراسات وممارسات وأنشطة في حياته ولا أريد أن أدخل في هذه المناسبة الحزينة بتفاصيل أعماله ودراساته وكتبه ولكنني أنا وزملائي كوفياء منا نريد أن نذكر ما تعلمناه منه في فترة سادت فيها اللابل السياسية والشعارات، علمنا أن التربية أيضاً هي فعل سياسي، علمنا أن التربية مهمة بقدر أهمية العمل العسكري والسياسي والدبلوماسي.

لقد علمنا بتواضع وبسلوك وبدون مبالغة بأن التربية مهمة في العمل الوطني الفلسطيني بقدر أهمية أشكال العمل والنضال الأخرى. ولم يكف نبيل أن يصيح في وجه القيادات الفلسطينية السياسية بأنه يحق للفلسطينيين أن يعلموا أبناءهم شأنهم شأن باقي شعوب العالم تعلمنا منه ذلك بتواضع، وعلمنا نبيل أن الخطاب السياسي لا يغني عن الفعل الوطني داخل المخيمات ولا يغني عن العمل بين

مجال محو الامية وتعليم الكبار بين الفلسطينيين في لبنان كان فرحاً فرح الاطفال عندما وجدني امامه في المركز وفرحاً اكثر عندما واجدني اعمل في المجال نفسه في مجال محو الامية ثم التقينا معاً في المشروع الكبير الذي تحدث عنه الاخ جابر حملة شاملة لمحو الامية بين الفلسطينيين في لبنان فعلاً هذا الانسان يؤمن بالتغيير لا أعرف مدى انتمائه السياسي جيداً ولكنني أجد فيه انساناً يؤمن ايماناً مطبقاً بالتغيير تغيير الحالة الاجتماعية التي يعيشها الفلسطينيون في المخيمات وفي عملنا المشترك في مجال محو الامية وتعليم الكبار لم نقتنع بما عرف بالبلاد العربية بالنمط التقليدي لمحو الامية لاسيما محو الامية الابجدية المتبعة في محو الامية كنا نطمح بايجاد النموذج الجديد حاولنا تسميته بالنموذج الفلسطيني الجديد على أساس أنه لدينا امكانات من المفكرين الفلسطينيين في هذا المجال ما يهيننا للاستفادة من تجاربنا في خلق هذا النموذج نموذج يجمع بين التعليم الشعبي للجامعة الشعبية كما هو معروف في يوغسلافيا ومركز لتعليم الكبار متعدد الوسائل طبعاً كان العمل له اسبقيات وكان لنبيل فضل كبير في هذه الاسبقيات وبلورة هذا المشروع الى ان دارت عجلة المشروع وأوقف بسبب العدوان على لبنان ولكن بقي اصراره على الاستمرار في تنفيذ جوانب هذا المشروع التقينا مرة أخرى في ١٩٨٥ أخذني الى مركز استأجره حديثاً لنشاطه في مجال العمل الاجتماعي والتدريب المهني والتعليم الوظيفي والتعرف على البيئة كل هذه الموضوعات تجول في خاطره كان فرحاً عندما



وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

الجماهير لا يغني عن العمل معها ومن خلالها...
تعلمنا كل هذا بكل تواضع من خلال مسيرة
طويلة سرنا بها معاً.

لقد قاوم المحاولات المتواضعة لاجل وضع
برامج أشار إليها زميلي ولكن بكل أسف لا حياة
لمن تنادى وظلت صيحة نبيل لحد الآن ونصيح
معه الى متى يظل أبنائنا يتعلمون في مدارس لا
يصرفون عليها ولا يديرونها علمنا نبيل أيضاً
أهمية التعليم غير النظامي وشعبنا دائماً كان
ومازال متعلقاً بالمدرسة ويعتبرها مدخلاً الى حل
كل المشاكل التعليمية مع أنني تعلمت بكل
تواضع اننا نستطيع أن نفعل شيئاً مؤثراً فعلاً
في التأثير على تنشئة أطفالنا قبل أن يدخلون في
المدرسة وعندما يدخلون المدرسة.

نبيل أول من صاح رغم اننا شعب متعلم
لدينا أكبر نسبة من الجامعيين وحملة الدكتوراه
الا أننا أيضاً لدينا عدداً هائلاً من الاميين
وكشف لنا الجوهر الاجتماعي لهؤلاء الاميين ولم
يصح فقط بل مارس وكنا دائماً نراه يجول في
الخيمات يدعم المؤسسات وينشيء الجمعيات
وهذا نموذج للعمل السياسي الوطني.

ليس هذا مجال لتقييم الدراسات يعبر عن
هذا الوفاء للصديق العزيز الذي فقدناه وبالتالي
لن ننسأه وسيظل ما علمنا اياه كتابةً ونشاطاً
وممارسة حبة في أذهاننا، أعبر باسمي وباسم
اللجنة الوطنية الفلسطينية لتعليم الكبار في
سورية على هذه الخسارة الفادحة ونعاهده بأننا
سنظل نصيح بأنه يحق لنا تعليم أطفالنا
بأنفسنا.

وأخيراً القى الاستاذ احمد يونس -
المكتب المركزي للاحصاء الفلسطيني - زميل
الراحل الكلمة الختامية للاسمية التابينية
قائلاً:

أيها الاخوة:

لقد عرفنا الشهيد باحثاً مرموقاً دؤوباً مهتماً
بكل ما يمت لقضية شعبه بصلة حتى أدق
التفاصيل مقدم أبحاثاً ودراسات قيمة أفادت
كل من استعان بها سواء على مستوى الدراسة
والبحث أو لاتخاذ قرار.

ونحن في المكتب المركزي للاحصاء
الفلسطيني استعنا بخبرته في الكثير من
الدراسات والمسوح الميدانية التي أجريناها في
لبنان وشاركنا عدة ندوات علمية كانت آخرها
الندوة العلمية حول تحليل بيانات المسح
الشامل لمخيمات لبنان التي عقدناها بدمشق في
حزيران ١٩٩٠ فأغنى الندوة بمدخلاته
وملاحظاته القيمة.

لقد عرفناه عالماً متواضعاً لا يبخل بعبء أو
جهد عندما يتعلق الامر بفلسطين وشعب
فلسطين ولا ينتظر جزاءً.

لم نطلب مساعدته مرة الا استجاب
وبحماس بالرغم من مشاغله الكثيرة وأوضاعه
الصحية السيئة وأذكر أننا التقينا به رحمه الله
في بيروت قبل وفاته بأسبوع وطلبنا مساعدته في
تصميم استمارة البحث الميداني الذي نزع
القيام به حول الطفل الفلسطيني في لبنان فأبدى
حماسه الشديد للمشروع ولكنه اعتذر في ذلك
الوقت لانه سيدخل المشفى بعد يومين لاجراء
عملية جراحية ووعد بمساعدتنا في المراحل

وثائق وتقاير - وثائق وتقاير - وثائق وتقاير - وثائق وتقاير

هذا هو نبيل بدران نسي آلامه وسأل عن موضوع يتعلق بفلسطين وطفل فلسطين. عزاؤنا به أنه ترك ما يخلده بالمكتبة الفلسطينية والعربية. رحم الله نبيل بدران والهمنا وياكم وذويه الصبر والسلوان. وشكراً

اللاحقة للمشروع بعد خروجه من المشفى. وأذكر أننا زرناه في المشفى بعد إجراء عملية بيومين للاطمئنان عن صحته وبالرغم من جراحه ووضعته الصحي بادرنا بالسؤال عن المشروع وموعد البدء به وعن التحضيرات له وإلى أين وصلنا.

التقرير الخامس

وخبر تكوين فرع لها في إحدى المدن، وعن انعقاد ملتقى اللغة الأمازيغية، وذلك كما نشرتها الصحافة الوطنية الجزائرية.

« التحرير »

بيان حول وضعية اللغة العربية

اجتمع المجلس التأسيسي للجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية في جلسة عادية يوم الخميس ١٧ رمضان ١٤١٠ هـ الموافق ١٢ أفريل ١٩٩٠ م لدراسة الوضع الذي آلت إليه اللغة العربية من جراء السياسة التي تسلكها السلطات الرسمية، والتصرفات العدائية والسفارة التي أصبحت تتعرض لها يومياً في بلدنا، وبعد دراسة الوضع دراسة مستفيضة والسماع لعدة تقارير اجمع المحاضرون على اصدار البيان التالي :

ان المتتبع للاحداث التي عرفها تطور استعمال اللغة العربية في بلدنا، منذ الخامس

الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

● الكاتب الفلسطيني

في الجزائر، هذا القطر العربي الذي كافح طويلاً من أجل الحفاظ على شخصيته العربية، تأسست جمعية باسم الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، وكونت لها فروعاً في مختلف مدن ومناطق الجمهورية الجزائرية.

والجدير بالذكر ان بعض القوى تحاول ان تخلق في الجزائر انتكاساً ثقافياً - حضارياً، وتذويب الشخصية الجزائرية المعروفة بعروبيتها منذ عشرات القرون، داخل اطار الثقافة الفرنكفونية. ننشر هنا بيان الجمعية الجزائرية.

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

لوموند بشأن اعتباره الفرنسية لغة وطنية ثانية، قدمت جمعيتنا احتجاجاً، وطلبت توضيحات في رسالة مفتوحة نشرتها الصحف الوطنية العربية، لم يولها المسؤولون حتى الآن أي اعتبار.

وعلى الرغم من الوعود التي اعطيت من الامين العام للجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني بتقديم التوضيحات اللازمة، فان الرأي العام لا يعرف الى حد الساعة الاسباب والظروف التي دعت الى هذا التصريح، ولم يعبا احد باحتجاج الناس ولا باستنكار المواطنين .. وما لبثنا ان فوجئنا جميعاً صبيحة يوم الخميس اول مارس ١٩٩٠ بتصرف مشين لأحد الموظفين بوزارة الشبيبة والرياضة، جاء نتيجة حتمية لتلك اللامبالاة، ودليلاً واضحاً على مواقف الازدراء التي اصبحت تتخذ ضد العربية.

ويمثل هذا التصرف في ابعاده استعمال العربية من بين اللغات المختارة للثبث الاذاعي والتلفزيوني اثناء الالعاب الرياضية للدورة ١٧ لكأس افريقيا لكرة القدم، معبراً عن موقفه بعبارات تفيد التهكم والاستهانة بالعربية امام ملا من الشخصيات الاجنبية والصحافة الدولية والوطنية.

وقد وجدنا انفسنا مضطرين الى الاحتجاج والتنديد مرة اخرى بهذه التصرفات اللامسؤولة، وبرفع دعوى عليه امام العدالة، وقد ساندنا في هذا الاحتجاج جمهور غفير من المواطنين ما تزال آلاف رسائله تتوافد علينا من جميع انحاء التراب الوطني، ستكون لنا فرصة

اكتوبر، وخاصة مظاهر الردة التي ميزت سياسة التعريب منذ قيام النظام الحالي، يدرك ان الابعاد المبيته التي اصبح من الواضح تتبعها من خلال ما سخر لها من وسائل وبرامج تشرف على تنفيذها اجهزة الاعلام الوطنية، كالتلفزة والقناة الثالثة والوكالة الوطنية للنشر والاشهار والصحافة المكتوبة بالفرنسية وغيرها .. لم يكن يخطر على البال تصورهما على هذا الحد من التآمر والاستفحال.

والمخطط لا يهدف الى الغاء استعمال العربية في المنظومة الهيراركية واحلال الفرنسية محلها كما كنا نظن من قبل، ولكن الى توسيع استعمال الفرنسية في الازواضع الشعبية، باعتبارها لغة تخاطب يومي وتعامل بين الناس، مما يضمن لها السيادة في المجتمع ويفتح امامها الطريق لتصبح اللغة الرسمية المعبرة عن سيادتنا الوطنية في المحافل الدولية وفي علاقتنا مع الخارج كما هو الحال في بعض البلدان الافريقية.

... وبذلك يتحقق مشروع قديم لم تتمكن فرنسا ذاتها من تنفيذه بقوة الحديد والناظر طيلة فترة الاحتلال: أي النيل من انتماء الشعب الجزائري الى الحضارة العربية الاسلامية، وازالة ما تبقى في ذاكرته من اصداء المقاومة الطويلة التي خاضها ضد المحتل، واقتلاع الثوابت الوطنية التي رسختها الثورة التحريرية بفضل نضالات مريرة وتضحيات جسيمة قدمها جيل كامل - جيل نوفمبر - للدفاع عن الشخصية الوطنية التي تجسد اللغة العربية حقيقتها المادية والمعنوية.

فبعد تصريح رئيس الحكومة الى جريدة

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

الوقت واضعه وحاميه .

ثالثاً : ان استعمال الفرنسية من بعض الصحافيين لم يكن له مبرر، سوى حرصهم على فرض ارادتهم لتعميم هذه اللغة، حيث ان الحديث كان يتناول موضوعات عادية، لا يتطلب التعبير عنها جهداً اكثر مما يبذله الجميع في المخاطبات اليومية، التي مهما قيل عن ضعف بعضهم فيها، فانه ليس باكثر من ضعفهم في الفرنسية، كما لاحظته الجميع في احد التدخلات . هذا في الوقت الذي برهنت فيه احدى الصحافيات بتدخلها بالعربية - مع كونها غير معربة - على ان القضية ليس قضية لغوية بقدر ما هي قضية سياسية وايدولوجية .

رابعاً : يتعين اذن ان يذكر السيد رئيس الجمهورية حامي الدستور جميع المواطنين، وفي مقدمتهم موظفو الدولة والصحافيون وممثلو الاحزاب بضرورة احترام المادة الثالثة من الدستور والسهر على تطبيقها ، امتثالاً لارادة الشعب وحفاظاً على مصداقية مواثيقنا وعهودنا .

خامساً : ان يلزم رئيس الحكومة بتقديم توضيحات عن تصريحه الى جريدة لوموند الفرنسية في اقرب وقت ممكن ليطمئن الناس على مستقبلهم اللغوي في هذه البلاد .

سادساً : ان ما اصبح يباح من شتم وتهكم واعتداء على اللغة العربية في وسائل الاعلام، وخاصة التلفزيون والقناة الثالثة، ينبغي ان يجعل حده ، والنظام الحالي الذي سمح به، هو وحده المسؤول عليه امام الرأي العام في الداخل والخارج وامام التاريخ .

للرجوع اليها في المستقبل .

وما ان خرجنا من هذه الصدمة حتى فوجيء المواطنين بما حدث في الندوة الصحفية التي عقدها السيد رئيس الجمهورية اثناء لقائه مع الصحافة الوطنية، حيث فهم الناس، ان سماحه لصحافيين جزائريين بمخاطبته لأول مرة بالفرنسية امام ملا من المشاهدين كان بمثابة الاعلان الرسمي عن التخلي عن مراسم الدولة المطبقة حتى الآن، والمتمثلة في استعمال اللغة العربية وحدها في المواقف المعبرة عن السيادة الوطنية، والتي التزم بها جميع الرؤساء الذين تعاقبوا على الحكم، منذ نشوء الدولة الجزائرية الحديثة في عهد الامير عبد القادر .

ومهما تكن التأويلات التي يمكن ان تعطى لهذا الموقف بخصوص التمييز بين وظيفة رئيس الدولة عند تحدته باسم حزب جبهة التحرير ووظيفته الممثلة للسيادة الوطنية، باعتباره رئيساً للجمهورية، فان الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، مع حرصها الشديد على ان تظل السلطة الاولى في البلاد محل احترام وتقدير من الجميع، حفاظاً على المبادئ الدستورية، وتحلياً بالآداب العربية الاسلامية - فانها ترى من الضروري ان تتقدم بالتوضيحات التالية :

اولاً : ان السماح لبعض الصحافيين باستعمال الفرنسية في تلك الحصة، يعد مخالفة للمادة الثالثة من الدستور التي تنص على ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد .

ثانياً : ان تحدث رئيس الجمهورية في تلك الحصة، باسم حزب جبهة التحرير الوطني، لا يعفيه من الامتثال الى الدستور، وهو في نفس

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

٤ - الدسائس التي ما فتئت تحوكمها العناصر الفرانكوفونية بنفس الوزارة ضد العربية، والتي تمثلت أخيراً في السعي الى غلق المدرسة العليا للاساتذة، المصدر الوحيد لتكوين المعربين في العلوم .

عاشراً : العمل على اصدار قانون صارم يعاقب كل التصرفات اللامسؤولة ضد العربية ويحميها من جميع المؤامرات .

« علمت الجمعية ان مشروع القانون الذي اعد لحماية اللغة العربية والمكون من ٤٢ مادة، قد لغته الحكومة تحت الضغوط المتزايدة لبعض الجهات، وستعمل على نشره وابداء الرأي فيه عما قريب » .

وفي الختام توجه الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية نداء الى كافة الاحزاب الوطنية لادراك خطورة الوضع الذي تعيشه اللغة العربية، والوقوف جميعاً للدفاع عنها بما لا يقبل الشبهة والالتباس، وتحثهم على العمل على التمييز في الوقت الراهن بين المطالب الحزبية الظرفية والقضية المصرية التي تهم الجميع : قضية اللغة العربية، وبهذا فقط نتمكن من جعل حد للمهزلة القائمة حالياً، والتي توشك ان تصبح حقيقة فادحة . ولكن المعيار الحاسم في اختيار المترشحين للانتخابات المقبلة الاخلاص التام للغة العربية، فلا يتصور اخلاص للاسلام ولا للوطنية دون اخلاص للغة العربية . وعلى جميع المواطنين التحلي بمزيد من اليقظة والتعبئة في الميدان، لاجباط كل المؤامرات، وتمكين اللغة العربية من استرجاع مكانتها الطبيعية، باعتبارها لغة للدين والعلم والعمل

سابعاً : ان حرية التعبير لم تعن ولا تعني ابدأ في أي بلد كان السماح لفئة قليلة من المستهترين الاستبداد بوسائل الاعلام والتصرف فيها بما تدفعهم اليه نزواتهم، او تمليه عليهم بعض المصالح الاجنبية، للاعتداء على اغلبية المواطنين، والتهكم بمقدساتهم، كما تفعله القنائة الثالثة بالفرنسية، وبعض الحصص التلفزيونية الموجهة ضد العرب .

ثامناً : بناء على ما نشرته جريدة الشعب، استناداً الى تقرير السفارة الفرنسية عن متابعتها لنشر الفرانكوفونية في الجزائر بواسطة اشخاص كشفت عن اسمائهم، فانه من الضروري ان تفتح السلطات الامنية والقضائية في البلاد تحقيقاً لمعرفة خلفيات القضية واثارها على سلامة ثقافتنا وأمن البلاد بصفة عامة .

تاسعاً : ايقاف كل الاجراءات المخالفة للمادة الثالثة، والغاء التي تمت حتى الآن، في انتظار الانتخابات المقبلة، بما فيها الانتخابات التشريعية، لكي يضمن للاغلبية الحق في التعبير عن موقفها في هذه القضية الحاسمة، ونعني بذلك على وجه الخصوص :

١ - قانون الاعلام المتناقض مع المادة الثالثة من الدستور،

٢ - كل الجرائد والمجلات الفرنسية التي جيء بها لفرض الامر الواقع بتغيير الخريطة الاعلامية القائمة منذ الاستقلال .

٣ - كل الاجراءات التي اتخذتها الوزارة المنتدبة للجامعات للحيلولة دون توسيع استعمال العربية في الفروع العلمية والتكنولوجية والطبية .

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

والسيادة في المجتمع ، ولا يتم ذلك الا بالتخلي عن روح الاتكال واللامبالاة ونبذ الصمت ورفض الامر الواقع ، فكل واحد منا ينبغي ان يحدد موقفه ويتحمل مسؤوليته كاملة تجاه العربية . فدور اعضاء جمية الدفاع عن اللغة العربية ان كان يتميز في الوقت الحاضر بالاشراف على عملية التنظيم وجمع الشمل وتوحيد الصفوف لانماء وعي لغوي عام وشعور بالمسؤولية، فانه في نهاية التحليل ليس باكثر او اقل من دور كل مواطن فيه يقدمه شخصياً للدفاع عن اللغة العربية . اللهم اشهد انني بلغت .

المجلس التاسيسي للجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

ملتقى اللغة الامازيغية يختتم أشغاله الامازيغية بالعربية واللاتينية !

● الجزائر (واج) - اختتم الملتقى الاول للغة الامازيغية اشغاله مساء امس بسيدي فرج بالمصادقة على ثلاث لوائح تدعو الى اعتبار اللغة الامازيغية لغة وطنية رسمية مع الدعوة الى توفير كل الامكانيات اللازمة لتجسيدها، وبالتالي السماح لكل المختصين بالعمل على تدعيم هذه اللغة وتطويرها تمهيداً لتعليمها في المدارس . وتنص هذه اللائحة في انتظار توحيد الانماط اللغوية على العمل اكثر لاعادة كتابتها بالحروف العربية واللاتينية، وعلى ضرورة تنسيق الجهود مع كل المختصين في هذه اللغة على المستوى

المغاربي والدولي، ومن اجل وضع قواميس لها . ثم لائحة التوزيع والانتاج، فهي تلح على تنمية هذه اللغة من حيث الانتاج، كتوفير الكتاب البيداغوجي والقواعد والمحاذة - مع نشر كتب ذات تخصص علمي وتكنولوجي، فضلاً على نشر المجلات المتخصصة والبحوث واعادة نشر وتوزيع الكتب العلمية الموجودة، وتشجيع الترجمة من اللغة، ووضع برامج تلفزيونية ذات طابع ثقافي وتربوي وتعليمي، وتوسيع بث القناة الثانية حتى تصل مختلف انحاء الوطن. كما تؤكد اللائحة على تدعيم الانتاج الثقافي بهذه اللغة كالمسرح والسينما وفنون الرسم والبحث والصناعات التقليدية زيادة على اعتماد الاعلام الآلي وانشاء مكنتات محلية وفيديو مكنتات .

كما دعت اللائحة الى ضرورة انشاء مجمع للغة الامازيغية. وقد شكلت لذلك لجنة تحضيرية في انتظار عقد الملتقى المقبل في غرداية .

وتنص لائحة التعليم والبحث في انتظار توحيد كتابة اللغة الامازيغية على مواصلة العمل باللغات المعمول بها حالياً، ووضع قاموس ابتدائي يساعد المتعلمين على استيعاب هذه اللغة، ووضع الفاظ جديدة لها بالاشتقاق من الكلمات الموجودة، وتنظيم حملات لمحو الامية يشترك فيها تنظيم دروس للمراسلة، والتركيز على النوعية قبل الكمية، وتكون المكونات خاصة اذا علمنا ان هناك دوائر للغة الامازيغية على مستوى بعض الجامعات، والتي يأمل الملتقى ان تعمم الى كل جامعات الوطن .

وتقتصر اللائحة ايضاً ادراج اللغة الامازيغية في الاقسام الاولى من التعليم

وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير - وثائق وتقارير

الابتدائي .

يضم عدداً من المثقفين والمهتمين بشؤون اللغة العربية غصت بهم دار الثقافة .

ويضم مكتب مجلس هذا الفرع من بين اعضائه نخبة من ذوي المستويات الثقافية العالية، منهم حاملو شهادات الماجستير ومهندسون وتقنيون سامون واساتذة من مختلف اطوار التعليم. وبقيت القاعة مفتوحة لكل راغب في الانضمام ومؤمن بالمقاصد النبيلة لهذه الجمعية .

وينظر ان يقوم هذا الفرع حسب ما جاء على لسان اعضاء مكتبها بنشاطات مكثفة على مستوى ولاية ورقلة لمعرفة مدى ما وصلت اليه عملية التعريب على مستواها، وتوجيه المسؤولين المحليين قدر المساهمة قدر المستطاع في تحقيق اهداف هذا الفرع الولائي الجديد .

وقبل حفل التنصيب القى الدكتور بن نعمان محاضرة تركزت حول وضع اللغة العربية قبل وبعد الاستقلال، حيث ميز المحاضر في هاتين المرحلتين بين احتلال الشخصية واحتلال الجنسية، اذ ذكر في هذا الصدد بان فرنسا احتلت الجنسية باستبدالها الفرنسية، ولكنها لم تستطع استبدال الشخصية بمفهومها الروحي والوجداني والعقلي الى شخصية فرنسية .

اما اليوم فإننا نعيش كما اضاف المحاضر محاولات عبر قنوات متعددة رغم استقلالنا بالجنسية ووجود العلم الوطني رمز السيادة قصد احتلال الشخصية، وافراغ هذه الاخيرة من مقوماتها التي هي في الحقيقة مقومات الامة وثوابتها، والتي اساسها اللغة العربية .

وقد ميز هذا الملتقى جو ثقافي بهيج تمثل في لقاء اشعار وعرض مسرحيات لفرقة تجبيليث . وتجدر الاشارة الى ان مسالة حظر وثائق امازيغية بمكتبة الكاردينالية منذ ١٩٧٢ قد طرحت في الملتقى، وطالب المؤتمر بضرورة رفع الحظر عليها، وهو ما ستؤكد في المشاركات . ومن جهة اخرى اعلم مندوب ام البواقي ان تسع قطع نقدية تعود لعهد ماسينيسا قد تم اكتشافها مؤخراً في منطقة الاوراس . وقد تميز هذا الملتقى الذي نظّمته الفيدرالية الوطنية للقاموس الامازيغي والحركة الثقافية البربرية بالجدية في الاعمال والعروض ذات المستوى العالي ، كان الجو يشوبه الحماس الفياض وتتخلله الاناشيد التي تروي الكفاح الطويل للامازيغيين من اجل اعادة الاعتبار لهذه اللغة التي عاشت تعميماً منذ عدة قرون .

الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

تنصيب فرع ولاية ورقلة

● ورقلة : خليفة قعيد

اشرف مساء اول امس الدكتور احمد بن نعمان والسيد شريف جودي العضوان بالمكتب الوطني للدفاع عن اللغة لعربية على تنصيب فرع الجمعية بولاية ورقلة .

وقد جرى حفل التنصيب وسط جمهور هام

تاریخ و جغرافیہ کے بارے میں اس کتاب میں
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور

تاریخ و جغرافیہ کے بارے میں اس کتاب میں
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور

تاریخ و جغرافیہ کے بارے میں اس کتاب میں
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور

تاریخ و جغرافیہ کے بارے میں اس کتاب میں
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور
میں نے کوشش کی ہے کہ اسے سہولت سے سمجھا
جاسکے۔ اس میں اس دور کی حالت اور



• سعر الحد

● لبنان ١٠٠٠ ل. س. ● سوريا ٢٥ ل. س. ● الأردن دينار واحد ● العراق دينار واحد ● الامارات العربية ١٥ درهماً ● البحرين
دينار واحد ● قطر ١٥ ريالاً ● السعودية ١٥ ريالاً ● الجمهورية اليمنية ١١ ريالاً ● مصر جنيهان ● السودان ٢٠٠ جنيه
السوري ٢٠ شهماً ● ليبيا دينار واحد ● الجزائر ديناراً ● تونس دينار واحد ● المغرب ١٢ درهماً ● موريتانيا ١٥٠ اوقية
قديس ١٠٠ جنيه ● اليونان ٢٠٠ دراهماً ● لوكسمبورج ٢٥ فرنكاً ● ألمانيا ١٠ ماركات ● إيطاليا ٥٠٠٠٠ لير ● بريطانيا ٢٠٠ جنيه
سويسرا ١٠٠ فرنكاً ● هولندا ١٠٠ فلوران ● اسبانيا وسانتو الدول الأخرى ٦ دولارات.

مكتبة دمشق



